كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
College of Sharia and Islamic Studies
QATAR UNIVERSITY جامعة قطر

بصائر المعرفة القرآنية (١٧)

تسوير السور القرآنية (١٣)

مفصل تفسير

سورة البقرة

(الزهراء الأولى)

نبيل

موضوعها الكلي

إشراق الحضارة الإسلامية على العالم وتجربة الاستخلاف الإسرائيلية

الجزء الثاني

تفسير وبصائر الآيات (٢١-٢٩)

الإعلان الإلهي للبشرية عن النظام الحقيقي الوحيد للحياة الإنسانية الكريمة

وهو نظام العبادة الذي يؤدي إلى الفلاح وأرقى درجات السعادة، وبراهين ذلك

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
كلية الشريعة / جامعة قطر

مكتبة الأسرة العربية®
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

بسم الله الرحمن الرحيم

مفصل تفسير

سورة البقرة

الجزء الثاني

MUFASSAL

TEFSİR SURE EL-BAKARA

EL-MİHVER EL-EVVEL

PROF. ABDULSALAM ALMAJEEDY

1. Baskı: İstanbul

2024 - 1446

بصائر المعرفة القرآنية
«١٧»

تسوير السور القرآنية
«١٣»

مفصل تفسير

سورة البقرة

(الزهراء الأولى)

موضوعها الكلي

إشراق الحضارة الإسلامية على العالم وتجربة الاستخلاف الإسرائيلية

الجزء الثاني

تفسير وبصائر الآيات (٢١-٢٩)

الإعلان الإلهي للبشرية عن النظام الحقيقي الوحيد للحياة الإنسانية الكريمة
وهو نظام العبادة الذي يؤدي إلى الفلاح وأرقى درجات السعادة، وبراهين ذلك

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
كلية الشريعة / جامعة قطر

مكتبة الأسرة العربية
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

مفصل تفسير

سورة البقرة

الجزء الثاني

عبد السلام مقبل المجيدي

القياس: 17 X 24 سم | عدد الصفحات : 400 ص

ISBN: 978-625-8063-06-6

الطبعة الأولى ١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

التحكيم العلمي

أ. د/ سعيد أحمد السيد جمعة

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بمدينة السادات/ جامعة الأزهر

أ. د/ عبد الله علي الهتاري

كلية الشريعة / جامعة قطر

المراجعون

الشيخ/ العزي سليمان

د/ عامر الخميسي | د/ عبده الفقيه

د/ محمد القباطي | د/ حمود ردمان

د/ إبراهيم الصلوي | أ / أميرة ردمان

مكتبة الأسرة العربية

خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

طباعة ونشر وتوزيع

إصدارات مُختارة للأسرة العربية

www.arabfamilybs.com

+90 212 631 81 09 - +90 555 028 11 55

info@arabfamilybs.com

UFUK neşriyat.®

BASIN-YAYIN-DAĞITIM

Sertifika No: 65276

UFUK NEŞRİYATIN.® TÜRKİYE BASIM YAYIN MESLEK BİRLİĞİ ÜYESİDİR.

Baskı Cilt: Yılmaz Basımevi maltepe Mh. Litros Yolu 2.Matbaacılar Sıt, 2E1 İstanbul

تقديم فضيلة الأستاذ الدكتور/ عبد الله علي الهتاري

الحمد لله الذي خلق الإنسان وامتنَّ عليه بنعمة الإيمان، وأنزل عليه القرآن، منهج حياة، ومعجزة بيان، وجعله بصائر للأذهان؛ فقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

والصلاة والسلام على نبينا محمد المنزل عليه الكتاب المبين؛ والمرسل رحمة للعالمين، المُؤَيَّد بالحجة البالغة، والمعجزة الباهرة، وعلى آله وأصحابه الأكرمين، حملة الوحي العظيم، ومُبَلِّغِيهِ للعالم أجمعين، مَنْ وهبهم الله ﷻ البيان الفطري؛ فتلقوا به البيان الإلهي؛ فقادهم بألسنتهم وقلوبهم إلى محاريب الإيمان؛ فأصبحوا به جيلًا قرآنيًّا فريدًا عجيبًا لا نظير له في تاريخ البشرية، وحباهم العقول والأفهام، فتفتَّحت لهم من بديع معانيه الأكمام، وارتقت أرواحهم به في معارج السموِّ الإنسانيِّ الفريد؛ حتى الْتَفَتَ التاريخُ نحوهم فاغرًا فاه في دهشة وذهول، إذ لم يجد نظيرًا لهم في مدارج الكمال، وسموِّ الفكر ورجاحة العقول.

وذلك أنَّهم تلقَّوا الوحي الإلهي المبين، بقلوبهم قبل أسماعهم، من نبيِّ الرحمة المهداة المربي العظيم، صلوات ربي وسلامه عليه؛ فأصبحوا به مناراتِ هدايةٍ لمعالم الإنسانيَّة الحقَّة، ومنطلَقَ حضارةٍ إيمانيَّة، وحملةَ رسالةٍ ربانيَّة؛ وأثبتوا لعباقرة الفلاسفة، وأساطين التاريخ والحضارات؛ أنَّ الحضارة الإنسانيَّة بمفهومها الحقِّ؛ قد أدركها من عاش في صحراء مهبط الوحي، وافتقدها من يَقْبَعُ ناطحات السحاب!

أما بعد:

فقد كان من دواعي سروري، ومبلغ سعادتي أن أكتب مقدِّمة لهذا العمل الجليل والجهد الكبير، لتفسير البصائر المحور الأول منه في سورة البقرة من الآية (٢١– ٢٩)، لمؤلِّفه فضيلة

الأستاذ الدكتور عبد السلام مقبل المجيدي، عالم القراءات وشيخ التفسير، الذي تأنس مِنْ جانبه وهج المعرفة، يأتيك منها بخبر يقين، أو جذوة تنير الطريق للسالكين، وهو صاحب مؤسَّسة بصائر المعرفة القرآنية، ولي بهذا المشروع صلة رحم قديمة منذ بداياته، ومنطلق فكرة نشوئه، منذ عقد من الزمن أو يزيد، فعادت الذكريات جَذعة فتيَّة؛ بطلب الشيخ الحبيب؛ للنظر والتقديم.

وعندما أمعنت النظر، وأنعمت الفكر، في هذا السفر الجميل، في ثاقب نظراته، وبديع سماته، وروائع لفتاته، في مضمونه وبيانه، اقتبست جذوة من بصائره، ولسان حالي، مع انبلاج صبح حَادِيهِ؛ يقول:

يَا حَادِيَ الرَّكْبِ فِي شَــوقٍ عَلَى عَجَل ... قَدْ أَبْلَجَ الفَجْرُ وضَّــاحًا فَحَيَّاكَا

أَنِخْ بِبُسْــتَانِ هَـذَا الرَّوْضِ مُبْتَهِجًا ... وانـثُـرْ أَزاهِـيـرَهُ إِذْ قَـبَّـلَـتْ فَـاكَـا

وَمِـنْ بَصَــائِرِ أَنْـوَارٍ لَـهُ سَــطَـعَـتْ ... أَنِرْ دُرُوبَ الحَيَارَى طَابَ مَسْـعَـاكَـا

إذ وجدتُ فيه قوَّة العرض، وعمق المضمون للمادة العلمية، بتتبُّع وتحليل، وعرض لأوجه الاتصال والمناسبة، والهدايات القرآنية، ومناقشة الآراء التفسيرية لدى المفسرين، والنظر المقاصدي لبصائر القرآن، والترجيح بين الآراء، وثمة استنباطات بديعة، نحو ما ورد في حديثه المستفيض حول تحقيق مفهوم الإعجاز، وأوجهه المتنوعة، وتناوله البديع لمفهوم التسوير القرآني، وربطه بالإعجاز، إضافة إلى ذلك تحليلاته العميقة، وتقسيماته الدقيقة، عبر الخرائط الذهنية المتسلسلة، نحو ما ذكر في عرضه الماتع للأدلة والبراهين على استحقاق الله عزّ وجل للعبادة، وكذلك عنايته البالغة بالتعليل للتعبير القرآني؛ لإبراز دقَّة النَّظْم، وروعة الأسلوب وإحكام الإعجاز.

ومع ذلك، يطمح الجهد البشري بطبيعته إلى مزيد من التحقيق والتحسين؛ فيأرز الحكماء إلى تلمُّس المشورة في ذلك؛ فأسهمت ببعض الملاحظات اليسيرة هنالك، أهديتها لفضيلته؛ لعلها تزيد من بهاء المُحرَّر المكتوب، وتتيح لدقائق الأفكار، ونواهد المعاني الأبكار؛ مزيدًا من النّضارة والجمال.

وختامًا؛ بارك الله هذا الجهد المبذول، وكتب له عميم النفع والانتشار.

الأستاذ الدكتور

عبد الله علي الهتاري

كلية الشريعة- جامعة قطر

الخريطة الكلية التي تظهر المحاور العامة لسورة البقرة

إشراق الحضارة الإسلامية على العالم وتجربة الاستخلاف الإسرائيلية

المقدمة الأولى: القرآن الكتاب الذي لا ريب فيه لإصلاح العالم، فهو أساس إدارة نظام الحياة في الأرض (البقرة: ١-٢)

المقدمة الثانية: التَّقسيم العالميُّ للواقع البشريِّ بالنسبة للانتفاع بدستور الحياة الذي لا ريب فيه (القرآن) (البقرة: ٢-٢٠)

المحور الأول: الإعلان الإلهيُّ للبشريَّة عن النِّظام الحقيقيِّ الوحيد للحياة الإنسانيَّة، وهو نظام العبادة الذي يؤدِّي إلى الفلاح، وأرقى درجات السَّعادة، وبراهين ذلك [البقرة: 21-29].

المحور الثاني: القِصَّة الحقيقيَّة لبدء التَّاريخ البشريِّ، والتَّكريم الإلهيُّ للإنسانيَّة بالاستخلاف في الأرض [البقرة: 30-39].

المحور الثالث: (المحور الإسرائيليُّ) دعوة بني إسرائيل إلى الوفاء بالعهد، والإيمان بالنَّبيِّ الخاتم، والأنموذج الإسرائيلي بين النجاح والفشل في إقامة مبادئ الاستخلاف [البقرة: 40-123].

المحور الرابع: إرث الأمة الإسلاميَّة للمِلَّة الإبراهيميَّة [البقرة: 124-158].

المحور الخامس: أعظم الحقائق الكونيَّة التي يجب تبيينها للعالم، وامتنع أهل الكتاب عن تبيينها بالصُّورة المطلوبة: حقيقة التوحيد المقترنة بالرَّحمة، وموانع اعتناقها [البقرة: 159-171].

المحور السادس: التَّمكين التَّشريعيُّ للحضارة الإسلاميَّة الجديدة التي تشرق على العالم من المدينة (القِسْط الأوَّل): وذكر الله عز وجل فيه النُّظُم التَّشريعيَّة الفقهيَّة الحياتيَّة، وآثارها في صناعة حياة الرُّشد، والعدل، والإحسان [البقرة:172-207].

المحور السابع: الدُّخول في السِّلم كافَّة (الإسلام والسَّلام)، فهو شرط تحقُّق الرُّشد، والعدل، والإحسان في الحضارة الجديدة التي تشرق على العالم [البقرة:208-214].

المحور الثامن: التَّمكين التَّشريعيُّ للحضارة الإسلاميَّة الجديدة التي تشرق على العالم من المدينة (القِسْط الثَّاني): وذكر الله عز وجل فيه النُّظُم التَّشريعيَّة الفقهيَّة الحياتيَّة، وآثارها في صناعة حياة الرُّشد، والعدل، والإحسان [البقرة:215-242].

المحور التاسع: سُنَنُ الخروج من حالة الاستضعاف وصناعة التَّوازن والسَّلام العالميَّيْن (سُنَّة التَّدافع)؛ لتقوم الحضارة الإسلاميَّة الجديدة في المدينة، وتخرج من استضعاف القوى المجرمة، كما أقام داود عليه السلام حضارته [البقرة:243-254].

المحور العاشر: الحضارة الإسلاميَّة الجديدة تشرق على العالم بالتَّعريف بعظمة الله عز وجل، ومزايا دينه، ودلائل قدرته؛ لتتحقَّق الثِّقة به في الخروج من الاستضعاف، ولتكون الرِّسالة عالميَّة [البقرة:255-260].

المحور الحادي عشر: إشراق الحضارة الإسلاميَّة بالإدارة المتميِّزة للأموال إنفاقًا عادلًا لها في المجتمع، وتنظيمًا لاستثمارها وتنميتها [البقرة:261-283].

الخاتمة:

السُّورة تشرق بالحضارة الجديدة في العالم، فناسب أن تُختم بكنز من تحت العرش [البقرة:284-286].

عبد السلام مقبل المجيدي

موضوع سورة البقرة الكلي الذي دارت حول محاور السورة

إشراق الحضارة الإسلامية على العالم وتجربة الاستخلاف الإسرائيلية

المحور الأول

الإعلان الإلهي للبشرية عن النظام الحقيقي الوحيد للحياة الإنسانية الكريمة، وهو نظام العبادة الذي يؤدي إلى الفلاح وأرقى درجات السعادة، وبراهين ذلك

(البقرة21-29)

مُفصّل تفسير سُورة البقرة (٢)

عبد السلام مقبل المجيدي

المحور الأول:

الإعلان الإلهي للبشرية عن النظام الحقيقي الوحيد للحياة الإنسانية الكريمة، وهو نظام العبادة الموحِّدة لله، وبراهين ذلك {البقرة21-29]

الإعلان الأول:

الإعلان الإلهي العالمي للبشرية عن نظام الحياة في الأرض (البقرة21).

الإعلان الثاني:

البراهين، والمخاطبات الإقناعية على استحقاق الله تعالى مجدُه للعبادة (البقرة21-29).

وتنقسم هذه الأدلة والبراهين والمخاطبات إلى أربعة أقسام:

القسم الأول:

أدلة الحياة، وهي سبعة أدلة يعود معظمها إلى آيات الأنفس والآفاق المادية المشاهدة المحسوسة.

القسم الثاني:

المخاطبات العقلية الجدلية الكلامية المقنعة.

القسم الثالث:

المخاطبات العاطفية التي تثير عاطفة الإنسان رهباً ورغباً.

القسم الرابع:

أدلة القدرة والعظمة والإحاطة التي لا يمكن لأحد أن يدعيها.

المحور الأول

الإعلان الإلهيُّ للبشريَّة عن النِّظام الحقيقيِّ الوحيد للحياة الإنسانيَّة الكريمة، وهو نظام العبادة الذي يؤدِّي إلى الفلاح وأرقى درجات السَّعادة، وبراهين ذلك [البقرة: ٢١-٢٩]

الفكرة الإجماليَّة للمحور:

يخاطب الله ﷻ في هذا المحور العالم جميعًا، فيقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١]، وهنا ترى أنَّ القرآن الكريم يقدِّم إعلانًا إلهيًّا عامًّا يدعو فيه البشريَّة إلى أعظم نظامٍ يصلحها:

إنه نظام عبادة الله ﷻ وحده لا شريك له: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١].

نظام العبادة الموحِّدة لله يترقَّى بالإنسانيَّة إلى مرتبة التَّقوى، والتَّقوى: تعني اتِّقاء المخافات والسَّيِّئات؛ خوفًا من مقام المرء بين يدي الله ﷻ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، فنظام التَّقوى يؤدِّي إلى تكوين الإنسان الصالح، وتحصيل الفلاح في الدارين.

وزيادةً في التَّلطُّف الإلهيِّ بالإنسان، والعلم بالطَّبيعة البشريَّة يقيم الله ﷻ الأدلَّة على أنه يستحقُّ أن يكون هو الإله الحقَّ الذي تعبده الإنسانيَّة، وهو الذي يجب ألا يُعبد أحد سواه.

ويذكر الله ﷻ في هذا المحور أساليب مختلفة للإقناع بذلك بلغت ستة عشر برهانًا وأسلوبًا للإقناع، وتنوَّعت بين البراهين المادِّيَّة، والعقليَّة، والعاطفيَّة، وأدلَّة العظمة التي لا تكون لأحد إلا لله ﷻ.

وانقسم المحور إلى إعلانين:

الإعلان الأول: الإعلان الإلهيُّ العالميُّ للبشريَّة عن نظام الحياة في الأرض، وهو نظام العبادة [البقرة: ٢١].

الإعلان الثاني: البراهين، والمخاطبات الإقناعيَّة على استحقاق الله تعالى مَجدُهُ للعبادة [البقرة: ٢١-٢٩].

آيات هذا المحور:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾
ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ
رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟
وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ
رِّزْقًا قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا
خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ
كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ
مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾
كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾
هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢١-٢٩].

المناسبة والاتِّصال

كانت الآيات العشرون الأولى بمثابة المقدِّمة الكبيرة الجليلة لهذه السُّورَة المباركة، ذكر الله ﷻ فيها أهمِّيَّة الكتاب الذي لا ريب فيه في بناء الحياة البشريَّة، فالقرآن المجيد لا ريب في أنه منزل من الله ﷻ، ولا ريب في إدارته للنِّظام العالميِّ الإنسانيِّ على أحسن الوجوه، وبيَّن الله ﷻ بعد ذلك أقسام العالم بالنسبة للتَّفاعل مع القرآن، فقسَّم العالم إلى ثلاثة أصناف، وبيَّن حقيقة كلٍّ منهم وصفاتِه.

فإن سألتَ: ما أهمُّ قضايا الحياة التي تحتاج البشريَّة إلى معرفتها مما بيَّنه نور القرآن المجيد؟

الجواب: تجدها في هذا المحور الموضوع لبيان أعظم القضايا التي ينبغي للعالم أن يعرفها.

والاتصال بين الجمل والآيات ليس مقصورًا على العلاقات البلاغية أو البيانية المعتادة، مثل: المعاني التي تكتنزها الواو في عطفها، بل هناك أنواع جديدة في العلاقات بين الجمل والآيات، يحاول هذا التفسير كشفَها وإبرازَها.

الإعلان الأول:

الإعلان الإلهي العالمي للبشرية عن نظام الحياة في الأرض (البقرة21).

بصيرة 1
الإعلان العالمي يبصرنا بأن نتواصل مع العالم أجمع، حيث قال الله عز وجل: ﴿يأيُّها ٱلنَّاسُ﴾ (البقرة: 21).

بصيرة 2
يدخل الكفار والمنافقون في قوله تعالى: يأيُّها ٱلنَّاسُ﴾؛ ويمنحنا ذلك بصيرة التواصل الحكيم الحذر معهم لنخفِّف من شر المتطرفين، ويجذب المتابعين.

بصيرة 3
الدعوة إلى عبادة الله هي أول واجب ينبغي أن يقوم به المصلحون، والعبادة هي النظام الذي يذلل نفسك وينظم الحياة الإنسانية لتتوافق بسعادة مع نظام الكون الذي جعله الله في السموات والأرض، ويبصرنا بذلك قوله تعالى ذكره ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ (البقرة: 21).

بصيرة 4
قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ يبصرنا بأن التعريف بنظام العبادة الموحَّدة لله إجمالاً تعريف بالله جل مجده، وهذه هي البداية المنطقية في القرآن الذي يمثِّل كتاب المعرفة الإنسانية الحقيقية، فينبغي أن نبدأ بذلك في حوارنا مع الآخرين.

الإعلان الأول

الإعلان الإلهيُّ العالميُّ للبشريَّة عن نظام الحياة في الأرض، وهو نظام العبادة [البقرة: ٢١]

الآن استمع معي إلى مضمون هذا الإعلان المذهل الذي يأخذ الأنفاس.. إنَّه الإعلان الإلهيُّ الموجَّه للعالم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١].

بصيرة [١]: الإعلان العالميُّ يُبَصِّرنا بأن نتواصل مع العالم أجمع، حيث قال الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

كيف تعرَّفنا في الآية إلى أن الخطاب هنا عالميٌّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؟

الجواب: لأنَّ حرف النِّدَاء المستخدم فيه هو (يا)، وهذا الحرف هو أصل حروف النِّدَاء.

وقد تتساءل: ما الحكمة من مجيء النداء في كتاب الله ﷻ بـ﴿يا﴾ دون بقية أدوات النداء؟

الجواب: لأن النِّدَاء بـ﴿يا﴾ عامٌّ في القريب والبعيد، والغافل والذَّاكر[1]، فيصبح النِّدَاء تنبيهًا، وتعليمًا، وإعلامًا، وإعلانًا، فوجوده يُظْهِرُ أوجهًا من التَّأكيد، وأسبابًا من المبالغة؛ «لأنَّ كلَّ ما نادى الله ﷻ له عباده -من أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره، ووعده ووعيده،

---

(١) ذهب الزَّمخشريُّ ﵀ إلى أن (يا) حرف وُضع في أصله لنداء البعيد، صوت يهتف به الرجل بمن يناديه. وأما نداء القريب فله (أي) والهمزة، ثم استعمل في مناداة من سها وغفل وإن قرب تنزيلًا له منزلة من بَعُدَ، فإذا نودي به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذِن بأن الخطاب الذي يتلوه معنيٌّ به جدًّا. فإن قلت: فما بال الداعي يقول في جؤاره (أي رفع صوته بالدعاء): يا رب، ويا الله، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وأسمع به وأبصر؟ قلت: هو استقصار منه لنفسه، واستبعاد لها من مظانِّ الزلفى وما يقرِّبه إلى رضوان الله ومنازل المقرّبين، هضمًا لنفسه وإقرارًا عليها بالتفريط في جَنْب الله ﷻ، مع فرط التهالك على استجابة دعوته، والإذن لندائه وابتهاله. الكشاف (١/ ٨٩)، وردَّ الرضي في (شَرْحِ الْكَافِيَةِ٤/ ٤٢٥) على مذهب الزَّمخشريّ ﵀، فقَالَ: «إنَّ اسْتِعْمَالَ (يا) فِي الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ عَلَى السَّوَاءِ، وَدَعْوَى الْمَجَازِ فِي أَحَدِهِمَا، أَوِ التَّأْوِيلِ خِلَافُ الأَصْلِ»، وأقرَّه ابن عاشور ﵀ في التحرير والتنوير (١/ ٣٢٤).

واقتصاص أخبار الأمم الدَّارجة عليهم، وغير ذلك ممَّا أنطق به كتابه- أمور عظام، وخطوب جسام، ومعانٍ عليهم أن يتيقَّظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها... فاقتضت الحال أن ينادَوا بالآكد الأبلغ، كما يقول الزَّمخشريُّ رحمه الله(١).

ومما يضفيه حرف النداء: (يا) أن النداء كان جهرًا وإعلانًا وليس بصوت خفيٍّ، ولذلك جاء في نداء زكريا عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي...﴾ [مريم: ٣-٤]، وجاءت شكوى الرسول ﷺ من هجر القرآن مصحوبة بحرف النداء: يا ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] للدلالة على جؤاره بذلك، وإعلان شكواه بذلك إلى مولاه.. كإعلان النادبة الثَّكلى من هول هذه المصيبة (هجر القرآن)، بما يتضمنه الهجر من من معان.

ولذلك تستخدم يا مع (وا) في الندبة، والندبة لا تكون إلا برفع الصوت.

فمجيء يا في البلاغات الإلهية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ لأجل الجهر والإعلان.

وجاء: «يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ.. يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ»(٢).... حين دعا النبي ﷺ أهل مكة، وأسمع أهل مكة، وجهر لهم وصدع.

وكذلك لزيادة التنبيه جاءت﴿أَيُّهَا﴾ التي تَشْرَئِبُّ بعدها الأعناق إلى المنادي والداعي.

فالدعوة لا بد من الصدع بها بقوة، وقوة الصدع لها وسائلها في كل زمان ومكان، والصدع بها يحتاج إلى قوة مناسبة بحيث تصغي الأمم أسماعها بوعي، وتلتفت إليها وتنتبه لها.

فهذا حرف النِّدَاء، فأين المنادى؟ وما موقعه الإعرابي مع ما بعده؟

---

(١) الكشاف (١/ ٩٠).

(٢) البخاري (٢٧٥٢).

الجواب: المنادى كلمة ﴿أَيُّ﴾ مبني على الضمِّ في محل نصب، و﴿ٱلنَّاسُ﴾ بدل، وهُمُ المقصودون بالنِّدَاء، و﴿ها﴾ للتَّنبيه بعد ﴿أَيُّ﴾ وقبل كلمة ﴿ٱلنَّاسُ﴾ تعضِّد حرف النِّدَاء، وتؤكِّد معناه، وتجعل كلمة ﴿أَيُّ﴾ التي قبلها قابلة للاسم الذي بعدها، وهو ﴿ٱلنَّاسُ﴾[1].

فانتقلنا من ﴿يا﴾ إلى كلمة ﴿أَيُّهَا﴾، ووصلنا إلى كلمة ﴿ٱلنَّاسُ﴾، فما يكون معناها؟ ولماذا سُمِّي النَّاس بهذا الاسم؟

الجواب: سبق لنا في الآية الثَّامنة من هذه السُّورَة معنى كلمة ﴿ٱلنَّاس﴾[2]، فأصلها (أُناس) على فُعال، حُذفت الهمزة، فأصبحت (ناس)، وهي كلمة تشمل الذَّكر والأنثى، وتعبِّر هذه الكلمة عن صفات الإنسان:

فالأولى: النَّوس وهو الحركة، يقال: ناس يَنُوس أي: تحرَّك، فالإنسان يتحرَّك ليُغيِّر فيُعمِّر أو يُدمِّر حسب القرار الذي يتخذه.

وثاني صفاته: النِّسيان.

وثالثها: الأُنس؛ فالإنسان لا يستغني عن أنسه بجنسه؛ إمَّا بالعدل والإحسان، وإما بالجور والطُّغيان، لكنَّه لا يستطيع العيش بمفرده.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٢٥).

(٢) ينظر: مفصل سورة البقرة، الجزء الأول (ص: ٤٨٤، ٤٨٥).

بصيرة [٢]: يدخل الكفَّار والمنافقون في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ ويمنحنا ذلك بصيرة التَّواصل الحكيم الحَذِر معهم؛ لنخفِّف من شرِّ المتطرِّفين، ونجذب المتابعين.

عندما تسمع ﴿يا﴾، وكلمة ﴿ٱلنَّاسُ﴾ في قول ربِّنا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ تشعر بأنَّه **نداء عالميٌّ، وإعلان كونيٌّ يخاطب الله ﷻ فيه البشريَّة على قدم المساواة يتجاوز الزَّمان والمكان، فهو نداء لمن كان في عهد الرسول ﷺ، ومن يجيء بعده، وهو نداء لمن كان يسمعه ممن كان حاضرًا في مكانه، ومن هو بعيدٌ عنه في المكان ما دام النِّدَاء قد وصله**، ويصف هذا العموم السَّيِّد رشيد رضا رَحِمَهُ اللهُ فيقول: «هَذَا النِّدَاءُ الْإِلَهِيُّ الْمُشْعِرُ بِأَنَّ نِسْبَةَ النَّاسِ الْأَوَّلِينَ إِلَى اللهِ تَعَالَى كَنِسْبَةِ الْآخِرِينَ وَاحِدَةٌ»(١).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نداء إلهيٌّ عالميٌّ لجميع البشريَّة في الماضي والحاضر والمستقبل، يستوي فيه القريب والبعيد.

قد تقول: إذا كان النِّدَاء للناس جميعًا، فمن يدخل في هذا النِّدَاء من أبناء الإنسانيَّة؟ هل يدخل الكفَّار؟

الجواب: يدخل في هذا النِّدَاء جميع النَّاس ومنهم الأصناف الثَّلاثة السَّابق ذكرهم أوَّل هذه السُّورة: المتَّقون والكفَّار المتطرِّفون والمنافقون، ويشعر ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بهذا العموم فيقول: «قال الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] للفريقين جميعًا من الكفار

(١) تفسير المنار (١/ ١٥١).

والمنافقين، أي: وَحِّدوا ربَّكم الذي خلقكم والذين من قبلكم»(١)، ورأى الطَّبريُّ ﵀ أنَّ الله ﷻ خاطب الفريقين: الكفار والمنافقين في المقام الأوَّل بالإضافة إلى سائر المكلَّفين(٢).

وقد تتساءل: لماذا حدَّثنا الله ﷻ عن المتَّقين ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢]، **ثم حدَّثنا عن الكفَّار المتطرِّفين** ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [البقرة: ٦]، **ثم حدَّثنا عن المنافقين** ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [البقرة: ٨].

وبعد أن حدَّثنا عنهم حديثه عن الغائب كأنه التفت عن هذا الأسلوب، وترك الكلام عنهم كأنَّهم غائبون، وأقبل عليهم وعلى غيرهم، فخاطبهم أجمعين، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١]؟

وأجيبك: هذا التفات من الكلام عن تلك الأصناف إلى خطاب مباشر من الله ﷻ لهم ولجميع الإنسانيَّة، **وهذا الالتفات له فَوَائِدُ:**

الأولى: الإثارة: أي إثارة المخاطَب عساه أن تتحرَّكَ نَفْسُه، فيتغيَّر، ويقرِّر ترك مساوئه، فالالتفات فنٌّ من الكلام جَزْلٌ، فيه هزٌّ وتحريك للسَّامع، كما أنَّ الأستاذ إذا كان أمامه أربعة طلاب فأراد تنبيههم إلى ما يتعلَّق بدراستهم، بدأ يحدِّث الأوَّل عن الثَّلاثة الآخرين، وقال له والثَّلاثة يسمعون:

أمَّا فلان: فمتفوق في دراسته، وهو يصنع كذا وكذا في اجتهاده.

وأمَّا الثاني: فمضيِّع لحياته، وشأنه كذا، وكذا.

وأمَّا الثالث: فيهرول بين الاثنين، فمرَّة يفيق، ومرَّة يضيع.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٦٢).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٣٦١).

ثم أقبل الأستاذ بعد ذلك على الأربعة، فقال لهم: أعلن لكم جميعًا ما ينفعكم بدلًا من أن تضيعوا.

فعند إقبال الأستاذ على الثَّلاثة مع الرابع تتيقظ أدوات إدراكهم جميعًا ليجمعوا تركيزهم معه، وليفتح لهم بابًا واسعًا من الأمثال ليُقْلِعَ السَّيِّئُ عن سوئه، ويزداد المحسن إحسانًا.

فعندما خاطب الله ﷻ الأصناف الثَّلاثة زاد في تنبيههم، واستدعى إصغاءهم، وأبعد غفلتهم، وفتح آذانهم لمَا فيه صالحهم لو أقبلوا على ذلك بأذن واعية، كما أنه بذلك لم يجعل الكافرين والمنافقين يقطعون الأمل من أن يُقْبِل عليهم أرحم الراحمين.

قرَّر الزَّمخشريُّ رحمه الله هذا، ثم زاد الرَّازيُّ رحمه الله فائدة أخرى نذكرها، وننقل كلامه تاليًا:

الثَّانية: التَّقريب والحنوُّ والتَّلذُّذ بالخطاب: كَأَنَّهُ سبحانه وتعالى يَقُولُ: جَعَلْتُ الرَّسُـولَ وَاسِـطَةً بيني وبينك أَوَّلًا، ثمَّ الآن أزيد في إكرامك وتقريبك، فَأُخَاطِبُكَ من غير وَاسِطَةٍ، لِيَحْصُـلَ لك مع التَّنْبِيهِ عَلَى الْأَدِلَّةِ شَرَفُ المخاطبة والمكالمة، فيتلذَّذ بخطاب ربِّه –تعالى مَجدُهُ– [(١)].

وهنا قد تتساءل: ما الفائدة من أن يأمر الله ﷻ المتَّقين ضمن النَّاس بعبادته وهم يعبدونه؟

يبيِّن لك النُّورُ القرآنيُّ الجواب واضحًا، فالمتَّقون يحتاجون إلى هذا النِّدَاء؛ ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وليزدادوا هدًى وتقًى، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، وتقوى المتَّقين لا تعني الانقطاع عن العبادة ومعرفة الله ﷻ، وحين تتدبَّر القرآن تجد أن الأمر الجماعيَّ بالعبادة المقترن بالخطاب المباشر جاء في موضعين:

---

(١) الكشاف (١/ ٨٨)، تفسير الرازي (٢/ ٣١٩).

أحدهما: هنا، ولكنه اقترن بالخطاب للنَّاس جميعًا، **والثاني**: في سورة الحج، واقترن بالخطاب للمؤمنين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج ٧٧].

ولذا ردَّ المحققِّون على من زعم أنَّ كُلَّ نداء في القرآن يبدأ بـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فإنه مكِّيٌّ، والمبدوء بـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مدنيٌّ، وينقل الرَّازيُّ رحمه الله عن القاضي –الباقلاني تقريبًا– أن المؤمن قد يُخَاطَب في مكَّة، كما يُخَاطَب غير المؤمن في المدينة؛ لِأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُخَاطِبَ الله جل جلاله الْمُؤْمِنِينَ مَرَّةً بِصِفَتِهِمْ، وَمَرَّةً بِاسْمِ جِنْسِهِمْ، وَقَدْ يُؤْمَرُ مَنْ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ بِالْعِبَادَةِ، كَمَا يُؤْمَرُ الْمُؤْمِنُ بِالِاسْتِمْرَارِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَالِازْدِيَادِ مِنْهَا، فَالْخِطَابُ فِي الْجَمِيعِ مُمْكِنٌ(١).

وقد يُخَاطِب الله عز وجل في المدينة العالَم جميعًا: المؤمنين وغير المؤمنين؛ لأنَّ الرسالة القُرآنِيَّة عالميَّة، فيأمرهم الله سبحانه وتعالى بالعبادة حتى لو لم يكونوا مؤمنين، وهذه المسألة مقرَّرة في أصول الفقه.

ولكن ذلك قد يثير تساؤلك، فتقول: لماذا يدخل الكفَّار المتطرِّفون، والمنافقون في هذا النِّدَاء مع أنَّهم لا يؤمنون، كما وصفهم الله عز وجل في الآية السَّادسة؟

وأجيبك بأن: عناد الكفَّار المعتدين لا يعني أن نتركهم لأهوائهم، وتطرفهم لا يعني أن نغلق معهم قنوات الحوار والتَّواصل.. بل إنَّ تطرفهم يجعلنا نلحُّ على أن ندعوهم إلى السَّعادة الحقيقيَّة المتمثِّلة في نظام العبادة، فهي النِّظام الحقيقيُّ الذي تحتاجه البشريَّة لتُصلِح واقعَها ومستقبلها، ومن يدري؟! لعلَّ تطرُّفهم يخفي جوانب خير عندهم، فيُسْلِمون أو يسالمون كما حدث من كبار الصَّحابة مثل: حمزة، وعمر، وخالد بن الوليد رضي الله عنهم؛ إذ كان بعضهم من أشدِّ الناس عنادًا، ثم مَنَّ الله عز وجل عليهم، فصاروا هداة للعالمين.

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٢٠).

والقرآن يفتح قنوات التَّواصل والحوار مع المتطرِّفين المعاندين، ويكشف لهم الخبث النَّفسيَّ الذي يعيشونه عسى أن يحاولوا مجاهدة شرورهم.

ويبيِّن ابن عاشور رحمه الله هنا بصيرة دعويَّة ضخمة؛ إذ يرى أن الله عز وجل هَدَّدَ المنافقين وَلَامَهُمْ، وَذَمَّ صُنْعَهُمْ، ثم عاد يخاطبهم بخطاب عقلانيٍّ هادئ؛ ليكون الْإِقْبَال عَلَيْهِمْ بِالْخِطَابِ تَأْنِيسًا لِأَنْفُسِهِمْ، ولِيَعْلَمُوا أَنَّ الْإِغْلَاظَ عَلَيْهِمْ لَيْسَ إِلَّا حِرْصًا عَلَى صَلَاحِهِمْ، وَأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنْهُمْ[1].

هكذا شعرت بعظمة ألفاظ القرآن، وكمالها، ودقَّتِها، وسُمُوِّها، وسُموقها، «فَهَلْ يَصْلُحُ لِمُسْلِمٍ بَلَغَ وَرَشَدَ وَطَلَبَ الْعِلْمَ أَلَّا يَجْعَلَ الْقُرْآنَ إِمَامَهُ، وَيَتَّخِذَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ، وَيَهْتَدِي بِهِ فِي ظُلُمَاتِ الْبِدَعِ؟»[2].

لقد فهمنا البصائر التي أنارنا بها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، فما البصيرة التي ينير بها قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]؟

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٢٤).

(٢) تفسير المنار (١/ ١٥٣).

بصيرة [٣]: الدَّعوة إلى عبادة الله ﷻ وحده هي أول واجب ينبغي أن يقوم به المصلحون، والعبادة هي النِّظام الذي يذلِّل نفسك، وينظِّم الحياة الإنسانيَّة؛ لتتوافق بسعادة مع نظام الكون الذي جعله الله ﷻ في السَّموات والأرض، ويُبَصِّرنا بذلك قوله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١].

فالله ﷻ يحدِّد لنا مضمون النِّدَاء الذي ينبغي أن نخاطب به أنفسنا وبني الإنسان، وهو واضح لا لبس فيه:

أن ندعوهم إلى عبادة الله ﷻ، وقد أخبرنا الله ﷻ أن ذلك هو الذي بعث به الرسل ﷺ إلى أممهم: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ينفِّذ الرسل ﷺ هذا المبدأ دون تردُّد، أو قلق، أو خوف من ردِّ فعل مستهزئٍ، اسمع إلى كلِّ واحد منهم وهو يقول: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

والآن تعال نبحث عن الحكمة في اختيار هذه الكلمة ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾ للدِّلالة على أعظم الأنظمة التي يحتاجها الإنسان ليُصلح حياته، دون كلمة (أطيعوا)، أو غيرها،

وعند التأمل نجد أنَّها أعظم كلمة تظهر النِّظام الذي يحتاجه الإنسان، فهي تجمع التَّدريب، والتَّذليل، والتَّنظيم مع القوَّة.. ستقول: كيف ذلك؟

أجيبك: العبادة مشتقَّة من كلمة (عَبَدَ)، وهي كلمة تدلُّ عَلَى لِينٍ وَذُلٍّ، فالعبوديَّة، والتَّعبيد تذليل الشَّيء القويِّ ليصبح رقيقًا رِخوًا ناعمًا، ومنه أعْبَدُوا به: اجتمعوا عليه يضربونه[1]،

---

(١) المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٣٩١).

ويوصــف الْبَعِيرُ بأنه الْمُعَبَّدُ، أَي: الْمَهْنُوءُ بِالْقَطِرَانِ[١]؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يُذِلُّهُ وَيَخْفِضُ مِنْهُ، قال طَرَفَةُ:

إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا ... وَأُفْرِدتُّ إِفْرَادَ الْبَعِيرِ الْمُعَبَّدِ[٢]

وَالْمُعَبَّدُ: الذَّلُولُ، والطَّرِيقُ الْمُعَبَّدُ: الْمَسْلُوكُ الْمُذَلَّلُ.

وإذا كان لَيِّنًا ذليلًا في الطَّريق الصَّحيح للعبودية اكتسب القوَّة[٣].

ويرى الطَّبريُّ رحمه الله بناءً على ذلك أن العبادة: «الخضوعُ لله بالطَّاعة، والتذلُّل له بالاستكانة»[٤]، **فالخضوع هو المرتبة الأولى فيها.**

وتعال بنا إلى الرَّاغب رحمه الله ليزيدنا بصيرة في معناها؛ إذ جلَّى لنا **المرتبة الثَّانية**، فنقلنا من الخضوع إلى مرتبة أعلى هي: غاية التذلُّل، فقال: «العبوديَّة: إظهار التّذلُّل، والعِبَادَةُ أبلغُ منها؛ لأنها غاية التّذلُّل[٥]، ولا يستحقُّها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، ولهذا قال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

فإن تأمَّلت في كلمة عبادة بصورة أكبر، وبنيت على كلام أئمتنا في تعريفها، فعندها يمكنك أن تقول: العبادة نظام يدير حياة الإنسان، يجمع بين الإيمان بالله الإله الواحد الحقِّ، وابتغاء الخير للخلق، وكلَّما كان العبد لربِّه أذلَّ، كان في الحياة أسعد وأجلَّ.

---

(١) أي: المَطْلِي بالهِناء، وهو نوع من القَطِران (الزِّفت أو القِير)، يطلى به الإبل من الجَرَب حتى يذهب وَبَرُه. ينظر: تهذيب اللغة (٦/ ٢٢٨).

(٢) ديوان طرفة بن العبد (ص: ٢٥).

(٣) مقاييس اللغة (٤/ ٢٠٦).

(٤) تفسير الطبري (١/ ٣٦٢، ٣٦٣).

(٥) المفردات في غريب القرآن للراغب (ص: ٥٤٢).

والعِبَادَةُ نوعان: عِبَادَةٌ بالتَّسخير، وعِبَادَةٌ بالاختيار، وهي المأمور بها في نحو قوله ﷻ: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١].

هذه الدَّعوة العالميَّة للبشريَّة ليعبدوا الله ﷻ تتضمَّن المطالب الآتية:

الأوَّل: أن نؤمن به -تعالى مَجدُهُ-، فكيف يعبده من لا يؤمن به؟ فقد قرَّر علماؤنا أنه يدخل في هذا النِّدَاء مع الأصناف الثَّلاثة السَّابقين المشركون والكفَّار غير المتطرِّفين، والملحدون الدَّهريون الذي ينكرون وجود معبود يخضع الكون لنظامه، فالعبادة تعني الإيمان بالمعبود، فعندما أمرهم الله ﷻ بالعبادة فإن ذلك الأمر يعني في المقام الأوَّل الأمر بالإيمان بالمعبود.

الثَّاني: أن نتذلَّل بين يديه -تعالى شأنه- غاية التَّذلُّل؛ فنذلِّل أنفسنا لتكون وَفْقَ النِّظام الذي يشاؤه -تعالى ذِكْرُهُ-.

الثَّالث: أن يقترن بغاية الذلِّ غايةُ الحُبِّ؛ فإن المحبين يرون كمال المحبة أن يوصفوا بالعبيد لمن يحبونهم كما قال أحدهم:

يَا قَوْمِ قَلْبِي عِنْدَ زَهْرَاءِ ... يَعْرِفُهُ السَّامِعُ وَالرَّائِي
لَا تَدْعُنِي إِلَّا بِيَا عَبْدَهَا ... فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي[1]

الرابع: أن نجمع بين غاية الخوف منه، وغاية الرَّجاء فيه.

فالتَّعبير بالعبادة هنا تعبير يظهر منه الجمال والبيان؛ لتدريب الحياة الإنسانيَّة على أفضل سبل العيش بالتزام أوامر الله ﷻ ونواهيه.

فيختار الإنسان أن يكون عبدًا لربِّ العالمين، وهذا يعني أن يربِّي نفسه على تنظيم الحياة وَفْقَ ما يريده خالقه، لا وَفْقَ أهوائه ورغباته، وهنا يجد الضعيف القوَّة المستمدَّة من القويِّ

---

(١) البيتان غير منسوبين. ينظر: تفسير القرطبي (١/ ٢٣٢)، وفي الدر الفريد وبيت القصيد (١١/ ١٤٣) نسب البيت الثاني إلى أبي عبد الله المعري، وفيه: (فإنه أصدق أسمائي).

القدير، ويلقى الذَّليل العزَّة المستمدَّة من العزيز الرَّحيم، فالعبادة تقتضي تذليل النَّفس لمعبودها؛ كتعبيد الطَّريق، أي: تذليله ليكون سهلًا خاضعًا بسلاسة لمن يسير عليه، وكذلك العابد يكون ملتزمًا بالنِّظام الذي وضعه المعبود، فيذلِّل نفسه له، والذلُّ والخضوع أوَّل مقامات العبادة، ويصحبهما الحب والرَّجاء.

وقد تقول: لكننا نسمع بعض الناس يسمي هذا النِّظام (الخدمة)، فيقول: العبد يخدم مولاه، يعنون أن العبد يخدم الله ﷻ؟

الجواب: قل لي: هل يستويان؛ التَّعبير القرآنيُّ، والتَّعبير البشريُّ؟!

القرآن لم ترد فيه كلمة (خَدَم) ومشتقَّاتها، بل وردت فيه كلمة (عَبَد) ومشتقَّاتها، وفرقٌ كبير بين التَّعبير القرآنيِّ والتَّعبير الإنسانِّي هنا:

التَّعبير (بالخدمة) استخدمه بعض الأَجِلَّة الكبار، ولكنه لا يدلُّ على مراد الله ﷻ، بل فيه معنًى ضعيف؛ إذ يومئ هذا المصطلح إلى أن المخدوم محتاجٌ إلى الخدمة، أما مصطلح (العبادة) فيشير إلى أن العابد محتاجٌ إلى العبادة، ومن هنا قرَّر علماؤنا أنَّ الله ﷻ عندما دعا العالم إلى عبادته فإنما دعاهم إلى أعظم مصلحة يحقِّقونها لأنفسهم، وأكبر قدر من الحرية يجدونها، وقالوا: عندما دعاك ربُّك إلى عبادته إنما دعاك إلى نفع نفسك وجَنَّتِه(١).

ستقول: كيف ندعوهم إلى الله ﷻ، وهم لا يعرفونه؟ أفلا نعرِّفهم به أولًا؟

الجواب: الدَّعوة إلى عبادة الله ﷻ تعريف به، ولنَصُغْ ذلك في هذه البصيرة:

---

(١) وأورد الرازي رحمه الله هنا شبهًا في موضوع التَّكليف والمكلَّف، وما زلت أعجب من اشتغاله بها كما أعجب من إيراده شُبَهًا سُوفِسْطائيَّة لا معنى لها عند العقلاء ثم إجابته الخفيفة عنها، وما زلت أذود عنه رحمه الله لكنه حيرني هنا، ومن ردوده الغريبة أنه يصرُّ على جواز التَّكليف بما لا يطاق، وحسبك من عبث سماعه.

بصيرة [٤]: قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ يُبَصِّرنا بأن التَّعريف بنظام العبادة الموحِّدة لله ﷻ إجمالًا تعريف بالله -جلَّ مَجدُهُ-، وهذه هي البداية المنطقيَّة الحكيمة في القرآن الذي يمثِّل كتاب المعرفة الإنسانيَّة الحقيقيَّة، فينبغي أن نبدأ بذلك في حوارنا مع الآخرين.

الدعوة إلى عبادة الله ﷻ، والتَّعريف به قرينان، ففي سورة الفاتحة نجد التَّعريف بالله ﷻ في بداياتها ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ① ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ② ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ③ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ١-٤].

ثم رتَّب على ذلك الأمر بعبادة الله، فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٤].

وهنا أمرنا العالِم بعبادته أمرًا خالط التَّعريف به، فقال: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١].

عبادة الله ﷻ وحده تقتضي التَّعريف به:

يجب أن نلفت العالَم إلى أن عبادة الله ﷻ وحده هي النِّظام الوحيد الكفيل بحلِّ مشاكل العالم، ونُعَرِّفهم في الوقت ذاته بالله ﷻ.

وقد علَّم النبيُّ ﷺ معاذَ بن جبل رضي الله عنه هذه الحكمة البالغة لما بعثه إلى اليمن، فقال: «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ...»(١).

---

(١) البخاري (١٤٥٨).

ألا ترى تلك الحكمة العظيمة، والفهم الرَّاسخ الذي أوتيه النَّبيُّ ﷺ، حيث أمر معاذًا رضي الله عنه أن يدعو أهل اليمن إلى عبادة الله عز وجل، ثم قال له: «فإذا عَرَفُوا الله»، فالعبادة تتضمَّن التَّعريف بالله، والتَّعريف بالله عز وجل يُشْعِرِ العاقل بأنه يجب أن يعبد الله تعالى.

ولاحظ نظام السُّورَة، فقد بدأت بمدح المتَّقين في الآية الثَّانية: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، ثم ذكر الله عز وجل في هذه الآية أن العبادة تؤدي إلى التَّقوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة: ٢١].

فعند حوارك مع الملحد، أو مع الكافر، أو مع المسلم التَّائه الضَّالِّ، حدِّثْهُ عن العبادة وعظمتها، وأَخْبِرْهُ أن الله عز وجل هو الذي يستحقُّ أن يعبده الناس، وليس غيره، وأن العبادة هي التي تؤدِّي إلى التَّقوى.

فالتَّرتيب الحكيم يبين أن هذا المحور ينبغي أن يكون المحور الأول في السُّورَة.. لماذا؟

لأنه يخاطب العالم، ويخبرهم عن العبادة، والعبادة أهمُّ قضايا الوجود، وهي أهمُّ العلوم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، فمَصَالِح الْعَالَمِ لا تنتظم إلا بالإيمان بالله عز وجل.

ستقول: لماذا لا أُعَرِّف الإنسان الضَّالَّ أولًا بالله عز وجل، ثم أخبره بعد ذلك عن وجوب عبادته؟

أقول لك: لأنَّ هذا هو الأسلوب القرآنيُّ، ويمكن أن تصف الأسلوب هنا **بأسلوب الصَّدْم بالحقيقة الضَّروريَّة**. انظر إلى الأسلوب القرآنيِّ: خاطب النَّاس بأنَّهم يجب أن يعبدوه.. إنَّه يخاطب الملحد الذي يعبد نفسه، ويخاطب الكافر الوثنيَّ الذي يعبد الوثن، ويخاطب المشرك الذي يعبد مع الله عز وجل غيره، ويخاطب المؤمن الذي يعتقد أنه لا يَعْبُدُ الله إلا عندما يَعْبُدُ وليًّا، أو صالحًا يوصله إلى الله عز وجل، ويخاطب المؤمن الصَّالح أيضًا.. يخاطبهم لا معرِّفًا لنفسه -تعالى مَجدُهُ- بل يخاطبهم معرِّفًا لهم بواجبهم، وهو أن ينتبهوا وينزلوا عن مكان كبريائهم أو غفلتهم، ويعبدوا ربَّهم عز وجل: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، وبعدها يخبرهم لماذا

يعبدونه معرِّفًا نفسه، فيقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

فأخبرهم أنه ربُّهم الذي خلقهم، فهو الذي يستحقُّ أن يُعبَدَ، وأخبرهم أنه خلق الَّذين من قبلهم، فهو الذي يستحقُّ أن يُعبَدَ، وأخبرهم من جهة أخرى أن ذلك هو السَّبيل الوحيد لتحقيق مصلحتهم، فالعبادة تحقق التَّقوى التي تعني اتِّقاء المخافات في الحياة.

فعِلْمُ العبادة -كما يقرِّر الرَّازيُّ رَحِمَهُ اللهُ- علمٌ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ النَّسْخُ وَلَا التَّغْيِيرُ، وَلَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأُمَمِ وَالنَّوَاحِي، **ومما يخبرك بأهمِّيَّة هذا العلم:**

أولًا: جاء فِي الآيات التي تعرِّف بالله عَزَّ وَجَلَّ وعبادته فضائلُ لم تَرِدْ في غيرها، مثل فضائل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، و﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وآية الكرسيِّ.

ثانيًا: كانت دعوة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لقومهم تعريفًا بحقِّ الله عَزَّ وَجَلَّ في العبادة، وأسباب هذا الحقِّ، حتى حَكَى اللهُ تعالى عن الكفَّار قولهم لنوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: ٣٢]، وَمَعْلُومٌ أَنَّ تِلْكَ الْمُجَادَلَةَ مَا كَانَتْ فِي تَفَاصِيلِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، بَلْ كَانَتْ فِي التَّوْحِيدِ وَالنُّبوَّة، فَالْمُجَادَلَةُ فِي نُصْرَةِ الْحَقِّ فِي هَذَا الْعِلْمِ هِيَ حِرْفَةُ الْأَنْبِيَاءِ (١).

ثالثًا: ذكر الرَّازيُّ رَحِمَهُ اللهُ أنَّ شغلَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الأعظم كان في بيان هذا العلم، ولذا ابتلي النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بمناقشة جَمِيعِ فِرَقِ الكفَّار، وهي:

الفرقة الأولى: الدَّهْرِيَّةُ الَّذِينَ كَانُوا يَقُولُونَ: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

الفرقة الثَّانية: الملحدون الَّذِينَ يُنْكِرُونَ وجود الله عَزَّ وَجَلَّ الْقَادِرِ الفعَّال لما يريد.

الفرقة الثَّالثة: الكفَّار الوثنيون الذين يعبدون الأوثان دون الله عَزَّ وَجَلَّ.

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٢٤).

الفرقة الرَّابعة: الكفَّار المشركون الَّذِينَ أَثْبَتُوا شَرِيكًا مَعَ اللهِ تعَالَى، وَذَلِكَ الشَّرِيكُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ عُلْوِيًّا كالكواكب، أَوْ سُفْلِيًّا كالمسيح، أو الأوثان، أو الملوك وذوي النفوذ.

الفرقة الخامسة: الذين يؤمنون بالله عَزَّوَجَلَّ، لكنهم يطعنون فِي أَصْلِ النُّبُوَّة، وَهُمُ الَّذِينَ حَكَى اللهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

الفرقة السَّادسة: الَّذِينَ سَلَّمُوا أَصْلَ النُّبوَّة، وَطَعَنُوا فِي نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارى.

الفرقة السَّابعة: الَّذِينَ نَازَعُوا فِي اليوم الآخر والْحَشْرِ وَالنَّشْرِ.

الفرقة الثَّامنة: الَّذِينَ طَعَنُوا فِي وجوب العبادة، وزعموا أنه لا داعي لها؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مستغنٍ عنها، وما فكَّروا بأنَّها لهم، لا للغنيِّ الحميد[1].

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٢٦).

الإعلان الثاني:

البراهين، والمخاطبات الإقناعية على استحقاق الله تعالى مجدُه للعبادة {البقرة 21-29}

دليل (1): دليل التربية

ويبصرنا بهذا الدليل قوله تعالى ﴿رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: 21]

دليل (2): دليل الخلق

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: 21]

دليل (3): دليل خَلْق مَنْ كان قبلنا

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: 21]

دليل (4): دليل الإقناع بالنتيجة المثلى المتوقعة من العبادة

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21]

دليل (5): دليل المسكن

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة:22]

دليل (6): البناء العظيم المحيط بأهل الأرض

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: 22]

دليل (7): الأمن المائي المجاني

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [البقرة:22]

دليل (8): دليل الرزق والتغذية (الأمن الغذائي)

﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: 22]

دليل (9): ليل التحدي، وإثبات النبوة

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ...﴾ [البقرة: 23].

دليل (10): الإقناع بالترهيب من عاقبة السوء في المستقبل

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 24]

دليل (11): الإقناع بالترغيب بحسن العاقبة في المستقبل

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ...﴾ [البقرة: 25].

دليل (12): دليل صغار المخلوقات

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: 26]

دليل (13): دليل مراحل الوجود الإنساني

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 28].

دليل (14): دليل التسخير لما في لأرض

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29]

دليل (15): دليل الملك والحكم للمخلوقات العظيمة

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: 29].

دليل (16): دليل العلم الشامل

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 29]

الإعلان الثاني

البراهين، والمخاطبات الإقناعيَّة على استحقاق الله -تعالى مَجدُهُ- للعبادة

[البقرة: ٢١-٢٩]

المناسبة والاتِّصال

بعد أن سمع العالم هذا النِّدَاء الذي يدعوهم إلى عبادة الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، هنا قد يتساءل السَّامعون عن الأدلة على أن الله المعبود-جلَّ مَجدُهُ وعز شأنُه- يستحقُّ العبادة دون غيره، فما أكثر الطواغيت والأوثان العالمية التي دُعِي الناس إلى عبادتها، فيأتي الذين يعبدون سوى الله ﷻ، أو يعبدون مع الله ﷻ غيرَه فيتساءلون:

فيقول عابدو الشَّمس: ولماذا لا تكون العبادة للشَّمس؟

ويقول عابدو القمر: ولماذا لا تكون العبادة للقمر؟

ويقول عابدو الحجر: ولماذا لا يعبدون هُبَل واللَّات وراما؟

ويقول عابدو البشر: ولماذا لا يعبدون فلانًا وفلانًا؟

هنا تنتقل الآيات بك بصورة مباشرة فترى النَّظم القرآني الرَّائع يقنعك بأساليب قويَّة عقليَّة عاطفية آسرة جذَّابة بأنك لا يمكن لك إلا أن تعبد الله ﷻ، فالله هو الذي يجب أن تؤمن به، وأن تعبده، وأن توحِّدَه في هذه العبادة، ويخاطب الله ﷻ العالم بطرائق متعدِّدة ليعبدوه ولا يعبدوا غيره.

هذه الأدلَّة والأساليب مدهشة؛ لأنها تحاصر الإنسان في جميع الاتِّجاهات ليسلِّمَ في نهاية المطاف بالحقيقة التي لا يستطيع إنكارها، ولكنَّ الله ﷻ أعطاه الإرادة ليختار السَّبيل الذي يريده.

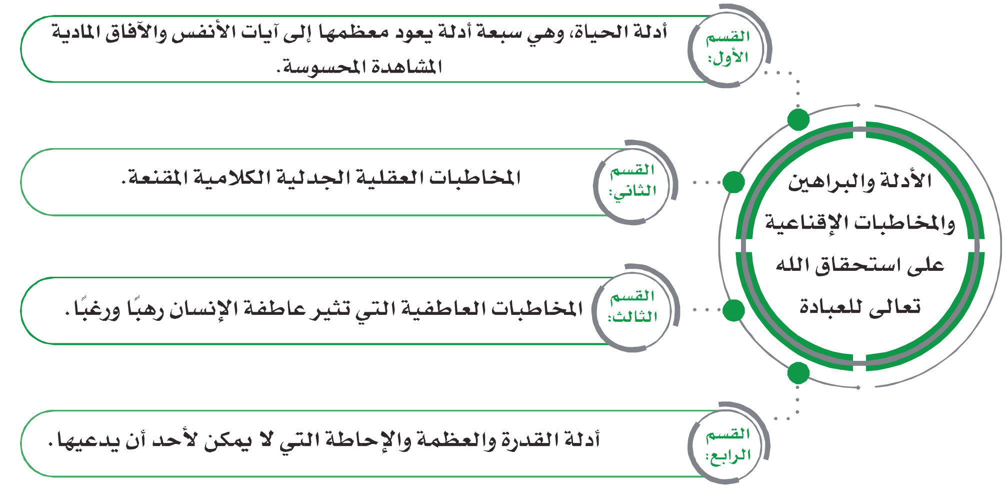

ستقول: فما هذه الأساليب المقنعة، قد اشتقنا إلى سماعها، ووعيها؟

أقول لك: أقام الله تعالى من الدَّلائل في القرآن على استحقاقه لأن يُعبَد شيئًا عظيمًا لا يمكن إحصاؤه، ولكنَّ الله ﷻ ذكر لنا هنا أمهاتِ البراهين التي تقنع غير المعاندين المتطرِّفين، وتنقسم هذه الأدلَّة، والوسائل، والأساليب إلى أربعة أقسام:

القِسم الأول: أدلَّة الحياة، وهي سبعة أدلة يعود معظمها إلى آيات الأنفس والآفاق المادِّيَّة المشاهدة المحسوسة.

القِسم الثاني: المخاطبات العقليَّة الجدلية الكلامية المقنعة.

القِسم الثالث: المخاطبات العاطفيَّة التي تثير عاطفة الإنسان رهبًا ورغبًا.

القِسم الرابع: أدلة القدرة والعظمة والإحاطة، التي لا يمكن لأحد غير الله ﷻ أن يدَّعيَها لنفسه ولا لغيره.

وهنا تسمع الله ﷻ يسوق لك أدلَّة استحقاقه العبادة بأوضح سبيل يمكن أن تدركه أفهام الإنسانيَّة، فالأدلَّة ووسائل الإقناع التي ساقها تتسم بالآتي:

١) **عموم الفَهْم لعموم الناس**: حيث يفهمها الجميع ويستوعبونها سواء أكانوا من العامَّة أم من الخاصَّة، وهذه الخاصِّيَّة يتكرَّر التأكيد عليها ضمن ذكر مزايا القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

٢) **التَّنوُّع**: فبعضها ماديَّة محسوسة مشاهدة، وبعضها عقليَّة منطقيَّة، وبعضها عاطفيَّة شعوريَّة، وبعضها تاريخيَّة، فانظر إلى سورة القمر لتجد الأدلة الكونيَّة الخارقة بجوار الأدلة التَّاريخيَّة والعاطفيَّة، ثم انظر إلى سورة الرَّحمن بعدها لترى الأدلة المادِّيَّة المحسوسة المشاهدة تمتزج بالأدلة العاطفيَّة التي تتَّسم بالصِّدق والمنطقيَّة، وهكذا.

ولذا تكرَّرت هذه الأدلَّة في القرآن الكريم بأساليب متعدِّدة، وتمَّ لفت النَّظر إلى أجزاء مختلفة فيها.

هذه الأقسام كلُّها موجودة في هذه الآيات، ويمكن تفصيلها في الآتي:

أدلّة الحياة السّبعة

أدلة الحياة السبعة

الدليل الأول: **دليل التربية، ويبصرنا بهذا الدليل قوله تعالى:** ﴿رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: 21].

الدليل الثاني: **دليل الخلق:** ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: 21].

الدليل الثالث: **دليل خَلْق مَنْ كان قبلنا إلى الإنسان الأول:** ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: 21].

الدليل الرابع: **دليل المسكن:** ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: 22].

الدليل الخامس: **البناء العظيم المحيط بأهل الأرض:** ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: 22].

الدليل السادس: **الأمن المائي المجاني، فالله الذي يكون الماء ويتحكم في إنزاله:** ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [البقرة: 22].

الدليل السابع: **دليل الرزق والتغذية (الأمن الغذائي):** ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: 22].

وهذه الأدلَّة ذكرها الله ﷻ في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

جمال الاتِّصال

ذكر الله ﷻ في الأدلة الأربعة السَّابِقَة آيات الأنفس: (تربية، خلقكم، خلق من قبلكم، لعلَّكم تتَّقون)، وانتقل هنا إلى ذكر آيات الآفاق: ففي دَلَائِلِ الْأَنْفُسِ رأينا أنها تقوم على مبدأ ضروريٍّ يعرفه كلُّ أحد إلا أن يكابر عقله، وهو: أَنَّ كُلَّ مخلوق له بداية، وقبلها لم يكن شيئًا مذكورًا، ثم صار شيئًا، وبما أنه وُجِدَ بَعْدَ أن كان عدمًا، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُوجِدٍ، وَذَلِكَ الْمُوجِدُ لَن يكون العدم، ولن يكون المخلوق نفسَه، وَلَا أبويه، ولا أحدًا من المخلوقات؛ لأنها مثله في العجز، فلا بدَّ أن يكون الخالق هو الأوَّل الذي ليس قبله شيء، وهو الله ﷻ الذي نعبده.

ويطرح الرَّازيُّ رحمه الله سؤالًا سبق به تحاذِق الملحدين المعاصرين حيث ذكر أنه لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ هاهنا: لِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُؤَثِّرُ طَبَائِعَ الْفُصُولِ وَالْأَفْلَاكِ وَالنُّجوم؟[(١)] أو ما يسمِّيه (هوكنج)[(٢)] وحزبه: الأكوان الموازية.

هنا جاء **الجواب** بأدلَّة الآفاق الأربعة الآتية: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، وهذه دَلَائِلُ الْآفَاقِ التي تدلُّ على أن لها خالقًا هو الله ﷻ، وليس كما حاول (هوكنج) وحزبه أن يجعلوها أدلَّة على نفي الخالق.

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٣٢).

(٢) ستيفن هوكنغ: ولد في أكسفورد، إنجلترا (٨ يناير ١٩٤٢ - ١٤ مارس ٢٠١٨)، من كبار علماء الفيزياء الإنجليز النظريين المتخصصين في علم الكون، وقد كان متأثرا بنظرية دارون في التطور. ينظر: https://www.alanba.com.

وإليك تفصيل هذه الأدلَّة السَّبعة وغيرها من الأدلَّة والبراهين التي تضمَّنها هذا الإعلان الثَّاني:

الدَّليل الأول: دليل التَّربية، ويُبَصِّرنا بهذا الدَّليل قوله تعالى: ﴿رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]:

ولكن كيف بصَّرنا الله ﷻ بأن هذه الكلمة ﴿رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] تنبئ باستحقاق الله ﷻ لأن يُعبد دون سواه؟

الجواب: كلمة: ﴿رَبَّكُمُ﴾ تأتي في العربية لثلاثة معانٍ:

الأول: الرَّبُّ هو السَّيِّد المطاع.

والثاني: المربِّي للشيء حالًا فحالًا من التَّربية.

والثالث: المالك له.

والله ﷻ هو الذي اتَّصف بهذه الصِّفَات الثَّلاث على أكمل الوجوه، فقد يكون الملك أو الحاكم سيدًا مطاعًا، ولكن طاعته محدودة، فهو لا يملك أن يقول للعين أو للأذن أو لليد أو للرجل: اصنعي كذا فتصنعه، والذي يملك ذلك هو الله ﷻ.

وقد يكون الأب مربِّيًا، ولكنه لا يملك أن يربِّي الحيوان المنويَّ عندما يلتقي بالبويضة، ثمَّ يصبح نطفة مشيجًا، ثمَّ علقة، ثمَّ مضغة... لا يقوم بالتَّربية الجَسديَّة في كلِّ هذه المراحل مثلًا إلا الله ﷻ، وقد يكون الرجل الثَّريُّ الملياردير مالكًا للأشياء لكنه لا يملك القلوب والنُّفوس.

السَّيِّد المطاع، والمربِّي، والمالك على الوجه الأكمل هو الذي يستحقُّ العبادة، وهذا لا يكون إلا في الله -تعالى مَجْدُهُ-.

هكذا تبصِّرنا هذه الكلمة ﴿رَبَّكُمُ﴾ بأن الله ﷻ هو الذي يستحق أن يُعبد دون سواه.

ولكنَّك قد تتساءل عن كلمة ﴿رَبَّكُمُ﴾: ألا يمكن أن يفهمها كلُّ واحد في العالم حسب ربِّه الذي يعبده، فكثير من المسيحيين المعاصرين يسمُّون المسيح ربًّا، وعُبَّاد الأصنام يسمُّون أصنامهم أربابًا؟ فكيف فهمنا من كلمة ﴿رَبَّكُمُ﴾ أن المقصود هو الله ﷻ لا سواه؟

الجواب: هذا أسلوب واضح في القرآن؛ فإذا ذكر الله ﷻ المشركين خاصَّة انصرفت كلمة ﴿رب﴾ إلى آلهتهم، كقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾ [يوسف: ٣٩].

وإذا كان الخطاب للجميع مسلمين وكافرين كان المقصود ربَّ السَّمَوات والأرض[(١)].

---

(١) الكشاف (١/ ٩٠).

الدَّليل الثَّاني: دليل الخلق ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]:

لمَّا قال الله ﷻ: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] كان ينبغي أن يتحرَّك السَّامع للتَّنفيذ، فيعبد الله ﷻ دون سواه، لكنك قد تُفاجأ بأن أحدهم قد يقول: صحيح سأعبد ربِّي، ثم يخبرك بأنَّ ربَّه هو أحد البشر، ويخبرك بأن العرب تسمِّي الـمَلِكَ مثلًا ربًّا، فمن المقصود في هذا الخطاب العالميُّ بكلمة: ﴿رَبَّكُمُ﴾؟

تنقلك الآية إلى الجواب عن هذا السُّؤال المفترض: الربُّ الذي يجب عبادته هو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١].

تشعر في هاتين الكلمتين بالدَّليل الثاني المقنع الذي يخبرك بصفة لا يمكن أن تكون إلا في الله تعالى شأنه، وهذه الصِّفة تمثِّل أعظمَ أدلَّة استحقاق الله ﷻ لأن يُعبد دون سواه.

ولكن ما معنى ﴿خَلَقَ﴾؟

الجواب: يظهر لي أن كلمة ﴿خَلَقَكُمْ﴾ تعني: أوجدكم في تقدير مستقيم، فهي **ثَمَّ تدلُّ على إيجاد شيء لم يكن موجودًا، ثم تقدير الشَّيء الذي أوجده على تقدير مستقيم**، ولا أوافق الرَّاغب رحمه الله على جعله (خلق) مستعملًا في إبداع الشَّيء من غير أصل ولا احتذاء(١)، وبهذا التَّحليل عنده تكون كلمتا (خلق) و(أبدع) عنده مترادفتين، ولا أميل إلى ذلك، بل إلى ما ذكرته لك.

وكلمة ﴿خَلَقَ﴾ تنبثق منها ثلاثة أنواع من الخلق:

النَّوع الأوَّل: يكون الخلقُ إيجادًا من عدم بتقدير مستقيم مثل: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١].

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب (ص: ٢٩٦).

النَّوع الثَّاني: يستعمل في إيجاد الشَّيء من الشَّيء بتقدير مستقيم على نحوٍ يَعْجِز عنه المخلوق نحو: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النحل: ٤].

النَّوع الثَّالث: قد يكون إيجادًا للشَّيء من شيء آخر بالاستحالة[١]، وهذا قد يجعله الله تعالى لغيره في بعض الأحوال، كعيسى عليه السلام، حيث قال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

فيكون معنى الآية: اعبدوا ربكم الذي أوجدكم من عدم بتقدير مستقيم لا يمكن لأحد مجاراته، وكيف يمكن لأحد أن يجاري خلق الإنسان، والخليَّة الواحدة في جسد الإنسان تصل درجة التَّعقيد فيها إلى تعقيد المجرَّة -حسب وصف (بيرلنسكي)[٢]-، ويصل طول DNA إذا أُفرِد إلى حوالي (١٠٠) تريليون متر، وذلك أن جسم الإنسان يحتوي على (٥٠) تريليون خليَّة، وكلُّ خلية تحتوي على مترين من الـDNA، وإذا كانت المسافة بين الأرض والشمس (١٤٩٦٠٠٠٠٠٠٠٠م)، فهذا يعني أن المادَّة الوراثيَّة DNA يبلغ طولها المسافة بين الأرض والشمس ذهابًا وإيابًا ٢, ٣٣٤ مرة[٣]!!!

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧].

وهنا ربَّما قال لك النَّصرانيُّ: إن كان الذي يخلق يستحقُّ أن يُعبد، فعيسى عليه السلام يستحقُّ أن يُعبد؛ لأنه خلق بدليل الآية التي ذكرتها الآن؟ وقد يقول غيره: قد ذكر الله عز وجل أن هناك خالِقِين

---

(١) الاستحالة من: استحال الشيء تغير عن طبعه ووصفه. التوقيف على مهمات التعريف (ص: ٤٧).

(٢) (ديفيد بيرلنسكي)، عالم رياضيات، فيلسوف، يهودي، علماني، ألَّف كتابًا ردَّ فيه على الادِّعاءات التي تقول بأنَّ العِلْم يُثبت صِحَّة الإلحاد، والتي تُروَّج من قِبَل «ريتشارد دوكينز»، وغيره، ويجب الإشارة إلى أنَّ الشَّيخ (عبد الله الشهري) قام بترجمة الكتاب، وهو من إصدارات مركز دلائل، بعنوان: "وهم الشيطان، الإلحاد ومزاعمه العلميَّة" (The Devil's Delusion).

(٣) تنظر هذه المعلومات في مجلَّة (nature) العالمية، وهذا رابط المقال:

https://www.nature.com/scitable/topicpage/dna-packaging-nucleosomes-and-chromatin-٣١٠/

غيره في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، فهذا يدلُّ على أنّه يصحُّ أن يوصف غيره بالخلق، فكيف تقول: إن الذي يخلق هو الذي يستحق أن يكون معبودًا؟

الجواب: الذي يستحقُّ أن يكون معبودًا هو الذي يخلق مطلقًا دون أن يحتاج إلى إعانة من أحد، فالله ﷻ يخلق مطلقًا، أما عيسى عليه السلام فلم يستطع أن يخلق من الطِّين كهيئة الطَّير إلا بإذن الله ﷻ، ويلفت الله ﷻ نظرك إلى هذا الفرق الكبير بينه تعالى جَدُّهُ وبين غيره فيقول: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ [النحل: ١٧].

وأما قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، فهو مثل قِصَّة عيسى عليه السلام، فقد يُوَصف المخلوق بأنه يخلق، ولكنَّه يخلق خلقًا محدودًا بإذن الله ﷻ. ويخبرك الله جل جلاله بالحكم الفصل في هذه القضيَّة، فالذي يستحقُّ أن يكون معبودًا هو الذي يخلق مطلقًا دون أن يتوقَّفَ فِعْلُهُ على غيره، ولذا تحدَّى الله سبحانه وتعالى أن يوجد من الأنداد من يخلق كما يخلق الله ﷻ فقال: ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾ [الرعد: ١٦].

وهنا يبدو لك جمال كلمة ابن عطاء رحمه الله حين قال: «إلهي كيف يستدلُّ عليك من هو في وجوده مفتقر إليك»(١).

وربما تسمع سؤالًا يتعلَّق بأسماء الله وأوصافه: ما الفرق بين هذه الأسماء التي تتضمَّن الصِّفَات الإلهيَّة: الخالق، البارئ، المصوِّر، فاطر السَّمَوات والأرض، بديع السَّمَوات والأرض؟

يلخِّص الغزاليُّ رحمه الله ترتيب الخلق، وتعدُّد أسـماء الله ﷻ في ذلك فيقول: «كلُّ ما يخرج من العدم إلى الوجود فيفتقر إلى تقدير أولًا، وإلى الإيجاد على وَفق التَّقْدير ثانيًا، وإلى

(١) حكم ابن عطاء الله (ص: ٣٢٠).

التَّصـــوير بعد الإيجاد ثالثًا، والله ﷻ خالق من حيث إنه مقدِّر، وبارئ من حيث إنه مخترع موجد، ومصوِّر من حيث إنه مرتِّب صور المخترعات أحسن ترتيب»(١).

ودعنا نأخذ لمحة سريعة عنها:

فالاسم الأول: الخالق: من (خلق):

وسبق أن الخلق بمعنى المصدر: الإيجاد في تقدير مستقيم ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النحل: ٤].

الاسم الثاني: البارئ: ووردت كلمة "البارئ" في القرآن الكريم ثلاث مرَّات منها: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٤].

مِنْ «برأ الله الخلق يَبْرَؤُهُ فهو بارئ":

و﴿ٱلْبَرِيٓـَٔةِ﴾: الخلق، فهي "فعيلة" بمعنى "مفعولة"، وهي قراءة نافع وابن ذكوان(٢)، وقد تُخفَّف فتحذف، كما قال نابغة بني ذبيان في قصيدته التي قالها يذكر النُّعمان ويعتذر إليه:

ولا أرى فــاعلًا في النَّــاسِ يشــبِهُهُ ... ولا أُحاشــي مــن الأقــوامِ مــنْ أحــدِ

إلا ســليمانَ إذْ قــالَ المليــكُ لــهُ ... قُــمْ في البَرِيَّــةِ فاحــدُدْها عــن الفَنَــدِ(٣)

و﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾: أيضًا من "البَرَى": التُّراب المُبرَّأ من العيب؛ لأنه مبريٌّ بقَدَر، من قولك: «بَريت العُود»(٤).

---

(١) المقصد الأسنى (ص: ٧٥).

(٢) ينظر: النشر في القراءات العشر (١/ ٤٠٧).

(٣) ينظر: ديوان النابغة الذُّبياني (ص: ٢٠) وفيه (قال الإله) بدلًا من (قال المليك)، حَدَدْتُ فلانًا عن الشر: منعته وحبسته. والفَنَد: الخطأ في الرأي وفي القول.

(٤) ينظر: المفردات للراغب (ص: ١٢١).

فيبرق لك من هذا أن البارئ: هو الخالق الذي بَرَى بَرِيَّتَه -أي خليقته- من التُّراب المُبَرَّأ من العيب، فجاءت سالمة من الآفات والعيوب، فهو صفة إضافيَّة لصفة الخالق تُفِيد أن الخلق لم تصحبه أخطاء.

الاسم الثالث: المصوِّر: مِنْ صَوَّرَ:

كأن الفعل آتٍ من أجزاء واضحة يوجد منها الشَّيء، فيتحدَّد ويتشكَّل على هيئة محدَّدة واضحة للبصر أو البصيرة، ولذلك استعمل الحدود من ذلك، فيقال: صَوْرَا النهر: شَطَّاه كأنهما يحددان هيئته، والصُّورَة: الشكل والهَيْئَةُ، والحقيقةُ، والصِّفة الظاهرة التي يكون عليها كُلُّ مَخْلُوقٍ، وَهِيَ ما ينتقش به الأعيان، ويتميَّز بها غيرها من هَيْئَةِ خِلْقَتِهِ المدركة بالبصر والبصيرة، وَقد صَوَّرَهُ صورةً حَسَنةً، فتَصَوَّرَ: تَشَكَّلَ(١).

فاللهُ تَعَالَى الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ أي: الذي شكَّل خَلْقَة المخلوق في الصُّورَة التي يبدو عليها، فخَلَقَ أجزاءه، وأمال بعضها على بعض، فركَّبها فوق بعض، حتى تكوَّنت هذه الهيئة المصوَّرة لكلِّ مخلوق: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ [غافر: ٦٤].

ولذلك حسُن هذا التَّرتيب في سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤] فالبداية بالاسم العَلَم الذي به عُرِفَ، وجاءت الصِّفة الأولى (الخالق)؛ لوصفه بخلق الخلق من العدم، ثم الصِّفة الثَّانية (البارئ)؛ لوصفه بأنه بعد أن خلقهم أبرأهم من الآفات والأسقام، وصفات التُّراب الرديئة التي كان يمكن أن تَعْلَقَ بهم، وبراهم بأحسن بريٍ، كما تَبْري العُود؛ ليكون سهمًا على أحسن قوام، وأجمل مثالٍ ونظام، ثم جاءت الصِّفة الثَّالثة (المصوِّر) ليبين تشكيلهم في أحسن الأشكال، وجعلهم على أبهى الصُّور.

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٣/ ٣٢٠)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٢١٣).

فالخالق اسم عامٌّ، والبارئ صفة خاصَّة في جانب من الخلق، والتَّصوير صفة خاصَّة في جانب آخر من الخلق.

الاسم الرابع: بديع السَّموات والأرض:

في اللغة: المُبْدِع: جاءت من كلمة (بَدَعَ) وهي كلمة تدل على ابتداء الشَّيء وَصُنْعه لَا عَنْ مِثَالٍ، فيقولون: أَبْدَعْتُ الشَّيء قَوْلًا أَوْ فِعْلًا: إِذَا ابْتَدَأْتَهُ لَا عَنْ سَابِقِ مِثَالٍ.

والبديع يقال للمُبْدِع، نحو قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: ١١٧](١)، فالبديع هنا صفة مشبَّهة معناها: بَدُعَتْ سمواته وأرضه أي: أنشأهما على غير مثال، ولا احتذاء، ولا اقتداء بسابق، حيث أوجدهما بغير آلة، ولا مادَّة، ولا زمان، ولا مكان، وليس ذلك إلا لله ﷻ، فجاءت في الخلق على هيئة لم تُخترع، وصورة لم يُسبق لها نظير.

الاسم الخامس: فاطر السَّموات والأرض:

من (فَطَرَ) أي: فتح شيئًا مغلقًا، وهو يقتضي فَتْحَ شَيْءٍ وَانفصاله(٢)، فقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ١] فطر الذَّرة الصَّغيرة، أي: فتحها وهي أصل كلِّ مخلوق، فصارت اثنتين، ثم فطر كلًّا منهما فحدث التَّوالي الهندسي، فتكونت السَّموات والأرض، وكذلك فطر الخليَّة.

وكأنه عندما خلق الخلق فَطَرَ ذراتهم، فانفصلت الواحدة مكوِّنة اثنتين، وهكذا حتى تكوَّنت الخلقة الكاملة، وفَطَرَ مع كلِّ خليَّة مُنفَطِرة ما به تعرفه ﷻ، على حدِّ تعبير (د. ستيفن ماير) في كتابه: "توقيع في الخليَّة: DNA أدلَّة التَّصميم الذَّكيِّ".

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (١/ ٢٠٩).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة (٤/ ٥١١).

ويظهر لي أن الفَطْر هو الشقُّ طولًا كأنه شِقٌّ يخترق المادة، حيث تنقسم إلى قسمين، ثم كلُّ قِسْم يمكن فَطْره لينقسم بدوره كما يقال: فَطَر نابُ البعير؛ شَقَّ اللحْمَ وطَلَع، وفطَر البئرَ: ابتدأ حفرها، حيث خرق الأرض فتكوَّنت البئر(١).

بصيرة: بما أنَّ الله ﷻ هو الخالق فإن ذلك يقتضي أن يكون هو المدبِّر الحاكم.

وإذا كان هو الخالق، فهو المدبِّر وهو الحاكم، فمن له الخلق فله الأمر، قال ﷻ ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالإنسان إذا صنع آلةً، ووضع لها برنامجًا لكيفيَّة التَّصرُّف بها حسبما يراه مناسبًا لها، فإذا جاء أحدٌ وعبث بها غضب، فكيف يشاركه أحدٌ في ملكه؟ وإذا أدارها أحدٌ على غير ذلك البرنامج تألَّم منه، وتخيَّل أحدًا أخذ سيارتك التي هي ملك لك، ماذا تقول عنه؟ تصوَّر أحدًا قام فجعلها لغسل الملابس بدلًا من أن تتم الاستفادة منها فيما صنعت له، كيف يكون تنظر إلى فعله؟! ولله المثل الأعلى، فكذلك الإنسان خلقه الله ﷻ، ووضع له برنامجًا للهدى؛ ليعبده وَفْقَ هذا البرنامج، فتنتظم حياته، فيهنأ ويسعد.

بصيرة: التَّربية الإلهيَّة تشمل الإيجاد، والتَّربية أهمُّ من الإيجاد؛ ولذا قُدِّمت عليه.

قد تسأل هنا: الخلق يسبق التَّربية، فالمعتاد المناسب أن يبدأ بذكر وجود الشَّيء أولًا، ثم تذكر قضية التَّربية، فما الحكمة من وَصْف الله ﷻ بأنه ربٌّ، أي: مُرَبٍّ للنَّاس قبل وصفه بأنه خالق، وذلك في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١]؟

الجواب: لأن التَّرتيب هنا جاء على وَفقِ الحكمة البالغة، فهو يخبرنا بأمرين:

(١) المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٦٨٩).

الأوَّل: أنَّ الله جَلَّ جَلَالُهُ المربِّي هو الخالق، فكلُّ مربٍّ في الدُّنيَا لا يكون خالقًا إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإن من لوازم أن يكون ربًّا أن يكون خالقًا، فإن من التَّربية التي يربِّيهم بها التَّربية الجَسديَّة، ولا تتحقَّق لمخلوق إلا بأن يوجده الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا معنى الخلق، فتكون كلمة ﴿خَلَقَكُمْ﴾ توضيحًا إضافيًّا لأحد معاني التَّربية، أما غير الله عَزَّ وَجَلَّ فقد نَصِفُه بأنه مُرَبٍّ، ولكنه لا يكون خالقًا أبدًا.

تأمَّل في الجمال القرآنيِّ لترى أن الأذن البشريَّة عندما تسمع ما يتعلق بالتَّربية قد تنكر أن يكون المربِّي هو الخالق، فالولد يكون له أبوان وربَّما ربَّاه آخران كما هو معلوم، ولذا فقد أعقب الله عَزَّ وَجَلَّ ذكر التَّربية بالتَّأكيد على أنه هو الخالق، وليس المربِّي فقط.

الثاني: التَّربية أهمُّ من الإيجاد؛ ولذا قدَّم الله عَزَّ وَجَلَّ ما يدلُّ على ربوبيته وتربيته للعالم على قوله ﴿خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١].

ولإيضاح النُّور القرآنيِّ في تقديم التَّربية على الخلق نقول: قد يخلق الإنسان لكن تربيته تكون على الإفساد للعمران لا التَّربية الإلهيَّة التي تصلح حياته، وتجعله منسجمًا مع ما حوله من الأكوان، فأراد الله عَزَّ وَجَلَّ أن يبيِّن أن التَّربية أهمُّ من الخلق ذاته، ولذا قدَّم ذكر التَّربية على الخلق، وهذا يشبه ما ذكره الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة الرَّحمن، حيث قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣﴾ [الرحمن: ١-٣] حيث ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ ما يتعلَّق بتعليم القرآن قبل خلق الإنسان؛ إذ المرء دون القرآن ينحطُّ تفكيره، وربَّما كثر في الأرض إفساده وتدميره.

بصيرة: الإنسان بدون القرآن ينحطُّ تفكيره، وربَّما كثُر في الأرض إفساده

الدَّليل الثَّالث: دليل خَلْق من كان قبلنا إلى الإنسان الأوّل: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١]:

الذي يجب أن تعبدوه هو الذي خلق من قبلكم، ما معنى ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١]؟ وما وجه الإعجاز المدهش فيه؟

الجواب: كلمة (قَبل) تدلُّ عَلَى مُوَاجَهَةِ الشَّيء لِلشَّيْءِ(١)، فَالْقُبُلُ يتقدَّم الشَّيء متصلًا أو منفصلًا، والدُّبُر يتأخر في الشَّيء متصلًا أو عن الشَّيء منفصلًا، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ﴾ [الصافات: ٥٠].

و(قَبلُ) يستعمل في التَّقدُّم المتَّصل والمنفصل بالنِّسبة لشيء من الأشياء، ويضادُّه (بعد)، وعليه فإن كلمة (قَبلُ) تُسْتَعمل على أوجهٍ:

الأوَّل: في المكان بحسب الإضافة، فيقول الخارج من دمشق إلى مكَّة: المدينة قبل مكة.

الثاني: في الزَّمان نحو: ﴿فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ﴾ [البقرة: ٩١].

الثالث: في المنزلة نحو: الصَّحابة قبل التَّابعين.

الرابع: في التَّرتيب الصِّناعيّ. نحو: تعلُّم الهجاء قبل تعلُّم الخطِّ(٢).

الآن تعال بنا إلى هذا الخطاب العجيب:

فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١] يصوِّر لك إقناعَ السَّامعين باستحقاق الله ﷻ لأن يعبدوه دون غيره، والردَّ على الدَّهريين الذين يزعمون أن آباءهم خلقوهم دون ابتداء: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: ٢٤].

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٥/ ٥١).

(٢) المفردات للراغب (ص: ٦٥٣).

ستقول: كيف يقنع الله ﷻ المخاطَبين بوجوب أن يعبدوه، ويردُّ على الدَّهريين في وقت واحد؟

الجواب: الخطاب للبشريَّة جميعًا، أي: الذين جاؤوا في الزَّمان قبلكم، ولأنه خطاب لا يتقيَّد بزمان، بل يمتدُّ منذ أن نزل إلى أن يرفع عند قيام السَّاعَة، وبذا فإن الناس الذين سمعوه عندما نزل يقال لهم: اعبدوا ربكم الذي خلقكم وخلق من قبلكم، وإذا جاء القرن الذي يليه يقال لهم ذلك، وهكذا إلى قيام السَّاعَة، والآن تصوَّرْ معي أنَّ أهل المدينة وأهل مكة، وأهل الجزيرة، ومن حولهم من المسلمين، وأهل الكتاب، والمنافقين، والوثنيين تُليت عليهم هذه الآية والنَّبيُّ ﷺ على قيد الحياة، فإنهم سيفهمون أنَّ الله ﷻ يأمرهم بعبادته، ويعرِّفهم بنفسه بأنه ربُّهم الذي خلقهم، وخلق من قبلهم، وسيفهمون من كلمة: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ بأن المقصودَ جيلُ آبائهم مباشرة ولو كانوا أحياء، وكذلك جيل آبائهم الذين تُوُفُّوا قبل أن يسمعوا هذا الخطاب، ويدخل فيه أيضًا الجيل الذي قبله، والذي قبله إلى أوَّل أب لهم، وهو آدم عليه السلام.

وهنا يبرز السُّؤَال: ما الحكمة من ذِكْر هذا الدَّليل مع كونه داخلًا في الذي قبله؟ فقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ يشمل جميع الإنسانيَّة الحاضرين منهم الخطاب، والغائبين من أجيال السَّابقين الذين غابوا بالموت، أو من الأجيال اللَّاحقة الذين غابوا بعدم الوجود بعد.

الجواب: إنه القرآن يهتمُّ بالفكر الإنسانيِّ ليوصله إلى الحقيقة، فالملحدون ربَّما حاولوا تزييف الدَّليل السَّابق فيقول الواحد منهم: بل خُلِقْتُ من جهة والديَّ قبلي، وهما من جهة والديهم إلى من قبلهم، وربَّما ازدادوا غيًّا فقالوا: إن الخلق تطوَّر عن حيوان صغير نشأ من الماء.

لكنَّ الله سبحانه وتعالى يُوْقِفُ الجميع على الحقيقة الواضحة: إنه الذي خلقنا، وخلق من قبلنا إلى أوَّل بشرٍ وهو آدم عليه الصلاة والسلام، فالله ﷻ هو الذي يجب أن نصرف له العبادة.

وهو ﷻ خلق من قبلنا؛ لأنه الأول بلا ابتداء فليس قبله شيء، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «اللهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ...»(١).

وفي ذلك ردٌّ على الملحدين الذين يظنون أن لا خالق؛ إذ لا بد من بداية لهذا الكون، فمن كان مُكَوِّنَهُ؟

كان هذا السَّبَب الأول لذكر قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١].

أما السَّبَب الثاني: فَلِيُظهِرَ الله ﷻ لنا الامتنان علينا؛ إذ خلقنا، وخلق أصولنا، فكأنَّ تربية كلِّ الأسلاف السَّابقين نعمةٌ في رقاب اللَّاحقين، كَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: لَا تَظُنَّ أَنِّي إِنَّمَا أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ حِينَ وُجِدْتَ، بَلْ كُنْتُ مُنْعِمًا عَلَيْكَ قَبْلَ أَنْ وُجِدْتَ بِأُلُوفِ سِنِينَ؛ بِسَبَبِ أَنِّي كُنْتُ خَالِقًا لِأُصُولِكَ وَآبَائِكَ(٢).

ستقول: ما الحكمة من وجود الحرف ﴿مِن﴾ قبل قوله: ﴿قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١] مع أنه كان يمكن الاستغناء عنه، فيقول مثلًا: ربكم الذي خلقكم والذين قبلكم؟

الجواب: الحكمة من وجود الحرف ﴿مِن﴾: أنَّ ﴿مِن﴾ تدلُّ على الابتداء، فأكَّد الله ﷻ أنَّ جميع مَن قبلُ إلى أوَّل مخلوق كان بأمر الله تعالى وقدرته، ويُظهر هذا الجواب ابن عاشور رحمه الله، فيقول: «فهي تُشِيرُ إِلَى أَوَّلِ المَوصُوفِينَ بِالْقَبْلِيَّةِ، فَذِكْرُهَا هنا اسْتِرْوَاحٌ لأصل معناها مع مَعْنَى التَّأْكِيدِ الغَالِبِ عليها إذا وَقَعَت مَعَ قَبلُ وَبعد»(٣).

---

(١) مسلم (٦٩٨٨).

(٢) تفسير الرازي (٢/ ٣٣٤).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٣٢٧).

وقد تسأل: ما الحكمة من الجمع بين هذين الدَّليلين: ﴿خَلَقَكُمْ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]؟

الجواب: هذان الدَّليلان لا يستطيع العاقل أن يهرب من الإقرار بالجواب الواضح فيهما: الخالق هو الأوَّل الذي ليس قبله شيء، وهو الله تعالى.

وترى هذين الدَّليلين يتكرَّران باستمرار في القرآن الكريم بأساليب متعدِّدة؛ لأن الإنسان سيقرُّ بالخالق إن اطَّرح عنه العناد، سواء أكان جاهلًا أم متخصِّصًا في أدقِّ العلوم، إلَّا أن يكابر أو يراوغ ويناور، وشَعَر ابن حزم رحمه الله بعظمة هذين الدَّليلين في بيان واحدية الله عز وجل، فقال:

لـك الحمـدُ يـا ربِّ والشُّـكرُ ثُـمْ ... لَـكَ الحمـدُ مـا بَـاحَ بالشُّـكرِ فَـمْ
لَـكَ الحمـدُ في كُـلِّ مَـا حَالَـةٍ ... فَقَـدْ خَصَّـنِي مِنْـكَ فَضْـلٌ وَعَـمْ
مِـنَ المـاءِ أَنْشَـأْتَنِي نُطْفَـةً ... وَمِـنْ بَعْـدِ ذلـكَ لَحْـمٌ وَدَمْ
وَأَسْـكَنْتَ في جَسَـدِي رُوحَـهُ ... وَأَجْعَلْتَهَـا في طِبَـاقِ الـرَّحِمْ
وَأَخْرَجْتَنـي بعْـدُ في عَـالَمِي ... وَبَلَّغْتَنِـي دَرَجَـاتِ الفَهِـمْ[١]

وكثيرًا ما تسمع هذا السُّؤَال: مَنْ خلق الله الخالق؟

وهذا سؤال خطأ طبعًا.. لماذا؟

لأنَّ الله الخالق الأوَّل هو مصدر الخلق، فلا يحتاج إلى خالق، وبهذا يبطل السُّؤَال، فربُّنا عز وجل أحد صمد، لم يلد ولم يولد، ويفوق إدراكنا أن نحيط به جل جلاله علمًا.

(١) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) (ص: ٣٧٠).

الدَّليل الرَّابع: دليل الإقناع بالنَّتيجة المثلى المتوقَّعة من العبادة، وهي (تكوين الحياة الآمنة من المخافات): وذلك يتحقَّق بـ(التَّقوى)، وهذه النَّتيجة تلبِّي مصالح البشريَّة الدُّنيويَّة والأخروية، ولا يمكن أن تتحقَّق هذه النَّتيجة إلا بعبادة الله وحده.

> بصيرة: يدعو الله تعالى العالم ليعبدوه؛ لأجل مصلحتهم، فالعبادة تهيئ الإنسان ليرتقي إلى مرتبة أعلى هي مرتبة التَّقوى، والتَّقوى تعني وجود الإنسان الذي يتَّقي الموقف المكروه بين يدي ربِّه ﷻ، فيُصلح نفسه وغيره، ويُبَصِّرنا بهذا (لَعَلَّ) التَّغييريَّة في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

فعندما تقرأ الآية تجد الله ﷻ يأمر العالم بأن يعبدوه، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، ولا يتركهم دون فَهْم لسبب هذا الطَّلب، فيخبرهم بنتيجته، وبذلك تشوِّقنا البصائر القُرآنِيَّة للعبادة، بذكر الهدف الذي ستحقِّقه العبادة في حياتنا، حيث يقول الله ﷻ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١].

ربما تقول هنا: كلمة ﴿لَعَلَّ﴾ تدلُّ على التَّرجِّي، فمن الذي يرجو تحقُّق ذلك؟ والطَّبريُّ رحمه الله يطرح سؤالًا هنا فحواه: كيف قال الله جل ثناؤه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؟ أَوَلم يكن ربُّنا جل جلاله عالمًا بما يصيرُ إليه أمرُهم إذا هم عبدوه وأطاعُوه، حتى قال لهم: لعلَّكم إذا فعلتم ذلك أن تتَّقوا، فأخرج الخبر عن عاقبة عبادتهم إيَّاه مخرج الشكِّ؟

الجواب: كلمة ﴿لَعَلَّ﴾ هنا تؤدِّي غرضين:

الغرض الأول: الرَّجاء بالنِّسبة للدَّاعي والمدعو من النَّاس(١)، أي: إذا دعوت النَّاس أيُّها المبلِّغ للرِّسالة إلى عبادة الله ﷻ، فعبدوه؛ فإنَّ ذلك يجعل عندك وعندهم رجاء أن يصلوا إلى مرتبة التَّقوى، وإلا فإنَّ الله ﷻ يعلم حالكم إن عبدتم أَوْ لم تعبدوا..

فـ﴿لَعَلَّ﴾ **هنا تؤدِّي دورًا عظيمًا في تشويقك لأنْ تعبد الله؛** فهي كلمة تعليليَّة تغييريَّة مشوِّقة تبيِّن أنَّ ما قبلها وسيلة تحقِّق النَّتيجة التي بعدها، أي: اعبدوا الله ﷻ لتصلوا إلى مرتبة التَّقوى كما قال الطَّبريُّ رحمه الله: «اعبدُوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم، لتتقوه... كما قال الشَّاعر:

وَقُلْـتُمْ لَنَـا كُفُّـوا الْحُـرُوبَ، لَعَلَّنَـا ... نَكُـفُّ! وَوَثَّقْـتُمْ لَنَـا كُـلَّ مَوْثِـقِ
فَلَمَّـا كَفَفْنَـا الْحَـرْبَ كَانَـتْ عُهُـودُكُمْ ... كَلَمْـحِ سَـرَابٍ فِـي الْفَـلا مُتَـأَلِّقِ

يريد بذلك: قلتم لنا كُفُّوا، لنكفَّ»(٢).

والتَّرجي الذي نفهمه من كلمة ﴿لَعَلَّ﴾: «عِبَارَةٌ عَنْ كَوْنِ الشَّيء مَأْمُولًا بِمَا يُذْكَرُ مِنْ سَبَبِهِ غَيْرَ مَقْطُوعٍ بِهِ لِذَاتِهِ، بَلْ يَتْبَعُ قُوَّةَ أَسْبَابِهِ مَعَ انْتِفَاءِ الْمَوانِعِ، وَيَتَعَلَّقُ تَارَةً بِالْمُتَكَلِّمِ، وَتَارَةً بِالْمُخَاطَبِ، وَتَارَةً بِالْمُتَكَلَّمِ عَنْهُ، وَتَارَةً بِغَيْرِهِمَا، فَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ [الطلاق: ١]، وَقَوْلَهُ حِكَايَةً عَنْ قَوْمِ مُوسَى عليه السلام: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ [الشُّعراء: ٤٠]، وَقَوْلَهُ لِمُوسَى وَهَارُونَ عليهما السلام: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ هَذَا مَقْطُوعٌ بِعَدَمِ وُقُوعِهِ عِنْدَ اللهِ ﷻ، وَلَكِنَّ الرَّجَاءَ فِيهِ مُتَعَلِّقٌ بِمُوسَى وَهَارُونَ عليهما السلام أَيْ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ رَاجِينَ بِهِ أَنْ يَتَذَكَّرَ أَوْ يَخْشَى، لَا قَوْلًا غَلِيظًا مُنَفِّرًا، وَتَأْتِي (لَعَلَّ)

---

(١) ذكر ابن هشام في مغني اللبيب (ص: ٣٧٩) من معاني (لعل) التعليل، وذكر أنه قال به جماعة كالأخفش والكسائي، وأن هناك من يحملها على الرجاء؛ إذ قال: «الثَّانِي التَّعْلِيل أثبته جمَاعَة مِنْهُم الْأَخْفَش وَالْكسَائِيّ، وحملوا عَلَيْهِ: {فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ} [طه: ٤٤]، وَمن لم يثبت ذَلِك يحملهُ على الرَّجَاء ويصرفه للمخاطبين، أَي: اذْهَبَا على رجائكما».

(٢) تفسير الطبري (١/ ٣٦٤)، والبيتان غير منسوبين ينظر: الحماسة البصرية (١/ ٢٥، ٢٦).

لِلْإِشْفَاقِ وَإِفَادَةِ التَّحْذِيرِ مِنْ أَمْرٍ وَقَعَتْ أَسْبَابُهُ فَكَانَ بِهَا مَظِنَّةَ الْوُقُوعِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾ [الكهف: ٦] الْآيَةَ، وَقَوْلِهِ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ [هود: ١٢] الْآيَةَ»[١].

فيكون المعنى حقِّقوا نظام العبادة في حياتكم؛ رجاء أن تصلوا إلى تحقيق هدف عظيم في حياة الإنسانيَّة هو التَّقوى.

الغرض الثاني: ﴿لَعَلَّ﴾ يلزم منها الإعداد لمرتبة التَّقوى، كما قال السَّيِّد رشيد رضا رحمه الله: «(لَعَلَّ) تدلُّ على التَّرَجِّي، وَلَكِنَّهَا تُسْتَعْمَلُ لِلْإِعْدَادِ وَالتَّهْيِئَةِ لِلشَّيْءِ، وَفِي هَذَا مَعْنَى التَّرَجِّي»[٢].

ولعلَّك تسأل: ماذا يعني أن يُوصِل نظام العبادة إلى التَّقوى؟

الجواب: التَّقوى تعني وجود الإنسان الصَّالح الذي يتقي المخافات والمكروهات المستقبليَّة الدُّنيويَّة والأُخرويَّة، فيكون صالحًا في بيئة صالحة يمنع الفساد عنها.

فهذا النِّظام هو الوحيد الكفيل بجلب السَّعادة إلى العالم، وحمايته من المستقبل السَّيئ، وبالتَّقوى يتحقَّق الانتفاع التامُّ من الكتاب الذي لا ريب فيه.

فإذا سلكتم طريق العبادة؛ أوصلتكم إلى مرتبة التَّقوى فتحقِّقون أعظم أهدافكم في الحياة، **فنظام العبادة يؤدِّي إلى السِّيادة وأرقى درجات السَّعادة.**

وهنا ربما انقدح في فؤادك سؤال عن سبب ذكره غاية العبادة وهي (التَّقوى) قبل أن يكمل الأدلَّة المادِّيَّة التي تقنعك بالعبادة؟

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٥٦)، وبالنسبة لمعاني (لعل) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (ص٣٧٩).

(٢) تفسير المنار (١/ ١٥٦).

والجواب: أن ذلك يعود إلى أسلوب القرآن الكريم في الفصل بين المتماثلات الموضوعيَّة لبيان أمرٍ خارجيٍّ ذي دلالة في العمليَّة التَّربويَّة للقلوب الإنسانيَّة، وهو ما حدث هنا حيث ذكر الله ﷻ التَّقوى؛ لتؤدِّي دورين: إقناعَك بأهمِّيَّة العبادة، وحثَّك على أن تسخِّر جميع الوسائل للوصول إلى تحقيقها؛ إذ التَّقوى بوابة القبول ودليل القرب إلى الله والوصول.

والتَّقوى تعني إيجاد الإنسان الصَّالح الذي يتَّقي الوقوع في المكروه باجتناب أسبابه، ثمَّ اتَّسع معناها لتدلَّ على الوصول إلى صفات الكمال الإنسانيِّ في الحذر من الوقوع في الأخطار، سواء بالحذر منها، أو بتنمية ما يضادُّها، والتَّقوى هي الأخلاق السَّويَّة الصَّالحة التي بين الله ﷻ وعباده، أو التي بين الإنسان والكون من حوله، وهي تؤدِّي إلى تعظيم الله ﷻ عند شعور النفس بإنشائه للكون أو بتدبيره له، وقد امتلأت روح البُرَعيِّ بذلك فقال:

لكلِّ خطبٍ مهمٍّ حسبيَ اللهُ ... أرجو بهِ الأمنَ مما كنتُ أخشاهُ
وأستغيثُ بهِ في كلِّ نائبةٍ ... وما ملاذيَ في الدَّارينِ إلا هو
ذو المنِّ والمجدِ والفضلِ العظيمِ ومَنْ ... يدعوهُ سائلُهُ ربَّاهُ ربَّاهُ
لهُ المواهبُ والآلاءُ والمَثَلُ الـ ... أعلى الذي لا يحيطُ الوهمُ عَلْيَاهُ
القَادِرُ الآمِرُ النَّاهي المُدبِّرُ لا ... يرضى لنا الكُفْرَ والإيمانَ يرضاهُ
مَنْ لا يقالُ بحالٍ عنهُ كيفَ ولا ... لفَضْلِهِ كَمْ تعالى ربُّنا اللهُ
ولا يغيِّرهُ مَرُّ الدُّهورِ ولا ... كرُّ العُصُورِ ولا الأحداثُ تغشاهُ
أنشا العوالِمَ إعلامًا بقدرتهِ ... وأغرقَ الكلَّ منهمْ بحرُ نُعْمَاهُ[1]

ولاحظ أن الخطاب للنَّاس أجمعين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وهذا يطرح سؤالًا: مَنِ الَّذين يؤمَّل منهم تحقُّق التَّقوى؟ هل لا بدَّ أن يشمل ذلك جميع المخاطبين؟

---

(١) ديوان البُرَعي (ص: ٢٢).

الجواب: الخطاب للناس أجمعين، وتحقُّقُ التَّقوى مطلوبة من كلِّ فردٍ مكلَّفٍ فيهم، فإذا تحقَّقت التَّقوى فيهم جميعًا، وصلت البشريَّة إلى الوضع الأمثل، فالجميع يشعر بمسؤوليته أمام الله ﷻ عن صلاحه، وصلاح من حوله من الإنسان والأرض، وإذا تحققت التَّقوى في بعضٍ دون بعضٍ، أخذت الطَّائفة المتَّقية على نفسها حماية النَّاس والأرض من اعتداء الطَّائفة غير المتَّقية، وإذا تحقَّقت التَّقوى في أسرة أو واحدٍ فقط كما في حال (آل لوط ﵇)، أو نبيٍّ لم يؤمن به أحد، قامت الأسرة أو الواحد بما يجب عليهم، وليس عليهم هداية الباقين.

فإن قلت: عرفنا التَّقوى لكننا وجدنا الإمام مجاهد بن جبر ﵀ يفسِّر التَّقوى بالطَّاعة فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: تُطيعون، فما رأيك أنت بهذا التَّفسير؟ وما الفرق بين العبادة والطَّاعة؟

الجواب: الطَّاعة وسيلة تؤدِّي إلى التَّقوى، فهي مثل العبادة، وشعر الطَّبريُّ ﵀ بذلك فقال: «والذي أظنُّ أنَّ مجاهدًا أراد بقوله هذا: لعلكم أنْ تَتَّقوا رَبَّكم بطاعتكم إيَّاه، وإقلاعِكم عن ضَلالتكم»(١).

وحاول زكريا الأنصاريُّ ﵀ أن يوضِّح الفرق بين العبادة والطَّاعة، فذكر أن العبادة ما تتعبَّد به بشرط النية، ومعرفة المعبود، والطَّاعة امتثال الأمر والنَّهي، وهي توجد بدون العبادة(٢).

وقد لا يكون ما ذكره الشيخ زكريا الأنصاريُّ ﵀ دقيقًا؛ وللتفريق العبادة والطَّاعة يمكن أن يقال:

- العبادة كمصدر تستلزم الطاعة، والقيام بالطاعة تحل بالعبادة.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٦٤).

(٢) الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، زكريا بن محمد الأنصاري السُّنَيكيُّ (ت ٩٢٦هـ) (ص: ٧٧).

- العبادة فعل وترك، والطاعة امتثال أمر واجتناب نهي.

- الطاعة تكون لغير الله بأمر الله ﷻ، والعبادة لا تكون لغير الله ﷻ.

نقول: نطيع رسول الله ﷺ طاعة مطلقة، ونطيع أولي الأمر منا طاعة مقيدة بطاعة الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ، ولا نقول: نعبد رسول الله ﷺ ولا نقول: نعبد أولي الأمر منا.

-العبادة تستلزم التَّذلُّل للمعبود بالقلب وبالقالب، والطاعة لا تستلزم ذلك، فقد تكون مع الذُّل، وقد يفارقها التَّذلُّل.

فالطاعة أعم من العبادة بالحال وبمن تكون له.

ويظهر لي أنَّ الطَّاعة تعني الامتثال الفوريَّ للأمر والنَّهي، وأما العبادة فتعني تذليل النَّفس؛ لتصبح الطَّاعة سهلة محبوبة ميسورة، وكلٌّ منهما يحقِّق التَّقوى.

> بصيرة: **الطَّاعة تعني الامتثال الفوريَّ للأمر والنَّهي، وأما العبادة فتعني تذليل النَّفس لتصبح الطَّاعة سهلة محبوبة ميسورة، وكلٌّ منهما يحقِّق التَّقوى.**

الدَّليل الخامس: دليل المسكن ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢]:

أي: اعبدوا ربّكم الذي منحكم دون سواه هذه الأرض، ولم يجعلها غير صالحة للحياة، بل جعلها لكم فراشًا.

(الذي): اسم موصول يرجع إلى الرَّبِّ الذي يجب أن يعبده الناس، أي: اعبدوا ربكم الذي منحكم دون سواه هذه الأرض، ولم يجعلها غير صالحة للحياة، بل جعلها لكم فراشًا.

ولكن ما معنى هذه الكلمات: ﴿جَعَلَ﴾، و﴿ٱلْأَرْضَ﴾، و﴿فِرَٰشًا﴾؟

الجواب: هذه ثلاث كلمات:

أما الأولى وهي ﴿جَعَلَ﴾ فمعناها: خصَّص شيئًا لشيء، وقد يلزم من ذلك أن يوجده ثم يخصِّصه، فالجَعْل: تخصيص شيء لشيء محدَّد، والجَعْلة: الفَسِيلة تطول فتصير لا يوصل إليها، والجُعْل بالضمِّ: تخصيص ثواب، أو أجر على شيء، ولأنَّها تخصيص شيء، فهي كما يقول الرَّاغب رَحِمَهُ اللهُ: لفظ عامٌّ في الأفعال كلِّها[1]، وهي أعمُّ من "فَعَلَ" و"صَنَعَ" وسائر أخواتها.

وتأتي جعل أيضًا بمعنى صَيَّر، فربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صَيَّر الأرض فراشًا بعد أن لم تكن كذلك، فمن معانيها: تخصيص الأرض لتكون على حالة دون حالة، كما في هذه الآية: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وأما الثَّانية وهي ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ فمعناها: وهي كُلُّ شَيْءٍ يَسْفُلُ وَيُقَابِلُ السَّماء، وَالْأَرْضُ: الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا، وَتُجْمَعُ على أَرَضِينَ، وَلَمْ تَجِئْ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مَجْمُوعَةً، ويقولون: أَرْضٌ أَرِيضَةٌ وأَرِضَةٌ: بَيِّنَةُ الأراضة: زكيَّة كريمة، مُخَيِّلَة[2]، قال امْرُؤُ الْقَيْسِ:

بِلَادٌ عَرِيضَةٌ وَأَرْضٌ أَرِيضَةٌ ... مَدَافِعُ غَيْثٍ فِي فَضَاءٍ عَرِيضِ[3]

وأما الثَّالثة وهي: ﴿فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢]:

فهي مشتقة من (فَرَشَ)، وهي كلمة تدلُّ على تَمْهِيدِ الشَّيء وَبَسْطِهِ، يُقَالُ: فَرَشْتُ الْفِرَاشَ أَفْرِشُهُ فرشًا، وَالْفَرْشُ: الْمَفْرُوشُ أَيْضًا، وجمعه: فُرُشٌ. قال: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤]، ويطلق على الزَّرْع إذا صار له ثلاث ورقات وأربع، ويطلق الفرش على أرض تَسْتَوي وتَلين وتَنْفَسح عنها الجبال، ومنه يُقَالُ: تَفَرَّشَ الطَّائِرُ، إِذَا قَرُبَ مِنَ الْأَرْضِ وَرَفْرَفَ بِجَنَاحِهِ،

---

(١) تفسير الراغب (١/ ١١١).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة (١/ ٨٠)، تاج العروس (١٨/ ٢٧٧).

(٣) ديوان امرئ القيس (ص: ٧٣).

وكنِّي بِالْفِرَاشِ عن كلِّ واحد من الزَّوجين، فيقال: فلان كريم المَفَارِشِ، أي: النِّسـاء(١)، مع أنَّ أجسامهما ليست مستوية تمامًا، لكنهما متلائمان كالفِراش يوضع عليه الفَرْش.

وهنا لا بد أن تسأل: قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢] إما أن يُعنى به التَّشبيه البليغ بحذف أداة التَّشبيه: أي جعل لكم الأرض كالفراش، وإما أن يريد به الحقيقة، فهي فراش، وهما معنيان متقاربان، فما الحكمة من وصف الله ﷻ الأرض بالفراش؟

الجواب: الفراش هو الشَّـيء المفروش، فيشـمل الفراش الذي تجلس عليه مثل الزَّرَابي والسَّـجَّاد، والفراش الذي تسـير فوقه مثل البُسُـط الموضـوعة، والفراش الذي تتكئ عليه مثل: الأَثاث، والفراش الذي تضـعه بطانة مثل الرِّياش، والفُرُش التي تضـعها على سـرير النَّوم، والفرش التي تضـعها عليك عند النَّوم، أو طلب الدِّفء، أو للشُّـعور بالرَّاحة مثل: الغطاء، والمغلف، واللِّحاف.. كلُّ هذه الفُرُش المتعدِّدة مذلَّلة لك، تصـيِّرها على الوجه الذي يناسبك لتكون فراشًا، وحتى تكون الأرض فراشًا يجب أن تتحقَّق عدَّة شروط:

الشَّرط الأوَّل: التَّذليل: كما يكون الفراش الذي نجلس عليه، أو نتكئ، أو نضطجع، أو نلتحف به، فلم يجعل الله ﷻ الأرض ناتئة يعسر التَّحكُّم بها، ولا مُتقعِّرة يهوي بها الإنسان من مكان إلى مكان دون قدرة على التحكُّم، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥].

الشَّـرط الثاني: السُّـكون بالنسـبة لنا (القرار)؛ لِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ مُتَحَرِّكَةً لتصـوَّرتها مثل فراش كلما جذبته إليك طار منك، فكيف يكون فراشًـا؟ لكن الله ﷻ جعلها مثل الفراش غير المفارق، فإذا علمنا أنَّها متحرِّكة على الحقيقة، كما قال الله ﷻ: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ١٣].

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٤/ ٤٨٦)، المفردات للراغب (ص: ٦٢٩).

وجريان اللَّيل والنهار، والشَّمس والقمر يوجب جريان الأرض معهم، وإلا تركوها ومضوا، ولا يتحقَّق هذا إلا بتوازن قوَّة الجاذبية للأرض مع كتلة الإنسان كي يجد الأرض مثل الفراش الذَّليل الوثير اللَّيِّن.

وانظُرْ إِلَى الْأَرْضِ لِتعرِف أَنَّها مُسْتَقِرَّةٌ بِلَا عَلَّاقَةٍ فوْقها، ولَا دِعامَةٍ تَحْتها؛ أَمَّا أَنَّها لَا عَلَّاقَة فَوْقَهَا فَمُشَاهَدٌ، عَلَى أَنَّها لَوْ كَانَتْ مُعَلَّقَةً بِعَلَّاقَةٍ لَاحْتَاجَتِ الْعَلَّاقَةُ إِلَى عَلَّاقَةٍ أُخْرَى لَا إِلَى نِهَايَةٍ، وَبِهَذَا الْوَجْهِ ثَبَتَ أَنَّهُ لَا دِعَامَةَ تَحْتَهَا، فَعَلِمْنَا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ مُمْسِكٍ يُمْسِكُهَا بِقُدْرَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ؛ وَلِهَذَا قال الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ [فاطر: ٤١][1].

لا يوجد أحد يُنسب له ذلك إلا الله الواحد القهَّار: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

الشَّرْطُ الثَّالث: لتكون الْأَرْض فِرَاشًا يشترط ألا تَكُون من مادة واحدة حتى يتمَّ البناء والإعمار، فلا تكون فِي غَايَةِ الصَّلَابَةِ كَالْحَجَرِ، ولا تكون في غاية اللَّطافة كالماء، وألا تكون من مادة ثمينة واحدة كالذَّهب... وبذا تكون كالفراش الذي يمكن التحكُّم به وتشكيله كيفما أراد صاحبه، وهذا الذي فصَّله الله تعالى لاحقًا عن وضع الأرض فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٣ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤﴾ [الرعد: ٣-٤].

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٣٦).

الشَّرْطُ الرَّابع: **أَنْ لَا تَكُونَ فِي غَايَةِ اللَّطَافَةِ وَالشَّفَافِيَّةِ**: فَإِنَّ الشَّفَّافَ لَا يَسْتَقِرُّ النُّورُ عَلَيْهِ، وَمَا كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَتَسَخَّنُ مِنَ الْكَوَاكِبِ وَالشَّمس، فَكَانَ يَبْرُدُ جِدًّا، فَجَعَلَ اللهُ ﷻ كَوْنَهُ أَغْبَرَ؛ لِيَسْتَقِرَّ النُّورُ عَلَيْهِ فَيَتَسَخَّنَ فَيَصْلُحَ أَنْ يَكُونَ فِرَاشًا لِلْحَيَوَانَاتِ [1].

الشَّرْطُ الخامس: **أن تكون قابلة للتحكُّم طيًّا ونشرًا،** كما تطوي الفراش وتنشره ثم تنظمه في قوالب، وتفيد منه في نواحٍ متعدِّدة، وبذا صارت الأرض قابلة لأنْ يدير فيها الإنسان أشغاله، ويستخدمها في إدارة تلك الأشغال، ويتحكَّم بها كما يتحكَّم في فراشه، فيطويه إن شاء أو يلتحف به، أو يجعله أرائك، أو بُسُطًا ممدودة، وكذلك الأرض يصنع منها الإنسان بيوتًا، ومصانع، وعروشًا، وآلات، كما قال جلَّ ذكرُه: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾ أي: جعلنا سطحها ليِّنا يقبل الشقَّ زرْعًا، وطُرُقًا، وتكتيلًا للبناء[2]، ولذا خُتمت الآية بـ ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]، فتصنعون على ظهرها ما تصنعونه على الفراش الذي تتحكَّمون به كيف شئتم على الرغم من شكلها الكُرويِّ، وتنوُّع تضاريسها من جهة أخرى كالبحار والجبال، والأودية المتعدِّدة، والتَّكوين المختلف.

الشَّرط السَّادس: **أن تكون كالفراش الوثير الذي تنامون عليه كيفما شئتم،** وتشكِّلونه كيفما أردتم، فأنتم تسيرون فيها، وتبنون مُدُنكم فيها، وتقضون حوائجكم، وتستخرجون منها كنوزكم كأنَّكم تطوونها طي الفراش.. إنها مذلَّلة كالفراش الذي ينام عليه الإنسان ولا يجد فيه أي تنغيص..

وحتى تكون فراشًا يجب أن تكون مسطَّحة بالنسبة لمن يسكن عليها، وهنا تتعجَّب كيف جمع الله ﷻ في الأرض بين أن تكون مسطَّحة وأن تكون كرويَّة في الوقت ذاته، ويفاجئنا

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٣٧)، وقد ذكر الرازي هنا مباحث فلكية مهمة.

(٢) المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٦٥٨).

الزَّمخشريُّ ﵀ هنا بهذا النِّقَاش الثَّريِّ الذي أحدثته الآية في عقول المتدبِّرين يظهر الجمع بين الصِّفتين:

«فإن قلت: هل فيه دليل على أن الأرض مسطَّحة وليست بِكُريَّةٍ؟ قلت: ليس فيه إلا أن النَّاس يفترشونها كما يفعلون بالمفارش، وسواء كانت على شكل السَّطح، أو شكل الكُرة؛ فالافتراش غير مستنكر ولا مدفوع؛ لعِظَم حجمها، واتِّساع جِرْمها، وتباعُد أطرافها»[١].

الذين أوتوا العلم يرون أنه الحقُّ من ربِّهم، فالواقع العلميُّ يبيِّن جزءًا من حقيقة أنَّ الأرض فراش:

هل يمكن أن نقول: الأرض فراش مع أنه يوجد فيها مرتفعات ومنخفضات، بينما الفراش يكون مسطَّحًا؟ كيف أظهرت لنا المكتشفات العلميَّة جزءًا من معاني كون الأرض فراشًا؟

ينقل د. زغلول النَّجار أنَّ العلم يكشف لنا أن مساحة سطح الأرض نحو: (٥١٠) ملايين كيلو متر مربَّع، منها ٢٩٪ (أي نحو١٤٩ مليون كيلو متر مربَّع) يابسة، و٧١٪ (أي نحو٣٦١ مليون كيلو متر مربَّع) مسطَّحات مائية، ما يقرب من نصفها تقريبًا (أي نحو٦ ,١٧٣ مليون كيلو متر مربَّع) أرصفة قارية، أي: أجزاء من حواف القارَّات مغمورة بالماء، وهذه الضَّخامة في أبعاد الأرض جعلتها تبدو مستوية بالنِّسبة إلى نظر الإنسان وإمكانات حِسِّه.

ويُقَدَّرُ ارتفاع أعلى قمة يابسة قمة إفرست (٨,٨٤٨ كم)، ويصل منسوب أعمق نقطة بحريَّة غور (ماريانا) في قاع المحيط الهادي بالقرب من جزر الفِلِبِّين إلى (١١,٠٣٣ كم)، وبذا يصل الارتفاع بين أعلى وأخفض نقطتين على سطح الأرض (١٩,٨٨١ كم)، وعندما تقارن ذلك بنصف قُطْر الأرض (المقدَّر بنحو٦٣٧١ كيلو مترًا في المتوسط) يتضح أن

---

(١) الكشاف (١/ ١٢٥).

الفارق بين أعلى وأخفض نقطتين على سطح الأرض لا يكاد يتعدَّى ٣٠,٠٪ من طول نصف قُطْرها.

وإذا أخذنا مجموع متوسط ارتفاع اليابسة، (والمقدر بنحو ٨٤٠م فوق مستوى البحر) ومتوسط أعماق البحار والمحيطات والمقدر بنحو أربعة كيلومترات في المتوسط (٣٧٢٩م إلى ٤٥٠٠م) ونسبنا ذلك إلى نصف قُطر الأرض (المقدَّر بنحو ٦٣٧١ كم) كانت النسبة في حدود: ٠٧٦,٠٪، وهذا يمثل قمة التسوية والتمهيد والفرش لسطح الأرض[1]، يعني تشبه ارتفاع أو انخفاض جزء من الفراش الذي تنام عليه سَنْتمترًا واحدًا مقارنة بالفراش كلِّه تقريبًا.

وهذا يعني أن الأرض ممهَّدة مسطَّحة على الرغم من وجود الجبال والبحار، وعلى الرَّغم من شكلها الكُرويِّ.

فانظر جمال تمثيلها بالفراش، وهو تمثيل مدهش بلغ الغاية، حيث نزعت منه أداة التَّشبيه، وأصبحت الأرض فراشًا حقًّا.

والفعل (جعل) يعني خصَّص شيئًا، ويقتضي هذا أن الله ﷻ خلقه أولًا ثم صيَّره مناسبًا لعمل مخصوص، فخلق الله ﷻ الأرض، وصيَّرها مخصَّصة لتكون فراشًا للبشر، وعندما تنظر في نشأتها ترى أن الله ﷻ حولَّها من حالة إلى حالة، إلى أن صارت فراشًا يتعامل الإنسان معها كما يتعامل مع الفراش الذي ينام عليه، ويجلس مستندًا إليه، ويرفعه فوق ظهره إن أراد الخروج في رحلة، وصيَّر الله ﷻ غلاف الأرض الناري إلى غلاف صخريٍّ بارد، فكان فراشًا، وبساطًا، ومهادًا، وقرارًا.

فإن قلت: ما الفَرْق بين هذه التَّعبيرات في وصف الأرض:

---

(١) من آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم (ص: ٢٩٨).

الفراش: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ [البقرة: ٢٢]، **المهاد:** ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦﴾ [النبأ: ٦]، **البساط:** ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩﴾ [نوح: ١٩]، **القرار:** ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾ [غافر: ٦٤]؟

الجواب: حتى نظهر الفَرْق بين هذه التَّعبيرات فلا بدَّ من إظهار الفَرْق اللُّغويِّ، ثم ننظر علاقة ذلك بواقع الأرض:

١) **فالفراش:** يكون تحت الإنسان لراحته، وقد يطويه، ويشكِّله وفق مشيئته.

٢) **المهاد:** أيْ: جَعَلَ الأرْضَ مَمْهُودَةً مُسَهَّلَةً لِلسَّيْرِ والجُلُوسِ والِاضْطِجاعِ، بِحَيْثُ لا نُتُوءَ فِيها إلَّا نادِرًا يُمْكِنُ تَجَنُّبُهُ، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾ [نوح: ١٩-٢٠](١).

فجعل الله ﷻ الأرض مهدًا مَهَّدها للناس كما يُمَهِّدون الفراش للصَّبيِّ الصَّغير، وجعلها مهادًا في ذاتها، فهي مَهْد، أي: قابلة لتشكيلها على أجمل ما يمكن، وهي كذلك مِهاد، أي: فراش في ذاتها.. مهاد للبشر في كلِّ مكان وزمان، مهد كمهد الطِّفل. وما البشر إلا أطفال هذه الأرض يضمُّهم حضنها، ويغذوهم درُّها! وهي مُمَهَّدة لهم كذلك للسَّير والحرث والزَّرع والحياة. جعلها الخالق المدبِّر كذلك يوم أعطى كلَّ شيء خَلْقه. فأعطى هذه الأرض خَلْقها على الهيئة التي خلقت بها صالحة للحياة التي قدَّرها فيها، وأعطى البشر خلقهم كذلك على الهيئة التي خلقهم بها صالحين للحياة في هذه الأرض التي مَهَّدها لهم وجعلها مَهْدهم.. المعنيان متقاربان ومتصلان.

وصورة المهد وصفة التَّمهيد لا تبدو في بقعة من الأرض كما تبدو في مصر. ذلك الوادي الخصيب الأخضر السهل الممهد الذي لا يحوج أهله إلا إلى أيسر الكد في زرعه وجَنَاه.

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٣٦).

وكأنما هو المهد الحاني على الطِّفل يضمُّه ويرعاه، والخالق المدبِّر الذي جعل الأرض مَهْدًا، شقَّ للبشر فيها طرقًا وأنزل من السَّماء ماء، ومن ماء المطر تتكوَّن الأنهار وتفيض، فيخرج النَّبات أزواجًا من أجناس كثيرة.

و﴿مَهْدًا﴾ و﴿مِهَدًا﴾ قراءتان[1] من (مَهَدَ)، وهي كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَوْطِئَةٍ وَتَسْهِيلٍ لِلشَّيْءِ، تقول: مَهَّدتُّ الْأَمْرَ فتمَهَّدَ: وَطَّأْتُهُ وهيأته ليكون كالمهد والمهاد، وهو الْوِطَاءُ مِنْ كُلِ شَيْءٍ، فصار قابلًا لأن يجد الإنسان فيه هناءه.

ومن مادتها الـمَهِيد: الزُّبْدُ الخالص، والـمُهْدَة من الأرض- بالضم: ما انخفض في سُهولة واسْتواء.

ومنه مَهْدُ الصبي: الفراش أو المكان المُمَهَّد الذي يُهَيَّأُ له ليجد راحته وهناءه. قال تعالى: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩]، وَامْتَهَدَ سَنامُ الْبَعِيرِ وَغَيْرِهِ: ارْتَفَعَ، وامتهد السَّنامُ، أي: تَسَوَّى، فصار كمِهَادٍ أو مَهْدٍ[2].

ومن ذلك وصف الأرض هنا: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣]، و﴿مِهَدًا﴾ [النبأ:٦]، وذلك مثل قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢] ومَهَّدْتُ لك كذا: هيَّأته وسوَّيته، قال تعالى: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾ [المدثر: ١٤] أي: وطَّأت وهيَّأت حتى أقام ببلدته مطمئنًا يُرجع إلى رأيه[3].

---

(١) قَرَأَ الْكُوفِيُّونَ في طه، وَالزُّخْرُفِ بِفَتْحِ الْمِيمِ، وَإِسْكَانِ الْهَاءِ مِنْ غَيْرِ أَلِفٍ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِكَسْرِ الْمِيمِ وَفَتْحِ الْهَاءِ وَأَلِفٍ بَعْدَهَا فِيهَا. النشر في القراءات العشر (٢/ ٣٢٠).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة (٥/ ٢٨٠)، المعجم المؤصل الاشتقاقي (٤/ ٢١٣٢).

(٣) ينظر: المفردات للراغب (ص: ٧٨٠).

فالفراش مكان الرَّاحة، وأداة الرَّاحة عند الجلوس أو الحركة؛ إذ تفرش الأرض لتكون أكثر سهولة في الحركة، والمهاد: المرتَفَق والمُتَّكأ الذي يطمئن فيه من يحتاج الراحة والاطمئنان عند الجلوس، أو النَّوم، أو الحركة.

٣) البساط: من (بَسَطَ)، ويعني: مدَّ الشَّيء، ونشره، ووسَّعه فِي عِرَضٍ أَوْ غَيْرِ عِرَضٍ، فَالْبِسَاطُ: مَا يُبْسَطُ، فهو اسم لكلِّ مَبْسُوط، وأرض بَساط - كـ(سحاب)، وبسيطة: منبسطة مستوية لا نَبَل فيها، والنَّبَل: عِظام المَدَرِ والحجارة، وَهِيَ الْبَسِيطَةُ. يُقَالُ: مَكَانٌ بَسِيطٌ وَبَسَاطٌ[(١)].

فمعنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: ١٩]: «جعلها كالشيء المبسوط الذي يُنتَفع بِبَسطه، ولو لم يجعلها كذلك، لم يتوصلوا إلى حوائجهم، ولا الانتفاع بها، ففي ذكر هذا تذكير بما لله تعالى عليهم من عظيم المِنَّة»[(٢)].

٤) وأما القرار في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤]، فهي من قرَّ، وذكر الرَّاغب رَحِمَهُ اللَّهُ أن معنى قَرَّ في مكانه يَقِرُّ قَرارًا: ثبت ثبوتًا جامدًا، وأصله من القُرِّ، وهو البَرْد، وهو يقتضي السُّكون، والحرُّ يقتضي الحركة[(٣)]، وقال الشَّاعر:

أُنْبِئْـتُ أنَّ أبـا قـابوس أوْعَـدَني ... ولا قَـرارَ علـى زَأْرٍ مـن الأسـدِ[(٤)]

والقرار هنا منسـوب لنا نحن ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ [البقرة: ٢٢] فهي حقًّا قرار، والآية تشـير إلى قانون الجاذبية المشهور.

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (١/ ٢٤٧)، المعجم المؤصل الاشتقاقي (١/ ١٢١).
(٢) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (١٠/ ٢٣١).
(٣) ينظر: المفردات للراغب (ص: ٦٦٣).
(٤) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه (ص: ٢٦).

وروَّاد الفضـاء إذا غادروا الغلاف الجويَّ يفقدون إحسـاسـهم بالقرار فكأنهم يسبحون، وتضطرب عاداتهم في الأكل والشرب والنَّوم؛ لأنه لا يوجد قرار يستقرُّون عليه، وتحصل لهم اضطرابات في الذَّاكرة والقدرة على الغذاء، ولذلك يضطرون إلى أخذ تدريبات كثيفة قبل أي رحلة فضائيَّة.

ومن أهم ما تشير إليه صفة القرار للأرض: قرارها من أن تضطرب وتميد، أي: يتحرك بعض قشرتها رأسيًّا صعودًا ونزولًا، وأُفقيًّا في الجهات الأربع، وبتموج ناتج عن اجتماع الحركة الأفقية والرأسية باضطراب وهيجان وعدم انتظام، فيتحرك سطحها حركة شبيهة بحركة سطح البحر، ولكن أبطأ منها، فتميد، فيميد مَنْ عليها وما عليها، فلأجل ذلك ثبَّتها الله ﷻ بالجبال، ولولا ذلك لَمَادت بنا، ولم يكن لنا ولا لمنازلنا ولا لمُدُنِنا ولا لدَوَابِّنا ولا لمزارعنا ولا لأشجارنا عليها قرار، ونحن نشاهد الهزَّات الأرضية وهي نادرة، فلا تقع في الأماكن نفسها إلا نادرًا، إلا في جهات محدَّدة تعرف بالنشاط الزِّلزالي، ومع ذلك هناك فترات هدوء طويلة في تلك المناطق النشطة زِلزاليًّا، وهناك الخسوفات الأرضية، وهي ناشئة عن تحرُّك سريع لبعض قشرة الأرض، فتتباعد صفيحة قارية عن أختها، ويهوي كلُّ ما قَرُبَ من ذلك الشق وتلك الحفرة إلى قاع سحيق وإلى أعماق طبقة الوشاح الذي هو حجارة سائلة ذائبة كأنه الجحيم، وما هو أسفل منها من الطبقات إلى باطن الأرض.

وإننا لنرى ماذا ينتج عن الخسوفات والانزلاقات الأرضية والزَّلازل والهزَّات من الكوارث، فقل لي بربِّك لو كانت الأرض على هذه السِّمة على سبيل الديمومة، فكيف سيكون عيش الناس والدواب عليها؟!

وحدوث الهزَّات لا ينافي قرار الأرض، لأنه من النادر، والحكم للغالب لا للنادر، فالنادر لا حكم له.

ومن الفروق بين أوصاف الأرض السابقة:

أن وصف الأرض بكونها ﴿مِهَٰدًا﴾ يُلحظ فيه كون الحركة عليها سهلة، فهي ممهَّدة للمشي والسعي عليها، ويسهل السفر من بقعة إلى سائر بقاعها، فلا تَقَطُّع ولا انفصال بين أجزائها بخسوفات وأعماق سحيقة، حتى الجبال تتخلَّلها الممرَّات والسُّبُل، ولذلك يقترن بكونها مَهْدًا ومِهَادًا، النِّعمة من الله تعالى بأنه سلك لنا فيها سُبُلًا، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه: ٥٣].

وكذلك اقترن ذلك بكونها ﴿بِسَاطًا﴾، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩-٢٠]، وناسب الوصف ﴿بِسَاطًا﴾، الذي فيه معنى البَسْط والسَّعة وصفَ السُّبُل بالفِجَاج، ومعنى الفجاج: الواسعة، وقال ﷻ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥]، فامتنَّ بالجبال وامتنَّ بالأنهار والسُّبُل، وكأنه بذلك يدفع تَوَهُّمَ أن تكون الجبال حواجز تمنع التواصل.

ووصف الأرض بكونها ﴿فِرَٰشًا﴾ يُلحظ فيه أن بناء المساكن والاستقرار عليها سهل، لاقتران النوم والجلوس والسُّكون والسُّكنى والسَّكينة بالفراش بمعانيه الحقيقية والمجازية.

وامتنانه ﷻ بكون الأرض ﴿فِرَٰشًا﴾، ورد في موضعين، في البقرة: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، وفي الذاريات: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

واقترن الامتنان بكون الأرض ﴿فِرَٰشًا﴾ في الموضعين بالامتنان بالسماء، فكأنَّ السماء سَقْفٌ لهذا البيت الذي هو الأرض، فناسب وصفها بالفراش لكونها بيتًا ومستقرًّا وسكنًا ومقرًّا للزوجة وهي فراش.

ولا عجب أن يتبع قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ بما بعده من ذكر نظام الزوجية: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

الدَّليل السَّادس: البناء العظيم المحيط بأهل الأرض ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ [البقرة: ٢٢]:

أول ما نريد فَهْمَ معناه بدِقَّة كلمة (السَّماء)، فماذا يكون معناها؟

هاتان كلمتان: ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾، و﴿بِنَآءٗ﴾:

﴿ٱلسَّمَآءَ﴾: من (سَمَوَ) وهي كلمة تدُلُّ عَلَى عُلُوٍّ وارتفاع بحيث يظهر شيء تحته، فيُقال: سَمَوْتُ: إِذَا عَلَوْت، وَسَمَا بَصَرُهُ: عَلَا، فالسَّماء سُمِّيت كذلك لعلوِّها على الأرض، وعلى سُكانها، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي السَّحَابَ سَمَاءً، وَالْمَطَرَ سَمَاءً، فَإِذَا أُرِيدَ بِهِ الْمَطَرُ جُمِعَ عَلَى سُمِيٍّ ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ [نوح: ١١] (١):

إِذَا نَــزَلَ السَّـــماء بِــأَرْضِ قَــوْمٍ ... رَعَيْنَـــاهُ وَإِنْ كَـــانُوا غِضَـــابًا(٢)

والسَّماء المقابل للأرض مؤنَّثة، وقد تذكَّر، ويستعمل للواحد والجمع، لقوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقد يقال في جمعها: سَمَوَاتٍ. قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الزمر: ٥]، وقال: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٨]، فذكَّر، وقال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار: ١]، فأنَّث، ووجه ذلك أنها كالنَّخل في الشَّجر، وما يجري مجراه من أسماء الجنس الذي يذكَّر ويؤنَّث، ويخبر عنه بلفظ الواحد والجمع.

فالسَّماء هي ما علا، ولكنها تطلق هنا على ما يقابل الأرض ممَّا ارتفع ارتفاعًا عظيمًا.

وقد تسأل: عرفنا معنى ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ [البقرة: ٢٢]، فما معنى كلمة ﴿بِنَآءٗ﴾؟ وكيف صوَّرت هذه الكلمة حقيقة وضع السَّماء في الكون؟

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٣/ ٩٨).

(٢) البيت لمعوِّد الحكماء: معاوية بن مالك. ينظر: شرح أدب الكاتب (ص: ١٣٥)، وفي لسان العرب (١٤/ ٣٩٩) بلفظ: (إذا سقط) بدلًا من (إذا نزل).

الجواب: (البِناء) كلمة اشتُقت من بَنَي، يقال: بَنَيْتُ أَبْنِي بِناءً وبِنْيَةً وبِنًى، والبِنَاء: اسم لما يُبْنَى بناءً، قال تعالى: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾ [الزمر: ٢٠].

فيطلق على الشَّيء يَتَوَلَّدُ عَنِ الشَّيء، كَابْنِ الإِنْسَانِ[١]، والبناء وصف للشَّيء يكون متَّصلًا بالشَّيء بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ولا يمكن أن يوجد في مكانه إلا لوجود شيء يتركَّب منه، أو يتركَّب فوقه، فكأنه تولَّد ممَّا تحته.

والبُنيان ما يتركَّب من شيء فشيء، متَّصلًا به نوع اتِّصال، فينشأ من ذلك تزايد في الهيئة المتفرِّقة لتصبح هيئة واحدة متعاظمة متزايدة ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ﴾ [الشُّعَراء: ١٢٨][٢].

والبناء يصوِّر لك النِّظام المبنيَّ المُحكَم الهائل الممتدَّ حولنا، دون أن يختلَّ أو يطيش، كهيئة البناء الذي أحكمه أفضل المهندسين.

وقد ورد بناء السَّماء في القرآن الكريم سبع مرَّات، -غير بناء الصَّرح والغُرَف-، من اثنين وعشرين استعمالًا في البناء؛ ولقد وصف الله ﷻ بناء السَّماء وصفًا دقيقًا:

فأخبر الله ﷻ أنه بنى السَّماء بقوة عظيمة فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وعند ذلك يمكن أن تقول خاشعًا: الله أكبر، وبيَّن أنه جعل السَّماء سبعًا شدادًا، وبنى كلًا منها، فقال ﷻ: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ [النبأ: ١٢].

وعظمة السَّماء وعظمة بنائها تُظْهِر لنا عظمة بانيها، ولذا أقسم الله ﷻ بالسَّماء، وبنائها، وبانيها -جلَّ مَجدُهُ-: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشَّمس: ٥].

---

(١) المفردات للراغب (ص: ١٤٧).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة (١/ ٣٠٣).

ثم أخبرنا ببعض أهمِّ تفاصيل هذا البناء، فأخبر أنه جعلها سقفًا مرفوعًا فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ [الطور: ٥]، ووصف هذا السَّقف بأنه محفوظ فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

ستقول: كيف يمكن أن نقول: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ مع أن الذي يوجد خارج الأرض ليس إلا فضاء تتناثر الكواكب، والأقمار، والنُّجوم، والمجرَّات فيه؟

الجواب: تسمية ما خارج الأرض بالفضاء تسمية خاطئة، فقد كان الناس يظنُّون أنَّ الكون ليس إلا فراغًا ممتدًا تتخلله بعض الكواكب والنُّجوم، وعند الدارسة الدقيقة وجده أهل العلم يمثل البناء الدقيق المتراصَّ المتراكم المتراكب، ونشرت (وول ستريت جورنال) الأمريكيَّة بحثًا يدمِّر بنيان الفكر الإلحادي، فبحلول عام ٢٠١٤م أثبت العلماء أنه لا يوجد أي كوكب من الكواكب-غير الأرض- يُحتمل وجود حياة عليه، وحدَّدوا (٢٠٠) معيار لا بُدَّ من توافرها في أيِّ كوكب حتى توجد فيه حياة، فمثلًا: دون كوكب هائل في الجوار مثل (المشتري) تساهم جاذبيته في إبعاد آلاف الأجرام السَّماويَّة عن الأرض، ستكون هدفًا سهلًا لتلك الأجرام، وهذا يعني -حسبما ورد في البحث- أن قوة تقف وراء هذا الكون فرضت معادلة الحياة من خلال توفير كافَّة المعايير المطلوبة بدقَّة على الأرض، وجعلت منه استثناء قابلًا للحياة في هذا الكون[1].

انظر البناء المحكم المترابط!

وفي البداية ظنَّ العلماء أن هنالك فضاءً كونيًّا كبيرًا، واعتبروا أن المسافات التي بين النجوم والمجرات فارغة لا تحوي شيئًا، ولذلك أطلقوا مصطلح (Space) أي: "فضاء"، ولكن

(١) ينظر: موقع عربي ٢١ بتاريخ ٣/ ١/ ٢٠١٥م. https://assabeel.net/181321

بعد ذلك تبيَّن لهم أنَّ هذا الفضاء ليس فضاءً بكلِّ معنى الكلمة، فاكتشفوا أن الكون يتكوَّن من:

المادة المظلمة التي تشكِّل مع الطَّاقة المظلمة نحو: (٩٦٪).

ومن المادة العاديَّة مثل: المجرَّات، والدُّخان الكونيِّ، والغبار الكونيِّ، والمذنَّبات، والكواكب، والنُّجوم، وتشكِّل أقل من ٤ ٪، ويتابع الفلكيون بناء الكون لنجد أنهم يصفونه بأنه هندسيٌّ مُحْكَم توجد فيه لَبِنات البناء الكوني، وبدؤوا يطلقون مصطلحات جديدة مثل: الجسور الكونيَّة، والجدران الكونيَّة، وفيه المادة المظلمة غير المرئية، وإذا كانت مجرة دَرْب اللَّبانة (التَّبَّانة) تحتوي على حشد هائل من النُّجوم يُقَدَّر بنحو التِّريليون (مليون مليون) نجم، فكيف المجرَّات الأكبر؟!

وفي سنة ١٩٨٩م اكتشفوا ما سمَّوه بـ"الحائط العظيم"، وهو عبارة عن حشد هائل من تجمعات المجرَّات، يبلغ طوله نحو: مائتين وخمسين مليونًا من السِّنين الضَّوئيَّة، وعرضه نحو مئتي مليون سنة ضوئيَّة، وسُمْكه نحو خمسة عشر مليونًا من السِّنين الضَّوئيَّة[1].

يشعر العلماء بأن هناك بِنية معقَّدة لهذا الكون، فاكتشفوا بأنَّ المجرَّات تتوضَّع على خيوط دقيقة وطويلة تشبه نسيج العنكبوت، واكتشفوا أيضًا أنَّ المادة المظلمة تنتشر في كلِّ مكان، وتسيطر على توزع المجرَّات في الكون.

وبعد ذلك أدركوا أنه لا يوجد أي فراغ في هذا الكون فأطلقوا كلمة: (Building) أي: "بناء" على هذا الكون، وهذه الكلمة جديدة عليهم؛ لأنهم رأوا في هذا الكون بالفعل بناءً محكمًا، ولكن هذه المعلومة ليست جديدة على كتاب الله تبارك وتعالى، فقد وصف الله عَزَّ وَجَلَّ السَّماء في آيات القرآن بأنها بناء.

---

(١) ينظر: من آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم (ص: ٢٨٧-٢٩٠).

ويذكر ابن عاشور رحمه الله بأن حقيقة البناء فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مَا يُرْفَعُ سَمْكُهُ عَلَى الْأَرْضِ لِلْوِقَايَةِ، سَوَاءٌ كَانَ مِنْ حَجَرٍ، أَوْ مِنْ أَدَمٍ، أَوْ مِنْ شَعْرٍ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: بَنَى عَلَى امْرَأَتِهِ إِذَا تَزَوَّجَ؛ لِأَنَّ الْمُتَزَوِّجَ يَجْعَلُ بَيْتًا يَسْكُنُ فِيهِ مَعَ امْرَأَتِهِ، وَقَدِ اشْتَهَرَ إطلاق الْبناء على الْقُبَّة مَنْ أَدَمٍ؛ وَلِذَلِكَ سَمَّوُا الْأَدَمَ الَّذِي تُبْنَى مِنْهُ الْقِبَابُ مَبْنَاةً بِفَتْحِ الْمِيمِ وَكَسْرِهَا... [(١)].

وربَّما تساءلت عن هذا الاختلاف التَّعبيريِّ القرآنيِّ: فما الحكمة في التَّعبير هنا بكلمة: ﴿بِنَآءٗ﴾ دون ﴿سَقۡفٗا﴾، كما في سورتي الأنبياء والطُّور؟

الجواب: لأنه يريد أن يبيِّن لك أن السَّماء بناء متكامل، ولأنها بناء كان من الطَّبيعيِّ أن تحيط بالأرض؛ إذ الأرض إما لبنة من لبناتها، وإمَّا جزء تحيط به السَّماء من كلِّ الجهات، فهي من هذه الجهة آية أخرى غير كونها سقفًا، ومع كون السَّماء بناء، فهي سقف للأرض، وحتى تكون سقفًا فلا بُدَّ أن تحيط بالأرض مهما كان شكل الأرض، ولا بُدَّ أن توجد جاذبية الأرض (أن تكون الأرض قرارًا)، فمهما كان شكل الأرض، فإنها دون أن تكون قرارًا يتعرَّض بعض من فيها للسُّقوط، فإذا أردت أن ترى بناءها المحكم، ليس عليك إلا أن تنظر إلى ما تبثُّه التِّلسكوبات الفضائيَّة من صور بالغة الجمال للنُّجوم والمجرَّات، فترى البناء المحكم لهذه اللَّبِنات التي تكوِّن السَّماء الدُّنيَا مع كون المجرَّات بالمليارات، وكلُّ واحدة منها تحمل مليارات الشموس والكواكب، فهذا البناء المرفوع ليس فيه أعمدة مرئية، وعلى الرغم من ذلك لا يسقط، فتأمله ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ٤﴾ [الملك: ٣-٤]. **إن السَّماء بناء محكم عجيب متقن، لا يمكن أن تختلَّ قوانينه أو نظمه بفعلٍ إنسانيٍّ**، والأرض التي هي فراش للناس مجرد لبنة صغيرة في هذا البناء المحكم، بل هي أصغر من الذَّرَّة، والْبِنَاءُ –كما يقول

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٣٢).

رشيد رضا رَحِمَهُ اللهُ في كلام فريد-: «وَضْعُ شَيْءٍ عَلَى شَيْءٍ بِحَيْثُ يَتَكَوَّنُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ بِصُورَةٍ مَخْصُوصَةٍ، وَقَدْ كَوَّنَ اللهُ السَّماء بِنِظَامٍ كَنِظَامِ الْبِنَاءِ، وَسَوَّى أَجْرَامَهَا عَلَى هَذِهِ الصِّفة الْمُشَاهَدَةِ، وَأَمْسَكَهَا بِسُنَّةِ الْجَاذِبِيَّةِ فَلَا تَقَعُ عَلَى الْأَرْضِ، وَلَا يَصْطَدِمُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، إِلَّا إِذَا جَاءَ يَوْمُ الْوَعِيدِ، وَبَطَلَ نِظَامُ هَذَا الْعَالَمِ لِيَعُودَ فِي خَلْقٍ جَدِيدٍ»(١).

وهنا نجد وصفًا دقيقًا للسماء يرويه الطَّبريُّ رَحِمَهُ اللهُ عن ابن عبَّاس وابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، وعن ناس من أصحاب النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾، فبناءُ السَّماء على الأرض كهيئة القُبَّة، وهي سقف على الأرض(٢).

فإن قلت: ما الحكمة من عدم ذِكْر كلمة ﴿لَكُمُ﴾ عند الكلام عن السَّماء، حيث قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾، ولم يقل: (والسَّماء لكم بناء)؟

الجواب: هذا الأسلوب القرآنيُّ في التَّعبير يثير سؤالًا:

هل السَّماء بناء للكون أم هي بناء خاصٌّ بالنسبة لنا؟ فذهب ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ إلى أن هناك حذفًا في الآية، والتَّقدير: والسَّماء لكم بناء، وَحُذِفَ ﴿لَكُمُ﴾ عِنْدَ ذِكْرِ السَّماء إِيجَازًا؛ لِأَنَّ ذِكْرَهُ فِي قَوْله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٢] دَلِيلُ عَلَيْهِ(٣).

وعندي أن السَّماء بناء كونيٌّ عامٌّ لجميع المخلوقات، ولذا لم تأت معها كلمة (لكم)، ويصوِّر ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ بناء السَّماء تصويرًا بديعًا، فيقول:

وَمِنْ هَيئَةِ الفَلَكِ المُسْتَدِيرِ   وَقَفْتُ عَلَى حَدِّهِ المنْتَظَمْ

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٥٧).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٣٦٧).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٣٣٢).

وَمَــا فيــهِ مِــنْ فَلَــكٍ دَائِــرٍ   وَمِــنْ كَوكَــبٍ قَــاطِعٍ كــالعَلَمْ(١)

فهذه السَّماء جعلها الله ﷻ بناء محكمًا، ونحن نسكن في لبنة من لبناتها هي الأرض، نمشي وننام ولا نشعر بأدنى خوف أو قلق أن ينهار هذا البناء مع أن الإنسان إذا كان تحت سقف مهزوز البناء، أعمدته متراخية أو متصدِّعة وَجِلَ وخاف، أما نحن فلا يخطر ببالنا حدوث شيء من قِبَلِ هذا البناء المحكم المحيط بالأرض من كلِّ الجهات.. فمن الذي جعله كذلك؟ الأصنام أم الملوك؟ أم أجهزة المخابرات؟ أم هيئة الأمم؟ ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

ألا تراه دليلًا كافيًا على وحدانية رب الأرض والسَّموات واستحقاقه لعبادة المخلوقات؟

ولا بدَّ أن يتبادر إلى ذهنك هذا السُّؤَال: ما الحكمة في وصف السَّماء هنا بأنها ﴿بِنَآءً﴾**، ووصفها بأنها سقف محفوظ في قوله تعالى:** ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]**، وبأنها سبع طباق في قوله تعالى:** ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣]**، وبأنها سبع شداد في قوله تعالى:** ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢]**، وما الفرق بين هذه الأوصاف؟**

أجيبك بأن هذه الأوصاف الأربعة يُكمِّل بعضها بعضًا في منحك صورة متكاملة عن السَّماء:

الوصف الأوَّل: البناء، وقد رأيت عظمة هذا الوصف ودقَّته.

(١) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) (ص: ٣٧٠، ٣٧١).

والوصف الثاني: السَّقف، وهذا الوصف يَدُلُّ عَلَى ارْتِفَاعٍ فِي إِطْلَالٍ وَانْحِنَاءٍ -كما يصف ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ-(١)، وكان يجب أن يزيد عليه: وإشراف على ما تحته من علوٍّ ليحميهم ويدفع مضرَّتهم، ومنه سَقْف الْبَيْتِ، لِأَنَّهُ عَالٍ مُطِلٌّ يحمي من تحته، فقال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

هنا وصف الله ﷻ السَّماء بأنها سقف، وهذا التعبير القرآني يصوِّر لنا أن السَّماء كلُّ ما علا فوق الأرض علوًّا يجعله مطلًّا، منحنيًا على ما تحته دون أن يمسَّه، حافظًا لما تحته، يجلب لهم المنافع، ويدفع عنهم المضارَّ، ووصْف السَّماء في سورة الأنبياء بأنها سقف محفوظ يحبوك ببصيرة أخرى، فوَصْفها بأنها سقف يعني أنها تحفظ ما تحتها، وأمَّا وَصْفها بأنها سقف محفوظ فهذا معنى زائد يخبرك أن هذا السَّقف مهما تعرض إلى هجمات خارجيَّة أو داخليَّة من تحته أو من فوقه فهو محفوظ، وحتَّى تتصوَّر مقدار الحفظ، فجزء من هذا السَّقف هو الغلاف الجويُّ، فتصوَّرْ فقط كم من النَّيازك والأشعة تهاجم هذا الجزء من السَّقف المحفوظ من خارجه على مدى ملايين السِّنين ولم يؤثِّر ذلك فيه!

والوصف الثَّالث: وصف السَّموات السَّبع بأنها طِباق في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣].

الطِّباق: أن تجعل الشَّيء فوق آخَرَ بقَدرِه، ثم يستعمل الطِّبَاقُ في الشَّيء الذي يكون فوق الآخر فيُغَطِّيه ويقرب أن يساويه، تَقُولُ: أَطبَقْتُ الشَّيء عَلَى الشَّيء، فَالْأَوَّلُ طَبَقٌ لِلثَّانِي، وَقَدْ تَطَابَقَا، فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣]، أي: بعضها فوق بعض يغطي بعضها بعضًا(٢).

(١) مقاييس اللغة (٣/ ٨٧).

(٢) مقاييس اللغة (٣/ ٤٣٩)، المفردات للراغب (ص: ٥١٦)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٣١١).

فهذا الوصف يحبونا بشيء جديد في بناء السَّمَوات:

فكلمة ﴿طِبَاقًا﴾ لها ثلاثة معان:

أحدها: أن بعضها يكون فوق الآخر مغطِّيًا له، وقد يكون الأعلى أكبر من الأسفل، ولا يشترط التَّلاصق عند التَّطابق.

ثانيها: أنها شديدة المطابقة لبعضها في نظامها، وإحكامها.

ثالثها: «أَنَّهَا مُتَمَاثِلَةٌ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ مِثْلُ: التَّكْوِيرِ، وَالتَّحَرُّكِ الْمُنْتَظِمِ فِي أَنْفُسِهَا، وَفِي تَحَرُّكِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى تَحَرُّكِ بَقِيَّتِهَا، بِحَيْثُ لَا تَرْتَطِمُ وَلَا يَتَدَاخَلُ سَيْرُهَا»[(١)].

وأما وصفها بأنها سبع شِداد: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢]:

فأضافت وصفًا جديدًا للسَّموات، وهو شدة بنائها، فشِدَادٌ: جَمْعُ شَدِيدَةٍ، وَهِيَ الْمَوْصُوفَةُ بِالشِّدَّةِ، وَالشِّدَّةُ: الْقُوَّةُ، والشَّدُّ: العَقْد القويُّ. يقال شَدَدْتُ الشَّيء: قوَّيت عُقَدَه، وأحكمت وَثاقها، واشتدَّ الحَبُّ (الحنطة والشَّعير): قَوِي وصَلُب، فالشَّد: العَقْد القويُّ المُحْكَم الذي صلبت أجزاؤه وغلظت.

فمن الشَّدِّ: الإيثاق الحسِّيّ: ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤]. ومن التَّوثيق والتَّقوية المعنويين: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ [ص: ٢٠]: قوَّيناه، ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ [طه: ٣١].

وَالْمَعْنَى: أَنَّ السماء مَتِينَةُ الْخَلْقِ، قَوِيَّةُ الْأَجْرَامِ، لَا يَخْتَلُّ أَمْرُهَا، وَلَا تَنْقُصُ عَلَى مرِّ الْأَزْمَان[(٢)].

فوصف السَّمَوَات بالشِّداد يدلُّ على إحكام بنائها، وغِلَظِهِ، وقوَّته، وهذا ينافي أن تكون فضاء مجرَّدًا.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٦)

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٤٧)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ١١١٤).

الدَّليل السَّابع: الأمن المائي المجّاني، فالله ﷻ الذي يُكوِّن الماء ويتحكَّم في إنزاله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [البقرة: ٢٢]:

ما العلاقة بين هذا الدَّليل العظيم وما قبله؟

الجواب: تُبْصِر الاتِّصال الجميل واضحًا فيما يأتي:

أولًا: ذكر الله ﷻ أنه جعل الأرض فراشًا والسَّماء بناء، فاطمأن الإنسان إلى مسكنه الآمن في ذاته؛ لأنه فراش، والآمن من فوقه إلى ما فوقه بناء محكم، وبقي أن يطمئن إلى توافر غذائه، وأساس حياته، هنا ذكر الله ﷻ الماء؛ فالماء أساس الحياة بالنسبة للبشريَّة، وعبر محمد رشيد رضا رحمه الله عن ذلك، فقال: «ثُمَّ بَعْدَ أَنِ امْتَنَّ بِنِعْمَةِ الْإِيجَادِ، وَنِعْمَةِ الْفِرَاشِ وَالْمِهَادِ، وَنِعْمَةِ السَّماء الَّتِي هِيَ كَالْبِنَاءِ، ذَكَرَ نِعْمَةَ الْإِمْدَادِ، الَّذِي تُحْفَظُ بِهِ هَذِهِ الْأَجْسَادُ»[1].

ثانيًا: لما ذكر الله ﷻ الأرض مستقلَّة عن السَّماء، والسَّماء مستقلَّة عن الأرض، بيَّن كيف جعلهما يتفاعلان بينهما بقدرته ليُنْتِجَ منهما الماء الذي يحتاجه الإنسان لحياته، ويصوِّر الزَّمخشريُّ[2] رحمه الله كيف أحدث الله ﷻ هذا التَّفاعل العجيب بين الأرض والسَّماء فوقها، فجعله أشبه بعقد النِّكاح بين الأرض الـمُقِلَّة والسَّماء الـمُظِلَّة، فأنزل الماء من الـمُظِلَّة لتستقبله الأرض الـمُقِلَّة، ويكون في ذلك النَّفع العظيم للإنسان من غير حول منه ولا قوَّة.

ولا يستطيع أحدٌ أن يزعم أنه يمكنه توليد الماء من العدم، أو التحكُّم في إنزاله في المناطق المختلفة من الأرض.

ولا يَرِدُ على هذا ما قيل بأن الناس قد توصَّلوا إلى طريقة لإنزال المطر بواسطة ما يسمى بـــ"الاستمطار الصناعي"؛ مع أنه ليس مطرًا صناعيًّا، لأن المطر لا يصنعه الإنسان في

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٥٧).

(٢) الكشاف (١/ ٩٣).

المعمل، ولا يُنشئ مطرًا جديدًا، ولا يَخْلق مطرًا من العدم، ولا يُغَيِّرُ القوانين الطبيعية التي تحكم هطول الأمطار، فهو يعمل فقط على تحفيز هذه القوانين لتسريع عملية هطول الأمطار من السحب الموجودة بالفعل، وهذا ما يؤكده الدكتور محمد جمال الدين الفندي - أستاذ الفلك والطبيعة الجوية بكلية العلوم بجامعة القاهرة- بقوله: «إن الظروف الطبيعة التي تؤدي إلى تكوين المُزن – السحاب - ونزول المطر لا يمكن أن يصنعها البشر، بل وحتى لا سبيل إلى التحكم فيها، ولا يزال موضوع المطر الصناعي -استمطار السحب العابرة- مجرد تجارب لم يثبت نجاحها بعدُ، وحتى إذا ما تم نجاحها فإن من اللازم أن توفر الطبيعة الظروف الملائمة للمطر الطبيعي حتى يمكن استمطار السماء صناعيًّا، أي إن واجب علماء الطبيعة الجوية لا يتعدى قدح الزناد فقط، بتوليد حالات من فوق التشبع داخل السحب الركامية، وعلى الأخص داخل مناطق نقط الماء فوق المبرد، بقذف بعض المواد التي تصلح لتكون نوى تكاثف على هيئة مساحيق أو أبخرة، مثل ملح الطعام، أو يود الفضة، أو بلورات ثاني أكسيد الكربون»[(١)].

فعندما يتمُّ إدخال المواد الكيميائية في السحب، فإنَّها تعمل على تحفيز تكوين قطرات الماء وتكبيرها حتى تصبح ثقيلة بما يكفي للسقوط، ولا يُنافي ذلك علم الغيب في إسقاط المطر، بل يُعَدُّ أداةً علميَّةً تُساعدنا على فَهْمٍ أفضلَ لعمليات هطول الأمطار والاستفادة منها. فغاية ما يفعله المُستمطِرون، أن يأتوا إلى السَّبب الأخير مِن العمليَّة المرَكَّبة لتكوين المطر من تبخُّر ورياح ودرجة حرارة ونسبة الرطوبة، فيُزَوِّدوا الغيومَ المتشكِّلة ببعضِ المواد، تحفيزًا لها على إنزال ما تحمله مِن بخار ماء.

---

(١) لماذا أنا مؤمن؟، محمد الفندي (ص: ٨٣-٨٤).

فمَثَل ذلك منهم: كمَثل الفلَّاح مع زرعِه يُوفِّر له الظُّروف الملائمة للنُّمو، ويزيد فيه بعض الموادِ لتسريع نبْتِه، أو تكثير غلَّتِه(١).

وهنا يستثيرك هذا الفعل ﴿أَنزَلَ﴾ فما الذي يُبَصِّرنا به؟

الجواب: كلمة (نَزَلَ) تَدُلُّ عَلَى هُبُوطِ شَـيْءٍ وانحطاطه من علو، وَنَزَلَ عَنْ دَابَّتِهِ نُزُولًا، وَنَزَلَ الْمَطَرُ مِنَ السَّماء نُزُولًا(٢)، فكلمة ﴿أَنزَلَ﴾ توضِّح لنا أن الماء النازل جاء من الأعلى، ولكنه لم يأت بنفسـه، بل الفاعل الذي أنزله هو الله ﷻ، حيث قال الله ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّـمَآءِ مَآءً﴾ [البقرة: ٢٢] ولم يقل: ونزل ماءٌ، فقوَّة الله ﷻ وقدرته أوجدته في الأعلى، ثم أهبطته إلى الأسـفل، وأخبرنا الله ﷻ عن وجوده في الأعلى هنا ثم نزوله، ولم يخبرنا عن تكوُّنه من الأسفل إلى الأعلى.

وقد احتار السَّابقون في مصدر الماء بعد أن اتفقوا على رؤيته نازلًا من السَّماء، ونسب إلى أرسـطو (ت ٣٢٢ ق.م) أنَّ الماء عبارة عن هواء بارد في داخل الأرض يتحوَّل إلى الماء، وقرَّر الفرنسي (برنارد باليسي) (١٥٩٠م) أن الأنهار والينابيع لا يمكن أن يكون لها مصدر غير ماء المطر، بسبب التبخُّر الذي يحدث على ظهر الأرض.

فيبدأ تكوُّنه من تبخُّر الماء من البحار والأنهار وسـطح الأرض، ومن النَّبات وما تطلقه أثناء عملية البناء الضَّوئي، ويرتفع بخار الماء إلى السَّماء أي: إلى الأعلى فوقنا، ثم يتكاثف حول أنوية صـلبة؛ ويتحول من الحالة الغازية إلى الحالة السـائلة أو الصُّـلبة وهكذا تتشكَّل

---

(١) ينظر: المعارضات الفكرية المعاصرة لأحاديث الصحيحين -دراسة نقدية-، د. محمد بن فريد زريوح (٢/ ٩٣٤، ٩٣٥)، توحيد الخالق، الشيخ عبد المجيد الزنداني (ص: ٢٦٠).

(٢) مقاييس اللغة (٥/ ٤١٧).

الغيوم والسُّحُب، وتحرِّك الرياح السُّحُب إلى حيث يشاء الله، والسُّحُب تتشبَّع وتثقل، كما قال تعالَى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢] تنزل حمولتها على هيئة مائيَّة.

وهنا يأتي سؤال: ما الحكمة في تنكير كلمة (ماء) في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؟

الجواب: تنكير كلمة ﴿مَاءً﴾ ينبئنا أن المُنْزَل من السَّماء إنما هو ماء محدَّد، ينزل بقَدْرٍ معيَّنٍ على الأرض؛ لتحيا به، أو لتُدَمَّر حسب مشيئته، فتنكير كلمة: ﴿مَاءً﴾ يخبرنا بأن الماء المنزل ليس إلا بعض الماء لا كلَّ الماء، ولكن الغالب على الماء أن يكون بتقدير تنتفع به الأرض، ويبقي على توازن نسبة المياه فيها، فلا تقل ولا تزيد، حيث يقول: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون:١٨].

وتشير الإحصاءات إلى أنه في الثَّانية الواحدة يتبخَّر من الأرض تقريبًا ١٦ مليون طنٍّ من الماء، أي (٥١٣) تريليون طنٍّ في السَّنَة، وهذا الرقم مساوٍ لكميَّة المطر التي تنزل على الأرض خلال سَنَة.

فهذه هي الدَّورة المتوازنة للماء، ويستنبط ابن عباس رضي الله عنهما من القرآن أنَّ هذه الدَّورة تستمرُّ مهما طغى البشر، حيث قال: «مَا مِنْ عَامٍ أَمْطَرَ مِنْ عَامٍ، وَلَكِنَّ اللهَ يَصْرِفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٠] الآيَةُ(١).

ويصوِّر عبد الرَّحمن القاضي اليمانيُّ رحمه الله دورة الماء، وعظم الإعجاز فيه تصويرًا مدهشًا فيقول:

كن يا أخي إلى السَّحابِ ناظرا   كيف غدا سَيلًا يسيرُ طائرا
أرسلَه لنا الإلهُ رَحمهْ   فهلْ شكرتَ للإلهِ النِّعمهْ
فسلَّط الشَّمسَ على البِحارِ   لبعثِ ما فيها من البُخارِ

---

(١) المستدرك (٣٥٢٠)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه».

ورَفْـعِ مـائـهِ إلـى السَّـمـاءِ   فـوقَ الـجـبـالِ هـذه الشَّـمَّـاءِ
وحـاطَـهُ بـبـاردِ الـهـواءِ   لـوقْـفِ رَفْـعـهِ إلـى السَّـمـاءِ
ولـو أرادَ أوجـدَ الـحـرارهْ   فـلا نـنـالُ عـنـدهـا قُـطَـارهْ
وسـاق نـحـوه الـرِّيـاحَ نُشُـرا   تـثـيره بـعـدُ سـحـابًا مُـعْـصِـرا
فـلا الـجـبـالُ تسـتـطـيـعُ ردَّ ذا   إنْ شـاءَ مِـنْ ورائـهـا أن يَـنْـفُـذا
وسـاقَ أخـرى مثلَـها الخـلَّاقُ   بـقَـدَرٍ منـهُ لـهُ تُسْتَـاقُ

الدَّليل الثامن: دليل الرِّزْق والتَّغذية (الأمن الغذائي): ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]:

ربما تسأل الآن: كيف جعل الله ﷻ خروج الثَّمَرات من أدلَّة استحقاقه لأنْ يعبد وحده –جلَّ مَجدُهُ–؟

الاتِّصال وكمال الانتقال:

ربَّنا أنت خلقتنا، وخلقت من قبلنا، وهيَّأت لنا المسكن بأن جعلت لنا الأرض فراشًا، وأحكمت بناء السَّماء فلا يسقط أو يتضعضع.

وبعد أن بيَّن الله ﷻ أنه هو الذي يتحكَّم في إمدادات المياه، بيَّن أنه هو لا غيره جعل رابطة بَيْن الماء وبَيْن توافر الغذاء في الأرض ليوفِّر لنا الأمن الغذائي، فقال: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢] فالإنسان لا يمكن أن يعيش بدون الثَّمَرات التي تكوِّن الرِّزْق لسائر المخلوقات.

فذكر الله ﷻ أصل نزول الغذاء، بأن أنزل من السَّماء ماء فأخرج به من الثَّمَرات رزقًا للإنسانية، فتكفَّل الله ﷻ لهم بالأمن الغذائيِّ: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، وانظر في جمال معاني الآية:

بصيرة: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢] الأسباب تعمل وتتعطَّل بإذن مسببها، فهي ليست قوَّة مستقلة.

وقد تسأل: ما الصُّورَة التي بصَّرنا بها الجمع بين كلمة ﴿فَأَخْرَجَ﴾ وكلمة ﴿بِهِۦ﴾ قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢]؟

الجواب: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ أي: أخرج الله ﷻ بالماء، والذي أخرج هو الله -جلَّ مَجدُهُ-، ولولا أنه وضع هذا القانون في ارتباط الماء بخروج الثَّمَرات لكُنَّا نصبُّ الماء على الأرض كما نصبُّ الماء على الحَجَر، فلا ينفع شيئًا، لكن الله ﷻ هيَّأ لنا ارتباطًا فريدًا بين نزول الماء وخروج الثَّمر.

والإخراج: إبرازٌ من الخفاء إلى الظُّهور، ومن العدم إلى الوجود، فصوَّرت لنا كلمة ﴿فَأَخْرَجَ﴾ والباء في ﴿بِهِۦ﴾ أن الله ﷻ بقدرته وعظمته وجلاله جعل الماء سببًا في خروج الثَّمَرات ومادَّة لها، كماء الزوج يكون سببًا في خلق الولد، ويُظهِرُ الزَّمخشريُّ ﵀ قوَّة هذا التَّصوير، فيحدِّثنا عن أنَّ الله ﷻ قادر على أن ينشئ الأجناس كلها بلا أسباب ولا موادَّ كما أنشأ نفوس الأسباب والموادِّ، ولكن الله ﷻ وضع أسبابًا وقوانين وسننًا في إنشاء الأشياء وانتقالها من حال إلى حال[1].

وهنا ستسأل عن قوله تعالى: ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، ماذا تصوِّر لنا هاتان الكلمتان؟

الجواب: هاهنا ترى الله ﷻ وضع قانونًا كونيًّا آخر، فقال: ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾، فربط بين الثَّمَرات ووجود الرِّزْق للبشر، فتشكَّلت الثَّروة الزِّراعيَّة التي تنتفع بها أبدان البشر، وكان يمكن للثَّمَرات أن توجد دون أن تنتفع بها الأجساد، ولا تقوم بها صناعات العباد.

---

(١) الكشاف (١/ ٩٤).

وكلمة ﴿رِزۡقًا﴾: تحبونا بمعنيين عجيبين ظهرا فيها بسبب موقعها الإعرابي المتميز:

المعنى الأول: كلمة ﴿رِزۡقًا﴾ مفعول به لكلمة ﴿فَأَخۡرَجَ﴾ فتصوِّر لنا أن الله ﷻ أخرج لكم رزقًا مكوَّنًا من الثَّمَرات، فالمعنى أنَّ الرِّزْق يتكوَّن من هذه الثَّمَرات، وهو بذلك يخبرك أنه يمكن أن يخرج من الثَّمَرات ما ليس رزقًا لنا مثل الحنظل، فهو رزق ليكون دواء لا ليكون غذاء، ومثل القضب فهو رزق للأنعام لا للأنام.

المعنى الثاني: كلمة ﴿رِزۡقًا﴾ تكون مفعولًا لأجله، والتَّقْدير: فأخرج به من الثَّمَرات لأجل أن يكون رزقًا لكم، لا لأجل أن تسرفوا، أو أن تعبثوا، أو أن تتحكَّموا فيه فتحرموه غيركم.

> **بصيرة: ﴿رِزۡقًا لَّكُمۡ﴾: تُعَدُّ قانونًا كونيًّا يربط بين الثَّمَرات ووجود الرِّزْق للبشر، فالثَّروة الزِّراعيَّة من أهمِّ الموارد التي تنتفع بها أبدان البشر، إذ كان يمكن للثَّمَرات أن توجد دون أن تنتفع بها الأجساد، ولا تقوم بها صناعات العباد.**

وقد تسأل: ما الحكمة من ذِكْر الثَّمَرات هاهنا مع أنَّ الماء أساس الحياة للأرض، والأنعام، والناس؟

الجواب: كلمة ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ معبِّرة جدًّا هنا:

أما أولًا: فلأن الثمرات جمع ثَمَرة، وتطلق على كلِّ ما ينتج مما يُستفاد منه مالًا، أو طعامًا، أو سلعة، أو أفكارًا، أو نتاجًا لشيء، فيقرِّر ابن فارس رحمه الله أنها شَيْءٌ يَتَوَلَّدُ عَنْ شَيْءٍ مُتَجَمِّعًا، فيُقال: ثَمَرَةٌ، وَثَمَرٌ، وَثُمُرٌ، وَثِمَارٌ، وثَمَرات، فهي عامَّة في كلِّ ما يُنتَج من الشَّيء، ويقال لكلِّ نَفْع يصدر عن شيء: ثَمَرَة، كقولك: ثمرة العلم العمل الصَّالح، وثمرة العمل الصَّالح الجنَّة، وَثَمَّرَ الرَّجُلُ مَالَهُ: أَحْسَنَ الْقِيَامَ عَلَيْهِ، وَيُقال فِي الدُّعَاءِ: «ثَمَّرَ اللهُ مَالَهُ» أَيْ

نَمَّاهُ[١]، ويكنَّى به عن المال المستفاد، وعلى ذلك حمل ابن عبَّاس ﵄ ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ [الكهف: ٣٤][٢]، وقال مجاهد ﵀: ما كان في القرآن من ثُمُر فهو مال، وما كان من ثَمَر فهو من الثِّمار[٣]، فالثَّمَرات تطلق على كلِّ ما ينتج مما يستفاد منه، وذلك أساس الرِّزْق، فقُصِد بالثَّمَرات العموم.

وأما ثانيًا: فتطلق الثَّمرة في العُرْف على ما يُتَطَعَّم من أحمال الشَّجر، وَالشَّجَرُ الثَّامِرُ: الَّذِي بَلَغَ أَوَانَ أن يُثْمِرُ، وَالْمُثْمِرُ: الَّذِي فِيهِ الثَّمَرُ، كَذَا قال ابْنُ دُرَيْدٍ ﵀[٤]، وبذا تكون الثَّمَرات الزِّراعيَّة مقصودة هنا بخصوصها أيضًا؛ لأن الثَّروة الزِّراعيَّة أساس للثَّروة الحيوانيَّة والصِّناعيَّة، فهي المورد الأول للرِّزْق.

فإن قلت: هل ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٢] جمع قِلَّة أم جمع كثرة؟

الجواب: ذكر الرَّازيُّ ﵀ أن التَّعبير بالثَّمَرات وهو جمع قِلَّة دون الثِّمار أو الثَّمر وهو جمع كثير؛ تَنْبِيهًا عَلَى قِلَّةِ ثِمَارِ الدُّنيَا، وَإِشْعَارًا بِتَعْظِيمِ أَمْرِ الْآخِرَةِ.. هكذا قال[٥].

أظنُّ أنَّ الفخر الرَّازيَّ ﵀ وَهِم، فالمقارنة هنا ليست موجودة حتى يقال بذلك، والسِّيَاق هنا يقتضي المِنَّة والامتنان، فكيف تكون جمع قِلَّة، ويظهر لي أنَّ كلمة ﴿ثمرات﴾ تدلُّ على القِلَّة والكثرة حسب السِّيَاق[٦]، والسِّيَاق هنا في معرض الامتنان، وكمال الإحسان، فتدلُّ

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (١/ ٣٨٨).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١٨/ ٢١).

(٣) معاني القرآن للنحاس (٤/ ٢٣٩).

(٤) ينظر: جمهرة اللغة (١/ ٤٢٣).

(٥) تفسير الرازي (٢/ ٣٤٤).

(٦) مذهب سيبويه والجمهور أن جمعَي السَّلامة للقلةَّ، وذكر الرَّضي في شرح الكافية "وقال ابن خروف: «جمعا السَّلامة مشتركان بين القلَّة والكثرة»، ثم قال الرَّضي: «والظَّاهر أنهما لمطلق الجمع من غير نظر إلى القلَّة والكثرة فيصلحان لهما».

على الكثرة على اختلاف البلدان ومرِّ الأزمان، وزاد في بيان كثرتها ﴿ال﴾ فهي للجنس أي: كلُّ الثَّمَرات، ومما يبيِّن لك أنَّها جمع كثرة أنَّ الجمع ذاته ورد في وصف ثمار الجنَّة فقال الله ﷻ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

ولكننا نتساءل: ما سرُّ التعبير بكلمة ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، وما المعنى الذي تبصِّرنا به؟

وأجيبك بأن: ﴿مِنَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ تصلح أن تكون للتبعيض إذا جعلنا الرِّزْق مختصًا بالغذاء، وتصلح أن تكون للبيان إذا جعلنا الرِّزْق شاملًا للغذاء والدَّواء وسائر الصِّناعات(١).

فإن قلت: ما الحكمة في اختيار كلمة ﴿رِزْقًا﴾ دون أن يقول: طعامًا مثلًا؟

الجواب: لأن الرِّزْق هو الكلمة الجامعة التي تعبِّر عن أعظم أوجه الانتفاع بالثَّمَرات، فيقال: رُزِقَ الخَلْقُ رَزْقًا ورِزْقًا، والجمع: أرزاق، ويطلق الرِّزْق على كلِّ عطاء يُنتفع به(٢)، فهو ما يسدُّ احتياجات الإنسان وضروراته، ويلتذُّ فيه بحياته مهما يكن نوع العطاء الذي رُزِقَه مثل الغذاء كما قال تعالى: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، ويطلق على المال كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: ٨]، ويطلق على الغذاء والماء والمسكن: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، ويطلق

شرح الكافية (٣/ ٣٩٧)، وأما إذا اقترنا بأل الاستغراقية، أو أضيفا إلى معرفة فهما للعموم والاستغراق بلا فرق بين القلَّة والكثرة.

(١) ولعل هذا أكثر تحريرًا مما ذكره ابن عاشور ؒ في التحرير والتنوير (١/ ٣٣٤).

(٢) ينظر: لسان العرب (١٠/ ١١٥).

على الكنوز المدَّخرة، كما قال الله ﷻ -تعقيبًا على كنوز قارون-: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ [القصص: ٨٢].

ولذا قال عُوَيْفُ القَوافي في عُمَرَ بن عبدِ العَزِيزِ:

سُمِّيتَ بالفارُوقِ فافْرُقْ فَرْقَهْ ... وارْزُقْ عِيالَ المُسْلِمين رَزْقَهْ

والأرزاقُ نَوعانِ:

١) ظاهِرَة للأبْدانِ كالأقْواتِ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف: ١٩].

٢) وباطِنَةٌ للقُلُوبِ والنُّفوسِ كالمَعارِف والعُلُوم(١)، فقوله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [المنافقون: ١٠]، أي: من المال، والجاه، والعلم.

فالرِّزْق في هذه الآية يشمل ما يُؤكل ويُلبس ويُستعمل، وكلُّ ذلك ممَّا يخرج من الأرضين، وقد قيَّضه الله ﷻ بما ينزِّله من السَّماء من الماء.

ويلفت نظرك كلمة ﴿لَّكُمْ﴾، فبمَ تبصِّرك؟

أجيبك بأنها تبصِّرك أن الله ﷻ سخَّر لمنفعة الإنسان السَّماء التي هي بناء، والأرض التي هي فراش، والماء النازل من السَّماء، والثَّمرات الخارجة من الأرض.

قال الْجَاحِظُ: إِذَا تَأَمَّلْتَ فِي هَذَا الْعَالَمِ وَجَدْتَهُ كَالْبَيْتِ الْمُعَدِّ فِيهِ كُلُّ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ، فَالسَّماء مَرْفُوعَةٌ كَالسَّقْفِ، وَالْأَرْضُ مَمْدُودَةٌ كَالْبِسَاطِ، وَالنُّجوم مُنَوَّرَةٌ كَالْمَصَابِيحِ، وَالْإِنْسَانُ كَمَالِكِ الْبَيْتِ الْمُتَصَرِّفِ فِيهِ، وَضُرُوبُ النَّبَاتِ مُهَيَّأَةٌ لِمَنَافِعِهِ، وَضُرُوبُ الْحَيَوَانَاتِ مُصَرَّفَةٌ فِي مَصَالِحِهِ، فَهَذِهِ جُمْلَةٌ وَاضِحَةٌ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْعَالَمَ مَخْلُوقٌ بِتَدْبِيرٍ كَامِلٍ، وَتَقْدِيرٍ شَامِلٍ، وَحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ، وَقُدْرَةٍ غَيْرِ مُتَنَاهِيَةٍ(٢).

(١) ينظر: تاج العروس (٢٥/ ٣٣٦).

(٢) تفسير الرازي (٢/ ٣٤٢).

في هذه الآية ذكر الله ﷻ: أنه جعل الأرض فراشًا، والسَّماء بناء، ثم بيَّن تفاعل ما بين الأرض والسَّماء، حيث أنزل من السَّماء ماء، فهذا من جهة السَّماء، فأخرج به من الثَّمرات رزقًا لكم، فهذا من جهة الأرض، فكيف عبَّرت هذه النِّعم عن أمر معجز لا يمكن أن يستطيعه بشر؟

الجواب: تأمَّل في ترتيب هذه الأدلَّة المدهشة لترى أنَّ **كلَّ ما كَانَ أَظْهَرَ دَلَالَةً كَانَ أَقْوَى إِفَادَةً**، وَكَانَ أَوْلَى بِالذِّكْرِ، فَلِهَذَا السَّبَب قَدَّمَ ذِكْرَ نَفْسِ الْإِنْسَانِ، ثُمَّ ثَنَّاهُ بِآبَائِهِ وَأُمَّهَاتِهِ، ثُمَّ ثَلَّثَ بِالْأَرْض؛ لِأَنَّ الْأَرْضَ أَقْرَبُ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنَ السَّماء، وَالْإِنْسَان أَعْرَفُ بِحَالِ الْأَرْضِ مِنْهُ بِأَحْوَالِ السَّماء، وَإِنَّمَا قَدَّمَ ذِكْرَ السَّماء عَلَى نُزُولِ الْمَاءِ مِنَ السَّماء وَخُرُوجِ الثَّمرات بِسَبَبِهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ كَالْأَمْرِ الْمُتَوَلِّدِ مِنَ السَّماء وَالْأَرْضِ، وَالْأَثَرُ مُتَأَخِّرٌ عَنِ الْمُؤَثِّرِ، فَلِهَذَا السَّبَب أَخَّرَ اللهُ ﷻ ذِكْرَهُ عَنْ ذِكْرِ الْأَرْضِ وَالسَّماء[1].

ثم قلِّب بفكرك في الأمن الغذائيِّ:

أن مصدر الماء فيه هو الأرض، والذي خلق الأرض هو الله ﷻ، ثم تكوينه هذا المصدر ليتصاعد في السَّماء لا يمكن أن يدَّعيه أحد من الآلهة البشريَّة والحَجَريَّة، فمصدره الله ﷻ، ثمَّ تقسيم إنزاله في الأرض لا يستطيعه إلا الله ﷻ، الآن تعال إلى الأعجب في ذلك كلِّه:

الأعجب في هذا الأمن الغذائيِّ الذي تكفَّل الله ﷻ به أنه لن يستمرَّ لشهرين أو سنتين، كما تفعل الدُّول التي تتخذ الاحتياطات الغذائيَّة؛ خوفًا من النَّكبات والحروب، بل إنَّ الله ﷻ أنزل من السَّماء ماء فأخرج به من الثَّمرات رزقًا لكم منذ ما قبل آدم ﵇ على امتداد السَّنوات والأعوام ولمختلف الأجناس والأقوام ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠]. ويبين أبو هُرَيْرَةَ ﵁ لمحة تصويريَّة نبويَّة لما بثَّه الله ﷻ من نِعَمٍ في الأرض، حيث يروي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَدُ اللهِ مَلْأَى لا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ - وَقال-

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٣٦).

أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوات وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ - وَقال- عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الأُخْرَى الْمِيزَانُ، يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ»[١].

والآن: أفلا ترى هذا الإحسان الذي لا ينضب؟ ألا ترى -أيَّدك الله- أنك ربَّما استعبدك إحسان مخلوق أعطاك ألفًا أو ألفين، أو بيتًا أو بيتين، فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ؟ فكيف شعورك أمام مَنْ خلقك من العدم، وربَّاك بالنِّعم، وهيَّأ لك المسكن، والسقف، والمأكل والمشرب، والمغنم مع كلِّ نَفَس تتنفسه طوال الحياة، بل هيَّأ لك الوجود قبل الوجود؟

ويُظهِر البقاعيُّ رحمه الله قوَّة هذه الأدلَّة، وكفايتها لإقناع غير المعاندين، فيقول: ولا يشكُّ ذو حسٍّ إذا تيقَّظ من نوم أو غفلة، فوجد بساطًا قد فرش له، وخيمة قد ضُربت عليه، وعُولج له طعام وشراب قُدِّم له أنَّ نَفْسَه تنبعث بذاتها لتعظيم مَنْ فعل ذلك بها، ولتقلِّد نعمته وإكباره؛ فلتنزيل هذه الدَّعوة إلى هذا البيان الذي يضطر النَّفْس إلى الإذعان، ويدخل العلم بمقتضاها في رتبة الضَّرورة والوجدان، كانت هذه الدَّعوة دعوة عربية جارية على مقتضى أحوال العرب، لأن العرب لا تعدو بأنفسها العلم الضَّروري، وليس من شأنها تكلُّف الأفكار، والتَّسبُّب إلى تواني العلوم النَّظريَّة المأخوذة من مقتضى الأمَارَات والأدلَّة... لا يتسبَّب لها إلى دخول ريب في علومها، لأنَّ كلَّ علم مكتسب يتكلَّف التَّسبُّب له بآيات وعلامات ودلائل تبعد من الحسِّ، وأوائل هجوم العقل تتعارض عليه الأدلَّة ويعتاده الرَّيب، فحفظت هذه الدَّعوة العربية عن التكلُّف، وأجريت على ما أحكمه صدر السُّورَة في قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢][٢].

---

(١) البخاري (٧٤١١)، والسَّحَّاء: الدَّائمة الصَّب. كشف المشكل من حديث الصحيحين (٣/ ٥١١).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ١٤٩).

تفصيل رائق مدهش للإمام الرَّازيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ في كون الأرض فراشًا يسبق به قادة مؤتمرات المناخ، ومؤسَّسات البيئة:

واسمع إلى هذا الفكر الصَّاعد في السَّماء، يسبح به الرَّازيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ متدبِّرًا وهو ينظر في أدلَّة الحياة، فيقول: «فَالْحَاصِلُ أَنَّ الْأَرْضَ أُمُّكَ، بَلْ أَشْفَقُ مِنَ الْأُمِّ، لِأَنَّ الْأُمَّ تَسْقِيكَ لَوْنًا وَاحِدًا مِنَ اللَّبَنِ، وَالْأَرْضَ تُطْعِمُكَ كَذَا وَكَذَا لَوْنًا مِنَ الْأَطْعِمَةِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥] مَعْنَاهُ: نَرُدُّكُمْ إِلَى هَذِهِ الْأُمِّ، وَهَذَا لَيْسَ بِوَعِيدٍ؛ لِأَنَّ الْمَرْءَ لَا يُوعَدُ بِأُمِّهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مَكَانَكَ مِنَ الْأُمِّ الَّتِي وَلَدَتْكَ أَضْيَقُ مِنْ مَكَانِكَ مِنَ الْأَرْضِ، ثُمَّ إِنَّكَ كُنْتَ فِي بَطْنِ الْأُمِّ تسعة أشهر فما مَسَّكَ جُوعٌ وَلَا عَطَشٌ، فَكَيْفَ إِذَا دَخَلْتَ بَطْنَ الْأُمِّ الْكُبْرَى؟! وَلَكِنَّ الشَّرْطَ أَنْ تَدْخُلَ بَطْنَ هَذِهِ الْأُمِّ الْكُبْرَى، كَمَا كُنْتَ فِي بَطْنِ الْأُمِّ الصُّغْرَى، لِأَنَّكَ حِينَ كُنْتَ فِي بَطْنِ الْأُمِّ الصُّغْرَى مَا كَانَتْ لَكَ زَلَّةٌ، فَضْلًا عَنْ أَنْ تَكُونَ لَكَ كَبِيرَةٌ، بَلْ كُنْتَ مُطِيعًا لِلَّهِ، بِحَيْثُ دَعَاكَ مَرَّةً إِلَى الْخُرُوجِ إِلَى الدُّنْيَا، فَخَرَجْتَ إِلَيْهَا بِالرَّأْسِ طَاعَةً مِنْكَ لِرَبِّكَ، وَالْيَوْمَ يَدْعُوكَ سَبْعِينَ مَرَّةً إِلَى الصَّلَاةِ فَلَا تُجِيبُهُ بِرِجْلِكَ»(١).

فقارن بين هذا التَّصوُّر الإسلاميِّ للأرض وأحدث مقولات التَّنمية المستدامة، أتجد له نظيرًا؟!

وهذه الثَّمرات رزق لنا لنأكلها، كما هي رزق لنا لنستفيد منها أشياء أخرى بوساطات أخرى، ومثالها ما ذكروه عن الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أنه سئل: مَا الدَّلِيل عَلَى وُجُودِ الصَّانِعِ؟ فَقَالَ: وَرَقَةُ الْفِرْصَادِ (التُّوت) طَعْمُهَا، وَلَوْنُهَا، وَرِيحُهَا، وَطَبْعُهَا وَاحِدٌ عِنْدَكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ:

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٤٣).

فَتَأْكُلُهَا دُودَةُ الْقَزِّ فَيَخْرُجُ مِنْهَا الإِبْرِيسَمُ (الحرير)، وَالنَّحْلُ فَيَخْرُجُ مِنْهَا الْعَسَلُ، وَالشَّاةُ فَيَخْرُجُ مِنْهَا الْبَعْرُ، وَيَأْكُلُهَا الظِّبَاءُ فَيَنْعَقِدُ فِي نَوَافِجِهَا الْمِسْكُ، فَمَنِ الَّذِي جَعَلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ كَذَلِكَ مَعَ أَنَّ الطَّبْعَ وَاحِدٌ؟[١].

تَأَمَّلْ فِي نَبَاتِ الْأَرْضِ وَانْظُرْ   إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِيكُ
عُيُونٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ   بأحداقٍ كَمَا الذَّهَبُ السَّبِيكُ
عَلَى قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٍ   بِأَنَّ اللهَ لَيس لَه شَرِيكُ [٢]

وسُئِلَ أَعْرَابِيٌّ عَنِ الدَّلِيل فَقَالَ: الْبَعَرَةُ تَدُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ، وَالرَّوْثُ عَلَى الْحَمِيرِ، وَآثَارُ الْأَقْدَامِ عَلَى الْمَسِيرِ، فَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَأَرْضٌ ذَاتُ فِجَاجٍ، وَبِحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ، أَمَا تَدُلُّ عَلَى الصَّانِعِ الْحَلِيمِ الْعَلِيمِ الْقَدِيرِ؟[٣].

وقد تتساءل أيضًا: ما الحكمة من ورود جميع الأفعال بصيغة الماضي: ﴿خَلَقَ﴾، ﴿جَعَلَ﴾، ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿أَخْرَجَ﴾؟

الجواب: لأن المقصود الجمع بين أمرين: حقيقة أن الله ﷻ هو الذي فعل ذلك، وأنه فعل ذلك منذ البداية مع استمراره في هذه الأفعال.. هل تدري إلامَ يومئ هذا؟

إنه يعني أن الله ﷻ يخبرك أنه لا يمكن أن ينشأ الخلق، وتستمرَّ قوانينه إلا بالله ﷻ منذ نشأة الأرض وتكوُّن قشرتها الخارجيَّة، وتكوُّن الغلاف الجويِّ الغازيِّ حولها، وإنزال الماء

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٣٣).

(٢) الأبيات لأبي نواس. ينظر: أحسن ما سمعت للثعالبي (ص: ١٠)، و(اللُّجين): الفضة. و(الزَّبرجد): حَجَر كريم ذو ألوان كثيرة، أشهرها الأخضر والأصفر.

(٣) تفسير الرازي (٢/ ٣٣٤).

من السُّحُب المتكوِّنة من الغازات والأبخرة التي خرجت من باطن الأرض، وتسبَّبت بعد ذلك في بثِّ الحياة النَّباتيَّة على سطحها.

فإن قلت: ما الذي تصورِّه لك الأفعال في هاتين الآيتين: ﴿خَلَقَكُمْ﴾، ﴿جَعَلَ﴾، ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿أَخْرَجَ﴾؟

الجواب: تصوِّر هذه الأفعال أن وراء هذه الحياة فاعلًا قويًّا قادرًا خبيرًا بصيرًا تنبع قدرته من حياته الذَّاتيَّة جلَّ مَجدُهُ، وإلا لما كان للحياة وجود، وتصوِّر لك أن الأسباب التي جعلها الله ﷻ للحياة تدلُّ على مسببها، لكنَّ المرتابين نظروا إلى الأسباب فاتخذوها آلهة، وعبدوا الطَّبيعة التي طبعها الله ﷻ على قوانين محدَّدة لتدلَّ عليه سبحانه، فنظروا إلى الدَّليل وتركوا المدلول، ولذا قيل: لَوْلَا الْأَسْبَابُ لَمَا ارْتَابَ مُرْتَابٌ[1].. ونحن نقول: بل الأسباب دليل على مسبِّبها عند ذوي العقول وأولي الألباب، وهاهو زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ يستدلُّ بها على تفرُّد ربِّ العالمين بالألوهيَّة، فيقول:

أَرَبًّا وَاحِدًا أَمْ أَلْفَ رَبٍّ — أَدِينُ إِذَا تُقُسِّمت الْأُمُورُ

عزلتُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى جَمِيعًا — كذلكَ يَفعلُ الجَلْدُ الصبورُ[2]

القرآن كتاب قائم على بعث عقل الإنسان وفِكْره في خلق السَّموات والأرض:

هذه الأدلَّة الثَّمانية مدهشة تجعلنا نتساءل: هل القرآن كتاب عبادات دينية أم هو كتاب يحدِّثنا عن علوم الحياة والكون؟ فعندما تتلو هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] تجد أن الله ﷻ يخاطب الناس جميعًا

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٤٣).

(٢) تفسير الرازي (٢/ ٣٤٦)، وهذان البيتان ذكرهما ابن إسحاق في مغازيه (ص: ١١٧).

خطابًا يأمرهم فيه أن يعبدوه، ويبرهن لهم على استحقاقه أن يُعبد ويُوحَّد من خلال النَّظر في الأدلَّة المادِّيَّة المشاهدة أمامهم، وخاصَّة أدلَّة الحياة السَّبعة، فماذا يبصِّرك هذا؟

عندما تقرأ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ... ﴿٢١﴾﴾ **ثم تقرأ:** ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]؛ **فإنك تجد أنَّ الله ﷻ جمع بين وجوب عبادته، وبين أدلَّة الحياة السَّبعة حيث قال: اعبدوا، ثم أثبت لنفسه حقَّ أن يعبده النَّاس بالنَّظر إلى الأدلَّة الثَّمانية، وهذا يُبَصِّرنا ببصيرة واضحة:**

بصيرة: أدلَّة الحياة السَّبعة تبصِّرك بأفعال الله ﷻ العظمى التي لا يستطيعها أحد سواه (وهو ما نسميه بالرُّبوبيَّة)، وهذا يوجب عليك أن توحِّده في عبادته، وهو ما نسميه بالألوهيَّة، والمشركون يتلاعبون بالأمرين معًا، فيجعلون له أندادًا في ألوهيَّته وفي ربوبيَّته.

وأدلَّة الحياة تبصِّرك بأن من أهمِّ طرق مَعْرِفَةِ اللهِ تَعَالَى طريق النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ[1].

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٢٣).

أسباب افتتاح القرآن الكريم بذكر أدلّة الحياة:

أسباب افتتاح القرآن الكريم بذكر أدلة الحياة	
الْأَوَّلُ	**الثاني**
عموم الفهم لعموم الناس.	الإفحام ورفع راية الاستسلام بعد إقامة الحُجَّة.
الثَّالث	**الرابع**
رؤية الحق، وإخبات القلب.	أدلة الحياة تشكل أصول البينات البرهانية على استحقاق الله.

مُفصّل تفسير سورة البقرة (٢) — عبد السلام مقبل المجيدي

وهنا يستحوذ عليك السُّؤال الآتي:

ما الحكمة من ذِكْر هذه الأدلَّة الثَّمانية الحاسمة: التَّربية-خلقكم- خلق من قبلكم-لعلَّكم تتقون- جعل الأرض فراشًا- جعل السَّماء بناء-أنزل من السَّماء ماء-أخرج به من الثَّمَرات رزقًا؟ وما الحكمة من ذِكْر هذه الأدلَّة الثَّمانية في بداية القرآن المجيد دون غيرها من الأدلَّة الأخرى؟

الجواب: خَصَّ الله ﷻ هَذَا النَّوع مِنَ الْأَدِلَّةِ، فجعله في بداية كتابه المجيد للأسباب الآتية:

السَّبَب الْأَوَّلُ: عموم الفهم لعموم الناس:

فيشترك في فَهْم هذه الأدلَّة كلُّ طبقات الناس على اختلاف ثقافاتهم وتعليمهم، وكلٌّ منهم يجد فيها النِّسبة التي تناسب علمه وفهمه، فيجد فيها الفلَّاح والمزارع والأُمِّي وأمثالهم الأدلَّة التي تجذبهم، وتحاصر عقولهم فلا يملكون إلا أن يعبدوا الله ﷻ، ويُسْلِموا الوجه له وهو

رب العالمين، ما لم يحجبهم العناد، ويجد فيها الفيزيائيُّ والكيميائيُّ، وعالم الفلك، والطبيب الجرَّاح وأمثالهم الأدلة التي تحيط بأفهامهم، وتجذب أنظارهم، وأفكارهم، وتجعلهم يخرُّون في محراب الخشوع والاستسلام إن لم تحجبهم موانع الكبر.

السَّبَب الثاني: الإفحام ورفع راية الاستسلام بعد إقامة الحُجَّة:

فأمام هذه الأدلَّة لا يستطيع أحد أن يزعم أنه يستطيع مثلها، أو أن معبوده مهما كان يمكنه أن يشارك الله ﷻ فيها، وهنا تشعر بهذا الاهتمام القرآنيِّ بأفعال الرُّبوبيَّة: خلقكم، خلق من قبلكم، جعل لكم الأرض، جعل السَّماء، أنزل من السَّماء، أخرج من الثَّمرات... كلُّ هذه الأفعال تشعر معها بعظمة الله ﷻ، وبعض الناس لم يفهم ذلك، وظنَّ أن المشركين يوحِّدون الله ﷻ في ربوبيته، وهذا خطأ، فقد أخبر الله ﷻ أنهم عندما أقرُّوا ظاهريًّا بالرُّبوبيَّة فإنما أقرُّوا بألسنتهم لا بقلوبهم، فقال عنهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزمر: ٣]، وقال البيضاويُّ رحمه الله: «﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: ٢٥] لوضوح الدَّليل المانع من إسناد الخلق إلى غيره، بحيث اضطروا إلى إذعانه»(١).

ووجدنا الله ﷻ يُبصِّرنا أن الكفَّار ما كانوا مؤمنين بالرُّبوبيَّة كما لم يؤمنوا بالألوهِيَّة، فحكى الله ﷻ على لسان يوسف عليه السلام: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠]، وقال عزَّ من قائل: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

---

(١) تفسير البيضاوي (٤/ ٢١٦).

السَّبَب الثَّالث: رؤية الحق، وإخبات القلب:

فلَيْسَ الْغَرَضُ مِنَ الدَّلَائِلِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمُجَادَلَةَ، بَلِ الْغَرَضُ مِنْهَا تَحْصِيلُ الْعَقَائِدِ الْحَقَّةِ فِي الْقُلُوبِ، وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الدَّلَائِلِ أَقْوَى مِنْ سَائِرِ الطُّرُقِ فِي هَذَا الْبَابِ؛ لِأَنَّ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الدَّلَائِلِ كَمَا يفيد العلم بوجود الخالق فهو يذكر نعم الْخَالِقِ عَلَيْنَا، فَإِنَّ الْوُجُودَ وَالْحَيَاةَ مِنَ النِّعَمِ الْعَظِيمَةِ عَلَيْنَا، وَتَذْكِيرُ النِّعَمِ مِمَّا يُوجِبُ الْمَحَبَّةَ، وَتَرْكَ الْمُنَازَعَةِ، وَحُصُولَ الِانْقِيَادِ، فَلِهَذَا السَّبَبِ كَانَ ذِكْرُ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْأَدِلَّةِ أَوْلَى مِنْ سَائِرِ الْأَنْوَاعِ[1].

وهذا يعني أن يهتمَّ المسلم بمعرفة تفاصيل الخلق واكتشافه؛ إذ يزيده ذلك إيمانًا، فكُلُّ ما لفت القرآن المجيد نظرنا إليه، فَالِاشْتِغَالُ بِهِ من أعظم العبادات التي تبني العلاقة بين الإنسانية وربِّهم العظيم، فَذَلِكَ -كما يقول السَّيِّد رشيد رضا رحمه الله-: «تَنْبِيهٌ وَإِرْشَادٌ إِلَى الِاعْتِبَارِ بِمَا فِي خَلْقِنَا مِنَ الْحِكَمِ وَالْأَسْرَارِ»[2].

السَّبَب الرابع: أدلَّة الحياة تشكِّل أصول البيِّنات البرهانية على استحقاق الله سبحانه وتعالى للعبادة:

يكفي أن نشير هنا إلى ما نشره موقع (عربي٢١) من أن صحيفة (وول ستريت جورنال) الأمريكية نشرت بحثًا لـ(إريك ميتاكساس) يرد فيه من وجهة نظر علمية بحتة على موجة الإلحاد التي تتصاعد في العالم، فيقول -ضمن ما يقول-تعليقًا على عنوان نشرته مجلة التايمز عام ١٩٦٦م تتساءل فيه «هل مات الإله؟»:

قال العالم الفلكي (فريد هويل) الذي صاغ مصطلح "الانفجار الكبير": إن إلحاده تعرَّض لهزَّة عنيفة بسبب هذه التَّطوُّرات، ثم كتب بعد ذلك يقول: «إن التفسير المعقول لهذه الحقائق

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٣٣).

(٢) تفسير المنار (١/ ١٥٢).

يقترح بأن قوَّة ذكيَّة خارقة قد تلاعبت بالفيزياء، وكذلك بالكيمياء، والأحياء.. إنَّ الأرقام النَّاجمة عن هذه الحقائق تبدو لي دامغة جدًّا لدرجة تضع هذا الاستنتاج فوق الشُّبهات».

ويقول عالم الفيزياء النَّظريَّة (بول دافيس): «إنَّ الدَّلائل على حدوث الخلق دامغة»، ويقول الأستاذ في جامعة أكسفورد الدكتور (جون لينوكس): «كلَّما ازدادت معرفتنا بالكون، تعزَّزت النَّظريَّة القائلة بوجود الخالق، واكتسبت المزيد من الصِّدقية كأفضل تفسير لوجودنا هنا»، **ويختتم الكاتب مقاله بالقول: إن أعظم معجزة على مرِّ الزَّمان هي وجود الكون، ولا يكاد يقترب شيء من عظمة هذه المعجزة. إنها أمُّ المعجزات. إنها المعجزة التي تشير حتمًا عند كلِّ ومضة ضياء تنبعث من كلِّ نجم من النُّجوم إلى شيء، أو أحد، فوق الكون.**

إنه الله جَلَّ جَلَالُهُ أنشأنا من العدم، وغذَّانا بالنِّعم، ووالى علينا شتى أنواع العطاء والكرم، وهدانا حتى بلغنا الأَشُدَّ مبيِّنًا لنا التي هي أقوم.. أفلا يستحقُّ أن يكون هو المعبود، وقد خلق لنا كلَّ هذا الوجود؟!

شَـــهِدتْ غرائـــبُ صُـــنعهِ بوجـــودهِ ... لـــولاهُ مـــا شَـــهِدتْ بـــهِ لـــولاهُ
وإليـــهِ أذعنـــتِ العُقُـــولُ فآمنـــتْ ... بالغَيـــبِ تُـــؤْثِرُ حبَّهـــا إيَّـــاهُ
سـبحانَ مـنْ عَنَـتِ الوُجُـوهُ لوجهـهِ ... ولـــهُ ســـجودُ أوجـــهٌ وجبـــاهُ
طوعًـــا وكرهًـــا خاضـــعينَ لِعِـــزِّهِ ... فلـــهُ عليهـــا الطَّـــوعُ والإكـــراهُ
ســـلْ عنـــهُ ذراتِ الوُجُـــودِ فإنَّهـــا ... تـــدعوهُ معبـــودًا لهـــا ربَّـــاهُ
مـــا كـــانَ يُعبَـــدُ مـــنْ إلـــهٍ غيـــرُهُ ... والكـــلُّ تحـــتَ القَهْـــرِ وهْـــوَ إلـــهُ
أبـــدى بمُحْكَـــمِ صُـــنعهِ مـــنْ نُطْفَـــةٍ ... بَشَـــرًا سَـــويًّا جـــلَّ مَـــنْ سَـــوَّاهُ
وبنـى السَّـمَواتِ العُلـى والعـرشَ والـ ... ـــكرسيَّ ثـــمَّ عـــلَا الجميـــعَ عـــلاهُ

ودحـا بِسـاطَ الأرضِ فرشًـا مُثبتًـا — بالرَّاسـياتِ وبالنَّبـاتِ حَـلاَهُ

تجـري الرِّيـاحُ علـى اختـلافِ هُبُوبِها — عـنْ إذنِـهِ والفُلْـكُ والأَمْـواهُ(١)

النَّتيجة الحاسمة لهذه الأدلَّة: التَّأكيد على توحيد مَنْ صنع ذلك، ونفي الشرك عنه، وتجد هذه النَّتيجة الحاسمة في ختام الآية: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

وهنا لا بد أن تربط الأواخر بالأوائل: فما علاقة قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] **بقوله في بداية هذا المحور: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾** [البقرة: ٢١]**، فالله ﷻ في البداية أمر بعبادته، وهنا نهى عن أن يجعلوا له أندادًا في عبادته؟**

هنا تعجب من عظمة القرآن، وسيطرته على سامعه، وجمعه له أنواعًا من الإقناعات والمخاطبات، فـ(لَا) نَاهِيَةٌ، وَالْفِعْلُ مَجْزُومٌ، وهذا الختام عندما تجمعه مع تلك البداية تجده يكشف لك ثلاث وِجْهات:

الوِجْهة الأولى: البداية توجب عبادة الله –جلَّ مَجدُهُ– والختام ينهى عن الإشـراك به، واجتمع من البداية والختام توحيده –تعالى مَجدُهُ– في العبادة، والنهي عن الإشراك به.

الوِجْهة الثَّانية: كشـف حقيقة الملحدين الذين ينكرون وجود الله – جلَّ مَجدُهُ– فَهُمْ يظهرون بمظهر الذين لا يعبدون أحدًا، وحقيقتهم أنهم يشركون، فيجعلون لله أندادًا، فإن لم يجعلوها ممَّا حولهم، فَهُمْ يجعلون أنفسـهم أندادًا له، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

الوِجْهة الثَّالثة: كشـف حقيقة المشـركين، فهم يزعمون أنهم يعبدون الله ﷻ، وتنظر إلى واقعهم، فتجدهم يشـركون معه أصـنامهم أو معبوداتهم، أو من يطيعونه في معصـية ربهم، وعندها تجد أن هذا الشِّـرك يسـاوي نفي العبادة عن الله ﷻ، ويقرِّر ابن عاشـور رحمه الله ذلك

---

(١) ديوان البرعي (ص: ١٦، ١٧).

فيقول: «وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ الْإِشْرَاكُ لِلْمَعْبُودِ فِي الْعِبَادَةِ يُشْبِهُ تَرْكَ الْعِبَادَةِ، جُعِلَ تَرْكُ الْإِشْرَاكِ[1] مُسَاوِيًا لِنَقِيضِ الْعِبَادَةِ؛ لِأَنَّ الْإِشْرَاكَ مَا هُوَ إِلَّا تَرْكٌ لِعِبَادَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَوْقَاتِ تَعْظِيمِ شُرَكَائِهِمْ»[2].

وهنا تشتاق إلى معرفة معنى هاتين الكلمتين: ﴿تَجْعَلُواْ﴾، ﴿أَندَادًا﴾، فما معناهما؟

الجواب: كلمة ﴿تَجْعَلُواْ﴾ من ﴿جَعَلَ﴾ وهي تعني: خصَّص شيئًا لشيء، وقد يلزم من ذلك أن يوجده ثم يخصِّصه[3].

وأما كلمة ﴿أَندَادًا﴾: فمعرفتها تجعل الإيمان يملأ قلبك؛ لأنك ستدرك كيف أوضحتها الآية لك:

فالأنداد جمع نِدٍّ، والنِّدُّ: العِدْلُ والمِثْل، وهو ما كانَ مثل الشَّيء يُضادُّه في أموره، كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه لأبي سُفْيان بن الحارث:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ[4]

وأصله من نَدَّ، وهي كلمة تدُلُّ عَلَى شُرُودٍ وَفِرَاقٍ، وَنَدَّ الْبَعِيرُ نَدًّا وَنُدُودًا: ذَهَبَ عَلَى وَجْهِهِ شَارِدًا، وكأن الند صار بنفسه مستقلًا، وكذلك النِّدُّ وَالنَّدِيدُ: الَّذِي يُنَادُّ فِي الْأَمْرِ، أَيْ يَأْتِي بِرَأْيٍ غَيْرِ رَأْيِ صَاحِبِهِ، وناددت الرجل: خالفته ونافرته، من ندّ ندًا إذا نفر، والضد هو أن يعتقب الشَّيئان المتنافيان على جنسٍ واحدٍ، ونديد الشَّيء مشاركه في جوهره، وذلك ضرب

---

(١) كذا في المطبوع، ولعل الصواب: جُعِلَ الإشْراكُ مساويًا لنقيض العبادة.

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٣٤).

(٣) وقد سبق التحليل اللغوي لهذه الكلمة. ينظر: (ص: ٥٧).

(٤) ديوان حسان بن ثابت رضي الله عنه (ص ٢٠)، ويروى بـ(بِنِدٍّ) بدلًا من (بِكُفْءٍ).

من المماثلة؛ فإن المِثْل يقال في أي مشاركة كانت، فكلُّ نِدٍّ مِثْل، وليس كلُّ مِثْل نِدًّا، ويقال: نِدُّه، ونديده، ونديدته [١].

ويرى الزَّمخشريُّ أن النِّد لا يقال إلا للمِثْل المخالف المناوئ، فقد قال جرير:

أَتيمًا تَجْعَلُونَ إِلَيَّ نِدًّا   ومَا تَيْمٌ لِذِي حَسَبٍ نَدِيدَا [٢]

ومعنى قولهم: «ليس لله نِدٌّ ولا ضِدٌّ»: نفي ما يسدُّ مسدَّه، ونفي ما ينافيه [٣]، فالله تعالى لا ندَّ له ولا ضدَّ، والنِّد: هو المثيل المُخالِف المُناوِئ المُقاوِم في صفة القيام والدَّوام المُعادِل لله في شيء من الأشياء أو في كلِّ شيء.

وهنا ربما ينقدح لك أن ترى دِقَّة التَّعبير القرآني في قول ربِّنا ﷻ: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ [البقرة: ٢٢] فلماذا عبَّر بالجَعْل، ولم يقل: فلا تسمُّوا لله أندادًا؟

ويتَّضح **الجواب** من خلال ما يأتي:

أولًا: هذا التَّعبير يثبت قضية الإيمان، ويقيم قِصَّته في الأرض؛ إذ يكون المعنى:

فلا تخصِّصوا شيئًا بأن تجعلوه مماثلًا، أو معادلًا لله ﷻ في شيء من الأشياء التي تختصُّ به، أو في كلِّ شيء، فكيف تجعلون بشرًا، أو حَجَرًا، أو شجرًا، أو كوكبًا، أو مَلِكًا، أو نبيًّا ندًّا لله ﷻ، مع أن هذا النِّدَّ لم يربِّكُم بل الله ﷻ ربَّاكم، ولم يخلقكم بل الله ﷻ خلقكم، ولم يخلق آباءكم بل الله ﷻ خلق آباءكم، ولم يجعل الأرض فراشًا، بل الله ﷻ جعل الأرض فراشًا، ولم يجعل السَّماء بناءً، بل الله ﷻ جعل السَّماء بناءً، ولم يُنزِل من السَّماء ماءً بل الله ﷻ أنزل من السَّماء ماءً، ولم يُخرِج بالماء من الثَّمرات رزقًا لكم، بل الله ﷻ فعل ذلك كلَّه؟!

---

(١) ينظر: العين (٨/ ١٠)، تفسير الطبري (١/ ٣٦٨)، مقاييس اللغة (٥/ ٣٥٥)، المفردات للراغب (ص: ٢٩٣).

(٢) الكشاف (١/ ٩٥)، وانظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ١٥٢).

(٣) الكشاف (١/ ٩٥).

ثانيًا: هذا التَّعبير يحرِّم أن يجعل الإنسان لله أندادًا، ولو لم يسمِّهم كذلك، فما أكثر ما يصف الناس بشرًا من البشر بأوصاف لا تليق إلا بالله ﷻ! هاهو أحدهم يقول:

(أبـا حَسَـنٍ أنـت عـينُ الإلـه) ومنبـعُ حكمتِـه السَّـاميهْ
يريـك بهـا مـا وراء الغيـوبْ (فهـل عنـك تَعْـزُب مِـنْ خافيـهْ)
(وأنـت مـديرُ رحـى الكائنـاتْ) وقطـبُ رحـى النَّشـأةِ الثَّانيـهْ
فـإن شـئت تشـفعُ للمـذنبين (وان شـئت تسـفعُ بالنَّاصـيهْ)[1]

ومنهم من يجعل لله تعالى أندادًا في أحكامه وتشريعاته، بل ما أكثر ما يجعل بعضهم لله ﷻ أندادًا في أوصافه، أو حُكْمه وتشريعاته، وهم يعلمون.

وهنا تتعجب! وتتساءل: كيف اتَّخذ النَّاس أندادًا وقد كان آدم عليه السلام مؤسِّسًا للإيمان بوحدانية الله ﷻ في العبادة؟

الجواب: بدأت قِصَّة الوثنية[2] باتخاذ الأنداد من الغلوِّ في الدِّين، وعبث الشياطين، حيث وسوست الشياطين إلى الناس أن يبحثوا عن هيئة يرون بها الإله الذي خلق العالم، والملائكة الذي يأتمرون بأمر الله ﷻ، ثم ما لبثوا حتى اخترعوا أصنامًا على صورة حسنة جميلة تذكِّرهم بالإله الذي يدبِّر العالم، والرُّسل عليهم السلام الذين دلُّوا العالَم عليه، ثم ما لبثوا حتى جعلوا كلَّ صنم يشير إلى أحد الملائكة المدبِّرين للعالم، ولاحظوا الكواكب والنُّجوم في السَّماء، فشعروا بأن لها تأثيرًا في تدبير الكون، فجعل اليونانيون للبرق إلهًا سمَّوه (زوس)، وسمَّاه الإسكندنافيون: (ثور)، وللبحار إلهًا سمَّوه: (بوسايدون)، وللهنود والصِّينيين أوثان على طريقتهم هذه فكرتها، ويظهر أنه قد بُعِثَ فيهم أنبياء، فخلف من بعدهم خلف تلاعبوا

(١) الأبيات لعبد الحسين العاملي أحد الشيعة الاثني عشرية. ينظر: أصول مذهب الشيعة الإمامية (٣/ ١٠٦٩).

(٢) حاول الرازي رحمه الله أن يبحث عن أصل بداية الشرك والوثنية. انظر: تفسير الرازي (٢/ ٣٤٥).

برسالات هؤلاء الأنبياء، واتخذوا لهم صورًا، وأصنامًا تذكِّر بها، ثم جعلوا تلك الأصنام شريكة في أن تُعبد عبادة ربِّ الأنبياء والصالحين الذين كانوا يدعونهم إلى الله ﷻ، وبعضهم اكتفوا بها عن عبادة الله ﷻ، وهكذا ظهرت الأنداد في العالم.

ثم توسَّعوا فصار متى مات رجل صالح مصلح فيهم اتخذوا له صنمًا، وعدُّوه إلهًا في ذاته، أو شفيعًا لهم عند الإله، ويُبَصِّرنا ابن عباس رضي الله عنهما بقِصَّة من قصص بدء الوثنية، وظهور الأنداد في الأرض، فيقول: «صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ؛ أَمَّا (وُدٌّ) كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، وَأَمَّا (سُوَاعٌ) كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا (يَغُوثُ) فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجُرُفِ عِنْدَ سَبَأ، وَأَمَّا (يَعُوقُ) فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا (نَسْرٌ) فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لآلِ ذِي الْكَلاعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ»(١).

ويحدِّثنا أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ عن أوّل من غيَّر معالم الإيمان في بلاد العرب، فيقول: «عُرِضَتْ عَلَيَّ النَّارُ، فَرَأَيْتُ فِيهَا عَمْرو بْنَ لُحَيِّ بْنِ قَمْعَةَ بْنِ خِنْدِفٍ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ عَهْدَ إِبْرَاهِيمَ، وَسَيَّبَ السَّوَائِبَ، وَكَانَ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِأَكْثَمَ بْنِ أَبِي الْجَوْنِ الْخُزَاعِيِّ، فَقَالَ الْأَكْثَمُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ يَضُرُّنِي شَبَهُهُ؟ فَقَالَ: «إِنَّكَ مُسْلِمٌ وَهُوَ كَافِرٌ» (٢).

ثم اتخذ اليهود والنَّصارى أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، وأنزل الله تعالى بيانًا لذلك: فعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ. فَقَالَ: «يَا عَدِيُّ، اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الوَثَنَ»، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا

---

(١) البخاري (٤٩٢٠).

(٢) ابن حبان (٧٤٩٠)، وحسَّنه الأرناؤوط، وكذا الألباني في التعليقات الحسان (٧٤٤٧).

مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ»(١).

وَقُدَمَاءُ الْفُرْسِ جَعَلُوا لِلَّهِ نِدًّا فِي الْخَلْقِ وَالْإِيجَادِ، فَقَالُوا: إِنَّ لِلْخَيْرِ إِلَهًا هُوَ الْإِلَهُ الْأَوَّلُ. وَإِنَّ لِلشَّرِّ إِلَهًا يُضَادُّهُ، وَلَيْسَ النَّهْيُ فِي الْآيَةِ عَنْ هَذَا النِّدِّ الشَّرِيكِ؛ لِأَنَّ الْمُخَاطَبِينَ لَا يَدِينُونَ بِهِ كَمَا قُلْنَا، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَاتُ الْكَثِيرَةُ(٢).

وربما قلت: فمن الأنداد أن يعبد الإنسان الشَّجر والحَجَر والبَشَر، ولكن هل من أمثلة أخرى لطواغيت يجعلها الناس أندادًا لله؟

الجواب: إليك ما قاله ابن عبَّاس رضي الله عنهما مبينًا بعض الأمثلة الخفية التي يمكن أن تؤدِّي إلى النِّدِّية ممَّا ينبغي أن ينتبه لها المسلمون في حياتهم لئلا يجعلوا أحدًا من البشر ندًّا لله تعالى: (الأنداد هو الشِّرك، أخفى من دبيب النَّمل على صَفَاة سوداء، في ظلمة الليل، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ: «وَاللهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانُ، وَحَيَاتِي. وَيَقُولَ: لَوْلَا كَلْبَةُ هَذَا لَأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَى اللُّصُوصُ. وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ. لَا تَجْعَلْ فِيهَا فلانًا، فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ بِهِ شِرْكٌ»(٣)، وعن عكرمة رحمه الله: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢] أن تقولوا: لولا كلبنا لَدَخل علينا اللصُّ الدارَ، لولا كلبنا صَاح في الدار، ونحو ذلك، «فنهاهم الله تعالى أن يُشركوا به شيئًا، وأن يعبدوا غيرَه، أو يتخذوا له نِدًّا وَعِدلًا في الطَّاعة،

---

(١) الترمذي (٣٠٩٥)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ حَرْبٍ، وَغُطَيْفُ بْنُ أَعْيَنَ لَيْسَ بِمَعْرُوفٍ فِي الحَدِيثِ»، وحسَّنه الألباني.

(٢) تفسير المنار (١/ ١٥٨).

(٣) ابن أبي حاتم (١/ ٦٢)، رقم (٢٢٩)، وهو حديث حسن. ينظر: تخريج أحاديث وآثار كتاب في ظلال القرآن (ص: ١٩).

فقال: كما لا شريك لي في خلقكم، وفي رزقكم الذي أرزقكم، وملكي إيَّاكم، ونِعَمي التي أنعمتها عليكم فكذلك فأفردوا ليَ الطَّاعة»(١).

فإن سألت: ما الحكمة من مجيء هذه الجملة ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] في الآية؟ وكيف ارتبط هذا العلم بأدلَّة الحياة السَّبعة؟

الجواب: ختم الله ﷻ هذه الجملة ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ [البقرة: ٢٢] بقوله: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] ليجمع إلى الإقناع العقليِّ بالآيات الماديَّة، والأدلَّة المفهومة التَّوبيخ والتَّقريع على ترك عبادة القادر على كلِّ شيء إلى عبادة ما لا يقدر على شيء، أو ما يقدر على شيء قدرة غير كاملة.

لاحظ أن الله ﷻ لم يعلِّق بكلمة ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] المفعول به، فلم يقل: تعلمون الحق، أو تعلمون أدلَّة الحياة، وذلك لتشمل المراتب الآتية:

المرتبة الأولى: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ «ومفعول ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ متروك كأنه قيل: وأنتم من أهل العلم والمعرفة، والتَّوبيخ فيه آكد، أي أنتم العرَّافون المميزون»(٢)، والمعنى: حالكم وصِفَتكم أنكم يمكنكم التَّمييز بين الصَّحيح والفاسد، بل تظهر لكم دقائق الأمور وغوامض الأحوال، ولا يختلف في معرفتكم بهذه الأمور التي لفت نظركم إليها أحد منكم، فالله ﷻ يخاطب كلَّ واحدٍ من أفراد البشريَّة بما هو بدهي، سواء أكان عالمًا نحريرًا أم كان من عامَّة النَّاس، أي: وأنتم من أهل العلم والمعرفة لهذه الأدلَّة التي يراها كلٌّ منكم.

المرتبة الثَّانية: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾: مفعولها معلوم محذوف لتتَّسع لكلِّ المعاني:

---

(١) ضعَّفه إسلام منصور؛ لضعف شبيب بن بشر الكوفي، ومحمد بن سنان. ينظر: تفسير الطبري، ط: دار الحديث (١/ ٢٢٦، ٢٢٧).

(٢) الكشاف (١/ ٩٦).

أي: أنتم تعلمون أنه لا يمكنهم أن يجعلوا لله أندادًا مع علمهم أنه لا يوجد أحد من الخلق يكون لله نِدًّا.

تعلمون أنَّ جَعْلَ الأصنام لله أندادًا هو غاية الجهل، ونهاية سخافة العقل(١).

أنتم تعلمون أدلَّة الحياة السَّبعة، وأنكم وأوثانكم لا تستطيعون أن تفعلوا شيئًا من ذلك، تعلمون أنه هو ربَّاكم، وأنه هو الذي خلقكم فعلًا، وأنتم تعلمون بأنه جعل الأرض فراشًا، وأنتم تعلمون أنه جعل السَّماء بناء، وأنتم تعلمون أنه أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ، وتعلمون أنه لا يستطيع على واحدة من هؤلاء لا صنم، ولا حجر، ولا بشر، ولا كوكب، ولا قمر، ولا يقدر عليها إلا خالقهم وخالقكم، فكيف تجعلون لله أمثالًا، وأكفاء، ونظراء.

«عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ وإنما عَنى تعالى ذكرُه بقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] أَيْ: لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ غَيْرَهُ مِنَ الْأَنْدَادِ الَّتِي لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا رَبَّ لَكُمْ يَرْزُقُكُمْ غَيْرُهُ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الَّذِي يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ الرَّسُولُ مِنْ تَوْحِيدِهِ هُوَ الْحَقُّ لَا شَكَّ فِيهِ»(٢).

وتأمَّل في هذا الأسلوب القرآنيِّ في الإقناع، وقل لي: كيف تجعلهم هذه الجملة ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أكثر خجلًا من أفعالهم؟

---

(١) الكشاف (١/ ٩٦).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٣٧٠).

الجواب: انظر إلى هذا الإقناع العجيب في الأسلوب القرآني الذي جعله الله ﷻ (أحسن الحديث)، إنه القرآن الذي يقول عنه ابن القيِّم ﵀ «أنزله لنقرأه تدبُّرًا، ونتأمَّلَه تذكُّرًا، ونسعدَ به تبصُّرًا»(١).

هذا النَّهي ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ كما يقول ابن عاشور ﵀: «لِلْجَمْعِ بَيْنَ التَّوْبِيخِ وَإِثَارَةِ الْهِمَّةِ؛ فَإِنَّهُ أَثْبَتَ لَهُمْ عِلْمًا وَرَجَاحَةَ الرَّأْيِ؛ لِيُثِيرَ هِمَّتَهُمْ، وَيَلْفِتَ بَصَائِرَهُمْ إِلَى دَلَائِلِ الوحدانيَّة، وَنَهَاهُمْ عَنِ اتِّخَاذِ الْآلِهَةِ... وَجَعَلَهُ لَا يَجْتَمِعُ مَعَ الْعِلْمِ؛ تَوْبِيخًا لَهُمْ عَلَى مَا أَهْمَلُوا مِنْ مَوَاهِبِ عُقُولِهِمْ، وَأَضَاعُوا مِنْ سَلَامَةِ مَدَارِكِهِمْ، وَهَذَا مَنْزَعٌ تَهْذِيبِيٌّ عَظِيمٌ، أَنْ يَعْمِدَ الْمُرَبِّي فَيَجْمَعَ لِمَنْ يُرَبِّيهِ بَيْنَ مَا يَدُلُّ عَلَى بَقِيَّةِ كَمَالٍ فِيهِ حَتَّى لَا يَقْتُلَ هِمَّتَهُ بِالْيَأْسِ مِنْ كَمَالِهِ، فَإِنَّهُ إِذَا سَاءَتْ ظُنُونُهُ فِي نَفْسِهِ خَارَتْ عَزِيمَتُهُ، وَذَهَبَتْ مَوَاهِبُهُ، وَيَأْتِي بِمَا يدلُّ على نقائص فِيهِ لِيَطْلُبَ الْكَمَالَ فَلَا يَسْتَرِيحُ مِنَ الْكَدِّ فِي طَلَبِ الْعُلَا وَالْكَمَالِ»(٢).

أنتم تعلمون ذلك فكيف تجعلون فرعون، أو الصَّنم، أو بوذا، أو الحجَر، أو الشَّجر، أو النَّبيَّ، أو المَلِك، أو المَلَك لله نِدًّا؟ ولاحظ أن كلمة ﴿تَجۡعَلُواْ﴾: تبصِّرك أنهم فعلوا ذلك من عند أنفسهم دون دليل، أو حقٍّ يخوِّل لهم أن ينصبوا أيَّ مخلوق ليكون إلهًا.

وقد بيَّن الصَّحابة ﵃ أن أكثر ما يكون الأنداد في البشر، حيث يطاعون في معصية الله ﷻ، فعن ابن عباس ﵄، وعن ابن مسعود ﵁، وعن ناس من أصحاب النبيِّ ﷺ: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، قال: «أَكْفاءً مِنَ الرِّجالِ تُطِيعُونَهُمْ في مَعصِيَةِ اللهِ»(٣).

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٧).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٣٥).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٣٦٨).

بصيرة: أدلَّة الحياة االسَّبعة تجعلك تلهج بالتَّوحيد لله ﷻ في ربوبيته وألوهيته، وتضطرك اضطرارًا إلى أن تنبذ الأنداد، وتترك الأضداد، فهذه المعاني في الآيتين من المُحْكَم الذي اتفقت عليه الشَّرائع واجتمعت عليه الكتب، فهي عمود الخشوع، وعليها مدار الذُّل والخضوع كما يقول البقاعيُّ رحمه الله

(نظم الدرر (١/ ١٥٤)

وترى هذه الأدلَّة الحاسمة تتكرَّر في مواضع متفرِّقة من القرآن بصُوَر متنوعة آخذة طابع التَّفصيل أحيانًا، وطابع الإجمال أخرى.. لماذا؟

الجواب: لأنَّ القرآن كتاب العقل الأوَّل على مستوى البشريَّة.. إنه كما يقول (رودنسون): «يقدِّم باستمرار البراهين العقليَّة الدالَّة على قدرة الله ﷻ، فمعجزات الخلق مثل: تكاثر الحيوانات، وحركة الأجرام السَّماويَّة، والظَّواهر الكونيَّة، واختلاف أنواع الحيوان والنَّبات بما يتناسب وحياة الإنسان بشكل رائع هي جميعًا لآيات لأولي الألباب»(١).

فلا يمكن أن يوجد لله مثيل، أو شريك، أو نديد من البشر، أو من الحَجَر، فهو ليس كمثله شيء، وأنت تعلم بهذا يقينًا مهما كانت درجة علمك: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

بعض أذكياء العالم يشتركون مع كلِّ أغبيائه في أنهم يشتغلون بالمخلوق عن الخالق:

فأدلَّة الحياة تحاصر فكرك لتدفعه نحو مسألة واحدة هي الإيمان بالله الخالق، ولكن الذي حدث في واقع البشر أن «الَّذِينَ حُرِمُوا هَذَا الْإِيمَانَ قِسْمَانِ: هَمَجٌ مِنْ سُكَّانِ الْغَابَاتِ الْوَحْشِيَّةِ وَأَصْحَابُ شُبهَاتٍ طَارِئَةٍ، وَمَثَلُ الْأَوَّلِ مَثَلُ الْخِدَاجِ الَّذِي يُولَدُ نَاقِصًا، وَمَثَلُ الثَّانِي مَثَلُ مَنْ يُصَابُ بِبَعْضِ مَشَاعِرِهِ أَوْ أَعْضَائِهِ، وَمَرَاكِزُ الْإِدْرَاكِ فِي الْمُخِّ يُصَابُ بَعْضُهَا بِالْمَرَضِ أَوِ الضَّعْفِ دُونَ بَعْضٍ، فَلَا يَغْتَرَّنَّ أَحَدٌ مِنَ المتَّقين بِكُفْرِ بَعْضِ الْمُتْقِنِينَ لِبَعْضِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ،

(١) الصراع من أجل الإيمان لجفري لانج (ص: ٥٧)، نقله عن ردونسون في الإسلام والرأسمالية (ص: ٧٩).

الَّذِينَ شَغَلَتْهُمُ الصَّنْعَةُ عَنِ الصَّانِعِ، كَمَا شَغَلَ حُبُّ لَيْلَى مَجْنُونَ بَنِي عَامِرٍ عَنْ شَخْصِهَا، حَتَّى قِيلَ: إِنَّهَا زَارَتْهُ فَلَمْ يَحْفَلْ بِهَا»(١).

هنا ربَّما تتساءل متدبِّرًا مع الزَّمخشريّ رحمه الله: المشركون العرب كانوا يسمُّون أصنامهم باسمه ويعظِّمونها بما يعظَّم به من القرب، وما كانوا يزعمون أنها تخالف الله وتناويه؟

الجواب: لما تقرَّبوا إليها، وعظَّموها وسمَّوها آلهة، أشبهت حالهم حال من يعتقد أنها آلهة مثل الله، قادرة على مخالفته ومضادَّته، فقيل لهم: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ على سبيل التَّهكُّم، فشنَّع عليهم، واستفظع شأنهم بأن جعلوا أندادًا كثيرة لمن لا يصحُّ أن يكون له ندٌّ أبدًا.

فأدلَّة الحياة تخبرك بأن الإنسان يحتاج إلى ربِّه عز وجل في كلِّ ثانية من الثَّواني، وبذلك بزغ النُّور في قلوب أقوام أرادوا التَّعرُّف إلى الله عز وجل، فعن رجل من بَلْهُجَيْم قال:

قلت: يا رسول الله إِلَامَ تدعو؟ قال: «أدعو إلى الله وَحْدَهُ الذي إن مسَّك ضرٌّ فدعوتَه كشف عنك، والذي إن ضللت بأرض قَفْرٍ دعوتَه ردَّ عليك، والذي إن أصابتك سَنَةٌ –يعني جدبٌ وجفاف مطر– فدعوتَه أنبت عليك»(٢).

وعرف الحصين الخزاعيُّ رضي الله عنه ربَّه عندما تذكَّر ما غفل عنه، فيحكي ولده عمران بن حُصَين رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال للحُصَين رضي الله عنه: «يا حُصَينُ، كم تَعْبُدُ مِنْ إلَهٍ؟» قال: سَبْعًا في الأرضِ، وواحدًا في السَّماءِ، قال: «فَإِذَا أَصَابَكَ الضُّرُّ مَنْ تَدْعُو؟» قال: الذي في السَّماء، قَالَ: فَإِذَا هَلَكَ الْمَالُ مَنْ تَدْعُو؟ قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ» قال: «فَيَسْتَجِيبُ لَكَ وَحْدَهُ وتُشْرِكُهُمْ مَعَهُ؟! أَرَضِيتَهُ

(١) تفسير المنار (١/ ١٨١).

(٢) أحمد (٢٠٦٥٥)، وقال الأرناؤوط: «إسناده صحيح»، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٢٠).

فِي الشُّكْرِ أَمْ تَخَافُ أَنْ يُغْلَبَ عَلَيكَ؟» قال: «ولا واحدةٌ من هاتينِ»(١) -وفي رواية-: «فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟» قال: الذي في السَّماء، قال: «يا حُصَينُ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَسْلَمْتَ عَلَّمْتُكَ كَلِمَتَينِ تَنْفَعَانِكَ»، قال: فلما أسلم حُصَينٌ رضي الله عنه قال يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِي الْكَلِمَتَيْنِ اللَّتَيْنِ وَعَدْتَنِي، فقال: قل: «اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي»(٢).

على ماذا يدلُّ قانون الاستمراريَّة لهذه المخلوقات الكبرى؟

بصيرة: قانون الاستمراريَّة لهذه المخلوقات الكبرى يبصِّرك بأنه يجب أن تعبد الله عز وجل، ولا تجعل له ندًّا، وقانون الاستمراريَّة يعني: استمرار الخلق البشري وفق قانون الخلق، واستمرار الأرض على حالها على الرغم من إفساد الإنسان فيها، واستمرار السَّماء بناء، واستمرار إنزال الماء، وإخراج الثَّمرات.

فهذه الأدلَّة السَّبعة تبرز كُلِّيتين من كليات الرؤية القُرآنِيَّة:

الكُليَّة الأولى: وحدة الخالق لكلِّ الخلائق ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١].

الكُليَّة الثَّانية: وحدة الكون وتناسق وحداته وصداقته للحياة وللإنسان ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢].

فهذا الكون أرضه مفروشة لهذا الإنسان، وسماؤه مبنية بنظام، مَعِينَة بالماء الذي تخرج به الثَّمرات رزقًا للناس.. **فالعالم بيتٌ مُعَدٌّ: سقفه السَّماء، وسراجه الشَّمس، وبساطه الأرض، وزينته النُّجوم، وفيه مصالح سكانه، اللَّيل سكنهم، والنَّهار معاشهم، والمطر سقياهم،**

---

(١) هذه الرواية بهذا اللفظ أوردها ابن حجر في الإصابة (٢/ ٧٧)، وهي في المصادر الأخرى بلفظ: «سَبْعَةً، سِتَّةً فِي الأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّماء»، كما في رواية الترمذي المذكورة عقب هذه الرواية.

(٢) الترمذي (٣٤٨٣)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الحَدِيثُ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ مِنْ غَيْرِ هَذَا الوَجْهِ»، وذكر الذهبي أن فيه شَبيبًا، وهو ضَعِيفٌ. العلو للعلي الغفار (ص: ٢٥).

والنَّبات مرعاهم، وهو دواؤهم وفاكهتهم، والحيوان خدمهم، والجواهر كنوزهم وذخائرهم... وهذه أعظم دلائل الوحدانيَّة فكيف يجعل لله فيه أندادًا ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، والفضل في هذا كلِّه للخالق الواحد: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

انظر إلى هذا الأسلوب القرآنيِّ البديع: بعد أن سرد لهم تلك الأدلة الماديَّة المشاهدة ممتنًّا عليهم مثبتًا لهم أنه جعلها لهم، وأعدَّها رزقًا لهم: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢٢].. ومقابل ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ يقول لهم: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.. انظر: يعطيهم، ويجعل لهم، ويحبوهم بخيره النَّازل، ويقابلون ذلك بشرٍّ صاعد وهم يعلمون.

فالملاحظ أن هذه الأدلَّة كلَّها أدلَّة عقليَّة ماديَّة مشاهدة لا يستطيع أحد أن ينكرها، وسمَّاها الله ﷻ **أدلة الآفاق** التي نكتشف كلَّ يوم منها جزئيةً من الجزئيَّات: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ﴾ [فصلت: ٥٣].

وبهذه الأدلَّة نردُّ على الملحدين والوثنيين، فهذه الأدلَّة السَّبعة الماديَّة العقليَّة المنطقيَّة المشاهدة لا يمكن إنكارها، يقف عليها العالِم المتخصِّص في الفلك أو في الفيزياء أو في الطِّب ووظائف الأعضاء، فيرى فيها آيات الله البيِّنات الدَّالَّة على الإحكام والخبرة واللُّطف في التَّركيب في أجزائها الصَّغيرة والكبيرة، ويقف عليها العامِّيُّ، والمزارع، والأمِّيُّ فيرى فيها ما يكفيه ليؤمن بالله العليِّ الكبير، ولذلك ختمها بهذه النَّتيجة: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] يمثّل النّفي في شهادة التّوحيد، وهو مفتاح لتذكير الضّالّين بضلالهم:

كيف صارت هذه الآية ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] شعارًا يلفت نظر البشريّة إلى عظمة الإسلام؟

الجواب: الآية تُذَكِّرُ الإنسان بالحقيقة الواضحة كأنها تقول له: قد عرفت الذي خلقك، وخلق من قبلك، وجعل لك الأرض فراشًا، والسّماء بناء.

قد عرفت الذي أنزل من السّماء ماء، فأخرج به من الثّمرات رزقًا لك، فكيف تجعل له نِدًّا؟ عقلك يحميك من ذلك، ونظرك يجبرك على أن تتبرأ من كلِّ ندٍّ له.

هذه الجاذبية لختام الآية جَعَلَتْ قبيلة بأكملها تؤمن بالله العليِّ العظيم، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه، قَالَ: بَعَثَتْ بَنُو سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ ضِمَامَ بْنَ ثَعْلَبَةَ وَافِدًا إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، فَقَدِمَ عَلَيْهِ، وَأَنَاخَ بَعِيرَهُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ، ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، وَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ، وَكَانَ ضِمَامٌ رَجُلًا جَلْدًا أَشْعَرَ ذَا غَدِيرَتَيْنِ، فَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، فِي أَصْحَابِهِ فَقَالَ: [لَهُمْ: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟] أَيُّكُمُ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ، قال: فَقُلْنَا: هَذَا الرَّجُلُ الأَبْيَضُ الـمُتَّكِئُ. فقال لَهُ الرَّجُلُ: يَا بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ فقال رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: «أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»] [قال: مُحَمَّدٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ»]، فَقال لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «قَدْ أَجَبْتُكَ».

فَقال الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، إِنِّي سَائِلُكَ وَمُغَلِّظٌ فِي الْمَسْأَلَةِ [فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ فِي المَسْأَلَةِ]، فَلا تَجِدَنَّ فِي نَفْسِكَ، قَالَ: «لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي، فَسَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ»، [فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَكَ، قَالَ: «صَدَقَ»، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: «اللهُ»، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ قَالَ: «اللهُ»، قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ

الْجِبَالَ، وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ: «اللهُ»، قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّماء، وَخَلَقَ الْأَرْضَ، وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، آللهُ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»].

قَالَ: أَنْشُدُكَ اللهَ إِلَهَكَ، وَإِلَهَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ، وَإِلَهَ مَنْ هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكَ، آللهُ بَعَثَكَ إِلَيْنَا رَسُولًا؟ فَقَالَ: «اللهُمَّ نَعَمْ»، قَالَ: فَأَنْشُدُكَ اللهَ إِلَهَكَ، وَإِلَهَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ، وَإِلَهَ مَنْ هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكَ، آللهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْمُرَنَا أَنْ نَعْبُدَهُ وَحْدَهُ، لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ نَخْلَعَ هَذِهِ الْأَنْدَادَ الَّتِي كَانَتْ آبَاؤُنَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ؟ قَالَ: «اللهُمَّ نَعَمْ»، قَالَ: فَأَنْشُدُكَ اللهَ إِلَهَكَ، وَإِلَهَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ، وَإِلَهَ مَنْ هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكَ، آللهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ هَذِهِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ؟ قَالَ: «اللهُمَّ نَعَمْ»، [فَقَالَ: أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ، آللهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ؟ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللهِ، آللهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ؟ قَالَ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللهِ، آللهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ؟ قَالَ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللهِ، آللهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِنَا فَتَقْسِمَهَا عَلَى فُقَرَائِنَا؟ فقال النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ»].

قَالَ: ثُمَّ جَعَلَ يَذْكُرُ فَرَائِضَ الْإِسْلَامِ فَرِيضَةً فَرِيضَةً: الزَّكَاةَ، وَالصِّيَامَ، وَالْحَجَّ، وَشَرَائِعَ الْإِسْلَامِ كُلَّهَا، يُنَاشِدُهُ عِنْدَ كُلِّ فَرِيضَةٍ كَمَا يُنَاشِدُهُ فِي الَّتِي قَبْلَهَا، حَتَّى إِذَا فَرَغَ قَالَ: فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَسَأُؤَدِّي هَذِهِ الْفَرَائِضَ، وَأَجْتَنِبُ مَا نَهَيْتَنِي عَنْهُ، ثُمَّ لَا أَزِيدُ وَلا أَنْقُصُ، [فَقال الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ].

قَالَ: ثُمَّ انْصَرَفَ رَاجِعًا إِلَى بَعِيرِهِ، فَقال رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ وَلَّى: «إِنْ يَصْدُقْ ذُو الْعَقِيصَتَيْنِ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ»، قَالَ: فَأَتَى إِلَى بَعِيرِهِ، فَأَطْلَقَ عِقَالَهُ، ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى قَدِمَ عَلَى قَوْمِهِ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَكَانَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: بِئْسَتِ اللاتُ وَالْعُزَّى، قَالُوا: مَهْ يَا ضِمَامُ، اتَّقِ الْبَرَصَ وَالْجُذَامَ، اتَّقِ الْجُنُونَ، قَالَ: وَيْلَكُمْ، إِنَّهُمَا وَاللهِ لَا يَضُرَّانِ وَلا يَنْفَعَانِ، إِنَّ اللهَ عَجَّلَ قَدْ

بَعَثَ رَسُولًا، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا اسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ، وَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِهِ بِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ، وَنَهَاكُمْ عَنْهُ، قَالَ: فَوَاللهِ مَا أَمْسَى مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَفِي حَاضِرِهِ رَجُلٌ وَلا امْرَأَةٌ إِلا مُسْلِمًا قَالَ: يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «فَمَا سَمِعْنَا بِوَافِدِ قَوْمٍ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ ضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ»(١).

تميُّز الإسلام بإشاعة محاربة الأنداد عن الملتين الكتابيتين:

كيف صارت هذه الآية ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] تنبئ عن تميز الإسلام وجاذبيته مقارنة بالنَّصرانيَّة؟

الجواب: لأن هذه الآية تخاطب الفطرة بما هو منها، ولك أن تتصوَّرِ المسألة: فهذا الإله العظيم ربَّاك وخلقك وخلق آباءك وأجدادك، وجعل لك الأرض فراشًا، والسَّماء بناء، وغذَّاك، ففي كلِّ نَفَسٍ أنت محتاج إليه، وهو يعطيك، ثم تجعل له نِدًّا تصرف شكرك وعبادتك له.. أليس هذا أبشع الظلم وأرداه؟! هنا تعلم العقليَّة العبقرية لابن مسعود رضي الله عنه حين قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» قُلْتُ: «إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ؛ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قال: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»(٢).

واسمع كيف يبيِّن النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم تميز الإسلام بالتَّحذير من الأنداد، فسدَّ بذلك كلَّ سبيل يمكن أن يؤدي إلى الغلوِّ في أحد أو يخرجه عن الحيز البشري ويقربه من الصِّفات الإلهيَّة، حتى

---

(١) أحمد (٢٣٨٠)، وحسَّنه الأرناؤوط، وأصل الحديث في البخاري (٦٣)، وفي مسلم (١٠)، وقد وضعت بعض زياداتها بين قوسين مربعين.

(٢) البخاري (٤٤٧٧).

كان ينهاهم أن يغلو فيه ﷺ، فعن عُمَرَ رضي الله عنه، قال عَلَى الْمِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُه»(١).

وعَنْ طُفَيْلِ بْنِ سَخْبَرَةَ، أَخِي عَائِشَةَ رضي الله عنها لِأُمِّهَا، أَنَّهُ رَأَى فِيمَا يَرَى النَّائِمُ، كَأَنَّهُ مَرَّ بِرَهْطٍ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ الْيَهُودُ، قَالَ: إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الْقَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ عُزَيْرًا ابْنُ اللهِ، فَقَالَتِ الْيَهُودُ: وَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تقولُونَ مَا شَاءَ اللهُ، وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، ثُمَّ مَرَّ بِرَهْطٍ مِنَ النَّصَارى، فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ النَّصَارى، فَقَالَ: إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الْقَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ، قَالُوا: وَأَنْتُمُ الْقَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللهُ، وَمَا شَاءَ مُحَمَّدٌ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟» قال عفَّانُ: قَالَ: نَعَمْ، فَلَمَّا صَلَّوْا، خَطَبَهُمْ فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا فَأَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ كُنْتُمْ تقولُونَ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي الْحَيَاءُ مِنْكُمْ، أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا»، قَالَ: «لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ، وَمَا شَاءَ مُحَمَّدٌ»(٢).

والتَّبرُّؤ من الأنداد رسالة الأنبياء، فعن الحارث الأشعريِّ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ عز وجل أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا عليهما السلام بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا، وَيَأْمُرَ بني إسرائيل أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا، فَقَالَ عِيسَى عليه السلام: إِنَّ اللهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا وَتَأْمُرَ بني إسرائيل أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، فَإِمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ، وَإِمَّا أَنَا آمُرُهُمْ، فَقَالَ يَحْيَى عليه السلام: أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخْسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَامْتَلَأَ الْمَسْجِدُ وَقَعَدُوا عَلَى الشُّرَفِ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ: أَوَّلُهُنَّ

---

(١) البخاري (٣٤٤٥).

(٢) أحمد (٢٠٧١٣)، وقال شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات، رجال الصحيح غير صحابيِّه فلم يرو له غير ابن ماجه.

أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ، فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي وَهَذَا عَمَلِي فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ، فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟...»(١).

وقد تتساءل: الأدلَّة الثَّمانية السَّابِقَة تبصِّرك بأن القرآن المجيد يكتنز أساليب المحاورة المتنوعة التي يُقنِعُ بها الفِرَقَ المختلفة بالحقِّ حتى يعتنقوه، فهل نجد هذه المحاورة في القرآن المجيد لكل الفِرَق؟

الجواب: نعم، تجد في القرآن الحوار مع جميع فِرَقِ الكفَّار:

فَالْأُولَى: الدَّهْرِيَّةُ الَّذِينَ كَانُوا يَقُولُونَ: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الْجَاثِيَة: ٢٤].

وَالثَّانِية: الَّذِينَ يُنْكِرُونَ رب العالمين الْقَادِرَ الفعال لما يريد، مثل فرعون فقال الله ﷻ عنه: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٣].

وَالثَّالثة: الَّذِينَ أَثْبَتُوا شَرِيكًا مَعَ اللهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ الشَّرِيكُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ عُلْوِيًّا أَوْ سُفْلِيًّا؛ أَمَّا الشَّرِيكُ الْعُلْوِيُّ فَمِثْلُ مَنْ جَعَلَ الْكَوَاكِبَ مُؤَثِّرَةً فِي هَذَا الْعَالَمِ، وَاللهُ تَعَالَى أَبْطَلَهُ بِدَلِيلِ الْخَلِيلِ عليه السلام فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ...﴾ [الأنعام: ٧٦]، وَأَمَّا الشَّرِيكُ السُّفْلِيُّ فَالنَّصارى قالوا بِإِلَاهِيَّةِ الْمَسِيحِ، وَعَبَدَةُ الْأَوْثَانِ قَالُوا بِإِلَاهِيَّةِ الْأَوْثَانِ، وَاللهُ تَعَالَى أَكْثَرَ مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى فَسَادِ قَوْلِهِمْ.

الرَّابعة: الَّذِينَ طَعَنُوا فِي النُّبوَّة وَهُمْ فَرِيقَانِ:

أَحَدُهُمَا: الَّذِينَ طَعَنُوا فِي أَصْلِ النُّبوَّة، وَهُمُ الَّذِينَ حَكَى اللهُ ﷻ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإِسْرَاء: ٩٤].

---

(١) الترمذي (٢٨٦٣)، وقال: «حديث حسن صحيح غريب». قال محمد بن إسماعيل: «الحارث الأشعري له صحبة، وله غير هذا الحديث».

وَالثَّانِي: الَّذِينَ سَلَّمُوا أَصْلَ النُّبوَّة، وَطَعَنُوا فِي نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارى، وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنَ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ إِنَّ طَعْنَهُمْ مِنْ وُجُوهٍ تَارَةً بِالطَّعْنِ فِي الْقُرْآنِ فَأَجَابَ اللهُ ﷻ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ [البَقَرَة: ٢٦]، وَتَارَةً بِالْتِمَاسِ سَائِرِ الْمُعْجِزَاتِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإِسْرَاء: ٩٠]، وَتَارَةً بِأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ نَجْمًا نَجْمًا، وَذَلِكَ يُوجِبُ تَطَرُّقَ التُّهْمَةِ إِلَيْهِ، فَأَجَابَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفُرْقَان: ٣٢].

الْخَامِسة: الَّذِينَ نَازَعُوا فِي الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية: ٣٢].

السَّادسة: الَّذِينَ طَعَنُوا فِي التَّكْلِيفِ تَارَةً بِأَنَّهُ لَا فَائِدَةَ فِيهِ، فَأَجَابَ اللهُ ﷻ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإِسْرَاء: ٧]، وَتَارَةً بِأَنَّ الْحَقَّ هُوَ الْجَبْرُ، وَأَنَّهُ يُنَافِي صِحَّةَ التَّكْلِيفِ، وَأَجَابَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩](١).

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٢٦)، وقد هذبت عباراته وغيَّرت فيها ما رأيت أنه يستحقُّ التَّغيير؛ فإنه يضعف بعض ما يورده بسبب ميله إلى اعتناق بعض الأفكار، مثل: التكليف بما لا يطاق، والجَبْر.

الدَّليل التَّاسع: دليل التَّحدِّي، وإثبات النُّبوَّة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

بصيرة: هذا دليلٌ مزدوجٌ له هدفان:

أولهما: تتمَّة إثبات وحدانيَّة الله ﷻ بأسلوب عقليٍّ مختلفٍ عن الأدلَّة الأخرى؛ كأنَّه قال: القرآن مكوَّنٌ من الأحرف التي تتكلَّمون بها، لكنه معجزٌ في ذاته، فلا بدَّ أن يكون دالًّا على أنه كلمات الإله الذي تجب عبادته.

والثاني: انْتِقال لِإِثْبَاتِ ركن الإيمان بالملَك الذي نزل بالوحي، وبالكتاب المنزَّل، وبالرَّسول الذي جاء بالكتاب، فأَقَامَ فيما سبق الدَّلَائِلَ المادِّيَّة المشاهدة الْقَاهِرَةَ عَلَى إِثْبَاتِ وحدانيَّة الله ﷻ في استحقاقه لأن يعبد، وَأَبْطَلَ الشِّرك، وهنا أثبت ما يتعلَّق بالنُّبوَّة: المَلَك، والكتاب، والرَّسول على هيئة التَّحدِّي.

المناسبة والاتِّصال:

يظهر لك في هذه الآية سؤالان هما: لماذا انتقل القرآن من لفت النَّظر إلى آيات الأنفس والآفاق إلى التَّحدِّي بالقرآن؟ وكيف تُظْهِر لنا الواو العاطفة في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣] هذا الاتِّصال والتَّلاحم بين الآيات؟

الجواب:

أولًا: التَّرتيب بديع محكم "منطقيٌّ"، حيث انتقل بصورة فريدة؛ ليكمل الأساليب التي تقنع الإنسان بأنْ يعبد الله ﷻ، وأن يوحِّده في العبادة، وفي الوقت ذاته يقيم ربُّنا الدَّليل على صدق الوحي، وكون الكتاب الذي جاء به النَّبيُّ ﷺ من عند الله، ومن جهة ثالثة يقيم الله ﷻ

الدَّليل على صدق النَّبيِّ ﷺ، فينتقل من الإلهيَّات إلى النُّبوَّات، ويشعر الزَّمخشريُّ رَحِمَهُ اللهُ بقوَّة هذا الاتِّصال، فيقول: «لما احتجَّ عليهم بما يثبت الوحدانيَّة ويحقِّقها، ويبطل الإشراك ويهدمه، وعلَّم الطَّريق إلى إثبات ذلك وتصحيحه، وعرَّفهم أنَّ من أشرك فقد كابر عقله، وغطَّى على ما أنعم عليه من معرفته وتمييزه- عطف على ذلك ما هو الحُجَّة على إثبات نبوَّة محمَّد ﷺ، وما يدحض الشُّبهة في كون القرآن معجزة، وأراهم كيف يتعرَّفون أهو من عند الله عَزَّ وَجَلَّ كما يَدَّعي، أم هو من عند نفسه كما يدَّعون؟ بإرشادهم إلى أن يحزروا أنفسهم(١)، ويذوقوا طباعهم، وهم أبناء جِنسه وأهل جِلْدته»(٢).

ثانيًا: بدأ الله عَزَّ وَجَلَّ هذا المحور بأهمِّ المعارف التي ينبغي أن يدركها البشر، وهي عبادته ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، وعرَّفهم بنفسه ليزداد يقينهم أنَّ عبادتَه طريقُ سعادتِهم والخلاص من مخاوفهم، فهذا الرُّكن الأول للإيمان، وانتقل هنا إلى بقيَّة الأركان، فذكر الإيمان بالرسول وبالكتاب، والإيمان بهما يقتضي الإيمان بالملائكة.

الفكرة الإجماليَّة لهذا الدَّليل:

وفي هذا الدَّليل ينتقل من الأدلَّة المادِّيَّة المنطقيَّة المشاهدة إلى دليل عقليٍّ، فيخاطبهم الله عَزَّ وَجَلَّ خطاب تحدٍّ، ومناسبة مجيئه هنا بعد الأدلَّة السَّابِقَة منطقيَّة، وتدلُّ على الإحكام العجيب لآيات القرآن، فكأنه قيل:

ما الذي يمنعكم من عبادة الله تعالى بعد تلك الأدلَّة المادِّيَّة المحسوسة المشاهدة المقنعة وأنتم لها مذعنون وبها مُقِرُّون؟

(١) حزرت الشَّيْء أحزره حزرًا إِذا عرفت مِقْدَاره أَو ظَنَنْت. جمهرة اللغة» (١/ ٥١٠).
(٢) الكشاف (١/ ٩٦).

ربَّما قالوا: نؤمن بالله ﷻ، نؤمن أن وراء هذا الكون العظيم الدَّقيق التَّصميم، البالغ الانتظام صاحب قوَّة عظمى يتَّصف بكلِّ صفات الكمال في العلم والخِبرة والقوَّة والقدرة، ولكننا لا نعبده بسبب شكِّنا في رسالة هذا الرسول الذي يذكر أنه أُرسل من عنده، وشكُّنا فيه يعني أننا أيضًا نشكُّ في القرآن الذي يذكر أنه كلام الله ﷻ، فردَّ الله سبحانه وتعالى عليهم، فقال جلَّ مَجدُهُ: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

المعنى الإجمالي:

إن كنتم قد اقتنعتم بأدلَّة الحياة السَّبعة، وأنها ترشدكم إلى ربِّكم لكنَّكم تأبون الإيمان بالله ﷻ، أو تؤمنون بالله سبحانه وتعالى لكنكم تأبون الإيمان بكتابه، وبرسوله بسبب ريبكم من القرآن الذي نزل على رسوله محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم فانظروا إلى هذا التَّحدِّي: ائتوا بسورة من مثل القرآن الذي نزل على محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم، وادعوا شهداءكم الذين يشهدون أنها تماثل سُوَر القرآن إن كنتم صادقين في أنَّ القرآن محلُّ ريب، وعدم استجابتكم لهذا التَّحدِّي يعني أن القرآن لا يمكن أن يكون من عند بشر، وأن الريب فيه منفي.

هنا تقفز إلى عقلك الحقيقة العظيمة التي قرَّرها الله ﷻ في أوَّل هذه السُّورَة عن القرآن، فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ﴾ [البقرة: ٢].

وبما أنكم لا يمكنكم أن تأتوا بسورة من مثله، فهذا يعني أنه يجب أن تؤمنوا بالله ﷻ وبكتابه، وبالمَلَك الذي نزل به، وبالرَّسول الذي بلَّغكم إيَّاه صلى الله عليه وآله وسلم.

ويمكنك أن تقول كأنَّ الله ﷻ يقول: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قد أقمنا عليكم الحُجَّة فأخبرناكم بأدلَّة الحياة السَّابِقَة، وكلُّها تدفعكم إلى أن تعبدوا الله سبحانه وتعالى، وألا تجعلوا له أندادًا؛ فحينها ربَّما تقولون: نعبد الله ﷻ، ولكننا ما زلنا في ريب مما نزل على محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم.

فاتركوا مَضايق الْوَسَاوِسِ، ولا تعاندوا فتركنوا إلى مَآزِقِ الْهَوَاجِسِ، وأقبلوا على ما أنزل الله ﷻ على عبده ﷺ فأتوا بسورة من مِثْلِ سُوَرِ الْقُرْآنِ مِنْ رَجُلٍ أُمِّيٍّ مثل عبدنا محمَّد ﷺ فإن عجزتم فأَذْعِنوا للحقِّ المبين، واتركوا هذه الصِّفَات المعاندة التي لا تليق إلا بالمجانين أو المستكبرين، ويجعله الرَّازيُّ رحمه الله مخصوصًا بفصاحة القرآن، ويوجز وجه التَّحدِّي فيه، فيقرِّر أن: **هَذَا الْقُرْآنَ لَا يَخْلُو حَالُهُ مِنْ أَحَدِ وُجُوهٍ ثَلَاثَةٍ:**

١) إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُسَاوِيًا لِسَائِرِ كَلَامِ الْفُصَحَاءِ.

٢) أَوْ زَائِدًا عَلَى سَائِرِ كَلَامِ الْفُصَحَاءِ بِقَدْرٍ لَا يَنْقُضُ الْعَادَةَ.

٣) أَوْ زَائِدًا عَلَيْهِ بِقَدْرٍ يَنْقُضُ.

وَالْقِسْمَانِ الْأَوَّلَانِ بَاطِلَانِ فَتَعَيَّنَ الثَّالِثُ، وَإِنَّمَا قُلْنَا: إِنَّهُمَا بَاطِلَانِ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ سُورَةٍ مِنْهُ إِمَّا مُجْتَمِعِينَ أَوْ مُنْفَرِدِينَ، فَإِنْ وَقَعَ التَّنَازُعُ وَحَصَلَ الْخَوْفُ مِنْ عَدَمِ الْقَبُولِ فَالشُّهُودُ وَالْحُكَّامُ يُزِيلُونَ الشُّبْهَةَ، وَذَلِكَ نِهَايَةٌ فِي الِاحْتِجَاجِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي مَعْرِفَةِ اللُّغَةِ وَالِاطِّلَاعِ عَلَى قَوَانِينِ الْفَصَاحَةِ فِي الْغَايَةِ، وَكَانُوا فِي مَحَبَّةِ إِبْطَالِ أَمْرِهِ فِي الْغَايَةِ حَتَّى بَذَلُوا النُّفُوسَ وَالْأَمْوَالَ لمقاتلة النبي a، وكان يمكنهم اختصار ذلك بأن يجيبوه إلى التَّحدِّي(١).

أسمعت كلام هذا الإمام الهمام رحمه الله؟ لقد حصر وجه التَّحدِّي في الفصاحة، ومن عجيب أمره أنه راح يثبت عظمة هذه الفصاحة، وكيف تفوَّقت على سائر كلام العرب بما يسهل نقضه مع أنه إمام في المعقولات؟

وقد نظرت في كلِّ ما ذكره من الوجوه فإذا هي حصون عالية من ورق خفيف يمكن إزالتها عند أدنى معارضة.

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٤٧).

ولا شكَّ عندي في أن القرآن المجيد قد بلغ ذروة فصاحة الكلام التي لا يمكن لإنسان أن يطيق مثلها، لكنه لا يظهر لي أن التَّحدِّي كان بالفصاحة، بل الفصاحة غلاف من أغلفة التَّحدِّي، ولو كان التَّحدِّي بالفصاحة لرأينا من يحاول مثله في خصوم النَّبيِّ ﷺ، وسأحاول أن أستكشف معنى المماثلة المُتحدَّى بها هنا جاهدًا، فعسى أن يفتح الله ﷻ بفضله ورحمته.

ويلفت الرَّازيُّ رحمه الله النظر إلى أنَّ أدلَّة الحياة السَّابِقَة تلطَّف الله ﷻ بها ليُبرهن لنا على أننا يجب أن نعبده وحده، وننبذ أن نجعل له نِدًّا ينازعه فيما لا يكون إلا له.. هذه الأدلَّة تدلُّ على فَسَادِ قَوْلِ الَّذِينَ جَعَلُوا مَعْرِفَةَ اللهِ ﷻ مُسْتَفَادَةً مِنْ مَعْرِفَةِ الرَّسُولِ، فهاهو الله -جلَّ مَجدُهُ- بعد أن أثبت لنا أنه يجب علينا أن نعرفه من آياته المبثوثة حولنا، يثبت لنا صدق عبده الذي أرسله لنا ﷺ(١).

ورأى ابن عاشور رحمه الله أن هذه الآية تُكْمِلُ عملية إقناع المخاطبين بوجوب الإيمان بالله وحده، ونبذ الشِّرك، فقال: «فَفِي الْآيَةِ إِدْمَاجُ تَوْبِيخِهِمْ عَلَى الشِّرْكِ فِي أَثْنَاءِ التَّعْجِيزِ عَنِ الْمُعَارَضَةِ، وَهَذَا الْإِدْمَاجُ مِنْ أَفَانِينِ الْبَلَاغَةِ»(٢).

ربَّما تسأل: فكيف يمكن أن تصوِّرَ كلماتُ هذه الآيةِ مجتمعةً قوَّةَ هذا التَّحدِّي؟

الجواب: هنا ننتقل إلى:

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٤٧)، وسمَّاهم التعليمية، والحشوية، وصارت هذه الألقاب، وأمثالها محلًا للتنابز بالباطل بين القوم.

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٣٩).

شروط تحدي المشركين أن يأتوا بمثل القرآن

1 **الشرط الأول:** المخالطة وعدم الاعتزال

2 **الشرط الثاني:** وجود الباعث على التحدي، وهو هنا الشكُّ المقلق المتَّهِم لما أنزل على النبي ﷺ

3 **الشرط الثالث:** استغرابهم من المُنزَل وهو القرآن ذاته ﴿مما نزلنا﴾، وهو السبب الأول للشك.

4 **الشرط الرابع:** الغرابة من المُنزَل عليه ﴿على عبدنا﴾؛ حيث وصف الله نبيه ﷺ في آية التحدي بالعبودية؛ لبيان المصدرية الإلهية للقرآن، وهو السبب الثاني للشك.

5 **الشرط الخامس:** التحدي للجميع، فرادى أو مجموعين ﴿فأتوا﴾

6 **الشرط السادس:** إبراز وسيلة المغالبة، ومقدارها، ويبصِّرنا بها هنا قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾ [البقرة: 23] التَّحَدِّي بسُورَة، وليس بآيات تعادل سورة؛

7 **الشرط السابع:** التماثل في نوعية المتحدَّى به، ويصوِّر لنا ذلك قوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾.

8 **الشرط الثامن:** إحضار الشهداء، ويصوره لنا قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم﴾.

9 **الشرط التاسع:** نوعية الشهداء الذين يدعون: كل ما كان دون الله، ويبصرنا به قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾

10 **الشرط العاشر:** إشاعة جو التحدي، ويصوره لنا قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

البصائر التَّفصيليَّة المحكمة التي تصوِّرها كلمات الآية:

شروط تحدي المشركين أن يأتوا بمثل القرآن:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

تبصِّرنا الآية بمشهد التَّحدِّي وشروطه:

الشَّرط الأوَّل للتَّحدِّي: المخالطة وعدم الاعتزال:

فالخطاب في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ يبصِّرك بأنه يجب على المتأهِّل أن يحضر حضورًا مخطَّطًا في مجالس المشكِّكين لمخاطبتهم، ودعوتهم، وكشف باطلهم، ومناظرتهم.

بصيرة [١]: ﴿وَإِن﴾ أداة الشَّرط المشكِّكة: تشكِّك في سلامة موقف المعاندين من الإيمان بالقرآن المبين، وهي تبين الباعث على التَّحدِّي.

فالتَّعبير عن الشكِّ بـ ﴿إِن﴾ التي تأتي إمَّا للشَّك، وإما للإثارة والتَّهييج، -وهي هنا تشكِّك في سلامة موقفهم عندما اتخذوا هذا الموقف المعارض لما ينبغي ألا يعارضوه- يُشعر هنا بِأَنَّ مِنْ شَأْنِ هَذَا التَّنْزِيلِ أَلَّا يُرْتَابَ فِيهِ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ فِيهِ ظَاهِرٌ بِذَاتِهِ، يَتَلَأْلَأُ نُورُهُ فِي كُلِّ آيَةٍ مِنْ آيَاتِهِ، وَلَكِنْ:

إِذَا لَـمْ تَكُـنْ لِلْمَـرْءِ عَـيْنٌ صَـحِيحَةٌ ... فَلَا غَرْوَ أَنْ يَرْتَابَ وَالصُّبْحُ مُسْفِرُ[1]

(١) تفسير المنار (١/ ١٦٠).

بصيرة [٢]: ﴿كُنتُمْ﴾ يصوِّر الفعل الماضي (كان) الشَّكَّ غير المبرر.. الشَّكّ غير المعقول فيما يجب له القبول.

هذه الكلمة فريدة جدًّا في سياقها.

وربَّما تقول: وكيف ذلك؟ وحقًّا: الكلمة غريبة، فما الحكمة من التَّعبير بها؟ لماذا لم يقل الله تعالى -مثلًا-: وإن أنتم في ريب؟ لماذا أتى بالفعل الماضي؟

الجواب: الفعل الماضي "كان" هنا يصوِّر موقفهم الماضي من قضية الألوهِيَّة قبل التَّفكير جيِّدًا في حقيقة الإيمان والقرآن، وهنا تتذكَّر أنَّ عددًا من العلماء المعاصرين الذين يقولون بالتَّصميم الذَّكيِّ للكون يصرُّون على الإلحاد أو اللاأدرية.. لماذا؟ ما السِّرُّ؟

لماذا يصرُّ بعض من يدهشه هذا التَّصميم العظيم للكون على الإلحاد، لماذا لا يُفَعِّلون القانون الذي نقله (ستيفين ماير) في كتابه " التَّصميم الذَّكي: فلسفة وتاريخ النَّظريَّة" عن (أنتوني فلو): (اتبع الدَّليل إلى حيث يقودك)؟ لقد رأيناهم يجدون الدَّليل، فيعترفون ضمنًا بأدلَّة الحياة السَّبعة، لكنهم يصرُّون على أن يكونوا ملحدين أو لاأدريين؟

يكشف لنا هذا الفعل المصاغ ﴿كُنتُمْ﴾ بحكمةٍ بالغةٍ سِرَّ ذلك الإصرار، فلم يقل الله ﷻ: (وإن أنتم)، أو (وإن صِرتم) أي: اعترفتم بأدلَّة الحياة، ولكنكم بعدها صرتم في ريب، فالفعل الماضي ينبئنا أنهم قد اتخذوا موقفًا ماضيًا استمرَّ معهم بعد ذلك ممَّا يسمُّونه المسائل الدِّينيَّة: فهم يخافون أن يقرُّوا بأن التَّصميم الذَّكيَّ يدلُّ على عناية مِنْ صاحب قوَّة كاملة في العلم والتصرُّف والقدرة وهو الله جل جلاله، فيلجأ كثيرٌ منهم خوفًا من وساوسه، وخوفًا من الوسط الذي حوله، إلى الإقرار بالدَّليل، وترك ما يوصل إليه.

ألا يذكِّرك هذا بشيء؟

الجواب: بلى، إنه يذكِّرك هذا بأبي طالب عمِّ النَّبيِّ ﷺ، فلقد كان يوقن بعظمة دين نبيِّنا محمَّد ﷺ، لكنه يحسب للوسط الذي يعيش فيه ألف حساب، فقد اجتمعت قريش عنده يريدون بالنَّبيِّ ﷺ سوءًا فقال أبو طالب فيه:

وَاللهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ ... حَتَّى أُوَسَّدَ فِي التُّرابِ دَفِينَا
فَاصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ ... وَابْشَرْ بِذَاكَ وَقَرَّ مِنْهُ عُيُونَا
ودَعَوْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ نَاصِحٌ ... وَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ ثَمَّ أَمِينَا
وَعَرَضْتَ دِينًا قَدْ عرفتُ بأَنَّهُ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارِي سُبَّةٌ ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا[(١)]

ستسأل: لمن يتوجَّه الخطاب في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣]؟

بصيرة [٣]: ﴿كُنتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣] خطاب الإيقاظ: ليستيقظ المشكِّكون من غفلتهم، وليزداد المؤمنون إيمانًا بقرآنهم.

التاء ضمير مع ميم الجمع تصوِّرُ الخطاب المباشر لجموع المشكِّكين ولكلِّ من يرتاب في القرآن، أو من يأخذ حكمهم من المؤمنين الذين يريدون أن يزدادوا إيمانًا.

وأسلوب الخطاب يهيِّج المجتمع دولة وشعبًا لإنشاء المؤسَّسات التَّعليميَّة والتَّدريبيَّة لإنشاء أجيال قادرة على مخالطة المرتابين المخالطة الإيجابية الحذرة التي تدعوهم إلى ما أنزل الله ﷻ، وتَقْدِرُ على تفنيد شبههم، وإزالة ريبهم، وتتمكَّن من مناظرتهم.

---

(١) تفسير الماتريدي (٤/ ٥١)، وقد صوبت بعض الألفاظ من شرح شواهد المغني (٢/ ٦٨٧).

الشَّرط الثاني: وجود الباعث على التَّحدِّي، وهو هنا الشكُّ المقلق المتَّهم لما أنزل على النَّبيِّ ﷺ، ويُبَصِّرنا به قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

فإن كنتم في ريب فهناك أسلوب لإزالته، أما إن تبعتم العقل فلا داعي لهذا الأسلوب.

بصيرة [٤]: ﴿فِي رَيْبٍ﴾ تصوِّرُ "إحاطة الرَّيب" بالمرتابين، وعدم إبصارهم للنُّور خارج محيطهم، والرَّيب آكل الحياة، فهو يعني الشَّكَّ المصحوب بالخوف والقلق والاتهام المزعج المسيء.

وربما تسأل: ما الحكمة من التَّعبير بكلمة ﴿فِي﴾ الدَّالَّةِ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ في قوله: ﴿فِي رَيْبٍ﴾، ولم يقل: وإن كنتم مرتابين؟

الجواب: ﴿فِي﴾ الظَّرفية تصوِّر لك أن المخاطبين هيمنت عليهم أدلَّة الحياة السَّابِقَة، فلم يستطيعوا أن يجيبوا، فماذا يقولون أمام سؤال: لماذا لا تعبدون ربّكم الذي ربّاكم فخلقكم وخلق من قبلكم، وجعل لكم الأرض فراشًا، والسَّماء بناء، وأنزل من السَّماء ماء؟

ربما سكتوا، وربما أعلنوا الإذعان فلم يخالفوا في التَّصديق بالله ﷻ، لكن بعضهم يبقي الرَّيب مسيطرًا عليه، فينازعون فيما نزل من عند الله، وهذا يعني أنهم ينازعون في المَلَك الذي نزل بالوحي، وبالوحي النَّازل، وبالرَّسول المبلِّغ، وتأتي كلمة: ﴿فِي﴾ لتصوِّرَ أنَّ الرَّيب يحيط بهم إحاطة الظَّرف بالمظروف، فقال لهم: إن كنتم ما زلتم في ريب من صدق رسالة النَّبيِّ ﷺ، وصدقه في أن القرآن كلام الله ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣].

ولكنك لا بدَّ أن تتساءل: ما معنى كلمة: ﴿ريب﴾؟

الجواب: سبق أن قرَّرنا أن الرَّيب هو آكلُ الحياةِ المستقرَّة، فهو يعني الشَّكَّ المصحوب بالخوف والقلق والاتِّهام المزعج المسيء، ومن ذلك حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: حفظت من رسول الله ﷺ «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى ما لا يَرِيبُكَ، فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَة، وَإِنَّ الكَذِبَ

رِيبَةٌ»[١]، وقال ﷺ عن فاطمة رضي الله عنها: «فَإِنَّمَا هِيَ بَضْعَةٌ مِنِّي، يُرِيبُنِي مَا أَرَابَهَا، وَيُؤْذِينِي مَا آذَاهَا»[٢] أي: يزعجني ويقلقني.

والمعنى: وإن أحاط بكم شكٌّ مقلق مزعج بعث اتِّهامًا فيما أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ على النبي ﷺ فأتوا بسورة من مثله.

الشَّرط الثَّالث: استغرابهم من المنزَل وهو القرآن ذاته، ويُبَصِّرنا به قوله تعالى: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾، وهو السَّبَب الأول للشَّكِّ:

﴿مِّمَّا﴾ تكوَّنت مِن كلمتين: ﴿مِن﴾، وهي هنا سببية تصوِّر سبب الرَّيب، و﴿ما﴾ موصوليَّة بمعنى الذي، أي: مِن الذي نزلنا.

﴿نَزَّلْنَا﴾ التَّنزيل المربِّي المعظَّم:

قد تسأل: لماذا اقترن نزول القرآن هنا بفعل التَّنزيل لا الإنزال؟

الجواب: فعل التَّنزيل يغلب عليه أن يصوِّرَ القرآن يتنزل على الأرض لينيرها شيئًا، فشيئًا تربية للبشريَّة، و﴿نا﴾ تدلُّ على تعظيم المنزِّل، فهذه الصِّيغة أقوى في التَّحدِّي بالبيِّنة القُرآنِيَّة؛ فإن المراد النُّزول على سبيل التَّدريج والتَّنجيم، فيرى الزَّمخشريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله مخالفًا لما يكون من عند الناس، لم ينزل هكذا نُجومًا سورة بعد سورة وآيات غِبَّ [أي: بعد] آيات، على حسب النوازل وكِفاء[٣] الحوادث حسب ما يَعِنُّ لهم من الأحوال المتجدِّدة والحاجات السَّانحة، فلو أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأنزله خلاف هذه العادة جملة

---

(١) الترمذي (٢٥١٨)، وقال: «وهذا حديث حسن صحيح»، وقال الذهبي: «سنده قوي». مختصر استدراك الحافظ الذهبي (٥/ ٢٥١٨).

(٢) البخاري (٥٢٣٠).

(٣) تقول: لَا (كِفاءَ لَهُ)، بِالْكَسْرِ، وَهُوَ فِي الأَصل مصدرٌ، أَي لَا نَظِيرَ لَهُ. تاج العروس (١/ ٣٩٠).

واحدة، ويحدِّثنا الله ﷻ عن مقالتهم هذه فيقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان:٣٢]، فردَّ الله ﷻ عليهم من جنس مقالهم، فقيل: إن ارتبتم في هذا الذي وقع إنزاله هكذا على مهل وتدريج، فهاتوا أنتم نَوْبة واحدة من نُوَبه، وهلمُّوا نجمًا فردًا من نجومه: سورة من أصغر السُّوَر، أو آيات شتَّى مفتريات. وهذه غاية التَّبكيت، ومنتهى إزاحة العِلل(١).

الشَّرط الرَّابع: الغرابة من المنزَل عليه؛ حيث وصف الله ﷻ نبيّه ﷺ في آية التَّحدِّي بالعبوديَّة دون أن يوصف بالرسالة؛ ليعلِّمنا أن أشرف الخلق يتشرَّف بمقام العبوديَّة لله ﷻ، ولا يجعل نفسه لله ندًّا فكيف بغيره؟ ويُبَصِّرنا بهذا الشرط قوله: ﴿عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾، وهو السَّبَب الثاني للشَّكِّ:

فقد تتساءل: لماذا وصف الله -جلَّ مَجدُهُ- نبيَّه ﷺ هنا بالعبوديَّة في قوله: ﴿عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾؟

الجواب:

أما ﴿عَلَىٰ﴾ فتمنحك الاستعلاء المرتقي المفروض:

وهي تصوِّر القرآن مستعليًا يأتي من الأعلى نازلًا على عبد الله محمد ﷺ ليرتقي به، فإن بلَّغه البشريَّة واستجابت ارتقى بها، و﴿عَلَىٰ﴾ توضِّح أنَّ التَّنزيل ليس بيد النَّبيِّ ﷺ بل ينزل على الرغم منه.

(١) الكشاف (١/ ٩٦).

بصيرة [٥]: ﴿عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ تشريف، وتكليف، وتعريف.

أما أولًا: وهو التشريف؛ فلأنَّ وصف الرَّسول ﷺ بالعبوديَّة يصوِّر أن الله ﷻ يشرِّفه باسم العبوديَّة، فهو الذي حقَّقها كما ينبغي، لأنه أوَّلُ من طبَّق النِّدَاء الوارد في النِّدَاء الإلهيِّ العالميِّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة: ٢١]، فكأنَّه يريد أن يقول: هذا الرَّسول أوَّل الذين دخلوا في النِّظام العباديِّ، وقد استحقَّ بجدارة أن يُطْلَق عليه لقب: (عبد الله)، حيث حقَّق العبوديَّة في أبهى مظاهرها.

بصيرة [٦]: نبيُّنا محمَّد ﷺ أوَّل الذين دخلوا في النِّظام العبادي، وقد استحقَّ بجدارة أن يُطْلَق عليه لقب: (عبد الله)، حيث حقَّق العبوديَّة في أبهى مظاهرها، وكذلك يستحقُّ هذا اللَّقب كلُّ من تشرَّف بالانتساب إلى العبوديَّة ولازمها.

كما أنَّك تلمس في قوله: ﴿عَبۡدِنَا﴾ تشريفًا من نوع آخر، فهو يومئ إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ عبدٌ خالص لله، لم يتعبَّد لغيره قطُّ، «فلذلك استحقَّ الاختصاص دون عظماء القَرْيَتَين وغيرهم»(١).

وأما ثانيًا: فهو تكليف: لأنَّ الله ﷻ أراد أن يبيِّن أن النَّبيَّ ﷺ عبدٌ مبلِّغٌ عن الله ﷻ يدعو إلى الصِّراط المستقيم الذي ينقذ البشريَّة من الأهواء المدمِّرة، ولو كان القرآن كلام محمَّد ﷺ لكان يمكن هنا-وَفْق التَّصوُّر البشري- أن يُظْهِر لنفسه الألقاب المفخَّمة، والأسماء المعظَّمة له لكن الوصف جاء بالعبوديَّة ليبينَ طبيعة رسالته، ويدلِّلَ على صدق نبوَّته، فليس الأمر من عنده، وهذا التَّصوير يزيد السَّامع اقتناعًا، فلو أراد النَّبيُّ ﷺ مجدًا باختراع القرآن من عنده، لوصف نَفْسَه بغير هذا الوصف من ألقاب الفخامة عند الناس.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ١٦١).

وأما ثالثًا: فهو تعريف: لأنه يُصَوِّر لك طبيعة الرَّسول ﷺ، فهو عبد الله الذي يُبَلِّغ للناس ما نُزِّل إليه، فيدلُّهم به على نعمة الحياة في ظلِّ عبادة الله ﷻ.

ومن أوجه التناسُق العالية، وجِهات الاتِّصال الرَّفيعة بين هذه الآية والآية السَّابِقَة أنَّ الله – جلَّ مَجدُهُ– لما نهى الناس أن يجعلوا لله أندادًا ربَّما جادل بعضهم، فزعم أنهم لم يجعلوا الأصنام والحكَّام والأولياء أندادًا، بل هم شفعاء لهم عند الله، هنا يزيل الله ﷻ هذا التَّفكير، فيخبرهم أن خاتم الرسل ﵇، وخير من مَشَتْ به الأقدام ﷺ هو عبده: ﴿إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

الشَّرط الخامس المفاجئ للتَّحدِّي تُصَوِّرُه كلمة: ﴿فَأْتُوا۟﴾، فالتَّحدِّي للجميع، فرادى أو مجموعين:

فلينزلوا ميدان هذه المعركة التي يتحدَّى القرآن فيها عقولهم.

الشَّرط السَّادس: إبراز وسيلة المغالبة، ومقدارها، ويُبَصِّرنا بها هنا قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾ [البقرة: ٢٣]، فالتَّحدِّي بِسُورَةٍ، وليس بآيات تعادل سورة.

لماذا كان التَّحدِّي بسورة لا بمجموعة آيات؟ ولماذا هذا التسوير للآيات؟

يلخِّص ابن عاشور السَّبَب في أَنَّ مِنْ جُمْلَةِ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ أُمُورًا لَا تَظْهَرُ خَصَائِصُهَا إِلَّا بِالنَّظَرِ إِلَى كَلَامٍ مُسْتَوْفًى فِي غَرَضٍ مِنَ الْأَغْرَاضِ(١)، كما أنَّ التَّحدِّي بالسُّورَة يُثبِت بقاء التَّواتر اللَّفظيِّ للقرآن الكريم، ويحقِّق استعصاءَه على التَّغيير مهما حاول شانئوه.

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٣٧).

خصائص السُّورَة القُرآنِيَّة:

خصائص السورة القرآنية

الخَصيصَة الأولى:
المنزلة الرفيعة للسورة.

الخَصيصَة الثانية:
أنها كاملة متكاملة بما تحويه من الآيات.

الخَصيصَة الثالثة:
أنها منزلة يعقبها منزلة من بناء متكامل هو القرآن المجيد.

الخَصيصَة الرابعة:
هي دَرَجَةٌ إلى المعرفة القرآنية التي تصف لك واقع الخلق الكوني، وتصبغ الكون بصبغة الله.

مُفصّل تفسير سُورة البقرة (٢) — عبد السلام مقبل المجيدي

اختار الله ﷻ أن يسمِّي المجموعةَ من الآيات سورةً؛ لعدَّة خصائص تلمحها من هذه التَّسمية الفريدة(١):

الخَصيصَة الأولى: المنزلة الرَّفيعة للسُّورة:

فهذا أحد معانيها اللُّغَويَّة، ومن ذلك قول النَّابِغَة:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ أعطـاكَ سُـورَةً ... تَـرَى كُـلَّ مَلْكٍ دُونَهـا يَتَذَبْـذَبُ(٢)

أي: شَرَفًا ورِفْعَة.

---

(١) لي بحث مستقل نُشر في مجلة كلية الشَّريعة / جامعة قطر بعنوان:" تسوير السور القرآنية: إعجاز متجدد".

(٢) البيت من المديح، بل قال بعضهم هو أمدح بيت قالته العرب، فالشاعر قصد إلى تفضيل الملك الممدوح على الملوك، والمعنى: أن الله أعطاك (سورة) أي: منزلة رفيعة، ترى (كُلَّ مَلْكٍ) من الملوك (دونها يَتَذَبْذَبُ) أي: يضطرب فلا يصل إليها ولا يبلغها. ينظر: الصناعتين (ص:٧٥)، ديوان المعاني (١/ ١٦).

كما أنَّ قولهم: «سَارَ يَسُورُ: إذَا غَضِبَ وَثَارَ» يقرب من هذا المعنى، فإنَّه يريد بسورته أن يرفع نفسه، وَإِنَّ لِغَضَبِهِ لَسَوْرَةً [١]، ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه: فَكِدْتُ أُسَاوِرُهُ فِي الصَّلاةِ [٢].

الخَصِيصَة الثَّانية: أنها كاملة متكاملة بما تحويه من الآيات:

وأرانا هذا المعنى أن السُّوْر حائِطُ المَدِينَةِ الـمُشْتَمِلُ عَلَيْهَا [٣]، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ [الحديد: ١٣]، فالسُّورَة سُوْرٌ للآيات التي فيها.

الخَصِيصَة الثَّالثة: أنها مَنْزِلَةٌ يعقبها مَنْزِلَةٌ من بناء متكامل هو القرآن المجيد:

فالسُّورَة أيضًا كُلُّ مَنْزِلَةٍ مِنَ الْبِنَاءِ [٤]، كما قال العَجَّاج:

وَرُبَّ ذِي سُــــــرَادِقٍ مَحْجُــــــورِ ... سُــرْتُ إِلَـيْـهِ فِـي أَعَـالِـي السُّـورِ [٥]

وقال جَرِير يهجُو ابنَ جُرْمُوز:

لَـمَّـــا أَتَـــى خَبَــرُ الزُّبَيْــرِ تَوَاضَــعَتْ ... سُــورُ المَـدِينَـةِ والجِبَـالُ الخُشَّــعُ [٦]

فهي مَنْزِلَةٌ تعقبُها مَنْزِلَةٌ أخرى وتسبِقُها منزلة، مع تمايز كلِّ منزلة عن غيرها، ومجموعها يُكَوِّن القرآن العظيم، وعلى الرَّغم من أنَّ الله عز وجل أنزل القرآن شيئًا بعد شيء إلا أنه فصَّله بهذه

---

(١) مقاييس اللغة (٣/ ١١٥).

(٢) البخاري (٤٩٩٢).

(٣) تاج العروس (١٢/ ١٠١).

(٤) مقاييس اللغة (٣/ ١١٥).

(٥) البيت من الحماسة، يخبر الشاعر عنه نفسه أنه ربما قصد إلى (ذِي سُرَادِقٍ) أي: ملك، (مَحْجُورِ) أي: محصور محاط بمن يحرسه، (سُرْتُ إِلَيْهِ) أي: نهضت وارتفعت، (إليه فِي أَعَالِي السُّورِ) فقهرته. ينظر: التعازي(ص:١٣٣)، المعاني الكبير في أبيات المعاني، (١: ٤٧٥).

(٦) يريد الشاعر أنه لما أتى خبر قتل الزبير بن العوَّام. (تواضعت) أي وقعت على الأرض، و(الخشع) التي قد لصقت بالأرض. ينظر: الكامل في اللغة والأدب، (٢:١٠٥)، شرح أبيات سيبويه (١: ٤٤).

الصُّورَة المدهشة، فلم تتداخل آياته، ونقل الصَّحابة ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ آياتِ كلِّ سورة يميِّزون بادئتها، وخاتمتها من الفاتحة إلى الناس.

الخَصِيصَة الرَّابعة: هي دَرَجَةٌ إلى المعرفة القُرآنِيَّة التي تصف لك واقع الخلق الكونيِّ، وتصبغ الكون بصبغة الله ﷻ:

فهي مشتقَّة أيضًا مما طالَ من البِنَاءِ وحَسُنَ[1].

السُّورَة اصطلاحًا:

عرَّفها الزَّركشيُّ ﵀ فقال: «قُرْآنٌ يَشْتَمِلُ عَلَى آيِ ذَوَاتِ فَاتِحَةٍ وَخَاتِمَةٍ، وَأَقَلُّهَا ثَلَاثُ آيَاتٍ»[2].

أهمُّ أهداف التَّسوير القرآنيِّ:

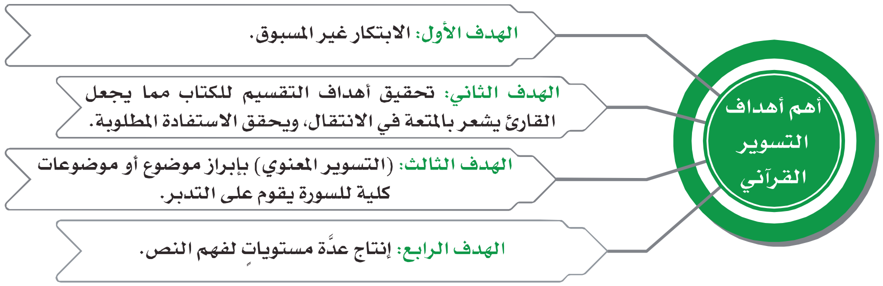

---

(١) تاج العروس (١٢/ ١٠١).

(٢) البرهان (١/ ٢٦٤)، وينظر: الإتقان (١/ ١٨٦).

وهنا قد تسأل: قُسِّمَ القرآن إلى سُوَر تقسيمًا مبتكرًا بدلًا من أن يكون فصولًا وأبوابًا، فما أهمُّ أهداف التَّسوير القرآنيِّ؟

الجواب: لمحنا عِدَّة أهداف لنظام التَّسوير القرآنيِّ، منها:

الهدف الأول: الابتكار غير المسبوق:

فالتَّقسيم المشابه للكتاب المقدَّس عند اليهود والنَّصارى إلى فصول وآيات حدث متأخرًا عن نزول القرآن بنحو ٩٠٠ سنة.

الهدف الثاني: تحقيق أهداف التَّقسيم للكتاب مما يجعل القارئ يشعر بالمتعة في الانتقال، ويحقِّق الاستفادة المطلوبة:

فالْجِنْسُ إِذَا حَصَلَ تَحْتَهُ أَنْوَاعٌ كَانَ إِفْرَادُ كُلِّ نَوْعٍ عَنْ صَاحِبِهِ أَحْسَنَ[١]، وللتيسير على الحافظ والمصلِّي؛ حيث يغتبطان بإتمام قدرٍ معتبرٍ على أن تقسيم القرآن إلى سُوَر أمر معجز في ذاته بالنَّظر إلى وضع العرب، وعدم ظهور التَّأليف للكتب في حياتهم في ذلك الزَّمان، والمعلَّقات على سبيل المثال لم يكن هناك فاصل واضح بين أغراضها المتعدِّدة.

الهدف الثالث: إبراز موضوع أو موضوعات كليَّة للسُّورة، وذلك يقوم على التَّدبُّر:

التَّسوير يعني اختصاص السُّورَة بمعانٍ خاصة، أو موضوعات محدَّدة، وموضوع كليٍّ يميِّزها عن غيرها، كما يعني امتيازًا خاصًّا بهذه الآيات حتى لو رأيت تلك الآيات مثاني في سورٍ أخرى، فإن لإيرادها في كلِّ سورة هدفًا متناسقًا مع محاور السُّورَة ومقاصدها، وهنا يبرز لك جانبٌ من الإعجاز المعنويِّ المدهش، ولذا عرف الرَّازيُّ رحمه الله السُّورَة فقال: «طَائِفَةٌ مِنَ

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٤٩).

الْقُرْآنِ تتكوَّن من آيات لها مبتدأ ومنتهى، وأقلُّ آياتها ثلاث، لها غَرَض تَامٌّ أَوْ عِدَّةُ أَغْرَاضٍ، تتناسب فواتحها وخواتمها، وسياقاتها مع هدفها أو أهدافها»[1].

وربما تسأل: هل التَّحدِّي هنا بسورة، أم يجوز أن يقع التَّحدِّي بمجموعة آيات تساوي السُّورَة الواحدة؟

الجواب: ذهب بعض علمائنا إلى أن التَّحدِّي كان بسورة أو بما يوازيها من الآيات، وممَّن ذهب إلى هذا الإمام جلال الدين محمد بن أحمد المَحَلِّيُّ رحمه الله في "شرح جمع الجوامع"[2]، وقبله العلَّامة سعد الدِّين مسعود بن عمر التَّفْتَازانيُّ رحمه الله فقال في تلويحه على توضيح صدر الشَّريعة: «المعجز هو السُّورَة، أو مقدارها»[3]، ونقل كلامَهم البقاعيُّ رحمه الله مقرِّرًا[4].

ويظهر لي أن السُّورَة مقصودة، وأنه لا بد أن يكون التَّحدِّي بسورة، فقد ذكر علماؤنا أنواعًا من الإعجاز القرآني، واهتمَّ كثيرٌ منهم بالإعجاز البلاغيِّ أو البيانيِّ، وإن من التَّطفيف في الميزان أَنْ يُجْعَلَ الإعجاز البيانيُّ متعلِّقًا باللَّفظ، ويُجتَهَدُ في إثباته وإظهاره مع أنه وعاء للمعنى.. نعم ذكر الجهابذة الإعجاز المعنويَّ، وأدخلوا فيه الإعجاز التَّشريعيَّ، والتَّربويَّ، والإصلاحيَّ، والغيبيَّ، والعلميَّ.. لكنَّ الإعجاز المعنويَّ المنبثق من (تسوير السُّورَة) لم يأخذ نصيبه حتى ممَّن كتب في علم المناسبات، **ولاحَظَ الإمام الطِّيبيُّ** رحمه الله **أن من منابع**

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٤٨).

(٢) ينظر: حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع (١/ ٢٩٤).

(٣) ينظر: شرح التلويح على التوضيح (١/ ٤٧).

(٤) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (١/ ١٦٨).

الإعجاز البحثَ عن سبب (تسوير السُّورَة) فقال: «ولهذا السِّرُّ كان التَّحدِّي بالسُّورَة وإن كانت قصيرة، دون الآيات وإن كانت ذوات عدد، والله يقول الحقَّ، وهو يهدي السَّبيل»[(١)].

فـ(تسوير السُّورَة) مصطلح مبتكر يبرز العلاقات الجزئيَّة والكلِّيَّة التي لأجلها سُوِّرت هذه الآيات في فصلٍ واحد سُـمِّيَ "سورة"، ويستكشف الخريطة الكلِّيَّة لهذه السُّورَة وصولًا إلى الموضوع الكلِّيِّ لها، وفيه يتجلَّى تماسك النَّظْم، وإحكام السِّيَاق القرآنيِّ القريب والبعيد، الدَّاخليِّ والخارجيِّ، حتى تظهر كبناء واحد متماسك، وشخصيَّة مكتملة الملامح، ولعلَّك تجد نُتَفًا من التَّأسيس لهذه المنهجيَّة وتطبيقاتها في الثَّروة التَّفسيريَّة التي بين أيدينا، وبالتَّتبع لنشأة المصطلح نجد أن الزَّركشيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ أشار إلى مصطلح التَّسوير، فقال: «وَفِي تَسْوِيرِ السُّورَة تَحْقِيقٌ لِكَوْنِ السُّورَة بِمُجَرَّدِهَا مُعْجِزَةً، وَآيَةً مِنْ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى، وَسُوِّرَتِ السُّوَرُ طِوَالًا، وَقِصَارًا، وَأَوْسَاطًا؛ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الطُّولَ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْإِعْجَازِ»[(٢)].

ليظهر الإعجاز في نَظْم القرآن كلماتٍ، وآياتٍ، وسُوَرًا، كما يظهر في معانيه، وهذا التَّسوير يجعلك تحاول اكتشاف سرِّه وأسبابه، ولماذا صار لكلِّ سورة شخصيتها المحدَّدة التي لأجلها سُوِّرت آياتُها دون إدخال آيات أخرى فيها، ويحرِّر ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ هذا المعنى، فيقول: «وَإِنَّمَا تَنْزِلُ سُوَرُ الْقُرْآنِ فِي أَغْرَاضٍ مَقْصُودَةٍ، فَلَا غِنَى عَنْ مُرَاعَاةِ الْخُصُوصِيَّاتِ الْمُنَاسِبَةِ لِفَوَاتِحِ الْكَلَامِ وَخَوَاتِمِهِ بِحَسَبِ الْغَرَضِ، وَاسْتِيفَاءِ الْغَرَضِ الْمَسُوقِ لَهُ الْكَلَامُ، وَصِحَّةِ التَّقْسِيمِ، وَنُكَتِ الْإِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ، وَأَحْكَامِ الِانْتِقال مِنْ فَنٍّ إِلَى آخَرَ مِنْ فُنُونِ

---

(١) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (٧: ٥٤).

(٢) البرهان (١/ ٢٦٤)، وعن الزركشي نقل السيوطي في الإتقان، وابن عقيلة المكي في الزيادة والإحسان، والزرقاني، وأبو شُهبة، وفهد الرومي. ينظر على التَّرتيب: الإتقان (١/ ٢٢٩)، والزيادة الإحسان (٢/ ٤٤)، مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ٣٥١)، المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص:٣١٨)، دراسات في علوم القرآن الكريم (ص:١١٣).

الْغَرَضِ، وَمُنَاسَبَاتِ الِاسْتِطْرَادِ وَالِاعْتِرَاضِ، وَالْخُرُوجِ وَالرُّجُوعِ، وَفَصْلِ الْجُمَلِ وَوَصْلِهَا، وَالْإِيجَازِ وَالْإِطْنَابِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَرْجِعُ إِلَى نُكَتِ مَجْمُوعِ نَظْمِ الْكَلَامِ، وَتِلْكَ لَا تَظْهَرُ مُطَابَقَتُهَا جَلِيَّةً إِلَّا إِذَا تَمَّ الْكَلَامُ، وَاسْتَوْفَى الْغَرَضُ حَقَّهُ، فَلَا جَرَمَ كَانَ لِنَظْمِ الْقُرْآنِ، وَحُسْنِ سَبْكِهِ إِعْجَازٌ يَفُوتُ قُدْرَةَ الْبَشَرِ، هُوَ غَيْرُ الْإِعْجَازِ الَّذِي لِجُمَلِهِ وَتَرَاكِيبِهِ وَفَصَاحَةِ أَلْفَاظِهِ»(١).

ويمكننا القول -مستحضرين لما تمَّ تقريره سابقًا-: إن علم (تسوير السُّورَة) يعدُّ خطوة متقدِّمة ومبتكرة في توظيف (علم اتِّصال النَّظْم القرآني) وإنضاجه.

الهدف الرابع: إنتاج عِدَّة مستوياتٍ لفهم النَّصِّ:

وهذا ميَّز النَّصَّ القرآنيَّ بجعله ميسرًا للأُمِّيِّ وَفْق مقدرته الثَّقافيَّة، كما مَكَّن العالم الرَّاسخ من أن يستنبط من النَّصِّ ذاته المبادئ والمفاهيم المذهلة في بناء الحياة، وذلك بإعمال العقل البشري في تدبُّر كلام الله ﷻ.. إن مستويات البيان القرآنيِّ تَظْهَر في آياته كما تَظْهَر في سُوَره التي انتظمت كلماته:

كالدُّرِّ يزدادُ حسنًا وهو منتظمٌ ... وليسَ ينقصُ قدرًا غيرَ منتظمِ(٢)

ففصلُ الخطاب -كما يقول وليُّ الدِّين المَلَويُّ رحمه الله- **أن آياتِ القرآن «جاءت عَلَى حَسَبِ الْوَقَائِعِ تَنْزِيلًا، وَعَلَى حَسَبِ الْحِكْمَةِ تَرْتِيبًا وَتَأْصِيلًا»**(٣)، ويمنحنا الفكر التَّيميُّ نورًا في التَّدبُّر القرآنيِّ: «فَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ، وَتَدَبَّرَ مَا قَبْلَ الْآيَةِ، وَمَا بَعْدَهَا... تَبَيَّنَ لَهُ الْمُرَادُ، وَعَرَفَ الْهُدَى وَالرِّسَالَةَ، وَعَرَفَ السَّدَادَ مِنَ الِانْحِرَافِ وَالِاعْوِجَاجِ»(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٣٧).

(٢) البيت في البردة للبوصيري، ولكن مطلعه بالفاء وليس بالكاف. ينظر: البردة شرحًا وإعرابًا وبلاغة (ص: ١٢٧).

(٣) انظر: البرهان (١/ ٣٧)، الإتقان (٣/ ٣٧٠).

(٤) مجموع الفتاوى (١٥/ ٩٤).

فـ(**هذا النَّظْم الفريد) يقدِّم لنا مستوياتٍ متعدِّدة في فَهْم النصِّ القرآنيِّ** وَفق منهجية أصول التَّفسير؛ بل إن هذا الوجه يعدُّ من أهمِّ وجوه الإعجاز القرآنيِّ؛ **إذ إن القرآن ألفاظٌ محصورةٌ، وكَلِمٌ معدودةٌ، لكنها رُتِّبت ترتيبًا خاصًّا، ونُظِمَتْ نظمًا محكمًا لتستوعب من المعاني ما ليس في طوق البشر**(١)..وبذا يتمهَّد الطَّريق لمعرفة تفصيل المقاصد الغائيَّة للتَّنزيل القرآنيِّ التي أُجملِت في قوله ﷻ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

(تسوير السُّورَة) مصطلح مبتكر يبرز العلاقات الجزئيَّة والكلِّيَّة التي لأجلها سُوِّرت هذه الآيات في فصلٍ واحد سُمِّيَ "سورة"، ويستكشف الخريطة الكلِّيَّة للسُّورَة وصولًا إلى موضوعها الكلِّيِّ، وفيه يتجلَّى تماسك النَّظْم، وإحكام السِّيَاق القرآنيِّ القريب والبعيد، حتى تظهر كبناء واحد متماسك، وشخصيَّة مكتملة الملامح.

(١) أشار عبد القاهر الجرجانيُّ رحمه الله إلى نحوِ ذلك في أوجه الإعجاز القرآني في تدبرٍ آسرٍ. انظر: دلائل الإعجاز (ص:٤٠).

الشَّرط السَّابع: التَّماثل في نوعية المُتَحدَّى به، ويصوِّر لنا ذلك قوله: ﴿مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾:

ولكنك ربما تتساءل: ما معنى قوله: ﴿مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾؟ وعلام يعود هذا الضَّمير؟

الجواب: الضَّمير يحتمل معنيين:

المعنى الأول: من مِثْل القرآن في المعنى والمبنى، وقد حكى الإمام الطَّبريُّ ﷺ هذا القول عن مجاهد وقتادة ﷺ، ورجَّحه، وقال في معناه: «الله -جلَّ ذكره- قال لمن حاجَّه في نبيِّه محمَّد ﷺ من الكفَّار: فأتوا بسورة من مثل هذا القرآن من كلامكم أيتها العرب، كما أتى به محمَّد بلغاتكم، ومعاني منطقكم»(١).

المعنى الثاني: فأتوا بسورة من مِثْل الرَّسول ﷺ في صدقه وأمانته وأُمِّيته، ويوضِّح الطَّبريُّ ﷺ المعنى هنا فيقول: «أَيْ: فَأْتُوا مِمَّنْ هُوَ عَلَى حَالِهِ مِنْ كَوْنِهِ بَشَرًا أُمِّيًّا لَمْ يَقْرَأِ الْكُتُبَ وَلَمْ يَأْخُذْ مِنَ الْعُلَمَاءِ، ثم يأتي بمثل هذا الذي لا يطيقه أكابر فصحائكم غير الأُمِّيين»(٢).

ولقد كان الناس يرون أن وجه النَّبيِّ ﷺ ليس بوجه كذَّاب، فكيف بمن يسمع القرآن منه؟!

فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ ﷺ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ انْجَفَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَكُنْتُ فِيمَنِ انْجَفَلَ، فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيسَ بِوَجْهِ كذَّابٍ، فكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»(٣).

ورجَّح الزَّمخشريُّ ﷺ أن ردَّ الضَّمير إلى المُنْزَل وهو القرآن أَوْجَهُ، وأحسن ترتيبًا؛ وذلك أن الحديث في المُنْزَل لا في المُنْزَل عليه(٤).

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٧٤).

(٢) تفسير الرازي (٢/ ٣٤٩).

(٣) أحمد(٢٣٨٣٥)، وصحَّح الأرناؤوط إسنادَه، وكذا الألباني في صحيح الجامع (٧٨٦٥).

(٤) الكشاف (١/ ٩٩).

إلا أنك عندما تتأمَّل الصِّياغة القُرآنِيَّة تشعر أن الله ﷻ أراد المعاني التي احتملتها هذه الصِّياغة، وإلا فكان يمكن التَّعبير عن المراد بغير ذلك، ولأجل هذه القاعدة رجَّح ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ أن نحمل الآية على كلِّ معانيها، فكُلُّهَا مُرَادَةٌ، ومن أسباب احتمال المعاني هنا: أن نردَّ «دَعَاوِي الْمُكَذِّبِينَ فِي اخْتِلَافِ دَعَاوِيهِمْ؛ فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: الْقُرْآنُ كَلَامُ بَشَرٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: هُوَ مُكْتَتَبٌ مِنْ أَسَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ. وَهَاتِهِ الْوُجُوهُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ تُفَنِّدُ جَمِيعَ الدَّعَاوِي؛ فَإِنْ كَانَ كَلَامَ بَشَرٍ فَأْتُوا بِمُمَاثِلِهِ أَوْ بِمِثْلِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَسَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ، فَأْتُوا أَنْتُمْ بِجُزْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسَاطِيرِ، وَإِنْ كَانَ يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ فَأْتُوا أَنْتُمْ مِنْ عِنْدِهِ بِسُورَةٍ، فَمَا هُوَ بِبَخِيلٍ عَنْكُمْ إِنْ سَأَلْتُمُوهُ. وَكُلُّ هَذَا إِرْخَاءٌ لِعِنَانِ الْمُعَارَضَةِ، وَتَسْجِيلٌ لِلْإِعْجَازِ عِنْدَ عَدَمِهَا، فَالتَّحدِّي عَلَى صِدْقِ الْقُرْآنِ هُوَ مَجْمُوعُ مُمَاثَلَةِ الْقُرْآنِ فِي أَلْفَاظِهِ وَتَرَاكِيبِهِ، ومُمَاثَلَةِ الرَّسُولِ الْمُنَزَّلِ عَلَيْهِ فِي أَنَّهُ أُمِّيٌّ، لَمْ يَسْبِقْ لَهُ تَعْلِيمٌ، وَلَا يَعْلَمُ الْكُتُبَ السَّالِفَةَ»(١).

وما زال هذا التَّحدِّي قائمًا في الجوانب اللَّفظيَّة والمعنويَّة.

ولكن السُّؤال يبقى قائمًا: ما معنى المماثلة في قوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]؟

الجواب: سبحان الله! أحيانًا يكون المعنى كالشَّمس، ولا يستطيع الإنسان وصفه، فما زلت أبحث وأناقش حول معنى المماثلة.

فذهب الطَّبريُّ رَحِمَهُ اللهُ إلى أن المماثلة يراد بها المماثلة في البيان، حيث طرح رَحِمَهُ اللهُ هذا السُّؤَال: «فهل للقرآن من مِثْل فيقال: ائتوا بسورة من مثله؟

قيل: إنه لم يَعْنِ به: ائتُوا بسورة من مثله في التَّأليف والمعاني التي باينَ بها سائرَ الكلام غيرَه، وإنما عنى: ائتوا بسورة من مثله في البيان؛ لأنَّ القرآن أنزله الله ﷻ بلسان عربيٍّ، فكلام العرب

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٣٨).

لا شكَّ له مِثْلٌ في معنى العربية. فأمَّا في المعنى الذي باين به القرآن سائرَ كلام المخلوقين، فلا مِثلَ له من ذلك الوجه ولا نظيرَ ولا شبيه.

أي: فأتوا بسورة من كلامكم الذي هو مِثلُه في العربية، إذْ كنتم عَرَبًا، وهو بيانٌ نظيرُ بيانكم، وكلامٌ شبيهُ كلامِكم، فلم يكلفهم -جلَّ ثناؤه- أن يأتوا بسورة من غير اللِّسان الذي هو نظيرُ اللِّسان الذي نزل به القرآن»(١).

والزَّمخشريُّ ﵀ يضع هذا السُّؤال: فإن قلت: وما مثله حتى يأتوا بسورة من ذلك المِثْل؟ قلت: معناه: فأتوا بسورة ممَّا هو على صِفته في البيان الغريب، وعلوِّ الطبقة في حُسن النَّظْم(٢).

ويبدو أنَّ الطَّبريَّ والزَّمخشريَّ ﵉ لم يخرجا عن أن يكون التَّحدِّي في الفصاحة وحُسن النَّظْم، بل ينفي الطَّبريُّ ﵀ أن يكون التَّحدِّي في المعاني.

وهنا يقع أمام تساؤل مشروع عن قصار السور، فإن كان التَّحدِّي في البيان، فكيف لم يستطيعوا أن يأتوا بما يماثلها؟

لقد هزَّ هذا فِكْرَ الإمام ابن كثير ﵀ كما زلزل مَنْ قبله، فلم يجد بُدًّا من أن يلجأ إلى الرَّازيِّ ﵀ فقال: «فَإِنْ قِيلَ: قَوْلُهُ: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] يَتَنَاوَلُ سُورَةَ الْكَوْثَرِ وَسُورَةَ الْعَصْرِ، وَ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وَنَحْنُ نَعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ الْإِتْيَانَ بِمِثْلِهِ أَوْ بِمَا يَقْرُبُ مِنْهُ مُمْكِنٌ. فَإِنْ قُلْتُمْ: إِنَّ الْإِتْيَانَ بِمِثْلِ هَذِهِ السُّوَرِ خَارِجٌ عَنْ مَقْدُورِ الْبَشَرِ كَانَ مُكَابَرَةً، وَالْإِقْدَامُ عَلَى هَذِهِ الْمُكَابَرَاتِ مِمَّا يَطْرُقُ بِالتُّهْمَةِ إِلَى الدِّينِ: قُلْنَا: فَلِهَذَا السَّبَب اخْتَرْنَا الطَّرِيقَ الثَّانِي، وَقُلْنَا: إِنْ بَلَغَتْ هَذِهِ السُّورَة فِي الْفَصَاحَةِ حَدَّ الْإِعْجَازِ فَقَدْ حَصَلَ الْمَقْصُودُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، كَانَ امْتِنَاعُهُمْ مِنَ الْمُعَارَضَةِ مَعَ شِدَّةِ دَوَاعِيهِمْ إِلَى تَهْوِينِ أَمْرِهِ مُعْجِزًا، فَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٧٥).

(٢) الكشاف (١/ ٩٨).

يَحْصُلُ الْمُعْجِزُ، هَذَا لَفْظُهُ -أي: لفظ الرَّازيِّ- بِحُرُوفِهِ. وَالصَّوَابُ: أَنَّ كُلَّ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ مُعْجِزَةٌ لَا يَسْتَطِيعُ الْبَشَرُ مُعَارَضَتَهَا طَوِيلَةً كَانَتْ أَوْ قَصِيرَةً، قال الشَّافِعِيُّ رحمه الله: لَوْ تَدَبَّرَ النَّاسُ هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣]»[(١)].

إلى أين ذهب الرَّازيُّ رحمه الله؟ إلى ما يشبه الصَّرْفة[(٢)]، ولكن ابن كثير رحمه الله يستدرك عليه، ويرى أن قِصار السُّوَر تشبه طِوالَه في عجز البشر عن معارضتها بالقدر ذاته، وهنا يتباين التَّفكير في موضوع المماثلة بصورة واضحة، وسبب هذا التَّباين: عدم الاتِّفاق على تحديد معنى المماثلة.

فهاهو ابن كثير رحمه الله يثبت كلامه بما ينقله عن الشَّافعيِّ رحمه الله من الاحتجاج بمعاني السُّورَة لا بنظمها فقط، ولا أظنُّ علماءنا يصيبون هنا عندما يقيسون الكلام القرآنيَّ العظيم بما ينقل عن مسيلمة الكذَّاب، خاصَّة وما ينقل من سفاهاته لم تثبت في صِحاح الأخبار.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٣).

(٢) ذهب أبو إسحاق إبراهيم بن سيَّار النَّظَّام (ت: ٢٣١هـ) ومن تابعه -كالمرتضى (ت: ٤٣٦هـ) من الشيعة- إلى أن إعجاز القرآن كان بالصَّرفة، ومعنى الصَّرفة في نظر النَّظَّام: أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف خارقًا للعادة، ومعناها في نظر المرتضى: أن الله سلبهم العلوم التي يُحتاج إليها في المعارضة، ليجيئوا بمثل القرآن. ينظر: مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (ص: ٢٦٨)، مباحث في إعجاز القرآن (ص: ٥٨-٦٨).

الشَّرط الثَّامن: إحضار الشُّهداء، ويصوِّره لنا قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾:

يلفت نظرك قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، فماذا يعني ذلك؟

الجواب: ﴿وَٱدْعُواْ﴾(١) كلمة مشتقة من (دعا) وَهُوَ أَنْ تُمِيلَ الشَّيء وتجذبه بِصَوْتٍ وَكَلَامٍ، أو ما يقوم مقامه إلى مكان أو أمر، تَقُولُ: دَعَوْتُ أَدْعُو دُعَاءً، وَدَاعِيَةُ اللَّبَنِ: البقيَّة التي تترك فِي الضَّرْعِ لِيَدْعُوَ مَا بَعْدَهُ، ومنه تداعَوْا عَلَيْهِ: تَجَمَّعُوا.

فالدُّعاء السُّؤال والطَّلب لقضاء المأرب، ولجذب المدعو ليحضر، أو ليحقِّق غرض الدَّاعي، وقد يصحبه استغاثة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١]، تنبيهًا أنَّكم إذا أصابتكم شِدَّة لم تفزعوا إلَّا إليه، وقد يصحبه حثٌّ على الفعل كما قال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

ومن الدُّعاء بمعنى تحقيق الغرض قول أَبي فِرَاسٍ يُخَاطِبُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ لِيَفْدِيَهُ مِنْ أَسْرِ مَلِكِ الرُّومِ:

دَعَوْتُكَ لِلْجَفْنِ الْقَرِيحِ الْمُسَهَّدِ ... لَدَيَّ وَلِلنَّوْمِ القليلِ الْمُشَرَّدِ(٢)

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣] أي سلوهم أن يأتوكم ليحضروا فيشهدوا لكم، أو لينصروكم فيما تحاولونه.

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٢/ ٢٧٩)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٣١٥)، تاج العروس (٣٨/ ٤٦)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ٦٥٥)، التحرير والتنوير (١/ ٣٣٩).

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني (ص: ٧٨)، وفي بعض المراجع: (الطَّرِيدِ) بدلًا من (القليل). ينظر: أنوار الربيع في أنواع البديع (ص: ٣٤١).

والشُّهداء جمع شهيد بمعنى شاهد كالشُّركاء جمع شريك، والخطباء جمع خطيب، والشَّهيد:

يسمَّى به القائم بالشَّهادة أي الشَّاهدُ على الشَّيء لغيره بما يحقِّق دَعواه، وقد يسمَّى به الحاضر المشاهِدُ للشيء، كما يقال: فلان جليسُ فلان -يعني به مُجالِسَه ونديمه - يعني به مُنادِمَه، وكذلك يقال: شهيده- يعني به مُشاهِدَه[1].

ولماذا دعوة الشُّهداء؟

الجواب: هذا الطَّلب للشُّهداء لأجل ألا يدَّعي كلُّ واحد أنه أتى بمثل القرآن، وهذه الجملة فيها تهييج واستفزاز وإثارة، وتتضمَّن تحديًا صارخًا مدهشًا، وذلك حتى يكتمل التَّحدِّي، ويظهر عجز الخصم، فإحضار الشُّهود يحمي القضية من التَّلاعب، وبها يتحقَّق العدل في إصدار الحكم في التَّحدِّي بإحضار الشُّهداء الذين يشهدون بصدق المماثلة.

وحتى يتضح معنى ﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾ [البقرة: ٢٣] جيِّدًا لا بدَّ أن ننظر فيما بعدها، وهو قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وهنا يأتي الشَّرط التَّاسع:

الشَّرط التَّاسع: نوعية الشُّهداء الذين يُدعون: كلُّ ما كان من دون الله ﷻ، ويُبَصِّرنا به قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

ماذا يعني قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣]؟

الجواب: قوله ﴿دُونِ﴾: الدُّون: يدلُّ على المداناة والمقاربة والمغايرة، يقال هذا دون ذاك، أي: هو أقرب منه، ويقال في الإغراء: دونكه! أي: خذه، اقْرُب منه، وقرِّبه منك، وَدَوَّنَ الْكُتُبَ: إِذَا جَمَعَهَا؛ لِأَنَّ جَمْعَ الشَّيء أَدْنَاهُ بَعْضَهُ مِنْ بَعْضٍ، ويقولون: أمر دُون، وثوب دُون، أي:

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٧٧).

قريب القِيْمَة، ودان يدُون دَونًا: إذا ضعُف، وهو عنده من الشَّيء الدُّون، أي: الهيِّن، الحقير، الدَّنِي، الخَسيسِ، وَيُقَالُ: هَذَا دُونَ ذَاكَ إِذَا كَانَ أَحَطَّ مِنْهُ قَلِيلًا(١)، ومنه:

إِذا مَا عَلا المرءُ رامَ العَلاء ... ويَقْنَع بالدُّونِ مَن كانَ دُونا(٢)

واستعير للتَّفاوت في الأحوال والرُّتَب فقيل: زيد دون عمرو في الشَّرف والعلم، واتسع فيه فاستعمل في كلِّ تجاوز حدٍّ إلى حدٍّ، وتخطِّي حكم إلى حكم، كما قال الله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين.

أي: ممن هو أقلُّ من الله ﷻ؛ فإنكم لا تستطيعون استشهاد الله ﷻ على باطلكم.

فماذا يكون معنى هذه الجملة كاملة ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣]؟

الجواب: تظهر لنا معانٍ لهذه الجملة الإثارية الجدليَّة المتضمِّنة للتَّحدِّي:

المعنى الأول: ادعوا آلهتكم من غير الله ﷻ ممَّن هو مِنْ معبوداتكم لينصروكم، أو ادعوا أكابركم من نصرائكم ليعينوكم على المعارضة والإتيان بشيء يماثل القرآن، فيكون الشهيد مجازًا عن النَّاصر والمعين:

فعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «وادعوا شُهداءكم من دون الله»، يعني أعوانكم على ما أنتم عليه، إن كنتم صادقين(٣)، فادْعُوا نُصَرَاءَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَلَاغَةِ فَيَكُونُ تَعْجِيزًا لِلْعَامَّةِ، وَالْخَاصَّةِ.

ومن شهدائهم من دون الله على هذا المعنى: الأصنام، والشَّمس والقمر، والتَّماثيل.

---

(١) مقاييس اللغة (٢/ ٣١٧)، الكشاف (١/ ٩٩)، تفسير الرازي (٢/ ٣٥٠)، تاج العروس (٣٥/ ٣٣).

(٢) البيت بلا نسبة، كما في الصحاح للجوهري (٥/ ٢١١٥)، ونسبه العكبري في شرح ديوان المتنبي (٤/ ٩٤) إلى جابر بن موسى الحنفي، وسمَّاه آخرون: موسى بن جابر الحنفي.

(٣) تفسير الطبري (١/ ٣٧٦).

ويكون معنى قوله: ﴿وَٱدۡعُواْ﴾ يعني: استنصروا واستغيثوا، كما قال الشَّاعر:

فَلَمَّـا الْتَقَـتْ فُرْسَـانُنَا وَرِجَـالُهُمْ ... دَعَـوْا: يَـا لَكَعْـبٍ! وَاعْتَزَيْنَـا لِعَـامِرِ[١]

يعني بقوله: «دَعَوْا يا لَكَعب»: استنصرُوا كعبًا، واستغاثوا بهم[٢].

وهذا التَّعبير بهذا التَّفسير يصوِّر لك مقدار الاستخفاف بمحاولاتهم إن حاولوا، فهو كما قال الزَّمخشريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «في أمرهم أن يستظهروا بالجماد الذي لا ينطق في معارضة القرآن بفصاحته: غاية التَّهكُّم بهم»[٣].

هذا التَّعبير بهذا التَّفسير يدمِّر معنوياتهم، ويجعلهم يكفُّون عن التَّفكير في مجرد المحاولة!

المعنى الثَّاني: ادعوا من يشهد لكم ممن نرضاه وترضونه ممن يقبل قولهم بأن ما أتيتم به يماثل القرآن:

عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ﴾ [الأَنْعَام: ١٥٠][٤].

المعنى الثَّالث: ادعوا شهداءكم الذين يستحقُّون أن تستشهدوا بهم من دون الله عَزَّوَجَلَّ، أي: من دون أوليائه ومن غير المؤمنين، ليشهدوا لكم أنكم أتيتم بمثله:

فالشُّهداء هنا هم الذين يَنظر إليهم الكافرون على أنهم أصوبهم رأيًا، وأسدُّهم منطقًا.

هذا التَّعبير ﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣] بهذا التَّفسير يصوِّر لك التَّساهُل معهم، وإرخاء العنان لهم، وكأنه قيل لهم: ادعوا الشُّهداء الذين ترضونهم من عقلائكم الذين

---

(١) البيت للراعي النميري، وفيه (يا لَكَلب) بدلًا من (يا لَكَعب). ينظر: ديوان الراعي (ص: ١٤٥).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٣٧٦).

(٣) الكشاف (١/ ١٠٠).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٣٤٠).

تستشهدون بهم من دون الله، ولا تستشهدوا بالله، ولا تقولوا: الله يشهد أنَّ ما ندعيه حقٌّ، والغالب أن الشُّهداء العقلاء الذين هم مدارة القوم -كما يقول الزَّمخشريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ - هم وجوه المشاهد، وفرسان المقاولة والمناقلة، تأبى عليهم الطِّباع، وتجمح بهم الإنسانيَّة والأَنَفَة أن يأتوا بالشَّهادة الكاذبة، أو يرضوا لأنفسهم الشَّهادة بصِحَّة الفاسد البيِّن عندهم فسادُه[1].

ويكون معنى ﴿ٱدۡعُواْ﴾: اطلبوا حضورهم ليشهدوا لكم، أو ليشهدوكم فيعينوكم.

وقول مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ يشهد للمعنى الثَّاني والثَّالث حيث قال: «قوم يشهدون لكم»[2].

وقد تسأل: لماذا تدعون الشُّهداء للحضور؟

الجواب: حتى لا تفتروا أمرًا من عند أنفسكم، فقد كان في العرب من يشهد لغيره بعلوِّ الدَّرجة في الفصاحة على الْآخَرِ، فقد كان الشُّعَراء يتحاكمون إلى من يشهد لهم بالتفوُّق من غيره، كما في قِصَّة نابغة بني ذبيان الذي كان تضرب له قُبَّة من أَدَمٍ بسوق عكاظ يجتمع إليه فيها الشُّعَراء؛ فدخل إليه حسَّان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعنده الأعشى، وقد أنشده شعره، وأنشدته الخنساء قصيدتها التي مطلعها:

قَذىً بِعَينِكِ أَم بِالعَينِ عُوَّارُ ... أَم ذَرَفَتْ إِذ خَلَت مِن أَهلِها الدارُ

حتى انتهت إلى قولها:

وَإِنَّ صَخرًا لَمَولَانا وَسَيِّدُنا ... وَإِنَّ صَخرًا إِذا نَشتو لَنَحَّارُ

وَإِنَّ صَخرًا لَتَأتَمُّ الهُداةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ في رَأسِهِ نارُ[3]

(١) الكشاف (١/ ١٠٠)، تفسير الرازي (٢/ ٣٥١)، و«مدارة القوم» المدارة: جِلْد يدار ويخرز على هيئة الدلو، تملأ ماء.

(٢) تفسير الطبري (١/ ٣٧٦).

(٣) ديوان الخنساء (ص: ٤٥، ٤٦)، وفيه (لوالينا) بدلًا من (لمولانا)، وإنما قالت (إذا نشتو لنحار) لأن النحر في الشتاء الإطعامُ فيه أشدُّ مؤنة.

فقال: لولا أن أبا بصيرٍ – يقصد الأعشى وهو شاعر مشهور من أصحاب المعلَّقات – أنشدني قبلك لقلت: إنكِ أشعر الناس!![1].

وطلب الشُّهداء ليشهدوا يدلُّ على التَّحدِّي الشَّديد، وهو أمر حواريٌّ برهانيٌّ حاضر في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٥٠].

الشَّرط العاشر: إشاعة جو التَّحدِّي، ويصوره لنا قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[البقرة: ٢٣].

وقد تسأل: لماذا هذا الختم للتَّحدِّي؟

الجواب: هذا الختم لإثارة التَّحدِّي، وحصار المتحدَّى: إما أن يكون صادقًا في ريبه في القرآن، فيحقِّق الشروط، وإما أن يكون كاذبًا، فيرجع إلى الإيمان.

وذهب البقاعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣] فيه إيماء إلى كذبهم في دعوى الشَّكِّ فيه[2]، حيث استخدم ﴿إِن﴾ التي يشكُّ في وقوع ما بعدها، أي: إن كنتم صادقين في دعواكم أنَّ القرآن ليس من عند الله فعارضوه، ويظهر لي أن ﴿إِن﴾ التَّشكيكيَّة **هنا قد تأتي للتَّشكيك**، كما في قوله: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

وقد تأتي للاستفزاز والإثارة والتَّهييج، كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨]، ومثل قوله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

فـ﴿إِن﴾ هنا مع ما بعدها تشكِّك في موقفهم، وتستفزهم ليحاولوا المعارضة، كأنه يقول لهم: أنتم تشعرون برخاوة موقفكم، وتعلمون أنكم تحاولون الكذب.

(١) خزانة الأدب للبغدادي (٨/ ١١٢، ١١٣).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ١٦٦).

هكذا ترى أن الآية بسطت لنا في عشرة مواضع منها، وصارت أمامنا على أجمل نظام، تبيِّن لنا شروط التَّحدِّي من خلال كلماتها، وتقنع السَّامع والمخاطَب بأن لا مناص له من أن يؤمن بالله ﷻ، وأن يؤمن برسوله ﷺ، وتعال بنا إلى بصائر تتعلَّق بالتَّحدِّي الوارد في هذه الآية:

بصيرة [٧]: القرآن أعظم من المعجزات النَّبويَّة الحسِّيَّة.

فصار القرآن أعظم المعجزات التي يدخل الناس بها في دين الله أفواجًا، عليها تجذب العدد الأكبر من البشر، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قال النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

هنا ستسأل: وهل التَّحدِّي بالقرآن ينفي وجود معجزات حسِّيَّة مادِّيَّة أوتيها النَّبيُّ ﷺ؟

الجواب: كان يمكن أن يختار النَّبيُّ ﷺ معجزاتٍ مادية حسِّيَّةً، فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: دَخَلَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَرَأَتْ فِرَاشَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَبَاءَةً مَثْنِيَّةً، فَرَجَعَتْ إِلَى مَنْزِلِهَا، فَبَعَثَتْ إِلَيَّ بِفِرَاشٍ حَشْوُهُ الصُّوفُ، فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقُلْتُ: فُلَانَةُ الأَنْصَارِيَّةُ دَخَلَتْ عَلَيَّ فَرَأَتْ فِرَاشَكَ، فَبَعَثَتْ إِلَيَّ بِهَذَا فَقَالَ: «رُدِّيهِ»، فَلَمْ أَرُدَّهُ، وَأَعْجَبَنِي أَنْ يَكُونَ فِي بَيْتِي، حَتَّى قال لِي ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ. فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ رُدِّيهِ، فَوَاللهِ لَوْ شِئْتُ لَأَجْرَى اللهُ مَعِيَ جِبَالَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، فَرَدَدْتُهُ»(٢)، وقد أوتي النَّبيُّ ﷺ معجزاتٍ مادية جاوزت الألف، كما صرَّح بذلك ابن القيِّم رحمه الله (٣)، لكن الله ﷻ أراد أن تكون معجزتَه الكبرى باقية، فأنزل الله ﷻ عليه القرآن المجيد؛ ليجمع هذه البيِّنة العظيمة بين الإعجاز، والعقلانيَّة،

---

(١) البخاري (٤٩٨١).

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (٧٦)، وقال العراقي: في تخريج أحاديث الإحياء (ص: ١٥٩٥): «وَفِيهِ مجَالد بن سعيد مُخْتَلف فِيهِ».

(٣) إغاثة اللهفان (٢/ ٦٩١)

والفكريَّة، والتَّشريع، والخلود، وقد أذعن لها كلٌّ من نزع العناد والحسد من قلبه، فقال عنها البوصيريُّ رحمه الله (١):

آيَــاتُ حَــقٍّ مِــنَ الــرَّحْمَنُ مُحْدَثَــةٌ ... قَدِيمَــةٌ صِــفَةُ المَوْصُــوفِ بِالقِــدَمِ
رَدَّتْ بَلَاغَتُهَــا دَعْــوَى مُعَارِضِــهَا ... رَدَّ الغَيْــورِ يَــدَ الجَــانِي عَــنِ الْحَــرَمِ
لَهَــا مَعَــانٍ كَمَــوْجِ البَحْــرِ فِي مَــدَدٍ ... وَفَــوْقَ جَــوْهَرِهِ فِي الْحُسْــنِ وَالقِــيَمِ
فَمَــا تُعَــدُّ وَلَا تُحْصَــى عَجَائِبُهَــا ... وَلَا تُسَــامُ عَلَــى الإِكْثَــارِ بِالسَّــأَمِ
قَــرَّتْ بِهَــا عَــيْنُ قَارِيهَــا فَقُلْــتُ لَــهُ ... لَقَــدْ ظَفِــرْتَ بِحَبْــلِ اللهِ فَاعْتَصِــمِ
إِنْ تَتْلُهَــا خِيفَــةً مِــنْ حَــرِّ نَــارِ لَظَــى ... أَطْفَــأْتَ حَــرَّ لَظَــى مِــنْ وِرْدِهَــا الشَّــبِمِ
كَأَنَّهَــا الحَــوْضُ تَبْــيَضُّ الوُجُــوهُ بِــهِ ... مِــنَ العُصَــاةِ وَقَــدْ جَــاؤوهُ كَــالحُمَمِ
وَكَالصِّــــرَاطِ وكَــــالمِيزانِ مَعدِلَــــةً ... فالقِسْــطُ مِــنْ غَيرِهــا فِي النَّــاسِ لَــمْ يَقُــمِ
لا تعْجَــبَنْ لِحَسُــــودٍ راحَ يُنكِرُهــا ... تَجَــاهُلًا وهْــوَ عَــينُ الحَــاذِقِ الفَهِــمِ
قــد تنكــرُ العــينُ ضــوءَ الشَّــمس مــن رمــدٍ ... ويُنْكِــرُ الفَــمُ طَعْــمَ المــاءِ مــنْ سَــقَمِ

---

(١) ديوان البوصيري (ص: ٢٤٦).

مراتب الإعلان عن التحدي بالقرآن الكريم

الإعلان الأول

الإتيان بحديث يماثل حديث القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: 33 - 34].

الإعلان الثاني

طلب الإتيان بمماثل للقرآن المجيد، وذلك في أواخر العهد المكي، وذلك قَوْلُه تعالى مجده: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88].

الإعلان الثالث

طلب الإتيان بكتاب من عند الله أهدى من التوراة والقرآن، وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [القصص: 49].

الإعلان الرابع

التحدي بعشر سور، وذلك قَوْلُه جل ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٣ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: 13- 14]

الإعلان الخامس

التحدي بسورة واحدة، وذلك قَوْلُه تعالى شأنه: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: 38]

الإعلان السادس

إعادة التحدي بسورة في العهد المدني، إذ كان النبي ﷺ في مرحلة بناء الدولة، وورد ذلك هنا في سورة البقرة ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: 23].

مراتب الإعلان عن التَّحدِّي بالقرآن الكريم:

هنا قد تسأل: عندما نسمع الآية نجد الله ﷻ يقول: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣]، فجاء التَّحدِّي هنا بسورة واحدة، فكيف نجمع بين هذا الموضع، وبقيَّة مواضع التَّحدِّي الصَّريحة في القرآن؟

الجواب: للعلماء في مراحل التحدي بالقرآن الكريم أقوال:

القول الأول: وهو قول جمهور علماء التفسير والبلاغة أن التحدي كان متدرجًا بالقرآن كله كما في سورة الإسراء والطور، ثم تحداهم بعشر سور في سورة هود، ثم تحداهم بسورة في سورة يونس وسورة البقرة(١)، ولكن هذا القول لا يساعد عليه ترتيب نزول القرآن الكريم.

القول الثاني: رتبت آيات التحدي ترتيب النزول وأنه كان متدرجًا أيضًا، إلا أن التحدي بسورة وقع قبل التحدي بعشر سور.

القول الثالث: قام القولان السابقان على تصور أن الإتيان بمثل القرآن أصعب من الإتيان بمثل عشر سُوَر، وأن الإتيان بالعشر أصعب من الإتيان بسورة، وهذا غير صحيح. لأن القرآن كلَّه قليله وكثيره على حد سواء في الإعجاز، فليس الإتيان بسورة أسهل من الإتيان بالقرآن كلِّه، فالتحدي في القرآن بالكيف لا بالكم، وبالنوع لا بالمقدار فلا يهم إذًا أن يكون التحدي بسورة جاء قبل التحدي بعشر سور أو قبل التحدي بالقرآن كله.

---

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ١١٠)، الإتقان في علوم القرآن (٤/ ٤، ٥)، على اختلاف بينهم يسير، إذ جعلها الزركشي ثلاث مراتب باعتبار التدرج من الأعلى إلى الأدنى: فأولها: آية الإسراء، وثانيها: آية هود، وثالثها: آية البقرة.

وكذلك السيوطي إلا أنه جعلها أربع مراتب، الأولى: الإتيان بمثله، ومثل لذلك بآية سورة الطور، والثانية: الإتيان بعشر سور، وذكر آية سورة هود. والثالثة: الإتيان بسورة مثله، ومثَّل لذلك بآية سورة يونس، ثم آية سورة البقرة، ثم ذكر بعد ذلك آية سورة الإسراء وأنها نادت عليهم بإظهار العجز وإعجاز القرآن.

واستحالة المجيء بمثل سورة من القرآن كاستحالة المجيء بعشر سور، واستحالة المجيء بمثل القرآن كله على حدٍّ سواء فكلُّ ذلك متعذر، ولذا فلا أثر للاختلاف في ترتيب آيات التحدي ما دام لا يترتب عليه أثر في قوة التحدي، والعجز كان عن الإتيان بجنس القرآن لا عن مقداره، ورجَّحه بعض المعاصرين كالأستاذ الدكتور فهد الرومي(١).

وأرى أن هذا القول أقرب، ولكنه يحتاج بعض التدقيق: فالتحدي اتخذ أشكالًا متعددّة كما هو واقع ليلائم الجوَّ العامَّ للسورة، وقد بينت مثالًا واضحًا لذلك في تدبرٍ مستقلٍ لي حول التحدي بسورة في سورة يونس، والتحدي بعشر سور في سورة هود عليه السلام، فيرجع إليه(٢).

وسنتاول هذه المراتب بترتيب النزول، وهو ترتيب تقريبي ظني، إلا فيما ورد أنه مدني، فهو متأخر، فقد جاء التَّحدِّي في القرآن بالقرآن بإعلانات عامَّة مدوِّية(٣):

الإعلان الأول: الإتيان بحديث يماثل حديث القرآن، وذلك في سورة الطُّور في قوله تعالى:
﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤].

لقد كان إعلانًا صارخًا عظيمًا تسمعه قريش لأوّل مرَّة، وكان له أثر عظيم في أسماعهم، والنَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم يتلوه عليهم، ولذا حرصوا بعد ذلك على منع الناس من سماع القرآن، ويحدِّث جبير بن مطعم رضي الله عنه عن أثر هذه السُّورَة فيه وهو ما زال مشركًا أسيرًا في مسجد النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة بعد بدر، فيقول رضي الله عنه: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ

---

(١) ينظر: دراسات في علوم القرآن، فهد الرومي (ص: ٢٧٠، ٢٧١).

(٢) ينظر المقال بعنوان: تأملات قرآنية: من أسرار ترتيب ذوات (الر) الست، موقع إسلام ويب، بتاريخ ١٠/ ١٢/ ٢٠١٣م.
رابط المقال: https://www.islamweb.net/ar/article/192175

(٣) راجع كتاب: "لماذا أسلم صديقي؟ ورأي الفاتيكان في تحديات القرآن" (ص:٣٠)، وذكرت تفصيلًا لما ذكره فضيلة المؤلف في ترتيب إعلان التَّحدِّي في سورة يونس وهود عليهما السلام.

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ۝٣٧﴾ [الطور: ٣٥-٣٧] كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ»[1].

الإعلان الثاني: طلب الإتيان بمماثل للقرآن المجيد، وذلك في أواخر العهد المكّيِّ، وذلك قَوْلُهُ تعالى مَجدُهُ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]:

وهذا تحدٍّ ثانٍ صارخٌ، وكان هذا التَّحدِّي قريبًا من وقوع حادثة المعراج، وفيه إرهاصات بخروج النَّبيِّ ﷺ من مكَّة إلى مكان يجد فيه وليًّا ونصيرًا، حيث قال الله ﷻ له: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ۝٨٠﴾ [الإسراء: ٨٠].

يأمر الله ﷻ النَّبيَّ ﷺ أن يعلن للخلق أجمعين هذا الإعلان الصارخ المدوِّي، يتحدَّى جميع الإنس والجن على أن يعقدوا اجتماعًا عامًّا مشتركًا ليؤلفوا كتابًا مثل القرآن، ويتأمَّل د/ إبراهيم خليل، فيرى أن التَّحدِّي هنا حوى أربعة أركان، ثلاثة منها معلومة يقينًا، أمَّا الرابع فهو مفقود... فالثَّلاثة المعلومة بالضَّرورة هي:

الأول: المتحدِّي (بكسر الدَّال)، وهو الله ﷻ الذي ينسب لنفسه وحده تأليف القرآن.

الثاني: المتحدَّى به (أو مادَّة التَّحدِّي)، وهو القرآن.

الثالث: المتحدَّى (بفتح الدَّال)، وهم جميع البشر والجن؛ سواء كانوا منفردين، أو مجتمعين ومتحدين لتحقيق هدف التَّحدِّي.

أما الرابع المفقود فهو نتيجة التَّحدِّي وهي صِفْر، كما أخبرنا بهذا القرآن ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾.

(١) البخاري (٤٨٥٤).

ولكي نفهم غرابة التَّحدِّي وانفراده سنوجه بعض التساؤلات التي تبدو ملحَّة:

١) هل يجرؤ أيُّ كاتب مهما بلغ من عبقرية أن يتحدَّى جميع البشر، بل وجميع الجن في كلِّ زمان ومكان بأن يأتوا بمثل كتاب ظهر على الأرض منذ أكثر من ١٤٠٠ عام؟ بل ويخبرنا أن جميع البشر والجنِّ لو اجتمعوا لتحقيق هذا الهدف وحده لما استطاعوا ذلك، علمًا بأن القرآن يقع في٥٠٠ صفحة من الحجم المتوسط، وجميع البشر لا حصر لتعدادهم!

٢) وهل وجد مثل هذا التَّحدِّي في أيِّ كتاب على ظهر هذه الأرض؟[1].

ثم تأمَّل لهجة الاستعلاء، والوضوح، والثِّقة، والهدوء في أسلوب توجيه هذا التَّحدِّي.. دون أي انفعال أو عصبية، ثم لك أن تتخيَّل النَّتيجة الرَّهيبة التي حسمها القرآن لذلك الرابع المفقود في كلمة واحدة ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾.

الإعلان الثالث: طلب الإتيان بكتاب من عند الله أهدى من التَّوراة والقرآن:

وأرى أن هذا الإعلان كان ثالثًا؛ لأنَّ سورة القصص نزلت قرب هجرة النَّبيِّ ﷺ إلى المدينة، فأمر الله ﷻ نبيَّه ﷺ أن يتحدَّاهم أن يأتوا بكتابٍ أولى من القرآن والتوراة، وذلك في قَوْله: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٤٩﴾ [القصص: ٤٩].

ونقل ابن كثير رحمه الله في قوله: ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ ما يلي: قال عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، والعوفيُّ رحمهما الله، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: يَعْنُونَ: التَّوْرَاةَ وَالْقُرْآنَ، قال السُّدِّيُّ: يَعْنِي صَدَّقَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنهُمَا

---

(١) ينظر: لماذا أسلم صديقي؟ ورأي الفاتيكان في تحديات القرآن (ص: ٢٩، ٣٠).

ٱلۡـَٔاخَرَ[١]، وعن ابن زيد رَحِمَهُ اللهُ: فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ﴾ [القصص: ٤٩] من هذين الكتابين؛ الذي بُعِثَ به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والذي بُعِثَ به محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ[٢].

أي: بما أنكم مقرون بالله عَزَّ وَجَلَّ؛ فإنه لا يترك خلقه هملًا دون أن ينزل كتابًا، فأروني ماذا عندكم من كتاب أهدى؟!

وجه الإعجاز:

والمتوقَّع حينها:

١) أن يصمتوا؛ لأنَّهم يعلمون أنَّهم لا يستطيعون أن يأتوا بكتاب مثل القرآن، فكيف يأتون بكتاب أولى منه.

٢) أو أن يتحرَّكوا لتأليف كتاب، وعندها سيجدون أنفسهم يفشلون في مجاراة البحر؛ ليأتوا ببحر مثله، ولذا تركوا المحاولة ابتداءً.

الإعلان الرابع: التَّحدِّي بعشر سور، وذلك قَوْلُه جلَّ ذِكره: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [هود: ١٣، ١٤]:

ويرى د/ إبراهيم خليل أنك في هذا الإعلان تجد التَّحدِّي ونتيجته، والتَّحدِّي جاء مسبوقًا باتِّهام، مشفوعًا بطلب، ومشروطًا بشرط، ونتيجة التَّحدِّي جاءت مشروطة بشرط، متبوعة بأمر وحقيقة، ومنتهية باستفهام، ففي هذا الإعلان تسعة معانٍ دقيقة وخطيرة تَهُمُّ جميع البشر جاءت جميعها في (٣٤) كلمة فقط، وإليك بيانها:

فالاتهام: الافتراء، حيث قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ [يونس: ٣٨].

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٤٢).

(٢) تفسير الطبري (١٩/ ٥٩١، ٥٩٢).

فجاء التَّحدِّي: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣].

والطَّلب المشفوع به هذا التَّحدِّي هو: ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٣٨]، فبإمكانكم الاستعانة بمن تشاؤون لإنجاز هذه المهمة الخطيرة من إنس وجنٍّ وتكنولوجيا.

والشَّرط الأساسيُّ: أن تُثبتوا صدقكم بدخول معركة التَّحدِّي: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

فإن هم فعلوا وقبلوا الدُّخول في معركة التَّحدِّي، فهم صادقون وإلا فهم كاذبون.

ويقرِّر الله ﷻ النَّتيجة المتوقَّعة بصيغة شرط: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ [هود: ١٤].

فيكفي أن توقنوا أنه من عند الله: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾، واثبتوا على الإيمان، ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وختمها بالاستفهام الذي يحرِّك قَلْبَ الحَجَر: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤].

وحتى لا يدَّعي مُدَّعٍ أن القرآن كتاب كبير الحجم لا يستطيع أحد أن يؤلِّف مثله، يطلب منهم الإتيان بعشر سور مفتريات، وفي ذلك تصعيد تنازليٌّ علميٌّ رهيب وفادح، يتضمَّن إذلال المتحدَّى، واستنفاره وتحقيره ليوافق على التَّحدِّي، خصوصًا إذا علمنا أن عشر سُوَر في الجزء الثلاثين من القرآن قد لا تزيد على مائتين وثلاث كلمات(١).

الإعلان الخامس: التَّحدِّي بسورة واحدة، وذلك قَوْلُه تعالى شأنه: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨]:

اللَّافت للنظر أن التَّحدِّي بسورة في سورة يونس جاء قبل التَّحدِّي بعشر سُوَر في سورة هود حسب التَّرتيب المصحفيِّ، مع أن التَّحدِّي عادة يكون بالأكثر، ثم عند حدوث الانهزام يكون بالأقلِّ، وزعم بعضهم أن من أسباب ذلك:

(١) لماذا أسلم صديقي؟ ورأي الفاتيكان في تحديات القرآن (ص:٣١).

ما ذهب إليه الرَّازيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ من أنَّ سورة يونس نزلت بعد سورة هود عَلَيْهِمَا السَّلَامُ(١)؛ ولكن هذه المسألة خلافية، بل الرِّواية -وإن كانت ضعيفة- بخلاف ذلك الزعم، حيث يذكرون أن سورة يونس نزلت قبل سورة هود عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

وربما خطر على بال بعضهم أن يقول بأن النَّبيَّ هودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أقدم من النَّبيِّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ تاريخًا، ولكن هذه الحكمة غير ظاهرة بالكلية، ولكنك لو تدبَّرت القرآن لوجدت أن الله تعالى وصف كلامه (القرآن) في سورة يونس بالحكمة، بينما وصفه في سورة هود بالإحكام والتَّفصيل، والذي يريد البحث عن الإحكام والتَّفصيل لا يكتفي بسورة واحدة؛ ليقتنع فجاء التَّحدِّي بعشر سُوَر.

وذهب محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أن التَّحدِّي فِي سُورَتَيْ يُونُسَ وَهُودٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ خَاصٌّ بِبَعْضِ أَنْوَاعِ الْإِعْجَازِ، وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَخْبَارِ كَقَصَصِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مَعَ أَقْوَامِهِمْ، وَهُوَ مِنْ أَخْبَارِ الْغَيْبِ الْمَاضِيَةِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ لِمَنْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ عِلْمٌ بِهَا وَلَا قَوْمِهِ كَمَا قال تَعَالَى عَقِبَ قِصَّةِ نُوحٍ مِنْ سُورَةِ هُودٍ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾ [هود: ٤٩]، وكَمَا قال فِي سُورَةِ الْقَصَصِ عَقِبَ قِصَّة مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٤٦، وَكَمَا قال فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ عَقِبَ قِصَّة مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ﴾ [آل عمران: ٤٤] الْآيَةَ.

ومال محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أنه ربما كانَ وَجْه التَّحدِّي بِعَشْرِ سُوَرٍ مُفْتَرَيَاتٍ دُونَ سُورَةٍ وَاحِدَةٍ، إِرَادَةَ نَوْعٍ خَاصٍّ مِنْ أَنْوَاعِ الْإِعْجَازِ، وَهُوَ الْإِتْيَانُ بِالْخَبَرِ الْوَاحِدِ بِأَسَالِيبَ متعدِّدة مُتَسَاوِيَةٍ فِي الْبَلَاغَةِ، وَإِزَالَةِ شُبْهَةٍ تَخْطُرُ بِالْبَالِ(٢).

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٤٩).

(٢) تفسير المنار (١/ ١٦١).

فهل في هذا وجه صحيح للتَّحدِّي؟ لا يظهر ذلك، فيستطيع بلغاء العالم أن يصنعوا مثل هذه الصَّنائع اللُّغَويَّة، وقد عمل مجد الدين الفيروزآبادي للسُّلطان الأشرف الرَّسوليِّ كتابًا أولُّ كلِّ سطر منه أَلِف، فقابله ابن المُقْري بكتابه: "عنوان الشرف الوافي في الفقه والتاريخ والنحو والعَروض والقوافي"، فبهر به علماء عصره، جمع فيه خمسة علوم، إذا قُرئ على حسب سياق السُّطور فهو علم الفقه، وإذا قُرئ أوائل السُّطور عموديًّا؛ فهو علم العَروض، وإذا قُرئ من آخرها عموديًّا؛ فهو علم القوافي، وإذا قُرئ العمود الأول الذي يخترق الصَّفحة؛ فهو تاريخ الدُّولة الرَّسوليَّة، والعمود الثاني علم النحو.

فقد جعل ثلاثة علوم منه تتقاطع فلا يختل معنى كلِّ علم بهذا التَّقاطع، وهي الفقه، والتَّاريخ، والنَّحو، وأما علم العَروض؛ فقد بدأ كلُّ سطر منه بالحرف الذي يبدأ به السطر في علم الفقه، والتزم في علم القوافي بأن يبدأ كلُّ سطر منه بالحرف الذي ينتهي به السَّطر في علم الفقه.

وقد وصفه الأديب إبراهيم الإخفاقيُّ بقوله:

لهــــذا كتـــابٌ لا يُصَـــنَّف مِثلُـــهُ ... لِصَــاحِبِهِ الجُـزْءُ العَظِـيمُ مِـنَ الحَـظِّ
عَــروضٌ وتَــارِيخٌ ونَحْــوٌ مُحقَّــقٌ ... وعِلْـمُ القـوافي وهـو فِقْـهُ أولـي الحِفْـظِ
فأعجِــبْ بــه حُسْــنًا، وأَعْجَــبُ أنَّــه ... بَطِـينٌ مِـنَ المَعْنَـى خَمِـيصٌ مِـنَ اللفـظِ(١)

---

(١) المنهل الصافي والمستوفَى بعد الوافي (٢/ ٣٨٨).

الإعلان السادس: إعادة التَّحدِّي بسورة في العهد المدنيّ؛ إذ كان النَّبيُّ ﷺ في مرحلة بناء الدَّولة، وورد ذلك هنا في سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣].

والتَّحدِّي بسورة يعني التَّحدِّي بعشر كلمات ضمن نظام واحد جعلته السُّورَة كالسُّوْر المحيط بالمدينة، والعشر الكلمات هي عدد الكلمات العُرْفيَّة لسورة الكوثر، أو ١٥ كلمة هي عدد كلمات سورة الإخلاص.

وهذا التَّحدِّي بحسب النزول مدهش في استثارة حمية أولياء الشيطان ليحاولوا إجابته، ويُصوِّر الرَّازيُّ رحمه الله قوَّة هذا التَّحدِّي فيقول: «وَنَظِيرُ هَذَا كَمَنْ يَتَحَدَّى صَاحِبَهُ بِتَصْنِيفِهِ، فَيَقُولُ: ائْتِنِي بِمِثْلِهِ، ائْتِنِي بِنِصْفِهِ، ائْتِنِي بِرُبْعِهِ، ائْتِنِي بِمَسْأَلَةٍ مِنْهُ، فَإِنَّ هَذَا هُوَ النِّهَايَةُ فِي التَّحدِّي وَإِزَالَةِ الْعُذْرِ»(1).

وربَّما تتساءل: ماذا كانت نتيجة إعلانات التَّحدِّي المتتابع المتكرِّر؟

الجواب: تبصَّرنا به الآية التي جاءت مباشرة بعد آخر التَّحدِّيات التي وجهها الله عز وجل للبشر، أي في هذه السُّورَة، حيث قال الله عز وجل: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤].

لقد كان التَّحدِّي بالقرآن أعجب من التَّحدِّي بإحياء الموتى الذي كان أحد بيِّنات عيسى عليه السلام، فالتَّحدِّي بإحياء الموتى لا يطمع إنسان في أن يجاري فيه عيسى عليه السلام، أما التَّحدِّي بالقرآن فهو تحدٍّ بما يمكن للإنسان أن يقوم به، أن ينشئ كلماتٍ، وجُمَلًا، وكتابًا، ولكنهم لم يصنعوا شيئًا مع قدرتهم على الكلام والكتابة، وعندما يسمعون الآيات يلجون في العناد

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٤٩).

والكبر: ﴿قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣١﴾ [الأنفال: ٣١]

والسُّؤَال: فَلِمَ لَمْ تفعلوا؟ أظْهِروا دليل صدقكم، فلم يأتوا بشيء.

بصيرة [٨]: التَّحدِّي بسورة من القرآن يعني استمرار الحفظ للقرآن.

تكرَّر التَّحدِّي بسورة في موضعين: أحدهما في سورة يونس المكيَّة، وثانيهما في سورة البقرة المدنية، فهل للتَّحدِّي بالإتيان بسورة قرآنية أهداف أخرى؟

الجواب: أَعِدِ النَّظر في الآية المباركة؛ لترى أن التَّحدِّي بالإتيان بسورةٍ من مثله يدلُّ على إثبات مزيَّةٍ جديدةٍ من مزايا القرآن الكريم، وهي القطع ببقاء وصوله إلى الأجيال المتتابعة وذلك ليستمر التَّحدِّي، وتبقى الحُجَّة قائمة على الأجيال المتتابعة، وذلك الذي حدث؛ إذ تحفظ الأعداد المدهشة من أجيال المسلمين القرآنَ الكريمَ؛ حتى يصل ذلك إلى الملايين في بعض الأجيال كما في زماننا، وما الذي بصَّرنا بذلك؟

بصَّرنا بذلك أنَّ المتحدَّى يمكنه أن يدَّعي أن السُّورَة التي تتحدوننا بها يوجد شكٌّ في نسبتها إلى القرآن الكريم.. ولكنه لا يستطيع.. لماذا؟ لأنَّ التَّواتر الضَّروريَّ في نقل القرآن الكريم يقطع عليه كلَّ ادِّعاء إلا أن يكون مجنونًا، فهذه الآية تشير إلى بقاء التَّواتر النَّقليِّ اللَّفظيِّ للقرآن الكريم، وهو أمرٌ لم يحدث لمعجزات الأنبياء السَّابِقَة؛ إذ حالها –دون ذكر القرآن لها– أن تكون من الأخبار التي اندرست، وانطمست، واعترى الأجيالَ الجديدةَ الشَّكُّ في وقوعها، لولا أنَّ الله ﷻ أثبتها في القرآن الكريم، ومعجزات النَّبيِّ ﷺ التي وردت في الأحاديث ولم تُذْكَر في القرآن أحسن حالًا منها في النَّقل، مثل: تسبيح الحصى، ونبع الماء، «فَأَمَّا الْقُرْآنُ فَإِعْجَازُهُ ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ النَّقْلِيِّ، وأدرك العالَمُ معجزتَه بالحسِّ لفظًا ومعنًى بحمد

الله، وذلك خلافًا لما قرَّره ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ من أنَّ العرب فقط أدركته بالحسِّ، وغيرهم أدركه بالنَّقل[1]، بل كلُّهم يدركه بالحسِّ عند التَّأمُّل.

هنا ربَّما تسأل: ما وجه التَّحدِّي بالقرآن المجيد، وإظهاره بمظهر الإعجاز؟

بصيرة [٩]: منشأ التَّحدِّي: الإعجاز القرآنيُّ البيانيُّ الذي اكتنزه القرآن المجيد؛ إذ يملك كنوزًا من المفاهيم يعجز الكلام البشري عن مجاراتها، صيغت في قوالب لفظيَّة تُنْتِجُ المعاني العظيمة، وبعض أنواع الإعجاز ظاهرة بمجرد النُّزول، وبعضها تظهر تباعًا حسب تقدُّم البشريَّة، واكتشافها للجديد؛ إمَّا من خلاله، وإمَّا من خلال معارفها، فتجد حقائقها متطابقة مع ما ذُكِر في القرآن الكريم.

هنا تشعر بالبيِّنة القرآنِيَّة تتحدَّى الإنسان من حيث هو إنسان، لا لأنَّه عربيٌّ، وتريك ملكوتَ هذا المعنى آياتُ سورة الرَّحمن، حيث يقول الله ﷻ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤]، فالقرآن معجزة إنسانيَّة؛ لأنَّ البيان أهمُّ خصائص الإنسان، والبيان يُظْهِر حقائقَ النَّفْس، وحقائق الكون، وحقائق الحياة.

بذا يظهر لك لماذا أنزل الله ﷻ آياته ترى تكلمنا عن حقائق الكون بعد هذه الآيات في سورة الرَّحمن، وابتدأها بقوله: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ...﴾ [الرحمن٥- آخر السُّورَة].

وبهذا التَّقرير أيضًا يستبين لك لماذا قرن الله ﷻ بين كون القرآن من عند الله، وبين آيات الآفاق والأنفس في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ۝٥٢ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ [فصلت: ٥٢-٥٣].

---

[1] التحرير والتنوير (١/ ٣٤٦).

وجمع الله ﷻ بين تلاوة القرآن والظُّهور التَّدريجيِّ لجوانب جديدة في إعجازها في قوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النمل: ٩٢-٩٣].

وقد تسأل: هل هناك علاقة بين التَّدبُّر ووجوه الإعجاز القرآنيِّ؟

الجواب: نعم، وهنا تدرك ما أراد ابن كثير رحمه الله، حينما ذكر وجود وجوه خفيَّة للإعجاز القرآنيِّ في قوله: «وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ وَجَدَ فِيهِ مِنْ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ فُنُونًا ظَاهِرَةً وَخَفِيَّةً، مِنْ حَيْثُ اللَّفْظُ، وَمِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى»(١)، وكلٌّ منهما مُحْكَمٌ مفصَّل، كما قال الله تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

ولعلَّك تسأل: ما الطَّريقة التي اتبعها الإمام عبد القاهر الجرجانيُّ رحمه الله للبرهنة على إعجاز القرآن الكريم؟

الجواب: حاول الإمام عبد القاهر الجرجانيُّ رحمه الله البرهنة على الإعجاز المذهل في القرآن الكريم مع أنه من جنس حروف البشر، ففكَّر تفكيرًا كلِّيًّا في الكلام العربي، وبعد هذا التَّقعيد الكلِّيِّ لأنواع الكلمة، وكيفية انتظامها في كلام مفيد أعلن عن مكمن العظمة القُرآنِيَّة، فقال: «إذا كانت هذه الأمور، وهذه الوجوه من التعلُّق التي هي محصول النَّظْم، موجودة على حقائقها وعلى الصِّحة، وكما ينبغي في منثور كلام العرب ومنظومه، ورأيناهم قد استعملوها وتصرَّفوا فيها وكملوا بمعرفتها، وكانت حقائق لا تتبدَّل ولا يختلف بها الحال.. **فما هذا الذي تجدَّد بالقرآن من عظيم المزيَّة، وباهر الفضل، والعجيب من الرَّصف، حتى أعجز الخلقَ قاطبة، وحتى قهر من البلغاء والفصحاء القُوَى والقُدَر، وقيَّد الخواطرَ والفِكَر، حتى خرست الشَّقاشِقُ، وعدم نُطقُ الناطق، وحتى لم يَجْرِ لسان، ولم يُبِنْ بيان، ولم يُساعد إمكانٌ،**

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٩٩).

ولم ينقدح لأحد منهم زَندٌ، ولم يمض له حدٌّ، وحتى أسالَ الوادي عليهم عجزًا، وأخذ منافذَ القولِ عليهم أخذًا؟»، ثم أنشد من قوله:

إنِّـي أقـولُ مَقـالًا لسـتُ أُخفيـه ... ولسـتُ أرهَـبُ خصْـمًا إنْ بَـدا فيـهِ
مـا مِـنْ سـبيلٍ إلـى إثبـاتِ مُعجـزةٍ ... في الـنَّظْمِ إلا بمـا أصـبحْتُ أبديـهِ
فمـا لـنَظْمِ كـلامٍ أنـتَ ناظمـهُ ... مَعْنًـى سـوى حُكْـمِ إعـرابٍ تُزجِّيـهِ
يقـولُ: مِـن أيـنَ أنْ لا نَظْـمَ يُشْـبِهُهُ ... ولـيسَ مِـن مَنْطِـقٍ في ذاك يَحْكِيـه
وقـد عَلِمْنـا بـأنَّ الـنَّظْمَ لـيسَ سِـوى ... حُكـمٍ مـنَ النَّحْـو نَمضـي في تَوَخِّيـهِ
لـو نقَّـبَ الأرضَ بـاغٍ غيـرَ ذاكَ لـه ... مَعنًـى وصـعَّدَ يعلـو في ترقِّيـهِ
مـا عـادَ إلا بخُسْـرٍ في تَطَلُّبِـهِ ... ولا رَأى غيـرَ غَـيٍّ في تبَغِّيـهِ
فمـا الـذي زادَ في هـذا الَّـذي عَرَفُـوا ... حتّـى غَـدا العَجـزُ يَهمـي سـيلُ واديـهِ
قُولـوا وإلا فأَصْـغوا للبيـانِ تَـرَوْا ... كالصُّبحِ مُنْبلجًا في عَيْنِ رائيهِ[1]

(١) دلائل الإعجاز (ص: ١٠)، والشّقشقة: لهاة البعير يخرجها من فيه إذا هاج، والجمع: الشقاشق ويقال للفصيح: هدرت شقشقته.

بصيرة [١٠]: التَّحدِّي في قوله: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] عامٌّ للعرب والعجم، فالقول بأن الإعجاز في الفصاحة فقط قصور عن إظهار الحجَّة القُرآنِيَّة.

ونشير هنا إلى بعض ما يتعلق بهذه البصيرة:

أولًا: عندما ترجع إلى علمائنا الأوائل لتبحث عن فكرهم في تحديد معنى الإعجاز القرآنيِّ، تجد الطَّبريَّ رحمه الله ينصُّ على أن التَّحدِّي في البيان، فيقول: «لم يَعْنِ به: ائتُوا بسورة من مثله في التَّأليف والمعاني التي باينَ بها سائرَ الكلام غيرَه، وإنما عنى: ائتوا بسورة من مثله في البيان»[(١)]، ألا ترى شيئًا من الاضطراب في الفكرة عند إمامنا هنا؟

ينفي أن يكون التَّحدِّي في التَّأليف والمعاني، ويثبت التَّحدِّي في البيان؟

فماذا يكون معنى البيان عند التَّأمُّل إلا ما تعلَّق باللَّفظ والمعنى، وكيف يكون بيانًا إن لم يُعبِّرِ اللَّفظُ المَشِيد عن المعنى القويِّ النَّضِر العتيد؟

ثانيًا: أشار بعض أهل العلم إلى أن كلَّ نبيٍّ أُعطي معجزة تناسب قومه، فَلَمَّا كَانَ قَوْمُ فِرْعَوْنَ أَهْلَ عُلُومٍ رِيَاضِيَّةٍ وَطَبِيعِيَّةٍ وَأُولِي سِحْرٍ وَصِنَاعَةٍ، آتَى رَسُولَهُ مُوسَى عليه السلام آيَاتٍ كَانَ الْعُلَمَاءُ وَالسَّحَرَةُ أَعْلَمَ النَّاسِ بِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، لَا مِنْ كَسْبِ مُوسَى عليه السلام، وَلَا مِنْ صِنَاعَتِهِ، وَلَمَّا كَانَ الرُّومَانِيُّونَ أُولِي السُّلْطَانِ فِي قَوْمِ عِيسَى عليه السلام وَالسِّيَادَةِ فِي بِلَادِهِمْ أَهْلَ عِلْمٍ وَاسِعٍ بِالطِّبِّ آتَاهُ مِنَ الْآيَاتِ إِبْرَاءَ الْأَكْمَهِ وَالْأَبْرَصِ، وَإِحْيَاءَ الْمَيِّتِ، وَلَمَّا كَانَتِ الْعَرَبُ أهل فصاحة جَعَلَ اللهُ تَعَالَى آيَةَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم الْكُبْرَى إِلَيْهِمْ كِتَابًا مُعْجِزًا لَهُمْ وَلِسَائِرِ الْخَلْقِ، فِي نَظْمِهِ وَأُسْلُوبِهِ وَفَصَاحَتِهِ وَبَلَاغَتِهِ، ويعقِّب محمد رشيد رضا رحمه الله على هذا القول تعقيبًا سديدًا

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٧٥).

فيقول: «وَفِي هَذَا الْقَوْلِ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حُجَّةِ الْقُرْآنِ مَا عَلِمْتَ»(١)؛ إذ لا يعقل أن تكون المعجزة العالميَّة حُجَّة على العرب فقط، ومن بعدهم من العالم تبع لهم، ولا يعقل أن تكون هذه الحُجَّة في جهة واحدة هي الفصاحة القوليَّة، ويشعر عالم البلاغة القُرآنِيَّة المكين الدكتور عبد الله الهِتَارِيُّ بالضَّعف الذي يعتري فكرة تحديد المعجزة القُرآنِيَّة في فصاحته، فيقول: «القرآن معجزة للإنسانيَّة جميعًا، وليس مقصورًا على العربية وفصاحتها وألفاظها فحسب، وإلا فإن هذا المفهوم سيجعل إعجاز القرآن على العرب فقط، بل القرآن معجزة بيانيَّة، والبيان ارتبط بالعقل والفَهْم، وكونه نزل بالعربيَّة؛ فلأنها أوسع الألسنة اشتمالًا على المعاني التي تحتاج الإنسانيَّة إلى التَّعبير عنها، وهذه الحقيقة تظهر لو أقيمت دراسات محايدة في علم اللغة المقارن».

ثالثًا: مال ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ إلى أن وجه التَّحدِّي إنما هو في اشتماله على الخصائص البلاغيَّة التي يقتضيها الحال، وبيَّن أنه عندما تحدَّاهم فقد: «حَاكَمَهُمْ إِلَى الْفَصْلِ فِي أَمْرِ تَصْدِيقِهِ أَوْ تَكْذِيبِهِ بِحُكْمٍ سَهْلٍ وَعَدْلٍ، وَهُوَ مُعَارَضَتُهُمْ لِمَا أَتَى بِهِ، أَوْ عَجْزُهُمْ عَنْ ذَلِكَ، نَطَقَ بِذَلِكَ الْقُرْآنُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَهَاتِهِ الْآيَةِ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا الْمُعَارَضَةَ»(٢).

ثم أخبر أن عجزهم عن المعارضة لا يعدو أمرين:

الأوَّل: «أَنَّ الْقُرْآنَ بَلَغَ فِيمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْخَصَائِصِ الْبَلَاغِيَّةِ الَّتِي يَقْتَضِيهَا الْحَالُ حَدَّ الْإِطَاقَةِ لِأَذْهَانِ بُلَغَاءِ الْبَشَرِ بِالْإِحَاطَةِ بِهِ، بِحَيْثُ لَوِ اجْتَمَعَتْ أَذْهَانُهُمْ وَانْقَدَحَتْ قَرَائِحُهُمْ وَتَآمَرُوا وَتَشَاوَرُوا فِي نَوَادِيهِمْ وَبِطَاحِهِمْ وَأَسْوَاقِ مَوْسِمِهِمْ، فَأَبْدَى كُلُّ بَلِيغٍ مَا لَاحَ لَهُ مِنَ النُّكَتِ وَالْخَصَائِصِ لَوَجَدُوا كُلَّ ذَلِكَ قَدْ وَفَتْ بِهِ آيَاتُ الْقُرْآنِ فِي مِثْلِهِ وَأَتَتْ بِأَعْظَمَ

(١) تفسير المنار (١/ ١٨٢).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٤٦).

مِنْهُ،...فَهَذَا هُوَ الْقَدْرُ الَّذِي أَدْرَكَهُ بُلَغَاءُ الْعَرَبِ بِفِطَرِهِمْ، فَأَعْرَضُوا عَنْ مُعَارَضَتِهِ عِلْمًا بِأَنَّهُمْ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِمِثْلِهِ»[1].

والثاني: هو عجزهم عن المعارضة بالصَّرفة، وَقَدْ ذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلَّانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ فِي "إِعْجَازِ الْقُرْآنِ"، وَلَمْ يُعَيِّنْ لَهُ قَائِلًا، وقد نسبه التفتازانيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِ «الْمَقَاصِدِ» إلى النَّظَّامِ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ، وَكَثِيرٍ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ، وَنَسَبَهُ الْخَفَاجِيُّ إِلَى أَبِي إِسْحَاقَ الْإِسْفَرَائِينِيِّ، وَنَسَبَهُ عِيَاضٌ إِلَى أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَشْتَهِرْ عَنْهُ، وقال بِهِ الشَّرِيفُ الْمُرْتَضَى مِنَ الشِّيعَةِ، وَهُوَ مَعَ كَوْنِهِ كَافِيًا فِي أَنَّ عَجْزَهُمْ عَلَى الْمُعَارَضَةِ بِتَعْجِيزِ اللهِ إِيَّاهُمْ هُوَ مَسْلَكٌ ضَعِيفٌ»[2].

وقد حشر ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ جنوده من المعاني والمباني؛ ليثبت إعجاز القرآن من النَّاحية البلاغيَّة، وتسليم العرب بذلك، لكن هل ترى ذلك كافيًا لإقامة الحُجَّة على العالَم؟

أجاب بأن ثُبُوتَ الْإِعْجَازِ لَا يَسْتَلْزِمُ مُسَاوَاةَ النَّاسِ فِي طَرِيقِ الثُّبُوتِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا أَعْجَزَ الْعَرَبَ ثَبَتَ أَنَّهُ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ، فَيَكُونُ الْإِعْجَازُ لِلْعَرَبِ بِالْبَدَاهَةِ، وَلِمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ بِالِاسْتِدْلَالِ، وَالْبُرْهَانِ، وَهُمَا طَرِيقَانِ لِحُصُولِ الْعِلْمِ[3].

واشترط لمن يريد أن يُدْرِكَ الْإِعْجَازَ كَمَا أَدْرَكَهُ الْعَرَبُ أَنْ يَشْتَغِلَ بِتَعَلُّمِ اللُّغَةِ وَأَدَبِهَا وَخَصَائِصِهَا.. ألا ترى أن في هذا توعيرًا لإدراك مسلك الإعجاز في البيِّنة القرآنيَّة؟

ثم نقل عن عبد القاهر رَحِمَهُ اللهُ في مقدِّمة: "دلائل الإعجاز" ما يؤيد ذلك، ولكنَّ رَدَّ عبدِ القاهر رَحِمَهُ اللهُ قائم على التسليم بمعجزة القرآن، لا على الإقناع بكُنه المعجزة، وسبب عدِّها معجزة.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٤٦).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٤٦).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٣٤٩).

بصيرة [١١]: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] المماثلة هنا تعني الإتيان بما يماثله في صياغة ألفاظه وتأثيره في القلوب.

ولكن قد تسأل: ما وجه المماثلة المُتحدَّى بها؟

الجواب: دعنا ننظر في الحصر والتَّقسيم لهذه الاحتمالات المتوقَّعة:

الاحتمال الأول: أن يأتوا بسورة مطابقة تمامًا لأيِّ سورة في القرآن المجيد، وهذا الاحتمال غير وارد، بل هو عبث.

الاحتمال الثاني: أن يأتوا بسورة مماثلة في السَّجْع مع مخالفة الألفاظ والمعاني، وها هي أسجاع العرب من الكُهَّان والفصحاء موجودة، فلم نر العرب التفتوا إلى شيء منها كالتفاتهم إلى القرآن المجيد.

الاحتمال الثالث: أن يأتوا بسورة ينقلونها عن القرآن، ويغيِّروا فيها بعض الكلمات، وقد نُقِلت بعض المحاولات في ذلك، فدعنا نضع هذا السُّؤَال:

هل وجدت محاولات تاريخيَّة تعارض القرآن المجيد، وتحاول المجيء بسورة من مثله؟

الجواب: نعم! ذكروا أن مسيلمة الكذاب حاول معارضة سورة الكوثر، فقال: «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْجُمَاهِرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَهَاجِرْ، إِنَّ مُبْغِضَكَ رَجُلٌ كَافِرٌ» -والجُماهر: الضخم-، وحرَّفها بعض المعاصرين المتعصبين من النَّصارى ليزعم أنها:

«إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْجَوَاهِرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَجَاهِرْ، وَلَا تَعْتَمِدْ قَوْلَ سَاحِرٍ».

وحسبك من عبثٍ رؤيته أو سماعه، ويعلِّق رشيد رضا رحمه الله على هذا العبث فيقول: «وَلَوْ فَرَضْنَا أَنَّ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ الَّتِي غَيَّرَهَا مِنَ السُّورَة صَحِيحَةٌ وَمُنَاسِبَةٌ لِلْمَقَامِ وَمُقْتَضَى الْحَالِ، لَمَا

صَحَّ أَنْ يَكُونَ بِهَا مُعَارِضًا لَهَا، بَلْ مُقَلِّدًا وَنَاقِلًا، فَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الِاقْتِبَاسِ مَعَ التَّصَرُّفِ، كَمَنْ يُغَيِّرُ قَافِيَةَ أَبْيَاتٍ مِنَ الشِّعْرِ بِمَعْنَاهَا، أَوْ بِمَعْنًى آخَرَ، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

مَــــا لِمَـــــنْ تَمَّــــتْ مَحَاسِـــــنُهُ ... أَنْ يُعَـــادِي طَـــرْفَ مَـــنْ رَمَقَـــا
لَـــكَ أَنْ تُبْـــدِي لَنَـــا حُسْـــنًا ... وَلَنَـــــا أَنْ نُعْمِــــلَ الْحَـــــدَقَا
قَـــدَحَتْ عَيْنَـــاكَ زَنْـــدَ هَـــوًى ... فِـــي سَـــوَادِ الْقَلْـــبِ فَاحْتَرَقَـــا

غَيَّرْتُ قَوَافِيَهَا لَفْظًا لَا مَعْنًى بِالْبَدَاهَةِ فَقُلْتُ:

مَــــا لِمَـــنْ تَمَّـــتْ مَحَاسِـــنُهُ ... أَنْ يُعَـــادِي طَـــرْفَ مَـــنْ مَقَـــلَا
لَـــكَ أَنْ تُبْـــدِي لَنَـــا حُسْـــنًا ... وَلَنَـــــا أَنْ نُعْمِـــلَ الْمُـــــقَلَا
قَـــدَحَتْ عَيْنَـــاكَ زَنْـــدَ هَـــوًى ... فِـــي سَـــوَادِ الْقَلْـــبِ فَاشْـــتَعَلَا

"مَقَلَ" نَظَرَ بِمُقْلَتِهِ، ثُمَّ غَيَّرْتُهَا أَيْضًا بِكَلِمَاتِ: نَظَرَا، أَوْ بَصَرَا - النَّظَرَا - فَاسْتَعَرَا - فَهَلْ أَكُونُ بِهَذَا مُعَارِضًا لِلْأَصْلِ، وَفِي طَبَقَةِ صَاحِبِهِ مَنْ غَزَلَ الشِّعْرِ؟»[1].

الاحتمال الرابع: **أن يأتوا بسورة مماثلة للسُّورة القُرآنِيَّة في نظمها، مع تميُّز في مقاطعها ومباديها، لكنها تعارضُها في المعاني.. فهل اجترأ أحدهم على شيء من ذلك؟**

لقد خسروا التَّحدِّي، وما زالوا يخسرونه.. إن من عنده ذرة عقل لا يمكنه إلا أن يشهد.

إنه تحدٍّ يمتدُّ عمره إلى خمسة عشر قرنًا، ولم يستطع أحدٌ أن يكسره.

ومما ينقلونه عن قرآن مسيلمة قصصًا زعم أنه به يعارض القرآن المنزل فأضحك منه القرون المتتابعة كقوله: «يَا ضِفْدَعُ بنت الضِّفْدَعَيْنِ نِقِّي كَمَا تَنِقِّين، لَا الماء تُكَدِّرِينَ، وَلَا الشَّارِب تَمْنَعِينَ»، ومثل: «والعاجنات عجنًا، والخابزات خبزًا، واللاقمات لقمًا، إهالة وسمنًا، إن قريشًا قوم يعتدون».. ماذا كانت عاقبة قرآن مسيلمة؟

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٨٩).

حفظت الأجيال المسلمة والنَّصرانيَّة واليهوديَّة من العرب كثيرًا ممَّا ثبت من شعر امرئ القيس والمعلَّقات الجاهليَّة، وذهب قرآن مسيلمة أدراج الرِّياح: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

محاولات معاصرة معصورة:

وقد تسأل: قد رأينا جهودًا ضخمة لمحاصرة الإسلام، وإظهار القرآن بما يصدُّ عنه العالمين، فهل وجدت في جهود المعاصرين المبغضين للإسلام استجابة لهذا التَّحدِّي؟

الجواب: حاول بعض الجهلة الملحدين والمعاندين ذلك، فبعضهم تدير مواخيرهم الفكريَّة أجهزة العبث العالميِّ في الأزمنة المتأخِّرة، ويرون التِّجارة في البشريَّة، ولا يجدون كتابًا يدعو إلى الحقِّ المبين، ويأمر بالقسط وإنصاف المظلومين مثل القرآن، فحاولوا صدَّ الناس عنه، فهاهو قِسٌّ يسمَّى: أنيس شرّوش من أصل فلسطيني ركَّز جهوده على مهاجمة خاتم النَّبيِّين محمَّد ﷺ، وحاول معارضة القرآن بقرآن مُنْتَحل سمَّاه: الفرقان الحقَّ، فماذا صنع؟

لقد حاول استنساخ كتابات مطابقة القرآن، ودمج عناصر من تعاليم المسيحيَّة التَّقليديَّة، وقصَّ شيئًا من كلمات القرآن في سُوَره، وأدخل مع فريقه بعضها في بعض، وأَضْفَوا عليها شيئًا من خرافاتهم وأحقادهم، ثم صار أمرهم إلى هباء وزوال، وحاولوا المحال، وارتدَّ كيدهم في وجوههم ليزيدهم تغيُّظًا وعفن خبال.. لقد استحقَّ بجدارة أن يخسر قيمة طباعته، ويظهر بوار محاولاته التي كان ﴿عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٩]، ومن عجيب أمره أن الله ﷻ فضحه على الملأ؛ فقد اعتقلته الشُّرْطة في مدينة دافني بولاية ألاباما الأمريكية بتهمة محاولة إحراق برج سكني في المدينة، بإشعال صندوق القمامة بالعمارة، وتعتقد الشُّرْطة أنَّ القِسَّ أنيس شروش أراد حرق جميع المنازل بالعمارة، وخطَّط لذلك بأن قام بمحاولة تخريب

الأجهزة الوقائيَّة، ولم تكشف الشُّرْطة بَعْدُ عن الدَّوافع، غير أنَّ الشُّرْطة وجدت في القمامة مستندات للضَّرائب، تخصُّ منظَّمته التَّبشيريَّة[1].

وهاهو أحدهم يضع كلمات ملفقة من القرآن لسورة سمَّاها الشَّجرة، يقول فيها:

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ فَقَدَّرَ (١) وَجَعَلَ الْقَلَمَ سُنَّةً لِلْعَالَمِينَ (٢) وَأَوْحَى إِلَى فَرِيقٍ مِنَ النَّاسِ لِيُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَلائِكَتِهِ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ (٣) وَفَرِيقًا صَدَّ عَنْ الهُدَى فَأَزَلَّهُمْ الشَّيْطَانُ تِلْكَ مَشِيئَةُ اللهِ رَبِّ العَالَمِينِ (٤) فَمَنْ شَاءَ الهُدَى هَدَيْنَاهُ إِلَيْهِ وَيَسَّرْنَا أَمْرَهُ وَمَنْ رَغِبَ عَنْهُ فَالزَّيْغُ طَرِيقُهُ وَمَا نَحْنُ بِظَالِمِينَ (٥)... [2].

فمضى على ذلك زاعمًا أنه حقَّق التَّحدِّي.. فماذا ترى في فعله؟

لقد لفَّق كلمات استلَّها من القرآن المجيد، ثم زعم أنه حقَّق التَّحدِّي.

قِصَّة طبيب مسيحيٍّ حاول أن يستجيب للتَّحدِّي:

تعالوا بنا إلى الدكتور إبراهيم خليل في كتابه الماتع "لماذا أسلم صديقي؟ ورأي الفاتيكان في تحدِّيات القرآن"؛ إذ نجده يحكي قِصَّة طبيب مصريٍّ مسيحيٍّ قرَّر كتابة كتاب يردُّ فيه على تحدِّي القرآن، واختار له عنوانًا مثيرًا: «وانتهت تحدِّيات القرآن»، وقد كتب عناوين بعض الفصول قبل أن يكتب تفاصيل الكتاب، فاختار هذه العناوين الأشدَّ إثارة: (القضاء على أكبر الأكاذيب الدِّينيَّة في التَّاريخ)، (أخيرًا هزمنا القرآن بالضَّربة القاضية).. كتب لأجل ذلك ثمانية آلاف خطاب لجميع أنحاء العالم يستحثُّهم على كتابة (خمس عشرة كلمة) فقط هي عدد كلمات أصغر سُوَر القرآن لإثبات أنَّ التَّحدِّي القرآنيَّ قد فشل.. المفاجأة بعد أربع سنوات

---

(١) راجع سيرته في (ويكيبيديا).

(٢) انظر دراسة مهمة في ملتقى أهل التفسير بعنوان: "دلالة المثلية في آيات التَّحدِّي: دراسة بيانية ناقدة" للدكتور سعيد جمعة.

من إثارته لكلٍّ من خاطبه لم يأته إلا أربعة ردود باهتة، تثبت بفحواها صدق القرآن، بدلًا من أن تتحدَّاه.. خاطب أَلْفَي عالم ومعهد وجامعة يستحثُّهم على الاستجابة لتحدِّي القرآن، وكان ممَّا قال في رسالته: «القرآن يتحدَّى البشريَّة في جميع أنحاء العالم في الماضي، والحاضر، والمستقبل بشيء غريب جدًّا، وهو أنها لا تستطيع تكوين ما يسمَّى بالسُّورَة باللغة العربية.. السُّورَة رقم (١١٢)، وهي من أصغر سُوَر القرآن، ولا يزيد عدد كلماتها عن (١٥) كلمة، ويُتْبِع ذلك أن القرآن يتحدَّى البشريَّة بالإتيان بـ(١٥) كلمة لتكوين سورة واحدة كالتي توجد بالقرآن..

سيدي: أعتقد أن مهاجمة هذه النقطة الهامة والخطيرة، وذلك بالإتيان بأكبر عدد ممكن من السُّوَر كالتي توجد، أو - آمل أن تكون - أفضل من تلك الموجودة بالقرآن سيسبب لنا نجاحًا عظيمًا لإقناع المسلمين بأنَّا قبلنا هذه التَّحدِّيات، بل وانتصرنا عليهم.. فهل تتكرَّم يا سيدي مشكورًا بإرسال (١٥) كلمة باللغة العربية، أو أكثر من المستوى البيانيِّ الرَّفيع، مكوِّنًا جملة كالتي توجد في القرآن.. ».

بعد طول انتظار لم يرد عليه أحد!!! أعاد الكرَّة بحماس، وبعث الخطاب نفسه لجميعهم مع زيادة كذب فيها، فزعم أنه تلقى ردودًا مشجِّعة، ولكنه يريد الزِّيادة على ذلك، وأن يكسب الجميع شرف المشاركة.. ترقَّب نتيجة (٤٠٠٠) خطاب.. لقد جاءته ردود خجلة بعد طول انتظار منها:

ردٌّ من جامعة لندن - كلية الدِّراسات الشَّرقيَّة والأفريقيَّة، وفيه:

عزيزي: آمل أن تتفهَّم أنَّ كلِّيَّتنا وأعضاءها يرفضون الخوض في المنازعات الدِّينيَّة، وبالتَّالي فإنه لا يمكننا إجابة طلبك.

وجهة تبشيريَّة إعلاميَّة أخرى ردُّوا عليه: لن نستطيع مساعدتك!!

عبَّر عن خيبة أمله فقال: إنه أمر غريب أن يصاب العالم أجمع بعُقْم فكريٍّ، فلا يستطيع أحد من علماء القرن العشرين أن يعارض القرآن بـ(١٥) كلمة فقط، إنه أكبر ألغاز القرن العشرين.

دخلت خالته المسيحيَّة على الخطِّ، وأعادت مراسلة كلِّ تلك الجهات.. بعد فترة طالت جاءت بعض الرُّدود المتهرِّبة، منها ردٌّ من إذاعة "حول العالم" التَّنصيريَّة تتهرَّب فيها من مناقشة الموضوع، وتقول في هامش الرسالة:

بالنسبة للموضوع الذي طرحته إنه موضوع هامٌّ، لكننا كإذاعة لا نحب أن ندخل في حمي وطيس هذه المعركة، ولا نظنُّ أنها تخدم رسالة الإنجيل.. (١).

لقد علَّق على ذلك، فقال: إنهم عاجزون تمامًا، وهذا البوصيريُّ رحمه الله يذكرنا بالحقيقة السَّاطعة:

الله أكبَرُ إنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... وكتابُهُ أقوى وأقومُ قِيلا
طلعتْ به شمسُ الهدايةِ للوَرَى ... وأبى لها وصفُ الكمالِ أُفُولا
لا تذكروا الكتبَ السَّوالفَ عندهُ ... طلعَ النهارُ فأطفِئُوا القِنديلا
طوبى لِمُوسى حينَ بَشَّرَ باسمِهِ ... ولِسامِعٍ مِنْ فَضْلِهِ ما قيلا
وَجِبالُ فارانَ الرَّواسِي إنها ... نالتْ عَلَى الدُّنيَا به التَّفضيلا(٢)

بصيرة: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] القرآن بيِّنة إلهيّة تحتوي على أنواع البيِّنات التي تجعل غير المعاندين يعترفون ويخضعون له، مهما كانت تخصُّصاتهم، أو مستوياتهم ما داموا يستعملون عقولهم دون تعصُّب.

(١) ينظر: لماذا أسلم صديقي؟ ورأي الفاتيكان في تحديات القرآن (ص: ٦٧-١١١).

(٢) ديوان البوصيري (ص: ١٠٧، ١٠٨).

أوجه الإعجاز القرآني

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ:
بينة القالَب والمباني التي تميَّز بها النظم القرآني.

الوجه الثاني:
المعاني المودعة في الجسد اللفظي الذي بلغ أشده واستوى.

الوجه الثالث:
القرآن روح، وهنا يظهر الإعجاز النفسي: حيث تخشع له القلوب، ويهيمن على النفوس.

الوجه الرابع:
إخباره عن الغيوب الماضية.

الوجه الخامس:
الإخبار عن الغيوب المستقبلة.

الْوَجْهُ السادس:
سَلَامَتُه عَلَى طُولِه مِنَ التَّعَارُضِ وَالتَّنَاقُضِ وَالِاخْتِلَافِ.

الْوَجْهُ السابع:
إعجازه العلمي المشتمل على العقائد، والتشريع.

الْوَجْهُ الثامن:
إِعْجَازُ الْقُرْآنِ بِعَجْزِ الزَّمَانِ عَنْ إِبْطَالِ شَيْءٍ مِنْهُ.

الْوَجْهُ التاسع:
الإعجاز الخبري عن الغيوب العلمية التي تُكْتَشف لاحقًا عبر المعرفة الإنسانية

الوجه العاشر:
سلامته من التحريف والتغيير اللفظي والمعنوي.

الوجه الحادي عشر:
الانجذاب المذهل له ممن يسمعه.

الوجه الثاني عشر:
الإعجاز التربوي حيث نقل أتباعه إلى أعلى درجات الحضارة.

الوجه الثالث عشر:
العجز عن معارضته في الحال والاستقبال.

أوجه الإعجاز القرآنيِّ:

وقد تسأل: فما أوجه الإعجاز القرآني التي ذكرها محمد رشيد رضا رحمه الله؟

الجواب: قرَّر السَّيِّد محمَّد رشيد رضا رحمه الله أن مَا أَيَّدَ اللهُ تَعَالَى بِهِ رُسُلَهُ مِنَ الْآيَاتِ الكونيَّة كَانَ مُنَاسِبًا لِحَالِ زَمَانِ كُلٍّ مِنْهُمْ وَأَهْلِهِ، وَقَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَى مَنْ شَاهَدَ تِلْكَ الْآيَاتِ فِي عَهْدِهِ، ثُمَّ عَلَى مَنْ صَدَّقَ الْمُخْبِرِينَ مِنْ بَعْدِهِ، وَقَدْ عَلِمَ اللهُ تَعَالَى أَنَّ سِلْسِلَةَ النَّقْلِ سَتَنْقَطِعُ، وَأَنَّ دَلَالَتَهَا عَلَى الرِّسَالَةِ سَتُنْكَرُ، فَجَعَلَ الْآيَةَ الْكُبْرَى عَلَى إِثْبَاتِ رِسَالَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ عِلْمِيَّةً دَائِمَةً لَا تَنْقَطِعُ، وَهِيَ هَذَا الْكِتَابُ الْمُعْجِزُ لِلْخَلْقِ، ثم ذكر السَّيِّد رشيد رضا سبعة أنواع تمثِّل أوجه الإعجاز القرآنيِّ[1].

ولكنني سأحاول أن أبيِّن ذلك بصورة فيها شيء من الاختلاف عما قرَّره؛ عسى أن أَصِلَ إلى كُنْهِ التَّأثير الذي كان للقرآن المجيد.

وهذه الأوجه في الإعجاز جمعها الدكتور عامر الخميسي -وفقه الله- في قوله:

هَاكَ أُخَيَّ أَوْجهَ الإِعْجَازِ ... أَوْرَدتُّهَا فِي غَايَةِ الإِيجَازِ
هُوَ مُعْجِزٌ فِي نَظْمِهِ وَالمَبْنَى ... وَسَطْوَةِ البَيَانِ رُوحِ المَعْنَى
لِلنَّفْسِ رُوحٌ يُنْعِشُ القُلُوبَا ... ومُخْبِرٌ قَدْ كَشَفَ الغُيُوبَا
فِي عِلْمِهِ، والشَّرْعَ حُكْمًا فَصَّلَهْ ... كَذَا الزَّمَانُ أَبَدًا لَنْ يُبْطِلَهْ
خَالٍ مِنَ النَّقْضِ وَلَيْسَ يَخْتَلِفْ ... مُسَلَّمٌ مِنْ كُلِّ تَحْرِيفٍ وُصِفْ
يَجْذِبُ كُلَّ سَامِعٍ لِيُذْهِلَهْ ... وتَرْبَوِيٌّ فِيهِ أَبْهَى الأَمْثِلَهْ
فِي الحَالِ أَوْ فِي قَادِمِ الأَزْمَانِ ... يَقْوَى بِإِعْجَازٍ عَلَى الثَّقَلَانِ

(١) تفسير المنار (١/ ١٦٥) وما بعدها.

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: بيِّنة القالَب والمباني التي تميَّز بها النَّظْم القرآنيُّ، حيث امتاز أسلوبه عن المعهود عند العرب مع عدم خروجه عن اللغة العربية:

فالْبُلَغَاءُ حَصَرُوا نَظْمَ الْكَلَامِ مَنْثُورَهُ مُرْسَلًا وَسَجْعًا، وَمَنْظُومَهُ قَصِيدًا وَرَجَزًا فِي أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ، لكن القرآن جاء على خلاف كلِّ تلك القوانين في أسلوبه، وأعظم أساليبهم بلاغة الشِّعْر الذي يصل إليه الموهوبون؛ فإذا الله ﷻ مُنْزِل القرآن ينزِّه عنه القرآن، فيقول الله ﷻ في وصف أسلوبه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩﴾ [يس: ٦٩].

ولقد شعر بلغاء العالم بالفرق العظيم بين نظم الشِّعر، ونظام القرآن حتى إن تقاربت المعاني، واسمع لرأي واحد من أذكيائهم، فقد قال القَاضِي أبو الفتح بن أَحْمد السَّرُوجِي: دخلت على أبي الْعَلَاء التَّنُوخيِّ بالمَعرَّة ذَات يَوْم فِي وَقت خلْوَة بِغَيْر علم مِنْهُ، وَكنت أتردَّد إِلَيْهِ، وأقرأ عَلَيْهِ، فَسَمعته ينشد:

كـم بُـودِرَتْ غـادةٌ كَـعَـابٌ(١) ... وَعُـمِّـرَتْ أمُّـهـا الْـعـجـوزُ
أحْـرَزهـا الْـوَالـدانِ خَـوفًـا ... والْـقـبرُ حِـرزٌ لَـهَـا حَـريـزُ
يَـجـوزُ أنْ تُـبْـطـئَ الـمـنـايـا ... وَالْـخُـلْـدُ فِـي الـدَّهـرِ لَا يَـجـوزُ

ثمَّ تأوَّه مرَّات، وتلا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۝١٠٤ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٥]، ثمَّ صَاح، وَبكى بكاء شَدِيدًا، وَطرح وَجهه، وَقَال: «سُبْحَانَ من تكلَّم بِهَذَا فِي الْقِدَم، سُبْحَانَ من هَذَا كَلَامه»، فَصَبَرت سَاعَة، ثمَّ سلَّمت عَلَيْهِ، فرد عليَّ وَقال: مَتى أتيت؟ فَقلت: السَّاعَة، ثمَّ قلت: يَا سَيِّدي أرى فِي وَجهك أثر غيظ، فَقَال: «لَا يَا

(١) (بودرت): أي عاجلها الموت، (وهي كَعَاب): أي صبية قد نهد ثدياها.

أَبَا الْفَتْح، بل أنشدت شَيْئًا من كَلَام الْمَخْلُوق، وتلوت شَيْئًا من كَلَام الْخَالِق، فلحقني مَا ترى، فتحقَّقت صِحَّة دِينه، وَقُوَّة يقينه»(١).

يقول رشيد رضا رحمه الله: «ولعمري إنَّ مسألة النَّظم والأسلوب لإحدى الكُبَر، وأعجب العجائب لمن فكَّر وأبصر، ولم يوفِّها أحدٌ حقَّها، على كثرة ما بدؤوا وأعادوا فيها».

ثم يقول: «تأمَّل المعنى الواحد من المعاني المكرَّرة في القرآن، لأجل تقريرها في الأنفس ونقشها في الأذهان، كالاعتبار بأحوال أشهر الرُّسل عليهم السلام مع أقوامهم من مختصرٍ ومطوَّلٍ، وافْطِنْ لاختلاف النَّظم والأساليب فيها، فمن المختصر ما في سُوَر الذَّاريات والنَّجم والقمر والفجر، ومن المطوَّل ما في سورة الأعراف والشُّعراء وطه، لعلَّك إن تدبَّرت هذا تشعر بالبَوْنِ الشَّاسع بين كلام المخلوقين وكلام الخالق، وتحكم بهذا الضَّرب من الإعجاز حكمًا ضروريًّا وجدانيًّا لا تستطيع أن تدفعه عن نفسك، وإن عجزت عن بيانه بقولك.

ومن اللَّطائف البديعة الَّتي يخالف بها نظمُ القرآن نظمَ كلام العرب من شعرٍ ونثرٍ: أنَّك ترى السُّوَر ذات النَّظم الخاصِّ، والفواصل المُقَفَّاة تأتي في بعضها فواصل غير مقفَّاةٍ، فتزيدها حسنًا وجمالًا وتأثيرًا في القلب، وتأتي في بعضٍ آخر آياتٌ مخالفةٌ لسائر آيِها في فواصلها وزنًا وقافيةً، فترفع قدرها، وتكسوها جلالةً، وتكسبها روعةً وعظمةً، وتجدِّد من نشاط القارئ وتُرْهِفُ مِنْ سمع المستمع»(٢).

(١) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص (١/ ١٤٠).

(٢) تفسير المنار (١/ ١٦٧).

الوجه الثاني: المعاني المودعة في الجسد اللفظيّ، الذي بلغ أَشُدَّه واستوى، حيث يلقيه النَّبيُّ ﷺ على العالم، فإذا هو الأعلى إقناعًا، وتأثيرًا:

فالقالب اللَّفظيُّ لم ينفصل عن القوَّة المعنويَّة، من أجل ذلك: لمَّا ذكر الله ﷻ الأسلوب المميَّز للقرآن، وأنه ليس بشعر لم يجعل الأسلوب منفصلًا عن القوَّة المعنويَّة، والأهداف العظيمة، بل قال بعدها: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٧٠].

فترى القرآن يبلغ أعظم درجات التَّأثير في النَّفسيَّة المحايدة غير المعاندة، فيتمكَّن من العَقلِ والعاطفة وَالفكر والوِجْدَانِ والشُّعور، ويدلُّك على ذلك شِدَّة تأثُّر من يقرأ ترجمة معاني القرآن دون احتياج إلى أن يسمعه بالعربية ذاتها.

ويظهر أن الوجه الأوَّل والثَّاني: المباني والمعاني هي التي يعبِّر عنها بعض علمائنا بالبيان، ولكن عباراتهم ﷺ متفاوتة في هذا، فاسمع عبارة الطَّبريِّ ﵀: «إنه لم يَعنِ به: ائتُوا بسورة من مثله في التَّأليف والمعاني التي باينَ بها سائرَ الكلام غيرَه، وإنما عنى: ائتوا بسورة من مثله في البيان، لأنَّ القرآن أنزله الله ﷻ بلسان عربيٍّ، فكلام العرب لا شكَّ له مِثلٌ في معنى العربية. فأمَّا في المعنى الذي باين به القرآن سائرَ كلام المخلوقين، فلا مِثلَ له من ذلك الوجه ولا نظيرَ ولا شبيه.

وإنما احتجَّ الله -جلَّ ثناؤه- عليهم لنبيِّه ﷺ بما احتجَّ به لهُ عليهم من القرآن؛ إذْ ظهر عَجْز القوم عن أن يأتوا بسورة من مِثله في البيان، إذْ كان القرآن بيانًا مِثلَ بيانهم، وكلامًا نزل بلسانهم، فقال لهم -جلَّ ثناؤه-: وإن كنتم في رَيب من أنَّ ما أنزلتُ على عَبْدي مِنَ القرآن مِنْ عِندي، فأتوا بسورة من كلامكم الذي هو مِثلُه في العربية، إذْ كنتم عَرَبًا، وهو بيانٌ نظيرُ بيانكم، وكلامٌ شبيهُ كلامِكم. فلم يكلِّفْهم -جلَّ ثناؤه- أن يأتوا بسورة من غير اللِّسان الذي هو نظيرُ اللِّسان الذي نزل به القرآن، فيقدِرُوا أن يقولُوا: كَلَّفْتَنا ما لو أحسنَّاه أتينا به، وإنا لا

نَقْدِر على الإتيان به؛ لأنَّا لسنا من أهل اللِّسان الذي كَلَّفْتَنا الإتيان به، فليس لك علينا بهذا حُجَّة. ولكنه -جلَّ ثناؤه- قال لهم: ائتوا بسورة مثله، لأنَّ مثله من الألسن أَلْسُنُكم، وأنتم - إن كان محمدٌ اختلقه وافتراه، إذا اجتمعتم وتظاهرتُم على الإتيان بمثل سورة منه من لسانكم وبيانكم- أقدرُ على اختلاقه ورَصْفِه وتأليفه من محمَّد ﷺ، وإن لم تكونوا أقدرَ عليه منه، فلن تَعْجَزوا -وأنتم جميعٌ- عما قَدَرَ عليه محمَّدٌ من ذلك وهو وحيدٌ، إن كنتم صادقين في دعواكم وزعمكم أنَّ محمَّدًا افتراه واختلقه، وأنه من عند غيرِي»(١).

فأنت ترى أن البيان عند إمامنا الطَّبريِّ رحمه الله يعني به الأسلوب المُتَّبع عند العرب، فهو مثل أسلوبهم لكنه أعلى منه، ويصرُّ الطَّبريُّ رحمه الله على عزل المعاني عن ذلك، فدعنا ننظر كلام غيره في معنى البيِّنة القُرآنِيَّة التي اصطلح علماؤنا رحمهم الله على تسميتها "الإعجاز".

أجمع ما ظهر لي في تقرير حقيقة البيِّنة القُرآنِيَّة ما قرَّره الخَطَّابي رحمه الله من أن الكلام يقوم بهذه الأشياء الثَّلاثة: لفظٌ حامل، ومعنًى به قائم، ورباطٌ لهما ناظم. وإذا تأمَّلت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشَّرف والفضيلة حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح، ولا أجزل، ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا، وأشدَّ تلاؤمًا وتشاكُلًا من نظمه، وأما المعاني فلا خفاءَ على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدُّم في أبوابها، والتَّرقِّي إلى أعلى درجات الفضل من نُعُوتها وصِفاتها.

فتفهَّم الآن، واعلم أن القرآن إنما صار معجزًا؛ لأنه جاء بأَفصح الألفاظ في أحسن نُظُوم التأليف مضمَّنًا أصحَّ المعاني، من توحيدٍ له عَزَّت قدرته، وتنزيهٍ له في صفاته، ودعاءٍ إلى طاعته، وبيانٍ بمنهاج عبادته؛ من تحليل وتحريم، وحَظْرٍ وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمرٍ

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٧٥).

بمعروف ونهيٍ عن منكَّر، وإرشادٍ إلى محاسن الأخلاق، وزَجْرٍ عن مساوئها، واضعًا كلَّ شيءٍ منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه(١).

فإذا انتقلت إلى إمام آخر وجدته يعني بالبيان ما تضمَّنه من المعاني، فهاهو الأستاذ أبو الحسن الحَرَالِّيُّ (ت٦٣٧هـ) يقول: «اعلم أن بلاغة البيان تعلو على قَدْر عُلُوِّ المُبَيِّنِ، فعلوُّ بيان اللهِ ﷻ على بيان خلقه بقَدْر عُلُوِّ اللهِ على خلقه، فبَيَانُ كلِّ مُبَيِّنٍ على قَدْر إحاطة علمه، فإذا أبان الإنسان عن الكائن أبان بقدر ما يُدْرِك منه وهو لا يحيط به علمه فلا يصل إلى غاية البلاغة فيه بيانُه، وإذا أنبأ عن الماضي فبقدر ما بقي من ناقص علمه به كائنًا في ذِكْرِه لِما لزم الإنسان من نسيانه، وإذا أراد أن ينبئ عن الآتي أَعْوَزَه البيانُ كلُّه إلا ما يقدِّره أو يزوِّره؛ فبيانُه في الكائن ناقص، وبيانه في الماضي أنقص، وبيانه في الآتي ساقط: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٥].

وبيان الله سبحانه عن الكائن بالغٌ إلى غاية ما أحاط به علمه: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الملك: ٢٦] وعن المنقطع كونهُ بحسَب إحاطته بالكائن، وسبحانه من النِّسيان: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] وعن الآتي بما هو الحقُّ الواقع: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ٧ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ﴾ [الأعراف: ٧-٨] والمُبَيِّنُ الحقُّ لا يُوْهِن بيانَه إيهامُ نسبةِ النَّقص إلى بيانه، والإنسان يَتَّهِم نَفْسَه في البيان، ويخاف أن يُنسب إلى العِيِّ، فيَقصِدُ استقراء البيان، ويُضعِفُ مفهوم بيانه ضَعفًا من مُنَّتِه(٢).

---

(١) بيان إعجاز القرآن (ص: ٢٧)، ونقله البقاعي بتمامه في: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ١٧٩).

(٢) مُنَّتِه: المُنَّة هي القوة، مُنَّةُ الشيء قُوَّتُه. ينظر: المحيط في اللغة (١٠/ ٣٩٠)، ومعنى: (ويُضعِفُ مفهومَ بيانه ضعفًا من مُنَّتِه). أن الشخص هو بضعف قوته لكونه مخلوقًا محدود القوة يضعف بيانه، فضعفُه كمخلوق يسري إلى بيانه فيُضعِفه. ضعفًا من منته، أي ضعفًا ناشئًا من مُنَّتِه، ولما كانت مُنَّتُه محدودة فهي ضعيفة.

ومفهوم بيان القرآن أضعافَ أضعافِ إفصاحِه»(١).

وقال الإمام محمد بن عبد الرحمن المَرَّاكُشِيُّ الأكمه في شرح نظمه لمصباح ابن مالك في المعاني والبيان ما يصلح أن يكون متنًا وجملة، وما تقدَّم شرحًا له وتفصيلًا قال: «الجهة المعجزة في القرآن تُعْرَف بالتفكُّر في علم البيان، وهو كما اختاره جماعة في تعريفه: ما يُحْتَرز به عن الخطأ في تأدية المعنى وعن تعقيده، وتُعْرَف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه لمقتضى الحال، لأنَّ جهة إعجازه ليست مفرداتِ ألفاظه، وإلا لكانت قبل نزوله معجزةً، ولا مُجَرَّدَ تأليفِها وإلا لكان كلُّ تأليف معجزًا، ولا إعرابَها وإلا لكان كلُّ كلام معرب معجزًا، ولا مُجَرَّدَ أسلوبِه وإلا لكان الابتداءُ بأسلوب الشعر معجزًا -والأسلوب: الطَّريق- ولكان هذيان مسيلمة معجزًا، ولأن الإعجاز يوجد دونه، أي الأسلوب في نحو: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]، ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، ولا بالصَّرْف عن معارضته، لأنَّ تعجُّبَهم كان من فصاحته، ولأنَّ مسيلمة، وابن المقفَّع،والمَعَرِّي وغيرهم(٢) قد تعاطوها فلم يأتوا إلا بما تَمُجُّه الأسماع، وتَنْفِر منه الطِّباع، ويُضْحَكُ منه في أحوال تركيبه، ويُهان بتلك الأحوال، أَعْجَزَ البلغاء وأَخْرَسَ الفصحاء؛ **فعلى إعجازه دليل إجماليٌّ** وهو أنَّ العرب

---

(١) مفتاح الباب المقفل (ص: ٢٩، ٣٠).

(٢) نقل الرواة عن مسيلمة الكذاب، وابن المقفع ما نقلوه، وكثيرٌ مما نُقِل ينقصه التحقيق، وإن كان المتفق عليه أن مسيلمة الكذاب متنبئ دجال لكن نسبة ما ذكروا أنه عارض به الوحي يفتقر إلى الموازين الحديثية، وكذلك ما ذكروه عن ابن المقفع ينقصه التحقيق، وأما معارضة المعري للقرآن فلم يثبت عندي، بل المنقول عنه في إعظام القرآن عكسه، والمسألة تحتاج إلى تحقيق كبير، غير أني وجدت الشيخ محمود شاكر ﷀ كالذي يبرِّئ المعرِّي من هذه النِّسبة، وهذا أقرب عندي، وكتاب المعري "الفصول والغايات" مطبوع، وليس فيه معارضة السور والآيات.

عَجَزت عنه وهو بلسانها فغيرُها أحرى، **ودليل تفصيليٌّ** مقدِّمته: التَّفكُّر في خواصِّ تركيبه، ونتيجته: العلم بأنه تنزيلٌ من المحيط بكلِّ شيء علمًا»(١).

وحتَّى عند التَّرجمة الأمينة لمعاني القرآن المجيد يَحْتَفظ القرآن بكثير من بَهائه وعظمته، واسمع لما يقول الفيلسوف الفرنسيُّ الملحد (جوزيف آرنست): «تضمُّ مكتبتي آلاف الكتب السِّياسيَّة والاجتماعيَّة والأدبيَّة وغيرها، والتي لم أقرأها أكثر من مرَّة واحدة، وما أكثر الكتب التي للزِّينة فقط، **ولكن هناك كتاب واحد تؤنسني قراءته دائمًا هو كتاب المسلمين القرآن**، فكلما أحسست بالإجهاد وأردت أن تنفتح لي أبواب المعاني والكمالات طالعت القرآن؛ حيث إنني لا أحسُّ بالتَّعب أو الملل بمطالعته بكثرة، لو أراد أحد أن يعتقد بكتاب نزل من السَّماء فإن ذلك الكتاب هو القرآن لا غير؛ إذ إنَّ الكتب الأخرى ليست لها خصائص القرآن»(٢).

و«اهتدى إلى هذا النَّوع من إعجازه بعضُ حكماءِ أوربَّة مستنبطًا له من هذه الغاية التَّاريخيَّة، وبيَّنه في الرَّدِّ على من زعم من دعاة النَّصرانيَّة أنَّ محمَّدًا ﷺ لم يُؤت مثل ما أوتي موسى وعيسى عليهما السلام من الآيات المعجزة، فقال ما معناه: إن محمَّدًا كان يتلو القرآن مُوَلَّهًا مُدَلَّهًا، خاشعًا متصدِّعًا، فيفعل في جذب القلوب إلى الإيمان به فوق ما كانت تفعل جميع آيات الأنبياء من قبله»(٣).

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ١٨٢).

(٢) ينظر: ذكر هذا القول محمد نصر في مقال له بعنوان: "هل كان بالإمكان حصول ما لم يحصل؟ دراسة في الأسباب التي أعاقت الحضارة الإسلامية عن تحقيق الثورة العلميَّة"، وعزاه لأرنست رينان (ت ١٨٩٢م)، نقلًا من: Études d'histoire religieuse Paris: Michel Lévy frères 1858، p.248.
مجلة الفكر الإسلامي المعاصر. السنة الرَّابعة عشرة، عدد (٥٣) (١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م)، (ص: ١١١، ١١٢).

(٣) تفسير المنار (١/ ١٦٩).

الوجه الثالث: القرآن روح، وهنا يظهر الإعجاز النَّفسيُّ: حيث تخشع له القلوب، ويهيمن على النُّفوس، وترى القرآن يبسط سلطانه على من لا يعرف لغتَه بمجرَّد أن يسمعه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: ٨٣].

يُظهر الله ﷻ لنا السِّرَّ الأعظم في القرآن الكريم، فيقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

القرآن رُوح تَبُثُّ في عقل الإنسان غير المعاند أو الغافل حياةً جديدة، كما أنَّ الرُّوح تُوْجِدُ في الجسد التُّرابيِّ حياةً جديدة، ورُوح الإنسان الذي يرجع أصله إلى التُّراب لها سرٌّ إلهيٌّ جعل من التُّراب حياة مدهشة، وأبان الله ﷻ عن ضعف الإنسان عن إدراك سرِّ الحياة التي تسري في جسده، فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وكذلك القرآن رُوح من أمر الله ﷻ، يصف الله ﷻ ذلك وصفًا باهرًا، فيقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

وهنا يمكنك أن تقول: الإعجاز ليس بالإخبار بالغيب الماضي، ولا الإخبار بالغيب المستقبل، ولا الإخبار بالغيب العلميِّ الذي ربَّما يُكتشف لاحقًا؛ لأن الإخبار بالغيب يعني أن ينتظر المُخْبَرُ دهرًا حتى يقع الأمر المَغيب ثم يؤمن عند ذلك، إلا أن الإخبار بالغيب هذا يمثِّل أحد أنواع البيِّنة، ولكن التَّأثير يقع للإنسان بمجرد سماع سورة من القرآن، ويحاول محمود شاكر رحمه الله أن يحلِّل هذا التأثير ويحدِّده، فيقول: «فما هو بتحدٍّ بالإخبار بالغيب

المكنون، ولا بالغيب الذي يأتي تصديقه بعد دهر من تنزيله، ولا بعِلْم ما لا يدركه عِلْم المخاطبين به من العرب، ولا بشيء من المعاني ممَّا لا يتَّصل بالنَّظْم والبيان»(١).

دعني أحاول تصويب كلماتِه، فماذا يعني بالنَّظْم والبيان؟ أمجرد القالب بغضِّ النَّظر عن المعاني؟ لا أظنَّ أنه رحمه الله يقبل هذا لو تصوَّرَ المسألة، وقد أمر الله عز وجل بإسماع المشرك كلامه لإقامة الحُجَّة عليه ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [التوبة: ٦].

فإن أنت أسمعته كلام الله عز وجل قامت عليه الحُجَّة عربيًّا كان أم أعجميًّا، ويظهر لي أن ذلك يعني أن تسمعه كلام الله عز وجل أولًا بلفظه العربي، ثم تُترجم معناه إن كان أعجميًّا، ولكنك تختار من كلام الله عز وجل ما يناسب حالته، كما اختار جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ما يناسب حالة السامعين في الحبشة، فقرأ فواتح سورة مريم عليها السلام.

من أجل ذلك كان المشركون إذا سمعوا القرآن يُذْعنون، ثم ينقسمون إلى قسمين:

القِسم الأول: هم الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٤﴾ [الحج: ٥٤].

وهذه الآية تشير إلى أن الإخبار بالغيوب جزء من الإعجاز القرآنيِّ، لكنه ليس رُوحَ البيِّنة القُرآنيَّة.

والقِسم الثاني: المعاندون الذين يبحثون كيف يتخلَّصون من مأزق الهيمنة القُرآنيَّة العظيمة.

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما «أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ، جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَأَنَّه رَقَّ لَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَذَكَرَ مَا جَرَى بَيْنَهُمَا إِلَى أَنْ قال الْوَلِيدُ: وَاللهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمُ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمُ بِرَجَزِهِ وَلَا بِقَصِيدَتِهِ مِنِّي، وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، وَاللهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ

(١) مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه (ص: ١٥٤).

شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ»، وعَنْ عِكْرِمَةَ رَحِمَهُ اللهُ مُرْسَلًا، وَذَكَرَ الْآيَةَ الَّتِي قَرَأَهَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] (١).

وعند الحاكم رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ فقال: يَا عَمِّ، إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا. قال: لِمَ؟ قال: لِيُعْطُوكَهُ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِتُعْرِضَ لِمَا قِبَلَهُ قال: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا. قال: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَهُ، أَوْ أَنَّكَ كَارِهٌ لَهُ، قال: وَمَاذَا أَقُولُ؟ فَوَاللهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزٍ، وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي، وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، وَاللهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَوَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ، قال: لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ. قال: فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ، فَلَمَّا فَكَّرَ قال: هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، يَأْثُرُهُ مِنْ غَيْرِهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١] (٢).

ويبدو أن الوليد عقد اجتماعًا خاصًّا بعد ذلك، فقد أكمل البيهقي رَحِمَهُ اللهُ رواية هذا الحديث، فقال: حِينَ اجْتَمَعَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ، وَنَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقَدْ حَضَرَ الْمَوْسِمُ لِيَجْتَمِعُوا عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ فِيمَا يَقُولُونَ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ لِوُفُودِ الْعَرَبِ، فَقَالُوا: فَأَنْتَ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ! فَقُلْ، وَأَقِمْ لنا رَأْيًا نَقُومُ بِهِ.

فَقَالَ: بَلْ أَنْتُمْ فَقُولُوا، أَسْمَعُ.

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١٣٣)، وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١/ ٢٢٣): «وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الشُّعَب من حَدِيث ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما بِسَنَد جيد إِلَّا أَنه قَالَ: الْوَلِيد بن الْمُغيرَة بدل خَالِد بن عقبَة».

(٢) المستدرك (٣٨٧٢)، وصحَّحه، ووافقه الذَّهبي.

فَقَالُوا: نَقُولُ: كَاهِنٌ.

فَقَالَ: مَا هُوَ بِكَاهِنٍ، لَقَدْ رَأَيْتُ الْكُهَّانَ فَمَا هُوَ بِزَمْزَمَةِ الْكَاهِنِ وَسِحْرِهِ.

فَقَالُوا: نَقُولُ: مَجْنُونٌ.

فَقَالَ: مَا هُوَ بِمَجْنُونٍ، وَلَقَدْ رَأَيْنَا الْجُنُونَ، وَعَرَفْنَاهُ فَمَا هُوَ بِخَنْقِهِ، وَلَا تَخَالُجِهِ، وَلَا وَسْوَسَتِهِ.

فَقَالُوا: نَقُولُ: شَاعِرٌ.

قَالَ: مَا هُوَ بِشَاعِرٍ، وَلَقَدْ عَرَفْنَا الشِّعْرَ بِرَجَزِهِ وَهَزَجِهِ، وَقَرِيضِهِ وَمَقْبُوضِهِ وَمَبْسُوطِهِ، فَمَا هُوَ بِالشِّعْرِ.

قَالُوا: فَنَقُولُ: هُوَ سَاحِرٌ.

قَالَ: فَمَا هُوَ بِسَاحِرٍ، لَقَدْ رَأَيْنَا السُّحَّارَ وَسِحْرَهُمْ، فَمَا هُوَ بِنَفْثِهِ وَلَا عَقْدِهِ.

فَقَالُوا: فَمَا تَقُولُ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ؟

قَالَ: وَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ أَصْلَهُ لَمُغْدِقٌ، وَإِنَّ فَرْعَهُ لَجَنًى، فَمَا أَنْتُمْ بِقَائِلِينَ مِنْ هَذَا شَيْئًا إِلَّا عُرِفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وَإِنَّ أَقْرَبَ الْقَوْلِ أَنْ تَقُولُوا: سَاحِرٌ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ أَبِيهِ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ أَخِيهِ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ عَشِيرَتِهِ، فَتَفَرَّقُوا عَنْهُ بِذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٦][1].

إن تأثير القرآن يبلغ مبلغًا مدهشًا معجزًا مذهلًا عندما تسمعه الأُذُن الواعية غير المعاندة، فعن عائشة رضي الله عنها في قِصَّة أبيها الصديق رضي الله عنه عندما هاجر إلى المدينة، وفيها: «فَأَنْفَذَتْ قُرَيْشٌ

---

(١) شعب الإيمان (١٣٣)، وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١/ ٢٢٣): «ورواه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بسند جيد».

جِوَارَ ابْنِ الدَّغِنَّةِ، وَأَمَّنُوا أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه، وَقَالُوا لِابْنِ الدَّغِنَّةِ: مُرْ أَبَا بَكْرٍ أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فليُصَلِّ وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلَا يُؤْذِينَا بذلك، وَلَا يَسْتَعْلِن به، فإِنَّا خَشِيْنَا أَنْ يَفْتِنَ أَبْنَاءَنَا ونِسَاءَنَا. قَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدَّغِنَةِ لِأَبِي بَكْرٍ، فطَفِقَ أَبُو بَكْرٍ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَلَا يَسْتَعْلِنُ بِالصَّلَاةِ، وَلَا القِرَاءَةِ فِي غَيْرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَا لِأَبِي بَكْرٍ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ وَبَرَزَ، فَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ، وَيَقْرَأُ القُرْآنَ، فَيَتَقَصَّفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ المُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ، يَعْجَبُونَ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَّاءً، لَا يَمْلِكُ دَمْعَهُ حِينَ يَقْرَأُ القُرْآنَ، فَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ المُشْرِكِينَ، فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْنِ الدَّغِنَةِ، فقَدِمَ عَلَيْهِم فَقَالُوا لَهُ: إِنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَإِنَّهُ جَاوَزَ ذَلِكَ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، وَأَعْلَنَ الصَّلَاةَ وَالقِرَاءَةَ، وَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا»[1]، وهكذا غلب سلطان القرآن آذانَ الكبار، والنِّساء، والصِّبيان.

بعد أن ترى سلطان القرآن وهيمنته على الإنسان تلتفت لتُردِّد قول النبهانيِّ رحمه الله:

و معجزةُ القرآنِ كالشَّمس أشرقتْ	ودامتْ وسارتْ عمَّتِ العُرْبَ والعُجْمَا
هو الحُجَّةُ الكبرى على كلِّ جاحدٍ	نبوَّةُ خيرِ الخلقِ والآيةُ العظمى
وربَّ امرئٍ من نوره مُتضرِّرٌ	يرى الشِّركَ والخُفَّاشُ تُعجِبُهُ الظَّلْمَا
وواللهِ لولا اللهُ قاضٍ على الوَرَى	قضاءً بعدلٍ وافقَ القَدَرَ الحَتْمَا
لَمَا اختارَ ذو عقلٍ سوى دينِ أحمد	ولكنْ قضاءُ اللهِ في خَلْقِهِ تمَّا[2]

(١) البخاري (٢٢٩٧).

(٢) يوسف بن إسماعيل بن يوسف النبهاني (١٢٦٥ – ١٣٥٠ هـ): شاعر، أديب، من رجال القضاء. نسبته إلى (بني نبهان) من عرب البادية بفلسطين.

بصيرة: القرآن رُوح تُوْجِدُ في عقل الإنسان غير المعاند أو الغافل حياةً جديدة، كما أنَّ الرُّوح تُوْجِدُ في الجسد التُّرابيِّ حياةً جديدة، ويصف الله جَلَّ جَلَالُهُ ذلك وصفًا باهرًا، فيقول: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، ويقول أيضًا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

الوجه الرابع: إخباره عن الغيوب الماضية:

ولكن هذا الوجه ليس بينة للمخاطبين به على الفور، بل هو مما يزيد الإيمان، ويلفت نظر الآخرين إلى البيِّنة القُرآنيَّة.

وقد يكون بينة للمخاطبين على الفور إذا كانوا من أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ﴾ [المائدة: ٨٣]، ولغيرهم بسؤالهم أهلَ الكتاب، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧].

وأخبرنا الله عَزَّ وَجَلَّ بالقيمة العلميَّة الضَّخمة للإخبار عن الغيوب الماضية، وجعلها من أوجه عظمة القرآن، فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤].

وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف: ١٠٢].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا

كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٤-٤٦].

ومن ذلك ما سيأتي بعد قليل -إن شاء الله- عن اسم هامان في القرآن الكريم.

الوجه الخامس: الإخبار عن الغيوب المستقبلة:

فقد بيَّن الله ﷻ أنها من أوجه إعجاز الذِّكر الحكيم فقال: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧]، وقال: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٨٨]، ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النمل: ٩٣].

وذكر البيهقيُّ رحمه الله الإخبار عن الغيوب المستقبلة والماضية ضمن أوجه الإعجاز، فقال: «وَفِي الْقُرْآنِ وَجْهَانِ آخران لِلْإِعْجَازِ: **أَحَدُهُمَا مَا فِيهِ مِنَ الْخَبَرِ عَنِ الْغَيْبِ**، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وَعْدِهِ إِيَّاهُ بِالْفُتُوحِ فِي زَمَانِهِ وَبَعْدَهُ، ثُمَّ كَانَ كَمَا أَخْبَرَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ ﷺ كَانَ لَا يَعْلَمُ النُّجوم وَلَا الْكِهَانَةَ، وَلَا يُجَالِسُ أَهْلَهَا، وأن هؤلاء لا يصل علمهم إلى مثل ما في القرآن، وأكثر تنبؤاتهم يظهر كذبها.

وَالْآخَرُ: مَا فِيهِ مِنَ الْخَبَرِ عَنْ قَصصِ الْأَوَّلِينَ مِنْ غَيْرِ خِلَافٍ ادُّعِيَ عَلَيْهِ فِيمَا وَقَعَ الْخَبَرُ عَنْهُ مِمَّنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْكُتُبِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ ﷺ كَانَ أُمِّيًّا لَا يَقْرَأُ كِتَابًا، وَلَا يَخُطُّهُ، وَلَا يُجَالِسُ أَهْلَ الْكِتَابِ لِلْأَخْذِ عَنْهُمْ، وَحِينَ زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ رَدَّ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ عَلَيْهِ فَقَالَ: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]»[(١)].

ومن أبرز الحوادث التي تُذْكَر عن الأمور الغيبيَّة المستقبلة ما رواه ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾﴾ [الروم: ١-٢]...قَالَ: «كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ فَارِسُ

---

(١) شعب الإيمان (١٣٤).

عَلَى الرُّومِ، لِأَنَّهُمْ أَهْلُ أَوْثَانٍ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ، لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، فَذَكَرُوهُ لِأَبِي بَكْرٍ ﷺ، فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ ﷺ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُمْ سَيَغْلِبُونَ»، قَالَ: فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ ﷺ لَهُمْ، فَقَالُوا: اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَجَلًا، فَإِنْ ظَهَرْنَا، كَانَ لَنَا كَذَا وَكَذَا، وَإِنْ ظَهَرْتُمْ، كَانَ لَكُمْ كَذَا وَكَذَا، فَجَعَلَ أَجَلًا خَمْسَ سِنِينَ، فَلَمْ يَظْهَرُوا، فَذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ لِلنَّبِيِّ ﷺ فقال: «أَلَا جَعَلْتَهَا إِلَى دُونَ -قَالَ: أُرَاهُ قَالَ-: الْعَشْرِ؟» - قَالَ: قال سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ رحمه الله: الْبِضْعُ: مَا دُونَ الْعَشْرِ- ثُمَّ ظَهَرَتِ الرُّومُ بَعْدُ، قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ②﴾ [الروم: ١-٢] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَئِذٖ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٤] قَالَ: يَفْرَحُونَ ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٥]»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ②﴾ [البلد: ٢]، هذا خبر مستقبلي مع أن الآية مكيَّة، وما كان الصَّحابة ﷺ يعرفون تأويل الآية حين نزولها على الحقيقة حتى رأوا ذلك في فتح مكَّة، ومثل ذلك ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: أَنْزَلَ اللهُ جل جلاله عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ بِمَكَّةَ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، فَقَال عُمَرُ بن الْخَطَّابِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ جَمْعٍ يُهْزَم -وذَلِكَ قَبْلَ بَدْرٍ-؟ قَالَ: فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، وَانْهَزَمَتْ قُرَيْشٌ، نَظَرْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي آثَارِهِمْ مُصْلِتًا بِالسَّيْفِ، يَقُولُ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾، وَكَانَتْ لِيَوْمِ بَدْرٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل فِيهِمْ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ﴾ [المؤمنون: ٦٤]، وَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨](٢).

---

(١) أحمد (٢٤٩٥)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني (٩١٢١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٧٨): «وفيه عبد العزيز بن عمران، وهو ضعيف».

الْوَجْهُ السادس: سَلامَتُهُ مِنَ التَّعَارُضِ وَالتَّنَاقُضِ وَالِاخْتِلَافِ مع طُولِهِ، خِلَافًا لِجَمِيعِ كَلَامِ الْبَشَرِ:

وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

والإعجاز هنا يظهر بمجموع القرآن، ولكن هذا الوجه لا تظهر فيه البيِّنة القُرآنيَّة إلا عند تلاوة القرآن من أوَّله إلى آخره، فترى فيه عظمة القرآن، لكنه لا يمثِّل البيِّنة القُرآنيَّة بمجرَّد سماعها ونزولها، إلا أنه يمثِّل جانبًا عظيمًا له تأثيره الكبير في من يريد استكشاف القرآن.

الْوَجْهُ السابع: إعجازه العلميُّ المشتمل على العقائد، والتَّشريع:

ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم: اشْتِمَالُهُ عَلَى الْعُلُومِ الإلهيَّة، وَأُصُولِ الْعَقَائِدِ الدِّينيَّة، وَأَحْكَامِ الْعِبَادَاتِ، وَقَوَانِينِ الْفَضَائِلِ وَالْآدَابِ، وَقَوَاعِدِ التَّشْرِيعِ السِّيَاسِيِّ وَالْمَدَنِيِّ وَالِاجْتِمَاعِيِّ الْمُوَافِقَةِ لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَبِذَلِكَ يَفْضُلُ كُلَّ مَا سَبَقَهُ مِنَ الْكُتُبِ السَّماويَّة، وَمِنَ الشَّرائع الْوَضْعِيَّةِ، وَمِنَ الْآدَابِ الْفَلْسَفِيَّةِ، كَمَا يَشْهَدُ بِذَلِكَ أَهْلُ الْعِلْمِ الْمُنْصِفُونَ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ الشَّرْقِيَّةِ وَالْغَرْبِيَّةِ(١).

وهذا الوجه كذلك يظهر الإعجاز فيه بمجموعه.

الْوَجْهُ الثامن: إعجاز القرآن بعجز الزمان عَنْ إِبْطَالِ شَيْءٍ مِنْه:

يَشْتَمِلُ الْقُرْآن عَلَى بَيَانِ كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنَ الْجَمَادِ وَالنَّبَاتِ، وَالْحَيَوَانِ، وَالْإِنْسَانِ، وَيَصِفُ خَلْقَ السَّموات، وَشَمْسَهَا، وَقَمَرَهَا، وَدَرَارِيِّهَا، وَنُجُومَهَا، وَالْأَرْض، وَالْهَوَاءَ، وَالسَّحَاب، وَالْمَاءَ مِنْ بِحَارٍ وَأَنْهَارٍ وَعُيُونٍ وَيَنَابِيعَ، وَفِيهِ تَفْصِيلٌ لِكَثِيرٍ مِنْ أَخْبَارِ الْأُمَمِ، وَبَيَانٌ لِطَرِيقِ التَّشْرِيعِ السَّوِيِّ لِلْأُمَمِ، وَقَدْ حَفظ ذَلِك كُلَّهُ فِيهِ

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٧١).

بِكَلِمِهِ وَحُرُوفِهِ مُنْذُ ثَلَاثَةَ عَشَرَ قَرْنًا وَنَيِّفٍ، ثُمَّ عَجَزَتْ هَذِهِ الْقُرُونُ الَّتِي ارْتَقَتْ فِيهَا جَمِيعُ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ أَنْ تَنْقُضَ بِنَاءَ آيَةٍ مِنْ آيَاتِهِ، أَوْ تُبْطِلَ حُكْمًا مِنْ أَحْكَامِهِ، أَوْ تُكَذِّبَ خَبَرًا مِنْ أَخْبَارِهِ، وَهِيَ الَّتِي جَعَلَتْ فَلْسَفَةَ الْيُونَانِ دَكًّا، وَنَسَخَتْ شَرَائِعَ الْأُمَمِ نَسْخًا(١).

الْوَجْهُ التاسع: الإعجاز الخبريُّ عن الغيوب العلميَّة التي تُكْتَشف لاحقًا عبر المعرفة الإنسانيَّة:

كما يقول السَّيِّد رشيد رضا رحمه الله: «باشْتِمَال الْقُرْآنِ عَلَى تَحْقِيقِ كَثِيرٍ مِنَ الْمَسَائِلِ العلميَّة وَالتَّاريخيَّة الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً فِي عَصْرِ نُزُولِهِ، ثُمَّ عُرِفَت بعد ذلك بِمَا انْكَشَفَ لِلْبَاحِثِينَ وَالْمُحَقِّقِينَ مِنْ طَبِيعَةِ الكَونِ، وَتَارِيخِ البَشَرِ، وسُنَنِ اللهِ فِي الخَلْقِ»(٢).

وبعضهم يقول: فإن كان القرآن سبق فَلِمَ لَمْ يحدث الاكتشاف من خلاله؟

الجواب: **أمَّا أولًا** فلتقصير المسلمين في النَّظر في كتاب ربِّهم، **وأما ثانيًا**: فلأن الاكتشاف لا يشترط أن يكون من خلال القرآن، بل يكفي أن يوجد في القرآن ما ينبِّه المسلمين إلى دخول الكشف في معناه بعد أن يُرى ذلك الكشف العلميُّ، وهذا مماثل تمامًا للأخبار عن الغيوب المستقبلة.

ستقول: فهلا ذكرت لنا بعض الأمثلة عن ذلك؟

الجواب: ضرب السَّيِّد رشيد رضا رحمه الله أمثلة كثيرة لهذا النَّوع الباهر من الإعجاز في زمانه، فما بالك بما جاء بعده؟

فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢] كَانُوا يَقُولُونَ فِيهِ: إِنَّهُ تَشْبِيهٌ لِتَأْثِيرِ الرِّيَاحِ الْبَارِدَةِ فِي السَّحَابِ بِمَا يَكُونُ سَبَبًا لِنُزُولِ الْمَطَرِ بِتَلْقِيحِ ذُكُورِ الْحَيَوَانِ لِإِنَاثِهِ، وَلَمَّا

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٧٢).

(٢) تفسير المنار (١/ ١٧٥).

اهْتَدَى عُلَمَاءُ أُورُبَّةَ إِلَى هَذَا، وَزَعَمُوا أَنَّهُ مِمَّا لَمْ يُسْبَقُوا إِلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ، صَرَّحَ بَعْضُ الْمُطَّلِعِينَ عَلَى الْقُرْآنِ مِنْهُمْ بِسَبْقِ الْعَرَبِ إِلَيْهِ. قال مِسْتَرْ (أَجْنِيرِي) الْمُسْتَشْرِقُ الَّذِي كَانَ أُسْتَاذًا لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي مَدْرَسَةِ (أُكْسُفُورْد) فِي الْقَرْنِ الْمَاضِي: إِنَّ أَصْحَابَ الْإِبِلِ قَدْ عَرَفُوا أَنَّ الرِّيحَ تُلَقِّحُ الْأَشْجَارَ وَالثِّمَارَ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَهَا أَهْلُ أُورُبَّةَ بِثَلَاثَةَ عَشَرَ قَرْنًا. اهـ.

نَعَمْ، إِنَّ أَهْلَ النَّخِيلِ مِنَ الْعَرَبِ كَانُوا يَعْرِفُونَ التَّلْقِيحَ؛ إِذْ كَانُوا يَنْقُلُونَ بِأَيْدِيهِمُ اللَّقَاحَ مِنْ طَلْعِ ذُكُورِ النَّخْلِ إِلَى إِنَاثِهَا، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ الرِّيَاحَ تَفْعَلُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَفْهَمِ الْمُفَسِّرُونَ هَذَا مِنَ الْآيَةِ، بَلْ حَمَلُوهَا عَلَى الْمَجَازِ.

وَمِنْهُ نظرية الانفجار الكبير؛ إذ تلمس معناها بيسر في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ومثل ذلك: خَلْقُ كُلِّ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْمَاءِ(١).

فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟!

وهنا ربما تقول: لكنك تنقل عن السَّيِّد رشيد رضا رحمه الله، وبيننا وبينه نحو مائة سنة، أفلا توجد أمثلة أحدث؟

موريس بوكاي والإعجاز القرآني:

الجواب: بلى! وما برح الزَّمان يدور مُظْهِرًا نور الله عز وجل في الآفاق، فلنخرج عما قاله رشيد رضا رحمه الله.. هاهم كبار العلماء المعاصرين الذين يُعْمِلون عقولهم، ويتركون التَّعصُّب الرَّذيل جانبًا، يعترفون بقوَّة القرآن الكريم وإعجازه، فموريس بوكاي الطَّبيب الفرنسيُّ الشَّهير يقول في لقاء متلفز له عام ١٩٨٧م: لا بُدَّ لي أن أعترف حينما قرأت القرآن في لغته

(١) تفسير المنار (١/ ١٧٥، ١٧٦).

العربيَّة لأوَّل مرَّة في عام ١٩٧٢م كانت المعلومات المتعلِّقة بجسم الإنسان فيه هي أول ما أدهشني إلى أبعد الحدود، وبالنَّظر إلى وضع المعرفة العلميَّة في عهد النَّبيِّ ﷺ، فإنه لا يعقل أن يكون ذلك الكمُّ الهائل من المعلومات المتَّصلة بالعلم الوارد في القرآن، لا يعقل أن تكون من وضع إنسان، ولذا فإنه من المشروع تمامًا النَّظر إلى القرآن ليس باعتباره وحيًا مُنَزَّلًا فحسب، بل أيضًا أن نفرد له موقعًا مهيمنًا خاصًّا به على أساس الضَّمان الذي توفِّره لنا مصدريَّته الإلهيَّة، وأيضًا بما تحتويه آياته من إشاراتٍ علميَّة، التي عندما ندرسها في عصرنا هذا نراها لا تزال تشكِّل تحديًّا حقيقيًّا للمعرفة الإنسانيَّة.

ويروي الدكتور موريس بوكاي أنموذجًا للإعجاز العلميِّ المذهل من خلال قِصَّة هامان المسؤول عن المحاجر الفرعونيَّة، ورئيس البنَّائين الذي لم توجد قصَّته في الكتب السَّابِقَة، ولم تُكتشف إلا مؤخرًا عبر الكتابة الهيروغليفيَّة فيقول: ذُكر هامان ستَّ مرَّات في القرآن الكريم.. قمت بزيارة اختصاصي في اللُّغة الهيروغليفيَّة في باريس، وأخبرته أنني اطلعت على نصٍّ من القرن السَّابع الميلادي، وكتبت هامان أمامه بالعربيَّة، وهو يتقنها، فقال: مستحيل أن تكون كلمة (هامان) عربيَّة! لأنها كلمة هيروغليفيَّة، واللُّغة الهيروغليفيَّة كانت مجهولة تمامًا حتى اكتشفها (شامبليون) في القرن التَّاسع عشر الميلادي.. هذا مستحيل!

قلت له: نعم! نعم! مستحيل. ولكنك سترى رأيًا آخر حين أُطلعك على النَّصِّ العربيِّ.

فقال: ما هو النَّصُّ العربيُّ؟

قلت له: أخبرني أولًا عن معنى هامان في الهيروغليفيَّة.

أخبرني أن هامان اسم عائلة في الأُسَر الفرعونيَّة. ولو قصدت مكتبة كوليج (دي فرانس) ستجد فيها المعجم الشَّهير للأسماء الهيروغليفيَّة للأُسَر الفرعونيَّة الحديثة للألماني (رانكه)، وستعثر على اسم "هامان".

توجَّهت إلى المكتبة، وعثرت على اسم هامان في المعجم، ووجدت تعريفًا لاسم هامان، وهو مدير المحاجر الفرعونيَّة.. رئيس البنَّائين بالأحجار؛ لأنَّ البِناء بالأحجار لا بالأخشاب.. لقد رأيت تعريف الاسم.. طلب منه فرعون أن يبني له صرحًا.. عدت إلى الاختصاصيِّ، وقمت بفتح القرآن أمامه، وقلت له: انظر!

أصيب الرجل بالذُّهول. لم يستطع معه للحظات أن ينطق.

أخبرته أنه مثلما حفظ الإنجيل اسم (رمسيس)، حفظ القرآن اسم (هامان).

كان الرجل مأخوذًا تمامًا[١].

الوجه العاشر: سلامته من التَّحريف والتَّغيير اللَّفظيِّ والمعنويِّ:

فأما اللَّفظي فلِمَا فِي نَقْلِهِ مِنَ التَّوَاتُرِ القَطعِيِّ، وأما المراد بسلامته من التَّغيير المعنويِّ فلقصور أعدائه وأتباعه عن تغيير قوانينه وقواعده مهما حاولوا إلا أن يغيِّروا لفظهم، وما هم لذلك بفاعلين، ولن يستطيعوا.

الوجه الحادي عشر: الانجذاب المذهل له ممَّن يسمعه:

ولذلك لجأ أعداؤه إلى التَّشويش عليه، وقالوا قديمًا وحديثًا: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

(١) ينظر كلامه السابق في الرابط الآتي:
https://www.youtube.com/watch?v=2lbDywg5H□A

الوجه الثاني عشر: الإعجاز التَّربويُّ، حيث نقل أتباعَه عند تحكيمه إلى أعلى درجات الحضارة:

إنه القرآن العظيم الذي عجزوا عن الإتيان بمثله، خصَّه الله تعالى بالجمع بين المنهجيَّة والإعجاز، فكما أنه هو المنهاج الذي يُسَيِّرُ البشريَّة في أقوم تشريع، كذلك هو المعجزة المستمرَّة لتجذب النَّاس إلى السَّميع العليم، فهو نور للقلوب والمجتمعات، كما أنه برهان للعقول والحضارات، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: دليلًا معجزًا على أنَّ النَّبيَّ ﷺ هو الرَّسول، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

وهذا –وإن كان يمكن قوله في الأمم الأخرى عندما تتوافق على نظام كما عند اليابانيين والألمان مثلًا– إلا أن مزيَّة القرآن أن الانتقال كان سريعًا مباشرًا بمجرَّد نزول القرآن المجيد لم يخضع لمراحل التطوُّر الإنسانيِّ المعتادة، حيث نقل أوَّل أتباعه من الهَمجيَّة إلى النِّظام، ومن البداوة إلى الحضارة، ومن العبث إلى الاختراع، ومن العصبيَّة المتزمِّتة المتعالية إلى الإنسانيَّة الواسعة، ثم صهرهم ضمن بوتقة أرقى الحقوق الإنسانيَّة، ممَّا لم تُسَطِّر بعضَه الأممُ المتأخِّرة إلا في مواثيق حقوق الإنسان بعد أكثر من ألف وثلاثمائة عام على نزول القرآن، وانظر كيف ذابت الأجناس تحت لوائه، وتعاقَبَ على الحكم والسُّلطة معظمُ أمم الأرض من العرب إلى الأفارقة إلى المغول إلى الأتراك والفرس والأمازيغ.

هنا ربَّما تتساءل: ما الذي يفيده جمال قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٤] في التَّحدِّي العقليِّ بالقرآن؟

الجواب: هنا يأتي:

الوجه الثالث عشر: العجز عن معارضته في الحال والاستقبال، إذ يذكر الله ﷻ ذلك ذكرًا يصحبه التَّحدِّي أيضًا، فيقول: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٤]:

هذا وجهٌ معجزٌ في ذاته، وقد بيَّن لنا ولهم ربُّنا ﷻ خسارتَهم معركةَ التَّحدِّي، وبيَّن لهم ﷻ أنهم لن ينجحوا في الإتيان بمثله، وأنهم سيعجزون، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٤].

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾: أي فإن لم تأتوا بسورة من مثله في الوقت الحاضر، وتصوِّر لك كلمة ﴿فَإِن﴾ التَّشكيكيَّة التَّهييجيَّة صورة مزدوجة: فمِنْ جهة تأتي ﴿إِنْ﴾ للتَّشكيك، وقد تأتي للتَّهييج مثل: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٧٨﴾ [البقرة: ٢٧٨]، والبقاعيُّ رحمه الله يصوِّرُ فائدتها على هذا المعنى، فيبيِّن أنها تصوِّرهم وقد نفَّسَ لهم عنهم في الحوار، وأرخى المحاور لهم العِنَان، وذَكَرَ لهم أنهم ربَّما يفعلون؛ تنفيسًا لهم، وتهَكُّمًا في نفس الأمر بهم، واستجهالًا لهم، ثم لم يتمِّم ذلك التَّنفيس حتى ضربهم ضربة قصمت ظهورهم، وقطعت قلوبهم فقال: لتكون الآية كافلة لصِحَّة نسبة النَّظْم والمعنى آيد وآكد لادِّعائهم المَقْدِرة، بقوله تعالى: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ فألزمهم الخزي بما حكم عليهم به من العجز، فلم يكن لهم فعل إلا المبادرة إلى تصديقه بالكفِّ، فكانوا كمن أُلْقِمَ الحَجَر فلم يَسَعْهُ إلا السُّكوت، واستمرَّ ذلك التَّصديق لهم ولأمثالهم على وجه الدَّهر في كلِّ عصر ينادي مناديه فتخضع له الرِّقاب، ويَصْدَحُ مؤذنه فتنكسرُ الرُّؤوس[1].

﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾: تصوِّر التَّحدِّي في أعظم صوره: إنكم لن تأتوا بسورة من مثله، ولن تكونوا في هذه المعركة صادقين.. لن يمكنكم أن تأتوا بسورة من مثله في المستقبل، فقد قرَّر سِيبَوَيْهِ

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ١٦٩).

رَحِمَهُ اللَّهُ أن (لَا) لِنَفْيِ يَفْعَلُ، وَ(لَن) لِنَفْيِ سَيَفْعَلُ[١]، وقال الْخَلِيلُ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ (لَنْ) حَرْفٌ مُخْتَزَلٌ مِنْ لَا النَّافِيَةِ وَأَنِ الاِسْتِقْبَالِيَّةِ[٢].

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ مبديًا جمال كلمة ﴿لَن﴾ في هذا التَّحدِّي: «وَهُوَ رَأْيٌ حَسَنٌ، وَإِذَا كَانَتْ لِنَفْيِ الْمُسْتَقْبَلِ تَدُلُّ على النَّفْيِ المؤبَّد غَالِبًا؛ لِأَنَّهُ لَمَّا لَمْ يُوَقَّتْ بِحَدٍّ مِنْ حُدُودِ الْمُسْتَقْبَلِ دَلَّ عَلَى اسْتِغْرَاقِ أَزْمِنَتِهِ؛ إِذْ لَيْسَ بَعْضُهَا أَوْلَى مِنْ بَعْضٍ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قال الزَّمخشريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بِإِفَادَتِهَا التَّأْبِيدَ حَقِيقَةً أَوْ مَجَازًا وَهُوَ التَّأْكِيدُ، وَقَدِ اسْتَقْرَيْتُ مَوَاقِعَهَا فِي الْقُرْآنِ وَكَلَامِ الْعَرَبِ، فَوَجَدْتُهَا لَا يُؤْتَى بِهَا إِلَّا فِي مَقَامِ إِرَادَةِ النَّفْيِ الْمُؤَكَّدِ أَوِ المؤبَّد»[٣].

ويقول الجاحظ رَحِمَهُ اللَّهُ موضِّحًا خطورة هذا التَّحدِّي: «إن عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبْتُ في دعواي، وصدقتم في تكذيبي، ولا يجوز أن يكون مثل العرب في كثرة عددهم واختلاف عِلَلهم، والكلامُ كلامُهم، وهو سَيِّدُ عملهم، قد فاض بيانُهم، وجاشت به صدورُهم، وغلبتهم قوَّتُهم عليه عند أنفسهم، حتى قالوا في الحَيَّات، والعقارب، والذِّئاب، والكلاب، والخنافس، والجُعلان، والحَمير، والحَمَام، وكلِّ ما دبَّ ودَرَج، ولاح لِعَينٍ وخَطَر على قلب، ولهم -بعدُ- أصنافُ النَّظْم وضروبُ التَّأليف، كالقصيد، والرَّجَز، والمُزدوج، والمُجانس، والأسجاع، والمنثور، وبعدُ فقد هجوه من كلِّ جانب، وهاجى أصحابُه شعراءَهم، ونازعوا خطباءَهم، وحاجُّوه في المواقف، وخاصموه في المواسم، وبادَروه العداوة، وناصبوه الحرب، فقَتَل منهم وقتلوا منه، وهو أثبت النَّاس حقًّا، وأبعدُهم

(١) ينظر: الكتاب لسيبويه (٣/ ١١٧).

(٢) ينظر: العين (٨/ ٣٥٠).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٣٤٢).

مطلبًا، وأذكرهم لخير أو شرٍّ، وأنفاهم له، وأهجاهم بالعجز، وأمدحهم بالقوَّة، ثم لا يعارضه معارض، ولم يتكلَّف ذلك خطيب، ولا شاعر... »[1].

وقد تسأل: إذا كان هذا التَّحدِّي يفيد العجز في الحال والاستقبال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٤] فما الذي يقتضيه من المعاني؟

الجواب: هذا التَّحدِّي يقتضي معنيين:

المعنى الأول: **العجز في الحال والاستقبال دليلٌ عَلَى أنَّ الله ﷻ أقام عليهم الحجة بالبيِّنة القُرآنِيَّة:**

«والتَّحدِّي هنا عجيب، والجزم بعدم إمكانه أعجب، ولو كان في الطاقة تكذيبه ما توانوا عنه لحظة»؛ فقد كان أعداء النَّبيِّ ﷺ أحرص الناس على إِبْطَالِ أَمْرِهِ، حتى بذلوا الأموال والنُّفوس لمحاربته وأتباعه، وأقاموا التَّحالفات لإبادتهم واستئصالهم، واضطروه ومن تبعه إلى ترك أوطانهم، وهجرة ديارهم وأهلهم، وقد سمعوه يستفزُّهم استفزازًا شديدًا فيقول لهم: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾، فلو كانوا يقدرون على أن يعارضوا القرآن لَمَا تأخَّروا لكنهم لم يفعلوا، وازداد الاستفزاز المدهش وضوحًا بقوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾، فهذه **معجزة قرآنيَّة مدهشة؛ لأنها تستفزُّهم استفزازًا شديدًا إلى أن يبذلوا أقوى وسائلهم لمعارضته ليُثْبِتُوا كذب هذه الجملة فحسب، لكن النَّتيجة أنهم: لم يفعلوا، وإمعانًا في التَّحدِّي رأيت النَّفي القرآنيَّ لفعلهم مقترنًا بالمستقبل ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ في تحدٍّ مستمرٍّ عَلَى تَعَاقُبِ السِّنِينَ.**

فماذا صنعوا؟ لقد صغَّر الله ﷻ لهم عقولهم، فألزمهم الخزي بما حكم عليهم به من العجز، فلم يكن لهم فعل إلا المبادرة إلى تصديقه بالكفِّ، فكانوا كمن أُلْقِمَ الحَجَر فلم يَسَعْهُ إلا السُّكوت، كما يقول البقاعيُّ رحمه الله[2].

---

(١) حجج النُّبوَّة، نشرت ضمن رسائل الجاحظ، وهي رسائل منتقاة من كتب للجاحظ (ص: ١٢٣، ١٢٤).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ١٧٠).

ويجلّي ذلك عمرو بن بحر الجاحظ رَحِمَهُ اللهُ (ت٢٥٥هـ)، فيقول: «إن الله -تبارك وتعالى- بعث محمَّدًا ﷺ أكثر ما كانت العرب شاعرًا وخطيبًا، وأَحْكَمَ ما كانت لغةً، وأشدَّ ما كانت عُدَّة، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله، وتصديق رسالته، فدعاهم إلى حظِّهم بالحُجَّة، فلما قَطَعَ العذر وأزال الشُّبهة، وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحَمِيَّةَ دون الجهل والحيرة، حملهم على حظِّهم بالسَّيف، فنصب لهم الحرب، ونصبوا له، وقتل من عِلْيَتِهم، وأعلامهم، وأعمامهم، وبني أعمامهم، وقتلوا أعمامه، وبني أعمامه، وعِلْيَةَ أصحابه، وأعلام أهله، وهو في ذلك يحتجُّ عليهم بالقرآن وغيره ويدعوهم صباحًا ومساء إلى أن يعارضوه -إن كان كاذبًا- بسورة واحدة، أو بآيات يسيرة، فكلما ازداد تحديًّا لهم بها، وتقريعًا بعجزهم عنها، تَكَشَّفَ من نقصهم ما كان مستورًا، وظهر منه ما كان خفيًّا، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجَّة قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا؛ قال: فهاتوها مفتريات، فلم يَرُمْ ذلك خطيب، ولا طمع فيه شاعر، ولو طمع(١) فيه لَتَكَلَّفَهُ، ولو تَكَلَّفَهُ لظهر ذلك، ولو ظهر لوجد من يستجيده، ويحامي عليه، ويكابر فيه، ويزعم أنه قد عارَضَ وقابَل وناقَض، فدلَّ ذلك العاقلَ على عجز القوم مع كثرة كلامهم، واتساع لغتهم، وسهولة ذلك عليهم، وكثرة شعرائهم، وكثرة من هَجَاه منهم، وعارَض شعراءَ أصحابِه وخطباءَ أمَّتِه، لأن سورة واحدة، وآيات يسيرة كانت أنقضَ لقوله، وأفسدَ لأمره، وأبلغَ في تكذيبه، وأسرع في تفريق أتباعه من بذل النُّفوس، والخروج من الأوطان، وإنفاق الحرائب؛ وهذا من جليل التَّدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في العقل والرَّأي بطبقات، ولهم القصيد العجيب، والرَّجَز الفاخر، والخُطَب الطِّوال البليغة، والقِصَار الموجزة، ولهم الأسجاع والمزدوج واللَّفظ المنثور، ثم يتحدَّى به أقصاهم بعد أن ظهر عجز

(١) في نظم الدرر: (ولا طبع)، ولعله تصحيف، والصواب (ولو طمع) كما في الإتقان للسيوطي (٤/ ٦)، وغيره.

أدناهم؛ فمحال -أكرمك الله- أن يجتمع هؤلاء كلُّهم على الغلط في الأمر الظَّاهر، والخطأ المكشوف البيِّن مع التَّقريع بالنَّقص، والتَّوقيف على العجز، وهم أشدُّ الخلق أَنَفَة، وأكثرُهم مفاخرة، والكلام سَيِّدُ عِلْمِهم، وقد احتاجوا إليه والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض فكيف بالظَّاهر؟! وكما أنه محال أن يُطْبِقوا ثلاثًا وعشرين سنة على الغلط في الأمر الجليل المنفعة، فكذلك -أيضًا- محال أن يتركوه وهم يعرفونه، ويجدون السَّبيل إليه، وهم يبذلون أكثر منه»[١].

وقال الجاحظ رحمه الله -أيضًا مبينًا وجه الإعجاز في القرآن-: «لأنَّ رجلًا من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبُلَغائهم سورة طويلة أو قصيرة، لتبيَّن له في نظامها ومخرجها، وفي لفظها وطبعها أنه عاجز عن مثلها، ولو تحدَّى به أبلغ العرب لظهر عَجْزُه عنها، وليس ذلك في الحرف والحرفين، والكلمة والكلمتين! ألا ترى أن الناس قد يتهيأ في طبائعهم ويجري على ألسنتهم أن يقول رجل منهم: الحمد لله، وإنَّا لله، وعلى الله توكلنا، وربُّنا الله، وحسبنا الله ونعم الوكيل. وهذا كلُّه في القرآن، غير أنه مُتَفَرِّقٌ غيرُ مجتمع، ولو أراد أنطقُ الناسِ أن يؤلِّفَ من هذا الضَّرْب سورةً واحدة طويلة أو قصيرة على نَظْم القرآن، وطَبْعِه، وتأليفه ومخرجه، لما قَدَر عليه، ولو استعان بجميع قحطان، ومَعَد بن عدنان... »[٢].

المعنى الثاني: ثقة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بالحقِّ الذي جاء به:

إذ جاءت كلمة ﴿لَن﴾ لتدلَّ على نفي المستقبل، والنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يتلوها على العالم، وهذه التِّلاوة تعكس مدى ثقة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بالحقِّ الذي جاء به، ويشعر الرَّازيُّ رحمه الله بهذه الثِّقة النَّبويَّة

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ١٧٣)، وذكر البقاعي رحمه الله أن الجاحظ قال هذا في كتاب: "الحجة في تثبيت خبر الواحد"، فهل كان واهمًا؟ إذ ربما عنى أن الجاحظ قال هذا في كتاب: تثبيت النُّبوَّة.

(٢) حجج النُّبوَّة، نشرت ضمن رسائل الجاحظ، وهي رسائل منتقاة من كتب للجاحظ لم تنشر قبل الآن، حسن السندوبي، مؤسسة هنداوي، يورك هاوس/ المملكة المتحدة، ٢٠٢٢م (ص: ١٠٥، ١٠٦).

من الآية، فيقول ﷺ: «فَالْمُبْطِلُ الْمُزَوِّرُ الْبَتَّةَ لَا يَقْطَعُ فِي الْكَلَامِ، وَلَا يَجْزِمُ بِهِ، فَلَمَّا جَزَمَ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ -عليه الصلاة والسلام- كَانَ قَاطِعًا فِي أَمْرِهِ»(١).

وختم محمد رشيد رضا ﷺ بحثه الماتع عن وجوهٍ من الإعجاز القرآنيِّ، فقال: «هذا، وإنَّ ما لخَّصناه هنا من حُكْمِ القرآن عليها يثبت أنَّه حكمٌ عليٌّ نزل من فوق السَّموات العلا، حكم العليم الحكيم الحكم العدل المهيمن، وأنَّ تحقيق المحقِّقين من مؤرِّخي الأمم، وتحقيق العقلاء من البشر قد أثبت ما أثبته هذا الحكم، وقد نفى ما نفاه، أليس هذا أنصع برهانٍ على كونه حكم الله ﷻ لا حكم عبدِه محمَّد بن عبد الله؟ بلى والله، ثمَّ بلى والله، ثمَّ بلى والله، ولا يماري في ذلك إلَّا متعصِّبٌ أضلَّه الله ﷻ.

ومن قرأ التَّوراة والإنجيل، ثمَّ قرأ ما في القرآن من أخبار الرُّسل ﷺ يرى أمرًا آخر، يرى أنَّ القرآن بيَّن صفوة ما فيهما من صحَّة عقيدةٍ، ومن أدبٍ وفضيلةٍ، ومن عبرةٍ وموعظةٍ، ومن أسوةٍ بالأخيار حسنةٍ، وسكت عن كلِّ ما فيهما ممَّا ينافي ذلك ويخلُّ به، أو يجعل أفضل البشر قدوةً سيِّئةً، وصرَّح بنقض ما طرأ على أهل الكتاب من نزعات الشِّرك والوثنيَّة، فإن فرضنا -تنزُّلًا- أنَّ هذا من صنع محمَّد بن عبد الله الأمِّيِّ ﷺ، أفلا يكون برهانًا على أنَّه هو في شخصه أرقى من جميع الأنبياء والمرسلين علمًا وعقلًا وهدايةً وإرشادًا؟ بلى، ولكن كيف يعقل حينئذٍ أن يكونوا أنبياء مرسلين، وموحًى إليهم من الله ﷻ أو مُلْهَمين؟ الحقُّ أنَّ نفي نبوَّته ﷺ يقتضي نفي النُّبوَّة، وإبطال الرِّسالة من أصلها؛ لأنَّها هي الَّتي تُعْقَل لذاتها، وإنَّما يظهر ثبوت غيرها بالتَّبع لثبوتها»(٢).

وربما تسأل: ماذا فعلوا أمام هذا التَّحدِّي الكبير؟

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٥١).

(٢) تفسير المنار (١/ ١٨٠).

الجواب: لقد تحدَّى الله ﷻ قريشًا، والعرب، والجنَّ والإنس على أن يأتوا بسورة، لكننا رأيناهم لم يستجيبوا للتَّحدِّي، وهنا يطرح السُّؤَال نفسه: فما بالهم لم يذعنوا للتَّحدِّي، ولم يحاولوا كسره؟

الآن تصوَّر ردود الفعل المحتملة أمام هذا التَّحدِّي:

الاحتمال الأول: أن يواجهوا التَّحدِّي بالموافقة عليه، وتُشَكَّل لجنة لمواجهة القرآن الكريم بسورة من السُّوَر المماثلة له، وهذا يعني أن يشكِّلوا لجنة تجمع فصحاء العرب، وعقلاءها لصياغة سورة مماثلة.

الاحتمال الثاني: أن يعلنوا فَشَلَهم في ذلك بلسان مقالهم أو حالهم، ويذعنوا للقرآن، والنَّتيجة: سترى أنهم دخلوا في دين الله ﷻ، وهذا الذي وقع لكثير منهم.

الاحتمال الثالث: أن يعلنوا فَشَلَهم في التَّحدِّي، ويعلنوا معه الجِياد؛ ويتركوا الدِّين ينتشر عند من يرغب في اعتناقه.

الاحتمال الرابع: أن يعلنوا فشلهم بلسان المقال أو الحال، ويُصِرُّوا على العداوة.

دعنا نراجع التَّاريخ لننظر ما الذي تحقَّق من الاحتمالات الأربعة؟

الجواب: أخبرنا الله ﷻ أنهم لم يحقِّقوا الاحتمال الأول، ولن يقوموا به؛ لشعورهم المباشر بالعجز أمامه، فقال: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٤].

كان يمكنهم أن يحقِّقوا الاحتمال الأوَّل، وأن يحاولوا ذلك، وأن يستجيبوا له، وينتهوا من معركتهم مع النُّبوَّة بصورة فوريَّة مُدَّعين أنها كَذِب؛ لأنهم واجهوا التَّحدِّي القرآنيَّ، فأتوا بسورة مثل سُوَره، لكن الذي رواه التَّاريخ لنا متواترًا عنهم أنهم انقسموا إلى ثلاثة أقسام عبَّرت عنها الاحتمالات الثَّلاثة الأخيرة:

فبعضهم حقَّق الاحتمال الثاني، فاستجاب وأذعن وآمن.

وبعضهم حقَّق الاحتمال الثالث، فترك النَّبيَّ ﷺ يدعو إلى الله ﷻ، ولم يتعرَّض له، ومنهم الذين ذكرهم الله ﷻ في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ٩٠].

وبعضهم حقَّق الاحتمال الرَّابع، فأعرضوا تمامًا عن التَّحدِّي، وانسحبوا منه، وإذا كانوا عاجزين فماذا فعلوا؟ لقد أعرضوا عَنِ الْمُعَارَضَةِ بِأَسَلَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَفزعوا إِلَى الْمُقَارَعَةِ بِأَسِنَّةِ أَسَلِهِمْ(١)، وَسَفْكِ دِمَائِهِمْ بِأَسْيَافِهِمْ، وَتَخْرِيبِ بُيُوتِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ، كما يعبِّر رشيد رضا رَحِمَهُ اللهُ، ويقول: «أَفَلَمْ يَكُنِ الْأَجْدَرُ بِمَدَارِهِ قُرَيْشٍ وَفُحُولِهَا، غُرَرِ بَنِي مَعَدٍّ وَحُجُولِهَا أَنْ يَجْتَمِعُوا عَلَى تَأْلِيفِ سُورَةٍ بِبَلَاغَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَتَبَارَوْنَ فِيهَا بِسُوقِ عُكَاظَ وَغَيْرِهَا مِنْ مَجَامِعِ مُفَاخَرَاتِهِمْ، وَيُؤْثِرُوا هَذَا عَلَى سَوْقِ الْخَمِيسِ بَعْدَ الْخَمِيسِ مِنْ صَنَادِيدِهِمْ إِلَى يَثْرِبَ لِقِتَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمَنْ آمَنَ... قال الْمُتَكَلِّمُونَ فِي بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ: إِنَّنَا نَجِدُهُ لَمْ يَلْتَزِمْ شَيْئًا مِمَّا كَانُوا يَلْتَزِمُونَ بِسَجْعِهِمْ، وَإِرْسَالِهِمْ، وَرَجَزِهِمْ، وَأَشْعَارِهِمْ، بَلْ جَاءَ عَلَى النَّمَطِ الْفِطْرِيِّ، وَالْأُسْلُوبِ الْعَادِيِّ الَّذِي يَتَسَنَّى لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَحْذُوَ مِثَالَهُ، وَلَكِنَّهُمْ عَجَزُوا فَلَمْ يَأْتُوا، وَلَنْ يَأْتِيَ غَيْرُهُمْ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ»(٢).

فلما رأوا أنهم لا يستطيعون معارضة القرآن، وأنهم فشلوا في رهانات التَّحدِّي، عادوا أدراجهم يحاربون نور القرآن لئلا يسمعه أيُّ إنسان، فقالوا بنفسيَّة العناد والفساد والإفساد: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصلت: ٢٦].

---

(١) والأَسَلَةُ من اللسانِ: طَرَفُه المُستَدِقُّ، ولذلِكَ قِيلَ للصَّادِ، والزَّاي، والسِّينِ: (أَسَلِيَّة)، ومن سَجعاتِ الأَساسِ: أَسَلاتُ أَلْسِنَتِهِم أَمْضَى من أَسِنَّةِ أَسَلِهِم. تاج العروس (٢٧/ ٤٤٥).

(٢) تفسير المنار (١/ ١٦٠).

ويصوِّر لك ﷺ النَّفسيَّة المعاندة الحاسدة التي مَنَعَتْ من اتِّباع القرآن، يروي أنموذجها الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ رضي الله عنه بقوله: إِنَّ أَوَّلَ يَوْمٍ عَرَفْتُ فِيهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنِّي أَمْشِي مَعَ أَبِي جَهْلٍ بِمَكَّةَ، فَلَقِينَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فقال لَهُ: يَا أَبَا الْحَكَمِ، هَلُمَّ إِلَى اللهِ، وَإِلَى رَسُولِهِ، وَإِلَى كِتَابِهِ أَدْعُوك إِلَى اللهِ عز وجل، فقال: يَا مُحَمَّدُ، مَا أَنْتَ بِمُنْتَهٍ عَنْ سَبِّ آلِهَتِنَا، هَلْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ نَشْهَدَ أَنْ قَدْ بَلَّغْتَ، فَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنْ قَدْ بَلَّغْتَ، قال: فَانْصَرَفَ عَنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَقْبَلَ عَلَيَّ، فقال: وَاللهِ إِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّ مَا يَقُولُ حَقٌّ، وَلَكِنَّ بَنِي قُصَيٍّ، قالوا: فِينَا الْحِجَابَةُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ، ثُمَّ قالوا: فِينَا الْقِرَى، فَقُلْنَا: نَعَمْ، ثُمَّ قالوا: فِينَا النَّدْوَةُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ، ثُمَّ قالوا: فِينَا السِّقَايَةُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ، ثُمَّ أَطْعَمُوا وَأَطْعَمْنَا، حَتَّى إِذَا تَحَاكَّتِ الرُّكَبُ، قالوا: مِنَّا نَبِيٌّ! وَاللهِ لَا أَفْعَلُ(١).

ثم لم تكن فتنتهم أمام تحدِّي القرآن إلا أن قالوا: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣١﴾ [الأنفال: ٣١].

فلم لا يقولون مثل هذا إن كانوا صادقين؟ ألم تكن معارضة القرآن أقرب لهم من أن يبذلوا الحروب المتتابعة للرسول ﷺ حتى هلك كبار قياداتهم؟ لماذا لم يَجْمعوا بلغاء العرب، وفصحاء المتكلِّمين ليقبلوا التَّحدِّي، ويأتوا بما لم يأت به شاعر، ولا كاهن، ولا ساحر؟

إنهم يجدون أنَّ المسألة لا تتعلَّق باللَّفظ المُجرَّد، بل باللَّفظ والمعنى، بالبيان الذي يسيطر على الإنسان حين يسمع وحي القرآن فيتأثَّر به، حتى لو تُرْجِمَتْ معانيه إلى غير لغته.

ربما تتساءل: فما ملخَّص دلالة القرآن على نبوَّة النَّبيِّ ﷺ؟

الجواب: يلخِّص محمَّد رشيد رضا رحمه الله وجه دلالة القرآن على نبوَّة النَّبيِّ ﷺ، ويُبيِّن أنَّ لَهَا وَجْهَيْنِ:

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٦٩٧٩)، وحسَّنه الألباني في صحيح السِّيرة النَّبويَّة (ص: ١٦٢)، وحسَّنه أيضًا محمد الصوياني في الصحيح من أحاديث السيرة النَّبويَّة (ص: ٥٦).

(أَحَدُهُمَا): مَا قِيلَ فِي دَلَالَةِ الْآيَاتِ الكونيَّة لِبَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابقين، كَنَاقَةِ صَالِحٍ ﷺ، وَعَصَا مُوسَى ﷺ، وَإِحْيَاءِ عِيسَى ﷺ لِلْمَيِّتِ، وَهُوَ أَنَّ كُلًّا مِنْهَا أَمْرٌ جَاءَ عَلَى غَيْرِ الْمُعْتَادِ مِنْ مَقْدُورِ الْبَشَرِ، وَاسْتَدَلَّ بِهِ صَاحِبُهُ عَلَى نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ، فَكَانَ تَصْدِيقًا مِنَ اللهِ تَعَالَى لَهُ، وَتَكْذِيبًا وَخِذْلَانًا مِنْهُ تَعَالَى لِمَنْ كَذَّبَهُ، وَهَذَا الْوَجْهُ مِنَ الدَّلَالَةِ خَارِجٌ عَنْ مَوْضُوعِ النُّبوَّة وَالرِّسَالَةِ، وَلِذَلِكَ اخْتَلَفَ فِيهِ عُلَمَاءُ النَّظَرِ.

(الْوَجْهُ الثَّانِي): وَهُوَ يَجْتَمِعُ مَعَ الْأَوَّلِ، مَأْخُوذٌ مِنْ مَعْنَى النُّبوَّة وَالرِّسَالَةِ، وَهُوَ أَنَّهَا هِدَايَةٌ عُلْيَا لِلْبَشَرِ، لَا تُغْنِيهِمْ عَنْهَا هِدَايَاتُ الْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَلَا هِدَايَةُ الْعَقْلِ، فَإِنَّ هَذِهِ هِدَايَاتٌ شَخْصِيَّةٌ فَرْدِيَّةٌ، وَتِلْكَ هِدَايَةٌ لِنَوْعِ الْإِنْسَانِ فِي جُمْلَتِهِ، وَقَدِ اكْتَفَيْنَا فِي هَذَا الِاسْتِطْرَادِ بِتَمْثِيلِهَا بِطِبِّ الْأَبْدَانِ لِيَفْهَمَهَا كُلُّ قَارِئٍ وَ سَامِعٍ، وَإِنَّمَا يَفْهَمُهَا الْفَهْمَ التَّامَّ مِنْ طَرِيقِهِ الْعِلْمِيِّ مَنْ يَقِفُ عَلَى مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ آيَاتِ الْهِدَايَةِ، وَكَوْنِهِ أَعْلَى وَأَكْمَلَ مِنْ كُلِّ مَا نُقِلَ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابقين، عَلَى مَا فِي نَقْلِهِ مِنَ التَّوَاتُرِ الْقَطْعِيِّ، وَمَا فِي نَقْلِهَا مِنَ الضَّعْفِ -وَمِنْ طَرِيقِهِ الْعَمَلِيِّ مَنْ عَرَفَ تَارِيخَ الْإِسْلَامِ، وَمَا كَانَ مِنْ تَأْثِيرِ الْقُرْآنِ فِي هِدَايَةِ الْعَرَبِ، ثُمَّ هِدَايَةِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ، وَعَرَفَ تَأْثِيرَ هِدَايَةِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابقين فِي أُمَمِهِمْ- عَلَى مَا بَيْنَ النَّقْلَيْنِ مِنَ التَّفَاوُتِ أَيْضًا.

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ: أَنَّ مَوْضُوعَ الرِّسَالَةِ: تَعْلِيمٌ وَإِرْشَادٌ إِلَهِيٌّ يَمْلِكُ الْوِجْدَانَ، وَتُذْعِنُ لَهُ النَّفْسُ بِالْإِيمَانِ، فَيَكُونُ هِدَايَةً تَزَعُ صَاحِبَهَا عَنِ الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ، وَتُوَجِّهُهُ إِلَى الْحَقِّ وَالْخَيْرِ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ بَلَغَ مَرْتَبَةَ الْكَمَالِ فِيهَا، فَاهْتَدَتْ بِهِ الْأُمَمُ وَالشُّعُوبُ، فَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِهَا عَلَى عِلْمٍ بِحَقِيقَتِهَا، لَا تَقْلِيدًا لِآبَائِهِ وَقَوْمِهِ فِيهَا، لَا يَسَعُهُ أَنْ يُؤْمِنَ بِالتَّوْرَاةِ، أَوِ الْإِنْجِيلِ، أَوِ الْفِيدَا[1]، أَوْ

(١) وهو الكتاب المقدَّس عند الهندوس.

غَيْرِهَا مِنَ الْكُتُبِ الْمَنْسُوبَةِ إِلَى الْمُرْسَلِينَ الْأَوَّلِينَ وَلَا يُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ، وَهُوَ أَكْمَلُهَا فِي مَوْضُوعِهَا، وَأَصَحُّهَا نَسَبًا إِلَى مَنْ جَاءَ بِهِ[1].

ولنا هنا أن نردِّد قول البوصيريِّ رَحِمَهُ اللهُ:

اللهُ أكبرُ إنَّ دينَ محمَّدٍ ... وكتابَهُ أقوى وأقومُ قِيلا
طَلَعَتْ بهِ شمسُ الهِدايةِ للوَرَى ... وأبى لها وَصْفُ الكمالِ أُفُولَا
والحقُّ أبلجُ في شَرِيعَتِهِ الَّتي ... جَمَعَتْ فُرُوعًا لِلهُدَى وأُصُولَا
لا تذكروا الكُتُبَ السَّوالِفَ عِندَهُ ... طلعَ الصَّباحُ فأَطْفِئوا القِندِيلَا[2]

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٨٥).

(٢) ديوان البوصيري (ص: ١٤٥).

الدَّليل العاشر: الإقناع بالتَّرهيب من عاقبة السُّوء في المستقبل لمن يغطِّي الحقائق: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]

[الكلام عن المَعاد]:

المناسبة وجمال الاتصال:

قد تتساءل: ما وجه الاتصال بين هذه الآية وما قبلها؟

الجواب: قدَّم الله ﷻ للناس سبعة أدلَّة ماديَّة مشاهدة على وجوب أن يعبده الناس ليحقِّقوا قيمة التَّقوى.. تلك القيمة الكبرى في الحياة، وهذه الأدلَّة واضحة مهما تطاول الزَّمان:

الأوَّل: تربية الناس ﴿رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

الثَّاني: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾.

الثَّالث: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

الرَّابع: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾.

الخامس: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾.

السَّادس: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾.

السَّابع: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾.

ثم حاصرهم في الجواب عن هذه الأدلَّة، فلا يمكن أن يزعموا أن أحدًا من آلهتهم أو من أنفسهم يمكنه أن يفعل ذلك، فختم الآية بالنَّتيجة المنطقيَّة: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

فإن تهرَّبوا، وقالوا: ولكن الله ﷻ لم يبعث لنا رسولًا، ولا أنزل لنا كتابًا، وما جاء به محمَّد ﷺ فإنا في ريب منه، هنا يأتيهم الدَّليل الإقناعي **الثَّامن**: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

وإنك لتعجب من صدق هذه الآية على مدى خمسة عشر قرنًا.. ولكن تعال ننظر إليهم: بما أن العجز، والاستسلام، ورفع الرَّاية البيضاء هو مصيرهم أمام التَّحدِّي المذهل، وهم لا يستطيعون إنكار الأدلَّة المنطقيَّة المادِّيَّة السَّبعة الأولى، فما الذي يمنعهم من الإيمان الذي يأخذهم إلى سعادة المعرفة القُرآنِيَّة التي تُجَلِّي لهم البيانَ الإلهيَّ الأخير؟

لا يوجد ما يمنعهم عن سلوك طريق الصَّواب والسَّداد سوى المِراء والعِناد.. هنا يأتي الدليل التَّاسع في الإقناع باتخاذ القرار السَّليم المصيريِّ لحياتهم.. إنه الدليل الذي يناسب التَّعامل مع النَّفسيَّة المعاندة المستكبرة: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

ترتيب أركان الإيمان في هذه الأدلَّة:

وقد تسأل: ما أركان الإيمان التي تضمَّنتها الآيات السَّابِقَة؟

الجواب: ذكر الله ﷻ في هذه الآيات من أركان الإيمان ما يأتي:

الرُّكن الأول: الإيمان بالله، فذكر تَوْحِيدَ الألوهِيَّة بِعِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، وإقامة الأدلَّة على ذلك بما يقيم تَوْحِيد الرُّبوبيَّة، ودعا الناس إلى عبادته، ونفي الأنداد عنه.

الرُّكن الثاني، والثالث، والرابع: ثم ذكر الإيمان برسوله ﷺ وما أنزله عليه ﷺ، وذلك يتضمَّن الإيمان بالرسل عليهم السلام، ويتضمَّن الإيمان بالملائكة عليهم السلام باعتبارهم رسلًا من رسل الله عليهم السلام، وبما يتضمَّنه قوله تعالى: ﴿نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، مع ربطه بآيات أخرى من القرآن فَصَّلَت هذا التنزيل، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٣] التي تشير إلى رسل الملائكة التي تنزل بالقرآن من عند ربها ﷻ إلى الرسل من البشر، فهذه أربعة أركان من أركان الإيمان.

الرُّكن الخامس: ذكر الله ﷻ بعد ذلك المَعاد: فذكر النار في هذه الآية، ثم ذكر بعد ذلك الجنَّة في الآية التي تليها.

والإيمان بالقدر تدلُّ عليه الآيات التي تضمَّنت أدلَّة الحياة السبعة التي سبق ذكرها، لأنها تدلُّ على تقدير الله ﷻ لخلق الناس، وخلق السماء والأرض، وإنزال المطر من السماء، وإخراج النبات من الأرض.

ومن خلال التَّدبُّر والتَّفكُّر في الآيات المقروءة، والنَّظر والتَّفكُّر في الآيات المنظورة، يستدل الناظر على أنه ﷻ لم يترك شيئًا للصُّدفة، بل كلُّ شيء مُقَدَّر عنده بدقَّة متناهية قبل خلق السَّمَوَات والأرض وقبل خَلْق ما فيهما من دابة وقبل خَلْق الإنسان، فهذا تقديره في خَلْقِهِ، وكذلك آيات التَّحدِّي بالقرآن تدلُّ على تقدير الله ﷻ في كلماته.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٤] إخبار بما كتبه الله ﷻ وقَدَّرَه من أعمال العباد على مدى زمن كبير جدًّا؛ من وقت نزول هذه الآية وإلى الآن، ثم إلى آخر الشر على هذه الأرض، فقد أخبرهم الله ﷻ بشيء لن يفعلوه، وهذا يدلُّ على عِلْمه سبحانه بما هم عاملون ممَّا يسوء بعضهم ويسر بعضهم، ويدل قوله تعالى: ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ كذلك على تقديرِه سبحانه ﷻ لذلك، وكتابتِه له في القرآن المنزل، والقرآن جزء من اللوح المحفوظ، قال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]، فهذا يتضمَّن الإيمان بقَدَر الله ﷻ بكثير من معاني ومدلولات الإيمان بالقدر.

البصائر التَّفصيليَّة لهذه الآية:

بصيرة [١]: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ تبصِّرك بإثبات إلهيَّة القرآن، وتأكيد نبوَّة النَّبيِّ ﷺ من خلال هذا التَّحدِّي المستمرِّ، وذلك يدعو إلى قرارٍ شجاع بإعلان الإيمان وترك العناد.

وربما تساءلت: كيف جاءت هذه الآية في موضعها الطَّبيعيِّ لتؤثِّر في نفسيَّة المعاندين الذين يأبون الإيمان بالكتاب الذي لا ريب فيه؟

الجواب: جاءت هذه الآية المباركة لتبهرنا بأسلوب إقناعيٍّ جديد بأن الله ﷻ هو الواحد الذي يستحقُّ أن يُعْبدَ وأن يُمَجَّدَ، فبعد أن أقام الأدلَّة الماديَّة على استحقاقه للعبادة، وتحدَّاهم بما عجزوا عن الاستجابة له، رَهَّبهم من الإصرار على العناد في ستر الحقائق، فقال: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ [البقرة: ٢٤]، وجواب الشَّرط في هذا التَّركيب محذوف؛ لأنه معلوم قد دلَّ عليه السِّيَاق، وكأنَّ الله ﷻ يقول: فإن لم تأتوا بسورةٍ من مثله – ولن تستطيعوا ذلك أبدًا- فقد ظهر لكم أن القرآن من عند الله، فاتخذوا القرار الصحيح، وآمنوا برسولنا، وبكتابنا، ويعبِّر الطَّبريُّ رحمه الله عن هذا المعنى الذي كشفته الفاء، فيبيِّن أنَّ التَّقْدير: فاتقوا أن تُعَذَّبوا بالنَّار إن أقمتم على التَّكذيب برسولي الذي جاءكم بوَحْيِي وتنزيلي، بعد أن تبيَّن لكم أنه كتابي ومن عندي(١).

ويشعر الزَّمخشريُّ رحمه الله بهذا الاتِّصال الرَّائع بين هذه الآية وما سبقها، فيقول: «فإن قلت: ما معنى اشتراطه في اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله؟ قلت: إنهم إذا لم يأتوا بها وتبيَّن عجزهم عن المعارضة، صحَّ عندهم صِدْقُ رسول الله ﷺ وإذا صحَّ عندهم صِدْقُه ثم لزموا

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٧٩).

العِناد ولم ينقادوا ولم يشايعوا، استوجبوا العقاب بالنار فقيل لهم: إن استبنتم العجز فاتركوا العناد، فوضع: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ موضعه؛ لأنَّ اتِّقاء النار لَصِيقَةُ وضَمِيمَةُ تَرْكِ العناد، من حيث إنه من نتائجه؛ لأنَّ من اتَّقى النَّار ترك المعاندة. ونظيره أن يقول المَلِك لحَشَمه: إن أردتم الكرامة عندي فاحذروا سخطي. يريد: فأطيعوني واتَّبعوا أمري، وافعلوا ما هو نتيجة حَذَرِ السَّخَط. وهو من باب الكناية التي هي شعبة من شُعَب البلاغة. وفائدته الإيجاز الذي هو من حِلْية القرآن، وتهويل شأن العِناد بإنابة اتقاءِ النَّارِ مَنابَه، وإبرازِه في صورته، مشيعًا ذلك بتهويل صِفة النَّار، وتفظيع أمرها»[(١)].

ويقترب ابن عاشور رحمه الله من إيضاح الكلام أكثر، فيرى أن تقدير جواب الشَّرط: «فَاعْلَمُوا أَنَّكُمُ اجْتَرَأْتُمْ عَلَى اللهِ بِتَكْذِيبِ رَسُولِهِ الْمُؤَيَّدِ بِمُعْجِزَةِ الْقُرْآنِ، فَاتَّقُوا عِقَابَهُ الْمُعَدَّ لِأَمْثَالِكُمْ»[(٢)].

وقد تتساءل: بما أنَّ الله عز وجل أخبر أنهم لن يفعلوا جزمًا، فقال: ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ فما الحكمة من الإتيان بـ(إنْ) التي للشَّكِّ دون(إذ) التي للوجوب؟

الجواب: حاول الزَّمخشريُّ رحمه الله أن يجيب، فذكر وجهين:

أحدهما: أن يُساق القول معهم على حسب حُسبانهم وطمعهم، وأن العجز عن المعارضة كان قبل التَّأمُّل كالمشكوك فيه لديهم لاتِّكالهم على فصاحتهم، واقتدارهم على الكلام.

والثاني: أن يَتَهَكَّمَ بهم كما يقول الموصوف بالقوَّة الواثق من نفسه بالغلبة على من يقاويه: إن غلبتك لم أُبْقِ عليك، وهو يعلم أنه غالبه ويتيقنه تَهَكُّمًا به[(٣)].

---

(١) الكشاف (١/ ١٠٢).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٤٢).

(٣) الكشاف (١/ ١٠١).

ستعاود السُّؤَال مع إمام البيان الزَّمخشريِّ قائلًا: ما الحكمة في التعبير بالفعل في قول الله ﷻ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٤] ؟ ولماذا لم يقل: (فإن لم تأتوا بسورة من مثله، ولن تأتوا بسورة من مثله) كما قال تعالى عن يوسف ﷺ: ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ﴾ [يوسف: ٥٩، ٦٠]؟

الجواب: لأن الإتيان بسورة فِعْلٌ من الأفعال. تقول: أتيت فلانًا، فيقال لك: نِعْمَ ما فعلت، والفائدة فيه أنه جارٍ مَجْرَى الكِناية التي تعطيك اختصارًا ووجازة تغنيك عن طول المُكَنَّى عنه. ألا ترى أنَّ الرَّجل يقول: ضربت زيدًا في موضع كذا على صفة كذا، وشَتَمْتُه ونَكَّلْتُ به، ويَعُدُّ كيفياتٍ وأفعالًا، فتقول: بئسما فعلت. ولو ذكرتَ ما أَنْبَتَهُ عنه، لطال عليك، وكذلك لو لم يَعْدِل عن لفظ الإتيان إلى لفظ الفعل، لاستطيل أن يقال: فإن لم تأتوا بسورة من مثله[(١)].

هنا ستطرح سؤالًا مهمًا: لماذا التهديد بالنار؟

فيأتي **الجواب** في البصيرة الآتية:

بصيرة [٢]: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ تبصِّرك بأن العِناد لا يدفع العقوبة المنتظرة، فهذه الجملة أثرٌ لجواب الشَّرط تدلُّ عليه، والتَّقْدير: فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فأيقنوا بأنَّ ما جاء به عبدنا نزَّلناه عليه، وأطيعوه فيما أمركم به من عبادتنا لتتَّقوا النَّار بذلك.

«فَوَقَعَ قَوْلُهُ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ مَوْقِعَ الْجَوَابِ؛ لِدِلالته عَلَيْهِ، وإيذانه بِهِ، وَهُوَ إِيجَازٌ بَدِيعٌ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اتِّقَاءَ النَّارِ لَمْ يَكُنْ مِمَّا يُؤْمِنُونَ بِهِ مِنْ قَبْلُ لِتَكْذِيبِهِمْ بِالْبَعْثِ، فَإِذَا تَبَيَّنَ صِدْقُ الرَّسُولِ لَزِمَهُمُ الْإِيمَانُ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ»[(٢)].

---

(١) الكشاف (١/ ١٠١).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٤٤).

فحُرِيَّةُ الاختيار في الدُّنيَا توجب الحذر من العقوبة الثَّقيلة في الآخرة، فكأن الله ﷻ يقول: إن كنتم لا تستطيعون أن تأتوا بجواب منطقيٍّ عن الأدلَّة الثَّمانية السَّابِقَة؛ فإن هذا يعني صِحَّةَ كلِّ ما أخبرناكم به، وقد منحناكم حرية الاختيار في الدُّنيَا، فلا تظنوا أن ذلك سيمنع عنكم عقوبة النَّار المحقَّقة في الآخرة، فارحموا أنفسكم، واجعلوا بينكم وبين هذه النَّار وِقاية، بأن تعبدوا الله ﷻ.. إنها العبادة التي أخبرناكم أنها تؤدِّي إلى التَّقوى في الآية ٢١: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وغالبًا ما يطرح بعض الأذكياء سؤالًا في غير مكانه، فيقولون: أليس التَّهديد بالنَّار ينافي الرَّحمة التي ينبغي أن يتَّصف بها الإله؟

فيأتي **الجواب** في البصيرة الآتية:

بصيرة [٣]: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ تبصِّرك بأن الرَّحمة العظمى في التَّخويف من النَّار الكبرى.

لقد هدَّدهم الله ﷻ بما يترتَّب على الإصرار على اتِّباع الطريق الخاطئ المنافي للأدلة المادِّيَّة والعقليَّة.. خوَّفهم من مصيرهم الأخرويِّ في النَّار إن أصرُّوا على البقاء على طريق العِناد والفِجَار.. أما آن الأوان ليتخذوا القرار الصَّحيح، ويتركوا هذه الأنانيَّة المفرطة، وهذا الغرور الزَّائد؟

لقد كان النَّبيُّ ﷺ حريصًا على أن ينذر العالَم من النَّار، وانتشرت هذه الكُلِّيَّة العظمى في القرآن المجيد، كقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ١٤﴾ [الليل: ١٤]، وأكثر النَّبيُّ ﷺ من تكرار هذه الكُلِّيَّةِ القُرآنِيَّة العظيمة في تربيته لأصحابه، وتعليمه للعالم، فعن النُّعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول: «أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمُ

النَّارَ»، حتى لو أنَّ رَجُلًا كَانَ بِالسُّوقِ، لَسَمِعَهُ مِنْ مَقَامِي هذا-وهو بالكوفة-، قال: حَتَّى وَقَعَتْ خَمِيصَةٌ كَانَتْ عَلَى عَاتِقِهِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ(١).

ولعلك تسأل: عندما تتدبَّر القرآن المجيد تلحظ أن ﴿ٱلنَّارَ﴾ في هذه السُّورَة معرفة، بينما ذكرها الله ﷻ في سورة التَّحريم نَكِرة في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]، فما الحكمة؟

الجواب: اختار الزَّمخشريُّ ومن بعده الرَّازيُّ ﵀ أن ذلك ينسجم مع تقدُّم سورة التَّحريم في النُّزول، فهي مكيَّة، فَعَرَفُوا مِنْهَا ﴿نَارًا﴾ مَوْصُوفَةً بِهَذِهِ الصِّفة، ثُمَّ نَزَلَتْ هَذِهِ بِالْمَدِينَةِ مُسْتَنِدَةً إِلَى مَا عَرَفُوهُ أَوَّلًا، فعُرِّفَت(٢)، ولكن هذا السَّبَب غير صحيح؛ لأن سورة التَّحريم مدنيَّة، وليست مكِّيَّة، بل هي متأخِّرة في النُّزول على سورة البقرة، وقد استدرك ابن المُنَيِّر على الزَّمخشريِّ هذا(٣)، والذي يظهر لي في الفرق أن الخطاب مختلف، ففي سورة البقرة خاطب الله ﷻ المعاندين الذين هم في شكٍّ مما أنزل الله ﷻ على عبده، فحذَّرهم من النار التي قد ذكرها الله ﷻ قبل ذلك في سُوَر مكِّيَّة متعدِّدة، وفي سورة التَّحريم خاطب الله ﷻ المؤمنين، فحذَّرهم ﴿نَارًا﴾، وجعلها نكِرة؛ لأن المؤمن يخاف سوء الحساب، فجزء من النار كافٍ في ترهيبه.

وبعد أن تشعر بالفزع من هذه النَّار ترجع إلى الآية فتجد الله تعالى يقول لك: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ [البقرة: ٢٤]، فتتساءل: كيف نتقي هذه النَّار؟

---

(١) أحمد (١٨٤٢٢)، وحسَّن الأرناؤوطُ إسنادَه، وصحَّحه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٦٨٧).

(٢) تفسير الرازي (٢/ ٣٥٢).

(٣) ينظر: تفسير الزَّمخشريّ، ومعه الانتصاف لابن المُنَيِّر وحاشية المرزوقي، مكتبة العبيكان (١/ ٢٢٤، ٢٢٥).

الجواب: طريق اتقائها واضح في السِّيَاق، وهو الإيمان بالكتاب الذي لا ريب فيه، وتطبيق صفات المتَّقين المذكورة في أول السُّورَة، ويضرب النبي ﷺ مثالًا عظيمًا لنتقي النار، فعن عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه قَالَ: قال النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَسَيُكَلِّمُهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، ثُمَّ يَنْظُرُ فَلاَ يَرَى شَيْئًا قُدَّامَهُ، ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»(١)، ويحرِّك النبيُّ ﷺ أفئدة من حواليه بذكر النار بأسلوب تعليميٍّ لافت، فقد قال مرَّة: «اتَّقُوا النَّارَ»، ثُمَّ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ، ثُمَّ قال: «اتَّقُوا النَّارَ»، ثُمَّ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ ثَلاَثًا، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا، ثُمَّ قال: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»(٢)، وعبَّر عن ذلك بتعبير آخر يوضِّح معنى ﴿فَٱتَّقُواْ﴾، فقال ﷺ: «مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَتِرَ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ»(٣).

وعندما تسمع ذلك تتعجَّب من وصف النَّار في الآية، فقد قال الله ﷻ عنها: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، فما معنى أن يكون وقود النار الناس والحجارة؟

تجد **الجواب** في البصيرة الآتية:

بصيرة [٤]: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] تبصِّرك بالطَّبيعة الرَّهيبة لنار الآخرة؛ إذ تزداد اضطرامًا بوَقودها، ووَقودها النَّاس والحجارة، والنَّاس لا يموتون فيها ولا يحيون، فتبقى عذابًا دائمًا لهم.. نعوذ بالله ﷻ منها.

هذه النَّار وصفها الله ﷻ هنا وصفين مخيفين:

---

(١) البخاري (٦٥٣٩).

(٢) البخاري (٦٥٤٠).

(٣) مسلم (٢٣١٠).

الوصف الأول: وقودها النَّاس والحجارة، والوَقود (بفتح الواو): الحَطَب، وبضم الواو: المصدر الذي يدلُّ على الالتهاب(١)، فما حَطَبُها الذي يزيدها التهابًا، واضطرابًا، وإرعابًا، وعذابًا؟

وَقودها مادَّتان: النَّاس الذين: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ﴾ [فاطر: ٣٦].

والحجارة، وهي التي تحجَّرت بأن اجتمعت أجزاؤها اجتماعًا شديدًا حتى تلاصقت وتماسَّت حتى أصبحت لا تكاد تُفَكُّ إلا بما هو غير معتاد.

فهذه النَّار -اللَّهم أعذنا منها- تشتعل وتضطرم بصورة هائلة عظيمة، فتأثيرها لا يمكن وصفه، فإذا كانت نار الدُّنيَا تشتعل بالنَّبات، والشَّجر، والوَرَق؛ فإنَّ وَقود نار الآخرة الحجارة والناس، فنار الدُّنيَا غذاؤها من ضعيف الموالد، وهو النَّبات، كما قال جلَّ مَجدُهُ: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾ [يس: ٨٠](٢).

والحجارة التي تَكُون وقودًا للنَّار مع النَّاس نوعان:

النَّوع الأوَّل: حجارة الأصنام المعبودة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾، ثم بيَّن الحكمة من كونها في النَّار فقال: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨، ٩٩] فوجود معبوداتهم من الأحجار يبيِّن حَقارتَها، فكيف جعلوها آلهة؟ ويبيِّن حقارة قراراتهم، وندمهم وحسرتهم، فكيف أصرُّوا على العِناد، واختاروا أن تكون آلهة لهم؟ ولما اعتقد الكفَّار في حجارتهم المعبودة من دون الله ﷻ أنها الشُّفعاء والشُّهداء الذين يستشفعون بهم، ويستدفعون المضارَّ عن أنفسهم بمكانهم، جعلها

(١) ينظر: تاج العروس (٩/ ٣١٧).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ١٨٧).

الله ﷻ عذابَهم، فقَرَنهم بها محماة في نار جهنم؛ إبلاغًا في إيلامهم، وإغراقًا في تحسيرهم، ونَحْوُهم ما يفعله بالكانزين الذين جعلوا ذَهَبَهم وفِضَّتَهم عُدَّةً وذخيرة فشحُّوا بها، ومنعوها من الحقوق، حيث يُحْمَى عليها في نار جهنم فَتُكْوَى بها جِباهُهم، وجُنوبُهم، وظهورهم(١).

النَّوع الثاني: الحجارة التي تزيد النَّار عذابًا لِمَا أودع فيها من الخصائص المؤلمة، ومَثَّل لها بعض المفسِّرين بحجارة الكِبْرِيت؛ لأنها تزداد ضراوة باشتعالها، ولا يوجد دليل على هذا التَّخصيص، ولذا أنكر الرَّازيُّ ﵀ هذا الرأي، فقال: «وَالْإِيقَادُ بِحِجَارَةِ الْكِبْرِيتِ أَمْرٌ مُعْتَادٌ، فَلَا يَدُلُّ الْإِيقَادُ بها على قُوَّةِ النَّارِ، أَمَّا لو حملناه على سَائِرِ الْأَحْجَارِ دَلَّ ذلك على عِظَمِ أَمْرِ النَّارِ، فَإِنَّ سَائِرَ الْأَحْجَارِ تُطْفَأُ بها النِّيرَانُ، فكأنَّه قال: تلك النِّيرَانُ بَلَغت لِقُوَّتِهَا أَنْ تتعَلَّقَ في أَوَّلِ أَمْرِهَا بِالْحِجَارَةِ الَّتِي هي مُطْفِئَةٌ لِنِيرَانِ الدُّنيَا»(٢).

ويخبرنا عنها عبد الله بن مسعود ﵁ فيقول: هي حجارة من كِبريت، خَلقها الله ﷻ يومَ خلق السَّمَوات والأرض في السَّماء الدُّنيَا، يُعدُّها للكافرين، وعن ابن جُريج ﵀ في قوله: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ قال: حجارة من كِبريت أسودَ في النار، قال: وقال لي عمرو بن دينار ﵀: حِجارةٌ أصلب من هذه وأعظم(٣).

ويبيِّن النبيُّ ﷺ شِدَّة الاتقاد الَّذي يكون في النَّار مما يفزع السَّامع.. فعسى أن يرجع إلى ربِّه راجع، فعن أبي هُرَيْرَةَ ﵁ يقُولُ: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ؛ نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ فِي الْحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ»(٤).

---

(١) الكشاف (١/ ١٠٣).

(٢) تفسير الرازي (٢/ ٣٥٣).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٣٨١).

(٤) البخاري (٣٢٦٠).

هنا تتساءل: ماذا يُصَوِّر هذا الوصف المخيف ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]؟

الجواب: تصوِّر لنا هذه الكلماتِ تَمَيُّزَ تلك النَّارِ عن غيرها من النِّيران، بأنها لا تتَّقد إلا بالناس والحجارة، وبأنَّ غيرَها إن أُريد إحراق الناس بها، أو إحماء الحجارة أوقدت أوَّلًا بوَقود، ثم طرح فيها ما يراد إحراقه أو إحماؤه، وتلك - أعاذنا الله منها برحمته الواسعة - تُوْقد بنَفْس ما يُحرق ويُحمى بالنار، وبأنها لإفراط حرِّها، وشدَّة ذكائها إذا اتَّصلت بما لا تشتعل به نار، اشتعلت وارتفع لهبها(١).

الوصف الثاني: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

ولعلَّك تسأل: لماذا جاء هذا الوصف للنار بعد قوله: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾؟

الجواب: لمَّا كان لفظ ﴿النَّاس﴾ عامًّا للكافر وغيره، كأنه قيل: هذه النَّار لمن؟ ومن النَّاس الذين يدخلونها؟

جاء **الجواب**: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤](٢).

> **بصيرة [٥]: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] تبصِّرنا بأنه يجب أن توازنوا بين حريَّة الاختيار للإيمان والكفر في الدُّنيَا، والنَّار التي أُعِدَّت عقوبة لمن أصرَّ على الكفر في الآخرة.**

قد تتساءل: ما وجه القوَّة في كلمة: ﴿أُعِدَّتْ﴾ هنا حتى تناسب التَّخويف العظيم من هذه النار، أعاذنا الله جَلَّ جَلَالُهُ منها؟

الجواب: ﴿أُعِدَّتْ﴾: كلمة جاءت من عَدَدَ، ومنه: الْعَدُّ، وهو أن تُحْصِي الشَّيء وتَضْبط كثرة أفراده وأجزائه، بأن تَعُدَّها بِسَردها واحدًا واحدًا، تَقُولُ: عَدَدْتُ الشَّيء أَعُدُّهُ عَدًّا فَأَنَا عَادٌّ،

---

(١) الكشاف (١/ ١٠٣).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ١٨٨).

وَالشَّيء مَعْدُودٌ، والعَدُّ ضمُّ الأَعْدَادِ بعضها إلى بعض. قال تعالى: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٩٤].

ومن العدد: جاء معنى التَّهيئة للشَّيء؛ لأن الإنسان يَعُدُّ الأمر عَدًّا دقيقًا، فيحصي أفراده وأجزاءه، ويهيئه بما يلزمه، حتى يُعِدَّ له عُدَّته التي تستحقه حسب عَدَده، ومنها يُقَالُ: أَعْدَدْتُ الشَّيء أُعِدُّهُ إِعْدَادًا، وَاسْتَعْدَدْتُ لِلشَّيْءِ وَتَعَدَّدْتُ لَهُ، ويقال: أَعْدَدْتُ هذا، أي: هيأته بحيث يناسب حال من أُعِدَّ له، ومنه قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وَفِي الْأَمْثَالِ: كُلُّ امْرِئٍ يَغْدُو بِمَا اسْتَعَدَّا(١).

فقوله: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]: أي هُيئت وجُهِّزَت ورُكِّبت، وخلق فيها من الأجزاء والأصناف ما يناسب تعذيب الكافرين في كلِّ جزء من أجسادهم، وأنفسهم.. اللَّهمَّ إنا نسألك العفو والعافية.. أعذنا منها يا أرحم الرَّاحمين.

وكأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول لهم:

ارحموا أنفسكم! فالمقدِّمات تؤدِّي إلى نتائج واضحة، وبما أنكم أصررتم على ظلم أنفسكم، ومخالفة ما يقتضيه العقل، والوقوع في الهاوية دون برهان واضح أو دليل عقليٍّ، فلكم اختياركم الدُّنيويُّ، إلا أنه سيترتَّب على ذلك العاقبة الأُخرَوِيَّة الوخيمة.. إنها النَّار.

ويصرُّ الشيطان على أن يَؤُزَّ جنودَه في الإعلام العالميِّ للاستخفاف بالنَّار، والتَّهوين من عقوبة المَلِك الحقِّ القهَّار، فتستمع عباراتٍ تصدر من المُمَثِّلين، والسَّياسيِّين، والفنَّانين، مثل أن يطلب أحدهم من الآخر أن يقابله في النار، أو أن يراه في الجحيم.. مسكين هذا المستهين.. إنها النار التي أُعِدَّتْ للكافرين.

---

(١) مقاييس اللغة (٤/ ٣٠، ٣١)، وينظر المثل في: مجمع الأمثال (٢/ ١٥٩).

يُقَرِّبُ النبيُّ ﷺ مقدار قُوَّتِها، فيروي أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، قال: «فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا»(١)، ويحبونا النَّبيُّ ﷺ مشفقًا على أُمَّته بصورة عن شعور المُعذَّبين في الآخرة، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقال: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ.

وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقال لَهُ: يَا بْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»(٢).

﴿أُعِدَّتْ﴾: تبصِّرك بأنَّ النَّار قد خُلِقت، وجُهِّزت في انتظار أهلها، نعوذ بالله منها.

﴿أُعِدَّتْ﴾: تحذِّرك من الإصرار على العِناد، والمُضِيِّ في رَكْبِ الغوى والفساد.

ويذكِّرك النَّاصحون، فيقولون:

فيـا عـاملًا للنَّـارِ جِسْـمُكَ لَـيِّنٌ ... فَجَرِّبْـهُ تمرِينًـا بِحَـرِّ الظَّهِيـرَةِ
وَجرِّبْـهُ في لَسْـعِ الزَّنَـابِيرِ تَجْتَـرِي ... علـى نَهْـشِ حَيَّـاتٍ هنـاكَ عَظِيْمَـةِ
فـإِنْ كنـتَ لا تَقْـوَى فَوَيْلَـكَ مَـا الـذي ... دَعَـاكَ إلـى إِسْـخَاطِ رَبِّ البَرِيَّـةِ
تُبَـارِزُهُ بِـالمُنْكَراتِ عَشِـيَّةً ... وَتُصْـبِحُ في أَثْـوَابِ نُسْـكٍ وَعِفَّـةِ
وأنـتَ عليـه منـكَ أَجْـرَا علـى الـوَرَى ... بمـا فيـكَ مِـنْ جَهْـلٍ وَخُبْـثِ طَوِيَّـةِ

---

(١) البخاري (٣٢٦٥).

(٢) مسلم (٧١٩٠).

تُسِيءُ بِهِ ظَنًّا وَتُحسِنُ تَارَةً   عَلَى حَسْبِ مَا يَقْضِي الهَوَى فِي القَضِيَّةِ[(١)]

ولكنك قد تتساءل: فلمَ ذكر الله ﷻ وصف من يستحق هذه النار فسماهم الكافرين في قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾؟

الجواب: وَصْفُ الكافرين مشتق من (كَفَرَ)، بمعنى: ستر الشَّيء، وغطَّاه تغطية تامَّة، فالكافُور من الكَرْم: الوَرَق المغطِّي لما في جوفه من العنقود، والكَفْر بالفتح: ظُلمة الليل وسواده؛ لأنه يستر الخلق، والشكر يقابل الكُفْر، فهو إظهار النِّعمة، وإبانة الحقيقة أمام الآخرين: ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل ٤٠][(٢)].

هنا تعلم الحكمة من اختيار وَصْف هؤلاء بالكفر؛ لأنَّ هذا الوصف يَفْضح حقيقتهم، حيث ستروا أعظم الحقائق في الدُّنيا، وهي حقيقة الألوهِيَّة وحقيقة النُّبوَّة، وضرورة الإيمان بالكتاب الذي لا ريب فيه، ووصفهم باسم الفاعل، حيث قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ ليبين أنهم مارسوا الكفر مرَّة بعد مرَّة حتى رسخوا فيه، فصاروا يغطُّون الحقائق، ويصرُّون على تزييف الوقائع.. فالنار أعدَّت للكافرين العابثين بالحقائق الذين يُسَمِّمون الصُّدور بالأفكار الخاطئة.

هذه التَّسمية لهم (الكافرين) في مكانها الواضح؛ إذ الكافر يسمى كافرًا؛ لأنه يستر الصِّدق، ويغطِّي الحقَّ.. ألا يرحمون أنفسهم؟ ألا يخطِّطون لمستقبلهم جيِّدًا؟

---

(١) الأبيات لإسماعيل بن أبي بكر بن عبد الله بن محمد المقري الشاوري اليمني، الشهير بابن المقري، صاحب "عنوان الشرف الوافي"، ذلك الكتاب الأعجوبة، أشاد به الحافظ ابن حجر وبذكائه الوقاد، وكذلك أثنى عليه السخاوي، وأشاد به القاضي الشوكاني، ووصفه في البدر الطالع بأنه أذكى من أنجبتهم اليمن، ولد سنة ٧٥٤هـ، وتوفي سنة ٨٣٧ هـ. ينظر: مجموع القاضي أبي الذبيح إسماعيل بن أبي بكر المقرئ اليمني (ص: ٦٢)، البدر الطالع (١/ ١٤٣-١٤٥).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة (٥/ ١٩١)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ١٩٠٧).

هنا تتعجَّب من الإعلام العالمي الذي يحاول أن يوجد في النَّاس الخوف من الإسلام (الإسلام فوبيا)، والإسلام إنما يريد أن يحرِّرهم ويرحمهم، فلماذا يفرُّون من الرحمن، ويصرُّون على اتباع طريق الإجرام والاعتداء على العقل البشري بوضع الوثنيَّة والإلحاد مكان التوحيد الذي يورثهم السَّعادة والأمجاد؟!

الدَّليل الحادي عشر: الإقناع بالتَّرغيب بحسن العاقبة في المستقبل لمن يجمع الاعتقاد الصَّحيح، والعمل الصَّالح: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

أول سؤال نضعه: كيف تظهر المناسبة وجمال الاتِّصال بين هذه الآية وما قبلها؟ وكيف تظهرها الواو في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥] بأقوى أسلوب؟

الجواب: تُظهِرُ الواو في قوله: ﴿وَبَشِّرِ﴾ **المناسبة والاتِّصال بين أسلوب التَّرغيب التَّبشيريِّ في هذه الآية، وأسلوب التَّرهيب التَّهديديِّ في الآية السَّابِقَة، فالمناسبة واضحة في دوران العاطفة الإنسانيَّة بين الرَّهَب والرَّغَب، والخوف والرَّجاء**، فعندما يسمع الإنسان بالعقوبة السَّابِقَة: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾ [البقرة: ٢٤] يخاف ويرتعد ويرتجف.. ثم يفتح الله ﷻ له باب الرَّجاء الواسع المناسب، والأمل الفسيح الجاذب، فبعد أنَّ سلَّمَ العقل للأدلة المادِّيَّة السَّبعة الأولى، وتردَّد وتحيَّر، أو أخفق أمام الدَّليل التاسع: دليل التَّحدِّي.. لم يبق إلا عناد القلب، فجاءت آية التهديد لتمثِّل الدَّليل العاشر في محاصرة الفكر أمام القرآن المجيد، ثم جاءت هذه الآية الخامسة والعشرون بالتَّبشير والتَّرغيب لتفتح بابًا تخبت فيه القلوب المفتوحة، والعقول المتطلِّعة إلى الحقيقة، وهذا معنى تَسْمِيَةِ الْقُرْآنِ ﴿مَّثَانِيَ﴾ عند ابن كثير رحمه الله، «وَهُوَ أَنْ يَذْكُرَ الْإِيمَانَ،

وَيُتْبِعَهُ بِذِكْرِ الْكُفْرِ، أو عَكْسَهُ، أو حال السُّعَدَاءِ ثُمَّ الْأَشْقِيَاءِ، أَوْ عَكْسَهُ، وَحَاصِلُهُ ذِكْرُ الشَّيْءِ وَمُقَابِلِهِ، وَأَمَّا ذِكْرُ الشَّيْءِ وَنَظِيرِهِ فَذَاكَ التَّشابُه»(١).

فجُمْلَة: ﴿وَبَشِّرِ﴾ مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَجْمُوعِ الْجُمَلِ السَّابِقَة لإقناع البشريَّة بما ينفعها في اعتناق نظام العبادة الذي توحِّدُ من خلاله ربَّها، وتتحرَّر من قيود الوثنيَّة، وأغلال العبوديَّة للمخلوقات، فبعد أن رهَّبهم خاطب عاطفتهم فرغَّبهم بنعيم عظيم لا يمكن أن يُوْجِدَهُ لهم وثن معبود، أو أن تُحقِّقَهُ البشريَّة مهما اخترعت أو ابتكرت، أو تقادمت عليها العهود، وكأنه قال لهم: اعبدوا ربّكم، فهو الذي يجب أن تجعلوا أنظمة حياتكم وَفْقَ صراطه؛ لأنه ربُّكم الذي ربَّاكم، ولأنه خالقكم، ولأنه خلق من قبلكم، ولأن عبادتكم له سترتقي بكم إلى منزلة التَّقوى التي تحميكم من كلِّ المخافات.

اعبدوه لأنه الذي جعل لكم الأرض فراشًا، ولأنه الذي جعل السَّماء بناء، ولأنه الذي أنزل من السَّماء ماء، ولأنه الذي أخرج بالماء من الثَّمَرات رزقًا لكم، فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون.

واعبدوه لأنه الذي أرسل لكم عبدَه رسولًا يبلِّغكم، ولأنه لم يترك لكم ريبًا في رسالة عبدِه، فقد جاء ببرهان على رسالته ينزع كلَّ ريب، وهو القرآن الذي نزَّله الله ﷻ عليه، فأنتم لا تستطيعون أن تأتوا بسورة من مثله.

واعبدوه لأنه قد أرسل لكم رسولًا يأمركم بعبادته، ولا يمكنكم أن ترتابوا فيما نزلنا على هذا الرسول، فإن ارتبتم فأتوا بسورة من مثله، فإن لم تأتوا بسورة من مثله، فاتقوا النَّار التي أُعِدَّت للكافرين.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٣).

واعبدوه لأنَّ الرسول الذي تأكدتم من صدقه يبشِّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنَّات تجري من تحتها الأنهار.

واعبدوه لأن العابد له مؤمن به، عامل بالصَّالِحات، والمؤمن العامل بالصَّالِحات نبشِّره بجنات يخلد في نعيمها.

وكذلك يمكن أن تقول: فإن لم تأتوا بسورة من مثله ولن تأتوا فأنذرهم النَّار التي أعدَّت للكافرين، وبشِّرِ الذين آمنوا وعملوا الصَّالِحات أنَّ لهم جنَّات.

فذكر الله ﷻ هذه البشارة العظيمة التي تشوِّق النُّفوس إلى ذلك النَّعيم. اللَّهمَّ ربَّنا العلي الأعلى الملك الوهَّاب ارزقنا أعظمه وأجله، وأنت أرحم الرَّاحمين.

وهذا الوجه في العطف بَنَيْتُهُ على تدبُّري للآيات، ونظري فيما تَفَتَّقَ عنه فِكْرُ علمائنا من الزَّمخشريِّ إلى ابن عاشور رحمهم الله، فإنهم مالوا إلى العطف على أقرب شيء ذُكِرَ في الآية السَّابِقَة، ولكنك تشعر بالقرآن يخاطب العالَم مخاطبة كُلِّيَّة، وتحاصرك مخاطباته حتى لا تملك لها دفعًا، وتجد نفسك مضطرًا لأن تُسَلِّمَ بما يريد إيصالك له(١).

ستبادر إلى أن تسأل: عرفنا عطف الكلمة على الكلمة، وعطف الجملة على الجملة، فما اسم هذا النَّوع من العطف؟

الجواب: ينقل ابن عاشور رحمه الله أن السَّيِّد الْجُرْجَانِيَّ رحمه الله لَقَّبَ هذا النَّوع بعَطْفِ الْقِصَّة عَلَى الْقِصَّة؛ لِأَنَّ الْمَعْطُوفَ لَيْسَ جُمْلَةً على جُمْلَةٍ، بل طَائِفَةٌ مِنَ الْجُمَلِ على طَائِفَةٍ أُخْرَى،

(١) وبعد تقرير ما سبق تابعت ما قاله ابن عاشور في "التحرير والتنوير" (١/ ٣٥٢)، فوجدته ينقل هذا ويوهِّنه، فيقول: «وَجَوَّزَ صَاحِبُ "الْمِفْتَاحِ" أَنَّ ﴿وَبَشِّرِ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى (قُلْ) مُقَدَّرًا قَبْلَ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ﴾ [الْبَقَرَة: ٢١]، وَقَالَ الْقَزْوِينِيُّ فِي "الْإِيضَاحِ" إِنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى مُقَدَّرٍ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٤] أَيْ: فَأَنْذِرِ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَكُلُّ ذَلِكَ تَكَلُّفٌ، لَا دَاعِيَ إِلَيْهِ إِلَّا الْوُقُوفُ عِنْدَ ظَاهِرِ كَلَامِ النُّحَاةِ»، وأعجب له يوهِّن هذا القول مع أنك تراه أجمل ما يكون في تقرير الاتصال بين الآيات، على أنني لم أَمِلْ إليه وقوفًا مع ظاهر كلام النحاة، بل طلبًا لاتصال الآيات.

وَنَظِيرُهُ فِي المفردات ما قيل إِنَّ الواو الْأُولَى والواو الثَّالثة فِي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] ليستا مِثْلَ الْوَاوِ الثَّانية؛ لِأَنَّ كلَّ واحدة منهما لِإِفَادَةِ الْجَمْعِ بين الصِّفَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْنِ، وَأَمَّا الثَّانية فَلِعِطْفِ مَجْمُوعِ الصِّفَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْنِ اللَّتَيْنِ بَعْدَهَا عَلَى مَجْمُوعِ الصِّفَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَبْلَهَا، ولو اعْتُبِرَ عَطْفُ الظَّاهِرِ وَحْدَهُ على إحدى السَّابِقَتَيْنِ لم يكن هناك تَنَاسُب[1].

فلا يشترط في العطف هنا أن يكون الجميع جُمَلًا طلبيَّة أو خبريَّة، بل يكفي أنه يمكن الجمع بينهما، والعلاقة التي ارتضى هذا التَّفسير أن يسير في ظِلِّها: أن الاستئناف أو العطف تتمَّة لفكرة سابقة، إلا أنها صيغت بأسلوبٍ مغاير لزيادة التَّفَنُّنِ في الأسلوب، وتكثير المعاني المستفادة، ومحاصرة عقل المخاطب وعاطفته لِيَظْهَرَ له الحقُّ، وذلك لا ينفي ما قرَّره علماؤنا السَّابقون، بل يتَّجه لفَهْم معنى واضح ظاهر بصريح النصِّ، ويبين شِدَّة تعلُّق اللاحق بالسابق، ولكن على صورةٍ غير معتادة أحيانًا في الخطاب البشري.

فانظر كيف عطف الله ﷻ الخطاب الذي يبشِّر الناسَ بأنواعٍ من النَّعيم على ما سبق؛ عسى أن يرجع إليه الذين يفرُّون من حماه، ويرضون بالأفكار الشَّيطانيَّة عنه بديلًا.

وهنا قد تسمع بعض المعرضين يقولون: وما الجديد في النَّعيم الذي تبشروننا به؟ أليس ما نجده من مُتَعِ الحياة الدُّنيا يُعَدُّ نعيمًا كافيًا؟

الجواب: راجعوا أنفسكم، فالنَّعيم الذي يبشِّرُنا الله –جلَّ مَجدُهُ– به لا يمكنكم أن تذكروا شيئًا أمامه.. المقارنة هنا ظالمة، فقد ذكر الله ﷻ في هذا التَّرغيب المُبَشِّر أصولًا تجرف النَّفس، وتملؤها بالشَّوق العارم لِتُحَقِّقَهُ، وهي:

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٥٠).

الأصول المبشِّرات التي تضمَّنتها آية: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

الأصول المبشرات التي تضمنتها آية: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25]

1 **الأصل التبشيري الأول:**

إشاعة البشرى المحفزة للنفس المطربة للقلب، ويبصرنا بها قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

2 **الأصل التبشيري الثاني:**

استحقاق الجنات ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ والجنات جمع جنة، فهي تشكل المسكن الهانئ المريح الذي يمتلئ بالبساتين المنتشرة المجموعة المخضرة.

3 **الأصل الثالث:**

تزيين المسكن بأجمل ما يتطلع له الإنسان، ويبصرنا الله بذلك بقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، فهناك ترى المياه المتدفقة الجالبة للامتلاء والسعادة والمرح.

4 **الأصل التبشيري الرابع:**

تجدد ألوان رزق الثمرات الذي يتنافس فيه حسن المنظر ولذة الطعم والجوهر، ويبصرنا بذلك قوله ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾.

5 **الأصل التبشيري الخامس:**

إكمال متعة الحياة الجسدية والنفسية بوجود الأزواج المطهرة أي الكاملة الأوصاف في حسنهن، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾.

6 **الأصل التبشيري السادس:**

﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ والخلود يعني الديمومة، فهم آمنون من أن ينقطع نعيمهم.

الأَصْلُ التَّبشيريُّ الأوَّل: إشاعة البشرى المحفِّزة للنَّفس، المطربة للقلب، ويُبَصِّرنا بها قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [البقرة: ٢٥].

وبعد أن عرفت وظيفة الواو الرَّائعة في قوله: ﴿وَبَشِّرِ﴾، فلعلَّك تسأل: ما معنى ﴿بَشِّرِ﴾؟ وما وجه القوَّة في هذه الكلمة؟

الجواب: هذه الكلمة ﴿بَشِّرِ﴾[1] تعني الإخبار بالغائب السَّارِّ، بأن يظهر الشَّيء بعد ذلك مَعَ حُسْنٍ وَجَمَالٍ، وَالْبَشِيرُ الْحَسَنُ الْوَجْهِ، وَالْبَشَارَةُ: الْجَمَالُ. قال الْأَعْشَى[2]:

وَرَأَتْ بِأَنَّ الشَّيْبَ جَا ... نَبَهُ الْبَشَاشَةُ وَالْبَشَارَهْ

وَتَبَاشِيرُ الصُّبْحِ: أَوَائِلُهُ الجميلة، إذ المراد شوق الإنسان لرؤية حركة الحياة بعد نوم الليل. وَيُقَالُ: (بَشَرَهُ) مِنَ الْبُشْرَى، وَبَابُهُ نَصَرَ وَدَخَلَ، وَ(أَبْشَرَهُ) أَيْضًا، وَ(بَشَّرَهُ تَبْشِيرًا)، وَالِاسْمُ (الْبِشَارَةُ) بِكَسْرِ الْبَاءِ وَضَمِّهَا، وَيُقال: (بَشَرَهُ) بِالتَّخْفِيفِ (فَأَبْشَرَ إِبْشَارًا)، أَيْ: أخبره بخبرٍ سارٍّ بَسَطَ بَشْرَةَ وجهه، فسُرَّ، وذلك أنَّ النَّفْس إذا سُرَّت انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشَّجر، وَتَقُولُ: أَبْشِرْ بِخَيْرٍ، بِقَطْعِ الْأَلِفِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠]، والبشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير، فأما ما جاء مقترنًا بالشرِّ فالمراد به السُّخرية، والاستهزاء، والتَّبْكِيتِ، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

قال الرَّاغب رَحِمَهُ اللهُ: «بين هذه الألفاظ فروق، فإنَّ بَشَرْتُهُ عامٌّ، وأَبْشَرْتُه نحو: أَحْمدتُه، وبشَّرْتُه على التَّكثير، وقال عطية بن زيد الجاهليُّ:

وإذا رأيتَ الباهِشين إلى العُلى ... غُبْرًا أكفُّهُم بقاعٍ مُمْحِلِ

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (١/ ٢٥٢)، المفردات في غريب القرآن (ص: ١٢٤)، مختار الصحاح (ص: ٣٥)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ١٢٦).

(٢) ديوان الأعشى الكبير (ص: ١٥٥).

فَـأَعِنْهُمُ وابْشَـرْ بمـا بَشِـرُوا بِـهِ   وإذا هُـمُ نَـزَلُـوا بَضَـنْـكٍ فـانْـزِلِ[١]

وزاد الطَّبريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ قيدًا رائعًا في معنى البِشارة قلَّ أن تجد نظيره في كتب اللغة، فقال: أصلها الخبرُ بما يَسُرُّ به المُخْبِرُ، إذا كان سابقًا به كلَّ مُخْبِرٍ سواه[٢].

وبعد أن وجدت أن قول ربِّنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبَشِّرِ﴾ يقتضي انتشار البِشْر والفرح والسُّرور في وجهك وقلبك ونفسك بخبرٍ لا يمكن أن تسمعه إلا من الله عَزَّوَجَلَّ، تتساءل: فما أركان هذه البِشارة؟

الجواب: أركان البِشارة في هذه الآية المباركة أربعة: مُبَشِّرٌ، ومُبَشَّرٌ، ومُبَشَّرٌ به، وسبب البِشارة:

فالمبشِّر هو الله تعالى مَجدُهُ، وعلا مُلْكُه.

فإن سألت: مَنِ الْمَأْمُورُ بِقَوْلِهِ -تعالى ذِكْرُهُ- ﴿وَبَشِّرِ﴾؟

الجواب: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الله عَزَّوَجَلَّ يأمر نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن ينقل هذه البشارة، وَأَنْ يَكُونَ المأمور بنقلها كُلَّ أَحَدٍ يسمع هذا الكلام كَمَا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ القيامة»[٣]، لم يأمر بذلك واحدًا بِعَيْنِهِ، وَإِنَّمَا كُلُّ أَحَدٍ مَأْمُورٌ بِهِ، ورجَّح الرَّازيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أن الذي ينبغي أن يقوم بالتبشير هو كلُّ واحدٍ يسمع هذه البُشْريات، فقال: «وهذا الوجه أحسن وأجزل؛ لِأَنَّهُ يُؤْذِنُ بِأَنَّ هذا الأمر لِعَظَمَتِهِ وَفَخَامَتِهِ حَقِيقٌ بِأَنْ يُبَشِّرَ به كُلُّ من قدر على الْبِشَارَةِ به»[٤].

فإن قلت: قد عرفنا المبَشِّر، فمَنِ المُبشَّر؟

---

(١) نسبه إليه كذلك الجوهري في الصِّحاح (٢/ ٥٩٠)، وقال ابن بري: هما لعبد القيس بن خفاف البُرْجُمي. لسان العرب (٤/ ٦١)، ويروى البيت: (وايسِرْ بما يَسِرُوا به).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٣٨٣).

(٣) أبو داود (٥٦١)، الترمذي (٢٢٣)، وصحَّحه الألباني، وحسَّنه لغيره الأرناؤوط.

(٤) تفسير الرازي (٢/ ٣٥٧).

الجواب: المبشَّر صِنفٌ متميزٌ من النَّاس يستحقُّ التَّبشير، وهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥].

فإن سألت: ما سبب هذه البشارة؟ ولماذا استحقُّوها؟

الجواب: سبب البشارة أنهم جمعوا ركنين:

الرُّكن الأوَّل: الإيمان:

وهو القوة العقديَّة النَّظريَّة المستقرَّة في القلب، والفعل (آمن) يعني أن يكون صاحبه ذا أمنٍ من خلال الإيمان الذي يعني التَّصديق والثِّقة والاعتقاد الراسخ المطمئن، وأصله من (أَمِنَ) التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالطُّمَأْنِينَةِ والأمن والسَّلام والحماية، وقد شعر (جيفري لانج) بقوَّة هذه الكلمة ﴿ءَامَنُواْ﴾ وبضعف ترجمتها، فقال: «وترجمة: ﴿ءَامَنُواْ﴾ إلى الإنجليزية مضلِّلة إلى حدٍّ ما؛ لأنه في الوقت الحاضر غالبًا ما تُستخدم بمعنى (يحمل اعتقادًا)، أو (يقبل باقتراحٍ، أو مُسَلَّمَة على أنها صحيحة)، ولكن الكلمة العربية تحوي مضمونًا سيكلوجيًّا وعاطفيًّا أقوى؛ لأن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ١٤] تتضمَّن أكثر من مجرَّد قبولٍ لفكرة؛ فهي تتضمَّن علاقة شخصيَّة والتزامًا من قِبَلِ أولئك الذين يجدون الأمن والسَّلام والحماية في جنب الله ﷻ، والذين هم بدورهم ملتزمون إيمانيًّا به»[(١)].

الرُّكن الثاني: وعملوا الصَّالِحات:

هنا لا بدَّ أن تتدبَّرَ قوَّة هاتين الكلمتين: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فكيف صوَّرت لنا كلُّ كلمة فيهما بناء الإنسان والحياة؟

(١) حتى الملائكة تسأل (ص:٧٠).

الجواب: كلمة (عَمِلَ)(١) تعمُّ كُلَّ فِعْلٍ يُفْعَلُ، فتشمل كلَّ جهد قلبيٍّ، أو قوليٍّ، أو فعليٍّ يبذله الإنسان يهدف به إلى تحقيق شيء، ومنه سمَّت العرب ما يسند سِنَانَ الرُّمْحِ: عامل الرُّمْحِ.

وقرَّر أبو البقاء رَحِمَهُ اللَّهُ (٢) أن العمل يعمُّ أفعال القلوب والجوارح، فيشمل: عمل القلب، وعمل اللِّسان، وعمل الجوارح، ويدخل فيه: صلَّى، وصام، وزكَّى، وقام، وحجَّ، ونصح، وبذل، وتحرَّك، وأسعد، وأكرم، وأحسن... وهكذا. قال الْخَلِيلُ رَحِمَهُ اللَّهُ: عَمِلَ يَعْمَلُ عَمَلًا، فَهُوَ عَامِلٌ، وَالرَّجُلُ يَعْتَمِلُ لِنَفْسِهِ، وَيَعْمَلُ لِقَوْمٍ، وَيَسْتَعْمِلُ غَيْرَهُ، وَيُعْمِلُ رَأْيَهُ، أَوْ كَلَامَهُ، أَوْ رُمْحَهُ، قَالَ:

إِنَّ الْكَرِيمَ وَأَبِيكَ يَعْتَمِلْ ... إِنْ لَمْ يَجِدْ يَوْمًا عَلَى مَنْ يَتَّكِلْ(٣)

وأشار د/ جبل رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أن (عمل) جاء منه في القرآن الكريم نحو: (٣٥٠) مفردة بالمكرَّرات، منها نحو: (٨٠) مرَّة لأداء عمل صالح، و(١٦) مرَّة لأداء عمل سيئ، و(٢٥٠) مَرَّة لمُطْلَق العمل.

مثل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [النساء: ١٢٤]، ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء/ ١٢٣](٤).

فالراجح أنَّه عامٌّ بمعنى أنَّه صالح للتَّعبير به عن أيِّ نشاط.

فالعمل الحركة التي تصدر عن الإنسان، والنَّشاط الذي يقوم به سواء أكان ذلك من قلبه، أم من لسانه، أم من جسده، وهذه الحركة التي يقوم بها تحقِّق له أهدافه في الحياة، وهنا تأتي

---

(١) مقاييس اللغة (٤/ ١٤٥)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٨٧)، كليات الكفوي (ص: ٦١٦)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٥٢٧).

(٢) الكليات للكفوي (ص: ٦١٦).

(٣) ينظر: كتاب العين (٢/ ١٥٣)، والبيت من شواهد سيبويه، وذكر أنه لبعض الأعراب. الكتاب لسيبويه (٣/ ٨١).

(٤) المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٥٢٧).

كلمة ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لتصوِّر لنا أن حركته التي يستحقُّ عليها التَّبشير إنما هي حركته في الصَّالِحات.

والصَّالِحات: جمع صالحة، وهي الفعلة الحسنة، وضدُّها الطَّالحات والفاسدات، وهي صفة جرت مجرى الاسم، كما قال الحُطَيْئَة:

كَيْفَ الْهِجَاءُ وَمَا تَنْفَكُّ صَالِحَةٌ ... مِنْ آلِ لَأْمٍ بِظَهْرِ الْغَيْبِ تَأْتِينِي[1]

فإن سألت: كيف صارت هذه الجملة ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أقوى الجُمَل تعبيرًا عن صلاح الإنسان في الأكوان؟

الجواب: أولًا: تظهر قوَّة هذا التَّعبير في شموله لكلِّ نشاط خير يقوم به الإنسان في حياته، فكلمة ﴿عَمِلُواْ﴾ عامَّة في كلِّ نشاط، وكلمة ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عامة في كلِّ ما يُعرَف أنه صالح في الحياة، وَلبيان عمومها ترى الله ﷻ يُعرِّفها بالألف واللام ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لتستغرق كلَّ ما يمكن أن يسمَّى عملًا صالحًا ضمن العُرْف الشَّرعيِّ حسب استطاعة كلِّ فَرْد حتى يدخل فيها قوله ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ [يؤذي النَّاس]، فَأَخَذَهُ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ» وفي رواية: «فَأَمَاطَهَا رَجُلٌ فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ»[2].

ثانيًا: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تصوِّر لك المؤمنين، وهم يجعلون الإيمان منطلقًا لتغيير حياتهم وحياة غيرهم نحو الصَّالِحات، فعمل الصَّالِحات يمثِّل القوَّة العمليَّة التي تحقِّق الإيمان القلبيَّ، وتبيِّن صدق إيمان مَنْ يَدَّعي الإيمان، فبها يتحرَّك في الحياة، فيُسْعِدُ نَفْسَه، وينشر السَّعادة في العالم، فهذا التَّعبير المدهش في وصف الفائزين المُبَشَّرين بأنهم: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تكرَّر بلفظه نحو خمسين مرَّة في القرآن الكريم، ولكنه تكرَّر بصيغ متنوعة

---

(١) ديوان الحطيئة (ص: ١٨٦)، وفيه الشطر الثاني بلفظ: (إذا ذُكِرتُ) بدلًا من (من آل لأْمٍ).

(٢) البخاري (٢٤٧٢)، والزيادة عند أحمد (١٠٤٣٦)، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

تدلُّ على أحد وجوه العمل مئات المرَّات، وقد ظهر منه أن الفوز لا بدَّ فيه من الرُّكنين: من آمن، وعمل صالحًا، وليس فقط من آمن، فالإيمان فِكْرٌ واعتقادٌ مصحوب بالصدق واليقين، وهذا الإيمان يدفع الإنسان إلى أن يقول الصَّالِحات، ويفعلها في حياته.

ثالثًا: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تعني أنهم يبذلون طاقة كبيرة ليحقِّقوا الصَّالِحات، ويشعر (د.جفري لانج) بقوَّة هذا التَّعبير ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فالفعل (عمل) يعني: (أدى)، و(قام)، و(تحرَّك)، و(أنجز)، و(فعل)، و(أحدث)، و(قام بعمل)، و(صنع)، وجميع ذلك يتضمَّن بذل الجهد والطَّاقة. ومن هنا فالاسم من (عَمِلَ) هو (عَمَلٌ)، (وتجمع على أعمال)، وهذه تتضمَّن معاني مثل: (الفعل)، و(النَّشاط)، و(العمل) العامُّ، كما في الآية القُرآنِيَّة ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾ [آل عمران: ١٩٥]، والاسم (الصَّالِحات) هي جمع (الأعمال الصَّالحة)، التي تعني: «عمل قويم طيِّب»... والفِعلان (صلح) و(أصلح) يعنيان: يعيد ترتيب الأشياء (يجدِّد، يرمِّم)، و«يسوِّي أو يعزز خلافًا»، و«يعقد أو يعزِّز صلحًا»، ومن هنا يأتي الاسم (صُلح) ليعني: (سِلْم أو سَلام)، و(أَمْنٌ)، و(وِفاق)، و(توطيد)، و(تسوية)، فالعبارة القُرآنِيَّة تشير إلى أولئك الذين يواظبون بكدٍّ على إصلاح الأمور، وعلى إعادة الوِفاق، وعلى إعادة الأمن والاستقرار[(١)].

رابعًا: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تفتح أنوارُها القُرآنِيَّة الآفاقَ للنَّاس ليحرصوا على الأعمال الباقية التي يعني وجودها أن يحقِّقوا الإنجازاتِ الخالدةَ، لا الإنجازاتِ الذَّاهبةَ الفانيةَ، وهنا تعلم جمال تسميتها بالباقيات في قول ربِّنا ﷻ: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ [الكهف: ٤٦]، وقول ربِّنا تعالى مَجدُهُ: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦].

---

(١) حتى الملائكة تسأل (ص:٦٧).

فقول الله ﷻ في الآية: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ ينبئنا عن الأصل التَّبشيريِّ الأول، وهنا نسأل: فما الأَصْلُ التَّبشيريُّ الثاني؟

الجواب:

الأَصْلُ التَّبشيريُّ الثَّاني: استحقاق الجنَّات، ويُبَصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥]، **والجنَّات جمع جنَّة، فهي تشكِّل المسكن الهانئ المريح، الذي يمتلئ بالبساتين المنتشرة المجموعة المُخْضَرَّة.**

هنا لا بد أن تسأل: كيف صوَّرت لنا كلمة ﴿جَنَّـٰتٍ﴾ قوَّة الحياة المُخْضَرَّة المبهجة التي تحويها المساكن التي أعدَّها الله ﷻ للذين آمنوا وعملوا الصَّالِحات؟

الجواب: يغمرك السُّرور الوارف حين تسمع كلمة: (الجنَّات)[1] فهي مشتقَّة من كلمة (جَنَّ)، وهي كلمة تدلُّ على السَّتْر، وَالتَّسَتُّر: سَتْرُ الشَّيء عن الحاسَّة، يقال: جَنَّهُ الليل، وأَجَنَّهُ، وجَنَّ عليه، فَجَنَّهُ: ستره، وأَجَنَّه: جعل له ما يَجُنُّه، كقولك: قَبرته وأقبرته، وسقيته وأسقيته، وجَنَّ عليه كذا: سَتر عليه، قال ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ﴾ [الأنعام: ٧٦].

فالْجَنِينُ: الْوَلَدُ المستور فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وذلك فعيل في معنى مفعول، وجمعه أَجِنَّة: ﴿وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمۡۖ﴾ [النجم: ٣٢]، وَالْجَنِينُ الْمَقْبُورُ: المستور بقبره، وذلك فعيل في معنى فاعل، وَالْجَنَانُ: الْقَلْبُ المستور بالجسد، وَالْمِجَنُّ: التُّرسُ، وَكُلُّ مَا اسْتُتِرَ بِهِ مِنَ السِّلَاحِ فَهُوَ جُنَّةٌ. قال أَبُو عُبَيْدَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: السِّلَاحُ: مَا قُوتِلَ بِهِ، وَالْجُنَّةُ: مَا اتُّقِيَ بِهِ. قَالَ:

حَيْثُ تَرَى الْخَيْلَ بِالْأَبْطَالِ عَابِسَةً ... يَنْهَضْنَ بِالْهُنْدُوانِيَّاتِ وَالْجُنَنِ[2]

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (١/ ٤٢١)، المفردات للراغب (ص: ٢٠٣)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ٣٣٨).

(٢) وهو بلا نسبة في مقاييس اللغة (١/ ٤٢٢).

وَالْجِنَّةُ: الْجُنُونُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُغطِّي الْعَقْلَ، وَجَنَانُ اللَّيْلِ: سَوَادُهُ وَسَتْرُهُ الْأَشْيَاءَ. قَالَ(١):

وَلَـــوْلَا جَنَـــانُ اللَّيْـــلِ أَدْرَكَ رَكْضُـــنَا   بِـذِي الرِّمْـثِ وَالْأَرْطَـى عِيَـاضَ بْـنَ نَاشِـبِ

وسميت الجَنَّة جَنَّة لما يأتي:

أولًا: لأن المسلمين يصيرون إليها فِي الْآخِرَةِ، وَهِي ثَوَابٌ مَسْتُورٌ عَنْهُمُ في الدُّنيَا، فلا يستطيعون إدراك عظمتها، وهذا المعنى قرَّره ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة: ١٧].

ثانيًا: لأن الْجَنَّة: الْبُسْتَانُ الذي سَتره شجرُه بِوَرَقِهِ، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ﴾ [سبأ: ١٥]، والجَنَّة: الحديقة ذات الشَّجر والنَّخل والأعناب، وهي مستورة بكثافة فروع الشَّجر وكروم العنب المرفوعة، كما قال تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ [الكهف: ٣٢]، ويحيط بالجنة عادة النَّخْلُ الطِّوَالُ، فقد قال زُهَيْر:

كَــأَنَّ عَيْنَــيَّ فِــي غَرْبَــيْ مُقَتَّلَــةٍ   مِـنَ النَّوَاضِـحِ تَسْـقِي جَنَّـةً سُـحُقًا(٢)

فسمِّيت الجَنَّة بذلك؛ لأنها اشتُقَّت من الاجتنان، وهو اختفاء الشَّيء الموجود بغطاء سابغ، فهي التي تغطيها الخضرة بسبب كثافة أوراق الأشجار كالغابات المتزاحمة، والجِنان الخضراء مطمح النُّفوس البشريَّة.

قال مكيٌّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنما سميت الجنة جنة؛ لأنها تَجُنُّ مَنْ دَخلَها، أي: تستره بشجرها وثمارها وعروشها»(٣)، وقال ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّمَا سميت الْجنَّة جنَّة؛ لاستتار أرضها

---

(١) البيت لدُريد بن الصِّمَّة الجُشْمي في ديوانه (ص: ١٧٥)، وقيل لخُفَاف بن نُدبة وهو في ديوانه أيضًا (ص: ١٣٠)، و(ذو الرمث): واد لبني أسد، و(الأرطى): شجر.

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى (ص: ٧٣)، والغربان: الدلوان الضخمان، (مقتَّلة): مذللة، وهي الناقة، (النواضح): جمع ناضح، وهو البعير الذي يستقى عليه، (السُّحُق): النخلة التي ذهبت جريدها صعدًا.

(٣) الهداية الى بلوغ النهاية (١/ ٢٢١).

بأشجارها»(١)، أو لفَرْط التفافها، قال الزمخشريُّ رحمه الله: «وكأنها لتكاثفها وتظليلها سمِّيت بالجنَّة، التي هي المَرَّة من مصدر جَنَّهُ إذا ستره، كَأَنَّهَا سُتْرَةٌ وَاحِدَةٌ لِفَرْطِ الْتِفَافِهَا»(٢).

ثالثًا: لأنَّ الجنَّة اسم يجمع ما تشتهيه كلُّ نفس من النَّعيم الظَّاهر والباطن، والكلِّيِّ والتَّفصيليِّ، واسم الجنَّة بهذا غير مقتصرة على الأشجار، فقد ضرب الله عَجَّلَ مثلًا صاحب الجنتين في سورة الكهف، وأصحاب الجنة في سورة القلم، ولم يكن تسميةُ ما يملكونه من مُلكٍ كبير جنَّةً لمجرَّد اجتماع الأشجار، أو جريان الأنهار.. بل هي تعبيرٌ عما جَنَّتْهُ أشجارها من النَّعيم المُشتهى، والمُلك الاقتصادي الوافر.

ويقرِّر ابن القيِّم رحمه الله ذلك، فيقول عند ذكر أسماء الجنَّة: «الاسم الأوَّل: الجنَّة: وهو الاسم العامُّ المتناول لتلك الدَّار، وما اشتملت عليه من أنواع النَّعيم، واللَّذَّة، والبهجة، والسرور، وقرَّة الأعين.

وأصل اشتقاق هذه اللفظة من السَّتر والتَّغطية. ومنه الجنين: لاستتاره في البطن، والجانُّ: لاستتاره عن العيون، والمِجَن: لسَتره، ووقايته الوجه، والمجنون: لاستتار عقله وتواريه عنه، والجانُّ: وهي الحَيَّة الصَّغيرة الدَّقيقة، ومنه قول الشاعر:

فَـدَقَّتْ وَجَلَّـتْ واسْـبَكَرَّتْ وأُكْمِلَـتْ   فَلَـوْ جُـنَّ إنسـانٌ مـن الحُسْـنِ جُنَّـتِ(٣)

أي: لو غُطِّي وسُتِرَ عن العيون لفُعِلَ بها ذلك، ومنه سمِّي البستان جَنَّة؛ لأنَّه يستر داخله بالأشجار ويغطِّيه، فلا يستحق هذا الاسم إلَّا موضع كثير الشَّجَر مختلف الأنواع، والجُنَّة -

(١) زاد المسير (١/ ٤٥).

(٢) تفسير الكشاف (١/ ١٠٦)، ونقل ذلك أيضًا الرازي في تفسيره (٢/ ٢٥٨)، والطيبي في حاشيته (٢/ ٣٥٤).

(٣) البيت للشاعر الجاهلي الشَّنْفَري الأزدي. ينظر: المفضليات (ص: ١٠٩)، يقال: قد اسبكرَّت المرأة، اذا تمَّ شبابها.

بالضَّمِّ- ما يُسْتَجَنُّ به من تُرْسٍ أو غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾ [المجادلة: ١٦]، أي: يَتَتَرَّسُونَ بها من إنكار المؤمنين عليهم»(١).

وقال البقاعيُّ ﵀: «والجنَّات مبهجات للنُّفوس، تجمع ملاذَّ جميع حواسها، تَجُنُّ المتصرِّف فيها، أي: تخفيه، وتَجُنُّ وراء نعيمها مزيدًا دائمًا»(٢).

وقال الشيخ الشَّعراويُّ ﵀ -كأنه بنى على ما سبق في سر هذه التسمية المميزة-: «سُمِّيت الجنَّةُ جنَّةً؛ لوجود أشجار تستر ما فيها، أو تستر مَنْ فيها عن بقية الوجود؛ لأن فيها ما يكفيه من كلِّ الوجود»(٣).

وقد تتساءل: ما الحكمة في مجيء كلمة ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بلفظ الجمع؟

الجواب: لثلاثة أسباب تزيد شوقك إلى الجنَّة -اللهم اجعلنا من أصحابها-:

الأوَّل: لأن الواحد من أهل الجنَّة يتبوأ مملكة عظيمة خاصَّة به، تحوي جِنانًا كثيرة، وأخبر الله ﷻ عن اتساع ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ٢٠﴾ [الإنسان: ٢٠]، فليس له فقط جنَّة واحدة من نوعٍ محدَّدٍ من الأشجار، بل هي جِنَان متعدِّدة تحوي أنواعًا من الأشجار، وتشكيلات من البُسُطِ التي تأسر العيون بالتَّنوُّع والاخضرار، وتأخذ الأنفاس برؤيتها وجمالها ونسيمها، واسمع إلى نبيِّك ﷺ يُشَوِّقُك إلى شجرة واحدة من أشجار هذه الجنَّات، فيقول: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِئَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، وَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾ [الواقعة: ٣٠]»(٤).

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (١/ ١٩١-١٩٢).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (١/ ١٩١).

(٣) ينظر كلامه في هذا الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=cqclmleyK2M

(٤) البخاري (٤٨٨١) عن أبي هريرة ﵁، وذَكَر الآية، الظاهر أنه مرفوع، وإن ورد التصريح في ابن حبان بأن أبا هريرة ﵁ قال: "واقرؤوا إن شئتم»؛ لأنه يظلُّ محتملًا، والذي رجَّح لي الرفع، ورود ذِكرِ الآية في الحديث ذاته عن غير أبي هريرة ﵁ مثل ما

الثاني: صيغة الجمع ﴿جَنَّٰتٍ﴾ ليبين تعدُّدَ الجِنان بتعدُّدِ المُوَفَّقِين من بني الإنسان، فكلُّ واحد له جنَّتُه الخاصَّة المكوَّنة من مجموعة من الجَنَّات المتنوِّعة.

الثالث: لأن الجنَّة العامَّة تنقسم إلى جنَّات متفاوتة الرُّتَب، فقد نقل الرَّاغب رَحِمَهُ اللَّهُ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إنما قال: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بلفظ الجمع لكون الجِنان سَبْعًا: جَنة الفِردوس، وعَدْنٍ، وجَنة النَّعيم، ودار الخلد، وجَنة المأوى، ودار السَّلام، وعِلِّيِّين، فيزيدك هذا رغبة في أن تصيب أعظم هذه الجِنان، وقد قرَّب لنا نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صورة ذلك، فعن أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ البَرَاءِ -وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أَتَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ؟ وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ، فَإِنْ كَانَ فِي الجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ، اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي البُكَاءِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أُمَّ حَارِثَةَ، إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى»(١).

اللَّهمَّ إنا نسألك الفردوس الأعلى بفضلك وكرمك وجودك وإحسانك يا أرحم الرَّاحمين.

لكنك لا بد أن تتساءل: هَلْ سُمِّيَتْ دَارُ النَّعِيم جَنَّةً وَجَنَّاتٍ لِأَنَّهَا مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الْجَنَّاتِ تَسْمِيَةً لِلْكُلِّ بِاسْمِ الْبَعْضِ؟(٢).

الجواب: قد سمَّى الله عَزَّ وَجَلَّ دار النَّعيم في الآخرة بأسماء تشوِّق لها، منها: دار السَّلام، وجَنَّةُ الخلدِ، وجنَّةُ المأوى، وجنَّات الفِردوس، وجنَّات عَدْن، ودارُ الـمُقامة، والمقامُ الأمينِ، ودار

رواه الترمذي (٣٢٩٣)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن في الجنة لشجرةً، يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، وإن شئتم فاقرؤوا: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ [الواقعة: ٣٠، ٣١]».

(١) البخاري (٢٨٠٩).

(٢) تفسير المنار (١/ ١٩٤).

المتَّقين، فتسميتها بالجنات من باب تسمية الكلِّ باسم البعض، ففيها القُصُور، والدُّوْر: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف:٧١].

الأَصْلُ التَّبشيريُّ الثَّالث: تزيين المسكن بأجمل ما يتطلَّع له الإنسان، ويُبَصِّرنا الله ﷻ بذلك بقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥]، فهناك ترى المياه المتدفِّقة الجالبة للبهجة السَّعادة والمرح.

وقد تتساءل عن الجمال الذي يضيفه هذا الوصف: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ في الجنَّة؟

الجواب: أما قوله: ﴿تَجْرِى﴾ فهو من جرى[1]، والجَرْي: هو المَرُّ السَّريع، وانْسِيَاحُ الشَّيء وسيلانه بسَيرٍ خفيف متتابع. يُقال: جَرَى الْمَاءُ يَجْرِي جَرْيَةً وَجَرْيًا وَجَرَيَانًا، وأصله كمَرِّ الماء، ويقال للحوصلة: جِرِّيَّة، إمَّا لانتهاء الطَّعام إليها في جَرْيِه، أو لأنَّها مجرى الطَّعام. فالمؤمنون وهم في الجَنَّة يتلذَّذون بذلك الجري المتتابع السَّريع للماء، وهم يرونه يجري أو يتفجَّر أو تنضخ به العيون النَّضَّاخة، وقد جُبِلت النُّفوس البشريَّة على حبِّ النظر إلى الجنَّات والخضرة والماء والأنهار، حقًّا إنه لبهجة للنَّاظرين، قال تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ [النمل: ٦٠]، تبهج بخضرتها وجريان الأنهار وتفجُّر الينابيع خلالها، ولأجل ذلك ترى البشر يصنعون نوافير الماء ليستمتعوا بمنظر حركة الماء ذلك الساحر، سر الحياة العجيب، وسر البهجة الأخَّاذ.

و﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: جمع نَهْر بفتح الهاء وسكونها، والنَّهْر[2] مشتقٌّ من (نَهَرَ)، وهو أصل يدلُّ على تَفَتُّحِ شَيْءٍ أَوْ فَتْحِهِ، وَأَنْهَرْتُ الدَّمَ: فَتَحْتُهُ وَأَرْسَلْتُهُ، والنَّهْرُ: مَجْرَى الماءِ الفَائِضِ، وَسُمِّي

(١) مقاييس اللغة (١/ ٤٤٨)، المفردات في غريب القرآن (ص: ١٩٤)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ٢٩٤).

(٢) مقاييس اللغة (٥/ ٣٦٢)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٨٢٥)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ٢٢٧٢).

النَّهْرَ؛ لِأَنَّهُ يَنْهَرُ الْأَرْضَ أَيْ يَشُقُّهَا، قال تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣]، وَأَنْهَرَ الْمَاءُ: جَرَى. وَنَهْرٌ نَهِرٌ: كَثِيرُ الْمَاءِ. قال أَبُو ذُؤَيْبٍ:

أَقَامَتْ بِهِ فَابْتَنَتْ خَيْمَةً … عَلَى قَصَبٍ وَفُرَاتٍ نَهِرْ(١)

وأما كلمة ﴿تَجْرِى﴾ [البقرة: ٢٥] فتُصَوِّر لك انسياح الماء، وسيلانه بحركة خفيفة أو شديدة تتَّسم بالسُّرعة، فيُقال: جَرَى الْمَاءُ يَجْرِي جَرْيَةً وَجَرْيًا وَجَرَيَانًا، أي: مرَّ مرورًا سريعًا، وتُسمَّى السَّفِينَةُ: الْجَارِيَة، وقال ﷻ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١](٢).

فإذا كان أهل الدُّنيا في الدُّنيا ينتظرون أن ينزل من السَّماء الماء، فإن أهل الجنَّة في الآخرة يسكنون جنَّات تجري من تحتها الأنهار دون أن تنضب، فتزداد سعادتهم وراحتهم، وإذا كان أحدهم عند تَوَسُّعِه في الدُّنيا يضع له مسبحًا صغيرًا، أو يُجري له نَوَافِير، وجداول، وأنهارًا محدودة الجريان، فإنه سيرى الأنهار في الجنَّة تجري تحت جنَّاته التي تكوِّن مملكته، فهي متوفِّرة متهيئةٌ لأصحابها، عظيمة التَّدفُّق والسَّيلان، ولا سواء مع الدُّنيَا التي لا تذكر أمام ما يُشتاق له ويُنتظر كما قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأحسن الماء ما كان جَارِيًا غَيْرَ قَارٍّ؛ لِأَنَّهُ يكون بذلك جَدِيدًا كُلَّمَا اغترف منه شارب، أَوِ اغْتَسَلَ مُغْتَسِلٌ»(٣).

ولعلَّك تسأل: ما الحكمة من ذكر الجنَّات والأنهار بلفظ الجمع في الآية؟

الجواب: تأمَّل مجدَّدًا الجمع في قوله: ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لتلمح منها التعدُّد الذي يقتضي التَّنوُّع مادة وهيئة، وانتفاعًا وإمتاعًا.

---

(١) ديوان أبي ذؤيب الهذلي (ص: ٩٨)، وفيه: (وفرات النَّهَر) بدلًا من (فراتٍ نَهِر).

(٢) مقاييس اللغة (١/ ٤٤٨)، المفردات في غريب القرآن (ص: ١٩٤)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ٢٩٤).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٣٥٤).

فهذه المياه العذبة الصَّافية التي تشقُّ أخاديد محدَّدة من الجنَّة تجري من تحت هذه البساتين الممتلئة خضرة، المكسوَّة بالألبسة النَّباتية من كلِّ لون، وهنا تدرك سرَّ الجمع للجنَّات، وللأنهار في قول ربِّنا ﷻ: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة ٢٥].

فالجمع للمؤمنين، وللجنات، وللأنهار: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة ٢٥] يبصِّرك بأن دارَ الثَّواب كلَّها عبارة عن جنَّات، والأنهار الرئيسة تَشُقُّها كلَّها، ثم إنَّ لكلٍّ منهم جنَّاتِه، وأنهارَه الخاصَّةَ به، فيتلذَّذون، ويأنسون بما له في الدُّنيا يجمعون الأموال ليعيشوا قريبًا منه.

ويحدِّثنا النَّبيُّ ﷺ عن تنوُّعِ الأنهار الذي يتمتَّعون به، فعن حكيم بن معاوية عن أبيه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: إنَّ في الجَنَّة بحرَ الماء، وبحرَ العَسَل، وبحرَ اللبن، وبحرَ الخمر، ثُمَّ تُشَقَّقُ الأَنْهَارُ بَعْدُ» (١).

ويشير النَّبيُّ ﷺ إلى تنوُّعٍ أوسع، وإلى أنها أنهار لا تنضب، وكيف تنضب وهي تتفجر من عرش الرَّحمن؟ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»(٢).

وربما تتساءل: لِمَ نُكِّرَتِ الْجَنَّات، وَعُرِّفَتِ الْأَنْهَارُ؟

يجيب الرَّازيُّ رحمه الله: أَمَّا الْأَوَّلُ فَلِأَنَّ الْجَنَّةَ اسْمٌ لِدَارِ الثَّوَابِ كُلِّهَا، وَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى جَنَّاتٍ كَثِيرَةٍ مُرَتَّبَةٍ مَرَاتِبَ عَلَى حَسَبِ اسْتِحْقَاقَاتِ الْعَامِلِينَ، لِكُلِّ طَبَقَةٍ مِنْهُمْ جَنَّاتٌ مِنْ تِلْكَ

---

(١) الترمذي (٢٥٧١)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، وصحَّحه الألباني، وقال الأرناؤوط في تخريج هذا الحديث عند ابن حبان (٧٤٠٩): «رجاله ثقات، رجال مسلم، غير حكيم بن معاوية، فقد روى له أصحاب السنن، وهو صدوق، الجريري».

(٢) البخاري (٢٧٩٠).

الْجَنَّاتِ، **وَأَمَّا تَعْرِيفُ الْأَنْهَارِ** فَالْمُرَادُ بِهِ الْجِنْسُ كَمَا يُقال: لِفُلَانٍ بُسْتَانٌ فِيهِ الْمَاءُ الْجَارِي وَالتِّينُ وَالْعِنَبُ، يُشِيرُ إِلَى الْأَجْنَاسِ الَّتِي فِي عِلْمِ الْمُخَاطَبِ، أَوْ يُشَارُ بِاللَّامِ إِلَى الْأَنْهَارِ المعهودة الْمَذْكُورَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥](١).

ولكنك قد تتساءل عن كلمة ﴿مِن تَحْتِهَا﴾، ماذا تعني؟

الجواب: الضَّمير يعود إلى الجنَّات بمجموعها بما فيها من أشجار وقصور وأراض، وَالتَّحْتُ اسْمٌ لِجِهَةِ الْمَكَانِ الْأَسْفَلِ، وَهُوَ يقابل فوق، «وَلِكُلِّ مَكَانٍ عُلُوٌّ وَسُفْلٌ، وَلَا يَقْتَضِي ذَلِكَ ارْتِفَاعَ مَا أُضِيفَ إِلَيْهِ التَّحْتُ عَلَى التَّحْتِ، بَلْ غَايَةُ مَدْلُولِهِ أَنَّهُ بِجِهَةِ سُفْلِهِ، قال تعالى حِكَايَةً عَنْ فِرْعَوْنَ: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١]»(٢).

وتصوّر لك الآية: الأنهار تجري تحت أشجار جناتهم وغروسها وثمارها، فقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ صفةٌ كاشفةٌ، وليس المقصود أنها تجري تحت أرضها(٣)، ويصف مسروق بن الأجدع رَحِمَهُ اللَّهُ ذلك فيقول: «نخل الجنَّة نَضيدٌ من أصلها إلى فرعها، وثَمرُها أمثالُ القِلال، كلَّما نُزِعت ثَمرةٌ عادتْ مكانها أخرى، وماؤها يَجري في غير أخدود»(٤).

وينقل لنا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنموذجًا لنهر من هذه الأنهار، فيحدِّثنا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: «بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الجَنَّةِ، إِذَا أَنَا بِنَهَرٍ، حَافَتَاهُ قِبَابُ الدُّرِّ المُجَوَّفِ، قُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الكَوْثَرُ، الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ، فَإِذَا طِينُهُ -أَوْ طِيبُهُ- مِسْكٌ أَذْفَرُ»(٥)، وسئل رسول الله

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٥٨).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٥٥).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٣٨٤).

(٤) تفسير الطبري (١/ ٣٨٤).

(٥) البخاري (٦٥٨١).

ﷺ عن هذا النَّهر "الكوثر" فقال: «هو نَهْرٌ أَعْطَانِيهِ الله عَزَّ وَجَلَّ فِي الْجَنَّةِ، أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، فِيهِ طُيُورٌ أَعْنَاقُهَا كَأَعْنَاقِ الْجُزُرِ، قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، إِنَّها لَنَاعِمَةٌ؟! فقال رسول الله ﷺ: «أَكَلَتُهَا أَنْعَمُ مِنْهَا -قَالَهَا ثَلَاثًا- وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَأْكُلُ مِنْهَا يَا أَبَا بَكْرٍ»(١).

والجنَّة التي تجري من تحتها الأنهار يقرِّبها لك أن ترى الأشجار النَّابتة على شواطئ الأنهار الجارية، وأنزه البساتين وأكرمها منظرًا ما كانت أشجاره مُظَلِّلة، والأنهار في خلالها مُطَّرِدة.

ويصوِّر الزَّمخشريُّ رحمه الله جمال وجود الأنهار في جنَّات الأبرار، فيقول: «ولولا أن الماء الجاري من النِّعمة العظمى واللَّذَّة الكبرى، وأن الجِنان والرِّياض -وإن كانت آنق شيء وأحسنه- لا تروق النَّواظر، ولا تبهج الأنفس، ولا تجلب الأريحية والنَّشاط حتى يجرى فيها الماء، وإلا كان الأُنْسُ الأعظمُ فائتًا، والسُّرور الأوفر مفقودًا، وكانت كتماثيل لا أرواح فيها، وصُوَر لا حياة لها، لَمَا جاء الله تعالى بذكر الجنَّات مشفوعًا بذكر الأنهار الجارية من تحتها مَسُوقَين على قرن واحد كالشَّيئين لا بدَّ لأحدهما من صاحبه، ولَمَا قدَّمه على سائر نعوتها»(٢).

---

(١) أحمد (١٣٥٠)، وقال الأرناؤوط: «حديث صحيح، وهذا إسناد حسن».

(٢) الكشاف (١/ ١٠٦).

الأَصْلُ التَّبشيريُّ الرابع: تجدُّد ألوان رزق الثَّمرات الذي يتنافس فيه حسن المنظر، ولذَّة الطَّعم والجوهر، ويُبَصِّرنا بذلك قوله ﷻ: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ﴾ [البقرة: ٢٥].

وربَّما تتساءل: ما الحكمة من ذكر رزق الثَّمَرات بعد ذكر الجنَّات والأنهار؟

الجواب: لأن قَوْلَهُ: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ﴾ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ جاءت في موضعها بعد ذكر الجنات والأنهار، فلما سمع الناس ذكر الجنَّات والأنهار تساءلوا: هل هذه الجنَّات فيها أشجار مثمرة، وما أنواع الثِّمار التي توجد فيها، فشوَّقك الله ﷻ لذلك، فقال: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ﴾ [البقرة: ٢٥].

وهنا تتفاجأ بهذا التَّعبير المثير: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ﴾ [البقرة: ٢٥]، فلمْ يبدأ بذكر طعامهم، ولمْ يقل: ويرزقون فيها ثمرات يأكلونها، وكلَّما رزقوا منها من ثمرة قالوا، بل انتقل مباشرة إلى قوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ﴾، فلماذا ذكر حالهم عند تغيُّر نوع الثِّمار، ولم يذكر ابتداء أنَّهم يرزقون الثِّمار؟

الجواب: لأنَّ رزقهم من أنواع الثِّمار الطَّيِّبة المتنوعة مسألة مقطوعة مفروغ منها، فقد حدَّثهم أن ذلك من أدلَّة الإيمان به في الدُّنيا، حيث قال: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢٢].

وأما في الجنَّة، فالثمار تَحُفُّ بهم، وأطايب الطعام دانية منهم، ولكن الله ﷻ يحدِّثنا هنا عن نعيم في هذه الثمار لا يمكن تصوُّرُ مِثلِه في الدُّنيا، فيقول: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ﴾ [البقرة: ٢٥].

فإن قلت: هذه الجملة العجيبة تصف نوعًا جديدًا من النَّعيم المنتظر –اللهم أذقنا حلاوته من غير سابقة حساب– فماذا تصف هذه الجملة؟ وما البصيرة التي تَحْبُونا بها الكلمات الآتية: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: ٢٥]؟

الجواب: إنها تصف تجدُّدَ التَّفكُّهِ بالطَّعام مع تشابُهِهِ في الحُسْنِ منظرًا ومخبرًا.

﴿كُلَّمَآ﴾: كلمة تأمين كامل لتجدُّدِ الحُسْنِ، وعدم نزول الطعام عن أعلى درجات الجودة زمانًا ومكانًا:

فـ(كلما) من صيغ العموم، فهي ظَرْفُ زمَان ومكان لِأَن (كلَّا) أُضِيفَتْ إِلَى (مَا) الظَّرْفِيَّةِ الْمَصْدَرِيَّةِ، فَصَارَتْ لِاسْتِغْرَاقِ الْأَزْمَانِ، فهي تصوِّر لك التَّكَرُّرَ والاعتياد في الأوقات والأمكنة بصورة دائمة، فهي منصوبة على الظَّرفية باتفاق، وَقَدْ أُشْرِبَتْ مَعْنَى الشَّرْطِ، وناصبها الفعل الذى هو جواب في المعنى مثل (قالُوا)[1]، والتَّقْدير: قالوا: كلَّما رزقوا، ولكن الله ﷻ قدَّم ﴿كُلَّمَآ﴾؛ ليبيِّنَ تَكَرُّرَ ذلك منهم على تعدُّد الأوقات والأماكن التي يرزقون فيها.

﴿رُزِقُواْ﴾: تصوِّر لك تَكَرُّرَ التَّلذُّذ والانتفاع؛ لأن الرِّزْق هو الكلمة الجامعة التي تعبِّر عن أعظم أوجه الانتفاع بالثَّمَرات:

فيطلق الرِّزْق على كلِّ عطاء يُنتفع به، فهو ما يسدُّ احتياجاتِ الإنسان وضروراتِه، ويلتذُّ فيه بحياته مهما يكن نوع العطاء الذي رُزِقَهُ، والمقصود بالرِّزْق هنا رزق الغذاء للتَّفكُّهِ.

ولاحظ معي الفعل ﴿رُزِقُواْ﴾ جاء على صيغة ما لم يُسمَّ فاعله؛ لِيُصَوِّرَ لنا كلَّ الطرق المحتملة لمجيء هذا الرِّزْق، فقد يأتي بنفسه بتسخير الله له، وقد يأتي به الولدان الطَّائفون على أهل الجنَّة، وقد يأتي به غيرهم.

---

(١) مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب (١/ ٢٠١)، وانظر: التحرير والتنوير (١/ ٣٥٦).

﴿مِنۡهَا﴾: كَلِمَةُ ﴿مِنْ﴾ لِلِابْتِدَاءِ وبيان الجنس، والضَّمير يعود إلى الجنَّات، فتصوِّر لك أن رزقهم الذي ينتفعون به ويتلذَّذون إنما هو من هذه الجنَّات لا من أيِّ مصدر آخر، وهذا يعني تحقُّقَ الكمال في هذا الرِّزْق، فذكر مصدر الرِّزْق وهو الجنَّات يحميهم من أن يكون المصدر مثل أرزاق الدُّنيا.

﴿مِن ثَمَرَةٍ رِّزۡقًا﴾: ﴿مِن﴾ هنا لِلتَّبْعِيضِ، أَيْ: كُلَّمَا رُزِقُوا مِنَ الْجَنَّاتِ بعض رِزْقٍ مِنْ بَعْضِ ثمارها، وتصوِّر **لك تخصيص الرِّزْق الذي يعطونه بالثَّمَرات التي تُجتنى رزقًا، أي: عطاء واصلًا لهم.**

﴿قَالُواْ﴾: تبصِّرنا هذه الكلمة بأن شعورهم بالاستمتاع والتَّلَذُّذِ يدفعهم دفعًا للتَّكلُّمِ في كلِّ مرَّة، وهذا يدلُّ على أنهم عندما يرزقون من الثِّمار الطَّيبات والمأكولات الشَّهيات يشعرون بتلذُّذٍ لا ملل فيه.

﴿قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُ﴾ [البقرة: ٢٥]: تبصِّرنا بشعورهم بأنَّ اللَّذَّة الجديدة ليست أقل من اللَّذة التي استُقبِلوا بها عند دخول الجنَّة، والعادة أن الضَّيف النَّزيل يُسْتَقبل بأجمل استقبال في الطَّعام والشَّراب وأنواع ما يُسْتَمتع به، وهاهم هنا يُظهرون أنهم لا يلمسون فرقًا بين السَّابق واللَّاحق من حيث اللَّذَّةُ، والجودةُ في المنظر والجوهر.

﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾: تبصِّرنا بأن السَّبَب في قولهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُ﴾ أنه جيء لهم بهذه الثِّمار متشابهة لما سبقها في قوَّة الالتذاذ، وجمال المناظر، وحلاوة الطَّعم.

وقد تتساءل أكثر عن قوله: ﴿قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]: هل يتضمَّن معانيَ متعدِّدة توضِّح تميُّزَ ثمارِ الجنَّة عن الدُّنيا؟

الجواب: إمَّا أن يكون قولهم هذا تساؤلًا واستخبارًا، وإمَّا أن يكون إخبارًا، ويسبغ عليك هذا القول منهم عِدَّة معانٍ:

المعنى الأول: **أنهم قالوا ذلك لشِدَّة التَّشابُه في الحُسْن بين السَّابق واللَّاحق في حُسْن المَنْظر والمَخْبر على أنه ليس هو**، فيريدون أن يعرفوا أيهما كان ألذَّ في الطَّعم، وأجمل في النَّظر، حاولوا فلم يستطيعوا؛ لأنهم أُتوا به متشابهًا في حُسْنِه مع اختلافه في طعمه وهيئته، فصار كلُّه حسنًا، واسمع إلى قتادة والحسن ﷺ يبينان ذلك فيقولان: «هو كلُّه خِيارٌ، لا رَذْلَ فيه»(١)، وهذا التَّفسير منهما من ألطف أنواع التَّفسير، فالتَّشابُه في الحُسْن حتى يحتار المرء أيها أفضل مع اختلافها شكلًا وطعمًا.

وأقرب شيء نفهم من خلاله معنى قوله تعالى: ﴿قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]، ما ذكره الله تبارك وتعالى عن كتابه، فقال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]، فكما أن التشابه هنا معناه الاتفاق في كونه في أعلى درجات الكلام، وأنه يحمل عظمة المتكلِّم به، فكذلك التشابه في ثمار الجنة، ليس في الطعم ولا في الشكل وإنما في الحسن واللَّذة التي يُحْدِثُها في آكله مع تشابه غير أكيد في صفة من الصفات مع ما سبق أن أُكرموا به، ويزداد الذهول إذا كان فيه ما يشبه ما سبق أَنْ أُعطوه، فيظل في كلِّ ثمرة من ثمرات الجنة تجدد بشكل دائم، فلا يمل نعيمها ولا يسأم ثمرها.

وينبغي ألا نغفل عن قوله تعالى: ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾، فكلامهم عن الاتفاق والتشابه في الحسن: هو في كلِّ ثمرة مما عرفوه من ثمر الدنيا أو من ثمر الجنة.

كلما سيق إليهم تفاح مثلًا، أو أي ثمرة مما ذاقوه في الجنة أو ذاقوه في الدنيا، أو ذاقوه في الدنيا وفي الجنة، نظروا إلى شكله ولونه ومنظره وحجمه، فلاحظوا أن هناك تجدُّدًا في كلِّ تلك الصفات، فإذا طعموه، لاحظوا أن الطعم قد تجدَّد أيضًا، فقالوا عنه: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾جزمًا من بعضٍ على معنى أن اسمه تفاح، وتساؤلًا من بعضٍ، وتعجُّبًا من بعضٍ.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٨٦).

وأتوا في كلِّ مرَّة بأطعمتهم في أعلى درجات الحُسْن واللَّذة، وبما لا يكاد يتناهى في الحُسْن واللَّذة واللون والطعم، فيتفكَّهون بالحديث عنه وعن عجائبه، كما نفعل في الدنيا إذا طعمنا شيئًا مميزًا.

المعنى الثاني: أنهم يشبِّهونه على ما كان في الدُّنيَا فإن يشتهوا شيئًا طلبوه، فيقولون: هذا الذي رُزِقنا من قبل في الدُّنيَا، ثم يجدون فرقًا عظيمًا في جمال طعم الرِّزْق الأخرويِّ ولذَّتِهِ، وهنا يظهر معنى تفسير ابن مسعود ﵁ وناس من أصحاب النَّبيِّ ﷺ، قالوا: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾: إنهم أُتُوا بالثمرة في الجنة، فلما نظروا إليها قالوا: هذا الذي رزقنا من قبلُ في الدُّنيَا[١]، وليس المراد الشَّبه الكلِّيَّ لما في الدُّنيَا؛ فقد قال ابن عبَّاس ﵄ موقوفًا: «ليس في الجنَّة شيءٌ يُشْبِهُ ما في الدُّنيَا إلا الأسماء»[٢]، وسبب التَّشابُه في الأسماء تقريب نعيم الجنَّة للإنسان ليشتاق، ولذا قالوا: «ما لا يُدْرَك بالذَّوق لا يَعْظُمُ إليه الشَّوق[٣]»[٤].

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٨٦).

(٢) الزهد لهناد بن السري الكوفي (ص:٥٠)، وانظر: السلسلة الصحيحة (٢١٨٨).

(٣) هذه العبارة ذكرها الغزالي في إحياء علوم الدين (٣/ ٩٩).

(٤) وذهب الزَّمخشريُّ ﵀ مذهبًا بعيدًا، وأعجب ما فيه حلاوة كلامه في بيان الوجه الذي ذهب إليه، فقد ذهب إلى أنهم يرزقون من الثمار مثل الذي كان في الدُّنيَا مع ظهور مزية لثمار الجنة في طعمها وحجمها، وهذا هو القول الذي أشرت إليه، لكنه تجاوز ذلك إلى نفي ظهور ثمار من أنواع جديدة، ثم مضى يزين هذا القول بالتعليل، فقال (١/ ١٠٨): فإن قلت: لأي غرض يتشابه ثمر الدُّنيَا وثمر الجنة؟ وما بال ثمر الجنة لم يكن أجناسًا أخر؟ قلت: لأنَّ الإنسان بالمألوف آنس، وإلى المعهود أميل، وإذا رأى ما لم يألفه نفر عنه طبعه وعافته نفسه، ولأنه إذا ظفر بشيء من جنس ما سلف له به عهد وتقدَّم له معه أَلِفَ، ورأى فيه مزية ظاهرة، وفضيلة بينة، وتفاوتًا بينه وبين ما عَهِدَ بليغًا، أفرط ابتهاجُه واغتباطُه، وطال استعجابُه واستغرابُه، وتبيَّنَ كُنْهَ النعمة فيه، وتحقَّق مقدار الغِبطة به. ولو كان جنسًا لم يعهده وإن كان فائقًا، حسب أنَّ ذلك الجنس لا يكون إلا كذلك، فلا يتبين موقع النعمة حَقَّ التبيُّنِ. فحين أبصروا الرُّمانة من رمان الدُّنيَا ومبلغها في الحجم، وأن الكبرى لا تفضل عن حدِّ البطيخة الصَّغيرة، ثم يبصرون رمَّانة الجنة تشبع السَّكْن [أهل البيت]. والنَّبِقة [ثمر السِّدر] من نَبِق الدُّنيَا في حجم الفَلْكَة، ثم يرون نَبِقَ الجنة كقِلال هَجَر، كما رأوا ظل الشجرة من شجر الدُّنيَا وقدر امتداده، ثم يرون الشجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا

وتعقَّب رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ هذا التفسير بأن التَّعبير بـ " كُلَّمَا " يُنَافِيه؛ لِأَنَّ الِاشْتِبَاهَ إِنَّمَا يكون فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى، ثُمَّ يَعْرِفُونَ التَّفَاوُتَ مَعْرِفَةً تَذْهَبُ بِهِ وَتَمْنَعُ مِنَ الْحُكْمِ بِأَنَّ هذا عين ذاك، أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِأَفْرَادِ النَّوعِ الْوَاحِدِ مِنَ الثِّمَارِ فَبِالِاخْتِيَارِ، وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِمَا بَعْدَ النَّوعِ الْأَوَّلِ مِنَ الْأَنْوَاعِ فَبِالْقِيَاسِ عَلَيْهِ[(١)]، ثم إن اللذة في التَّنوُّع والتنقل، فكيف يقال: يشبه طعام الدُّنيَا في كلِّ مرة.

فعن الْمُغِيرَة بْن شُعْبَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُخْبِرُ النَّاسَ عَلَى الْمِنْبَرِ عن حديث نعيم أعلى أهل الجنة منزلة، قال الله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»، قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: «﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] الْآيَةَ»[(٢)].

يقطعه، كان ذلك أبين للفضل، وأظهر للمزية، وأجلب للسرور، وأزيد في التعجب من أن يفاجئوا ذلك الرمان وذلك النبق من غير عهد سابق بجنسهما».

وأنا لا أجادل في احتمال أن يجد المرء من الثمار ما يشبه ثمار الدُّنيَا مع ظهور المزية في الحجم واللون والطعم، ولكن من أين لنا أنه لا يوجد غير ذلك، وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]، وفي البخاري (٣٢٤٤) قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قال الله: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾». ألا يكون كمال اللذة رؤية فواكه جديدة لم ترها العين في الدُّنيَا؟ ألا ترى مقدار ابتهاجك إن وجدت ثمرة لذيذة في أرض غير أرضك؟ فما أدري ما الذي جرَّ الزَّمخشريّ رَحِمَهُ اللَّهُ لكلِّ هذا؟ من أجل ذلك قدمت في معنى هذه الجملة ما قدمته أعلاه.

(١) تفسير المنار (١/ ١٩٤).

(٢) مسلم (١٨٩).

وقد عمَّم النَّبيُّ ﷺ هذا المعنى في جميع أهل الجنَّة مما يدلُّ على تفاوتهم فيه، فقال: «قال اللهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَؤوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]»(١).

المعنى الثالث: أن هذا الرِّزق يتجدَّد مع شِدَّة التَّشابُه في منظره ومذاقه، فيظنُّه الواحد منهم أنه عين الذي أكله وذاقه من قبل، فيقول: هذا الذي رُزِقنا من ثمار الجنة من قبل هذا، فهذا معنى ثالث صحيح لقولهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ وذلك لشدَّة مشابهة بعض ذلك في اللَّون والطَّعم بعضًا، وأظهر هذا المعنى أبو عُبيدة معمر بن المثنَّى رحمه الله، فقال: نخل الجنَّة نضيد من أصلها إلى فرعها، وثمرُها مثل القِلال، كلما نُزعت منها ثمرةٌ عادتْ مكانها أخرى(٢)، ومعنى ذلك أن جمال المنظر وحُسْن لذَّة الجوهر لا تتفاوت في الصِّنف الواحد، ولا في الأصناف المتعدِّدة، ولعل هذا قول ابن عاشور رحمه الله: «أَنْ تَأْتِيَهُمْ فِي صُوَرِ مَا قُدِّمَ إِلَيْهِمِ فِي الْمَرَّةِ السَّابِقَةِ»(٣).

ولكنه رحمه الله رأى أن المعنى الأظهر من السِّيَاق: «أَنَّ ثِمَارَ الْجَنَّةِ مُتَّحِدَةُ الصُّورَة، مُخْتَلِفَةُ الطُّعُومِ، وَوَجْهُ ذَلِكَ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ اخْتِلَافَ الْأَشْكَالِ فِي الدُّنْيَا نَشَأَ مِنِ اخْتِلَافِ الْأَمْزِجَةِ وَالتَّرَاكِيبِ، فَأَمَّا مَوْجُودَاتُ الْآخِرَةِ فَإِنَّهَا عَنَاصِرُ الْأَشْيَاءِ، فَلَا يَعْتَوِرُهَا الشَّكْلُ، وَإِنَّمَا يَجِيءُ فِي شَكْلٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الشَّكْلُ الْعُنْصُرِيُّ. وَيَحْتَمِلُ أَنَّ فِي ذَلِكَ تَعْجِيبًا لَهُمْ، وَالشَّيْءُ الْعَجِيبُ لَذِيذُ الْوَقْعِ عِنْدَ النُّفُوسِ، وَلِذَلِكَ يَرْغَبُ النَّاسُ فِي مُشَاهَدَةِ الْعَجَائِبِ وَالنَّوَادِر»(٤).

---

(١) البخاري (٣٢٤٤).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٣٨٩).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٣٥٦).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٣٥٦).

وهذا قول لا أراه صحيحًا.. فانظر: أليس تعدُّد الأشكال أكثر إعجابًا وإمتاعًا وإيناسًا وتفكُّهًا؟ ولماذا لا نقول: المراد بقولهم إثبات التَّماثل في جودة مظهرها وجوهرها وريحها لدرجة عدم القدرة على تمييز أيُّها أشهى وألذُّ، إلى حدٍّ جعلهم يقولون: هذا الذي رُزقنا من قبل.

وبذا يمكن أن تكون بعض ثِمَار الْجَنَّةِ مُتَّحِدَة الصُّورَة مُخْتَلِفَةُ الطُّعُومِ، وبعضها متَّحدة الطُّعوم مختلفة الصُّورَة، وبعضها مختلفة الطُّعوم مختلفة الصُّورَة، وكلها متشابهة في حسن لذَّتها، ومتشابهة في جمال مظهرها، ولذا قال ابن عاشور رحمه الله: «وَقَوْلُهُ: وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ظَاهِرٌ فِي أَنَّ التَّشابُه بَيْنَ الْمَأْتِيِّ بِهِ لَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ثِمَارِ الدُّنيا»[١]، وهذا كلامٌ متين مبين، وكلُّ ذلك عند ابن عاشور رحمه الله: «يَحْتَمِلُ أَنَّ فِي ذَلِكَ تَعْجِيبًا لَهُمْ، وَالشَّيء الْعَجِيبُ لَذِيذُ الْوَقْعِ عِنْدَ النُّفُوسِ، وَلِذَلِكَ يَرْغَبُ النَّاسُ فِي مُشَاهَدَةِ الْعَجَائِبِ وَالنَّوَادِرِ»[٢]، «فربَّما كان في هذا التَّشابُه الظَّاهريِّ، والتَّنوُّع الدَّاخليِّ مزيَّة المفاجأة في كلِّ مرة، وذلك كلُّه يرسم جوًّا من الدُّعابة الحلوة، والرِّضى السَّابغ، والتفكُّه الجميل، بتقديم المفاجأة بعد المفاجأة، وفي كلِّ مرة ينكشف التَّشابُه الظَّاهريُّ عن شيء جديد! وهذا التَّشابُه في الشَّكل، والتَّنوُّع في المزيَّة، سمة واضحة في صنعة البارئ تعالى، تجعل الوجود أكبر في حقيقته من مَظْهره».

لاحظ الآن كيف بشَّرهم في النهاية بشيء يقابل ما أقامه عليهم من حُجج في البداية، ففي البداية أخبرهم أنه أنزل من السَّماء ماء، وهنا يخبرهم أنَّ الأنهار ستجري من تحت جنَّاتهم.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٥٧).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٥٦).

الأَصْلُ التَّبشيريُّ الخامس: إكمال متعة الحياة الجَسديَّة والنَّفسيَّة بوجود الأزواج المطهَّرة، أي: الكاملة الأوصاف في حسنهن، ويُبَصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ [البقرة: ٢٥].

هنا ستتساءل: فما محلُّ قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ [البقرة: ٢٥] من النَّعيم الذي ينتظره المؤمنون الذين يعملون الصَّالِحات؟

الجواب: هذا النَّعيم له مذاقه الخاصُّ، فبعد نعيم الثَّمَرات التي يُرزَقها أهل الجنَّة، يأتي نعيم تسكن فيه الرُّوح الإنسانيَّة جسديًّا ونفسيًّا بوجود الأزواج المُبَرَّآتِ من كلِّ دنسٍ جسديٍّ ومعنويٍّ.

وحتى تتضح الصُّورَة، فلا بدَّ أنك مشتاق لتعرف معنى كلمة: ﴿أَزۡوَٰجٞ﴾ لغة، وكيف جاءت في موضعها في الآية؟

الجواب: كلمة: (زَوَجَ) تدُلُّ عَلَى مُقَارَنَةِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ، فالزَّوْج - بالفتح: الفَرْد الذي له قَرين، ومِنْ ذَلِكَ أُطْلِق الزَّوجُ على امرأة الرَّجل كما يقال قرينته: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا﴾ [النساء: ٢٠]، وعلى الرَّجل ذي المرأة كما هو قرينها: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

وَقَدْ يُقال لِلْأُنْثَى زَوْجَةٌ بِالتَّاءِ، وَوَرَدَ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رضي الله عنه: «إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهَا زَوْجَتُهُ فِي الدُّنيَا وَالْآخِرَةِ» يَعْنِي: عَائِشَةَ رضي الله عنها(١)، وَقال الْفَرَزْدَقُ:

وَإِنَّ الَّذِي يَسْعَى لِيُفْسِدَ زَوْجَتِي ... كَسَاعٍ إِلَى أُسْدِ الشَّرى يَسْتَبِيلُها(٢)

---

(١) البخاري (٣٧٧٢).

(٢) ديوان الفرزدق (ص: ٤١٧) وفيه: (فإنَّ امرًا يَسعَى يُخَبِّبُ زَوْجَتِي ... كساعٍ إِلَى أُسْدِ الشَّرَى يستَبِيلُها) أي: يأخذُ بَوْلَها فِي يَده.

وجمع الزَّوج: أَزْوَاجٌ [١].

فالمراد بقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾: أي: لهم في الجنَّات قرينات من الإناث اللَّواتي يكون بينهن وبين الرِّجال تكامُلٌ جسديٌّ ونفسيٌّ حتى تلزمه لزوم العدد لمثيله في الأعداد الزَّوجيَّة، فإن العدد الزَّوجيَّ إذا افترق عن مثيله صار فرديًا، وخرج عن نطاق الزَّوجيَّة.

وقد تقول: لماذا ذكر الله ﷻ هذا النَّعيم الرَّائع هنا؟

الجواب: لأن بعض المحرِّفين ظنُّوا أنه لا توجد متعة ماديَّة جسديَّة في جنَّات الآخرة، وأن المتعة كلَّها روحيَّة.

ولتتمَّ السَّعادة الحياتيَّة، فيجد المرء مع زوجه أجمل المتعة النَّفسيَّة والجَسديَّة، ولذا قال الحَرَالِّيُّ (ت٦٣٧هـ): «والزَّوج ما لا يَكْمُل المقصود من الشَّيء إلا معه على نحوٍ من الاشتراك والتَّعاون»[٢].

ويشوِّق النَّبيُّ ﷺ إلى الأزواج المطهَّرة في الجنَّة، فيقول: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمِ الْمُؤْمِنُ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[٣].

وستسأل هنا: لماذا وصف الله ﷻ الأزواج بقوله: ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥]؟

الجواب: ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ مشتقة من كلمة (طَهَرَ)، وتدُلُّ عَلَى نَقَاءٍ وَزَوَالِ دَنَسٍ، وَمِنْ ذَلِكَ الطُّهْرُ، خِلَافُ الدَّنَسِ.

---

(١) مقاييس اللغة (٣/ ٣٥)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٣٨٤)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ٨٧٨)، التحرير والتنوير (١/ ٣٥٧).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ١٩٦).

(٣) البخاري (٣٢٤٣)، مسلم (٢٨٣٨)، واللفظ له.

يقال: طَهُرَتِ المرأةُ طُهْرًا وطَهَارَةً، وطَهَرَتْ، وَالتَّطَهُّرُ: التَّنَزُّهُ عَنِ الذَّمِّ وَكُلِّ قَبِيحٍ، وَفُلَانٌ طَاهِرُ الثِّيَابِ، إِذَا لَمْ يُدَنَّسْ. قَالَ:

ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ   وَأَوْجُهُهُمْ عِنْدَ الْمَسَافِرِ غُرَّانُ(١)

فوصف الله ﷻ الأزواج بأنهن مطهَّرة؛ ليصوِّر لنا أنَّهنَّ وصلن إلى أعلى درجات الحُسْن:

فهن قد طُهِّرن من النَّقص في الخِلْقة، والنَّقص في الخُلُق، والنَّقص في تفاصيل الجمال والكمال.

وطُهِّرن من النَّجاسة الحِسِّيَّة، والنَّجاسة المعنويَّة، ومن الأذى الحِسِّيِّ، والأذى المعنويِّ، فأزال الله ﷻ عنهنَّ كلَّ أذًى وقذًى وريبةٍ مما يكون في نساء الدُّنيا، مما يزعجهن ويُرْبِكُ حياتَهن من الحيض والنِّفاس، والغائط والبول، والمخاط، والبُصاق، والمنيِّ، وما أشبه ذلك من الأذى، والأدناس، والرِّيَب، والمكاره(٢)، فاسمع إلى بيان النَّبيِّ ﷺ شيئًا من هذا النَّقاء العظيم الذي يُزَيِّن نساء أهل الجنَّة فقال: «لَرَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ غَدْوَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، أَوْ مَوْضِعُ قِيدٍ -يَعْنِي سَوْطَهُ- خَيْرٌ مِنَ الدُّنيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ لأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنيَا وَمَا فِيهَا»(٣)، ووصف النَّبيُّ ﷺ ذلك النَّعيم العريض فقال: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلَا يَمْتَخِطُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ. آنِيَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ، أَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَمَجَامِرُهُمُ

---

(١) مقاييس اللغة (٣/ ٤٢٨)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٢٥)، والبيت لامرئ القيس في ديوانه (ص: ٨٣)، وفيه (بيض المشاهد غُرَّانُ) بدلًا من (عند المَسَافر غُرَّانُ)، ومَسافر الوجه: ما يظهر منه، (غُرَّان): جمع أغر، وهو الأبيض.

(٢) تفسير الطبري (١/ ٣٩٥).

(٣) البخاري (٢٧٩٦)، والقاب والقيد: القَدْر.

الأَلُوَّةُ-عُودُ الطِّيبِ- وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»(١).

وهنا ينبغي أن نلتفت إلى معنى بليغ، فلعل لفظة ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ تشعر بأن المراد بالأزواج هنا نساء الدُّنيَا لا الحور العِين، وذلك لأنَّ هذه الكلمة تشعر بأن الله ﷻ طهَّرهنَّ من شيء كان عندهنَّ، فلم يقل: طاهرات أو طاهرة، بل مطهَّرة، وبينهما فرقٌ ظاهرٌ.

ولا بد أن قوله جلَّ ذِكْرُه: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥] يدعوك إلى التَّساؤل: للمؤمنين أزواج من الإناث مطهَّرات من كلِّ نقص أو عيب، فماذا عنهم هم: كيف يكون حالهم؟ ألا يكونون مطهَّرين عن كلِّ نقص وعيب؟

يشفيك في **الجواب** هنا الإمام الرَّازيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيبيِّن أن التَّطهير يشمل كلَّ زوج بالنِّسبة لزوجه، فكما أن النِّساء مُطهَّرات لأزواجهن، فالرِّجال مُطهَّرون لهن، ولذا تسمعه يقول: «أَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥] فَالْمُرَادُ طَهَارَةُ أَبْدَانِهِنَّ مِنَ الْحَيْضِ وَالِاسْتِحَاضَةِ وَجَمِيعِ الْأَقْذَارِ، وَطَهَارَةُ أَزْوَاجِهِنَّ مِنْ جَمِيعِ الْخِصَالِ الذَّمِيمَةِ، وَلَا سِيَّمَا مَا يَخْتَصُّ بِالنِّسَاءِ»(٢).

ويظهر لي أنَّ الله ﷻ كما ذكر تطهير المرأة عن الرَّذائل والعيب والنَّقص، فقد ذكر تطييب الرَّجل لها بكلِّ ما يُحبُّ، ويُستملَح، ويُستحسن من الخصال الجَسديَّة والنَّفسيَّة في مواضع أخرى، كما في قوله تعالى مَجدُهُ في الطِّيب من جميع الصِّفَات الخارجيَّة والدَّاخليَّة: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٢].

---

(١) البخاري (٣٢٤٥).

(٢) تفسير الرازي (٢/ ٣٥٩).

وقوله في الجمال الخارجيّ زينةً: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ [الإنسان: ٢١].

وقوله في الجمال الدَّاخليّ تطهيرًا: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

ويذكر ذلك لنا عليٌّ رضي الله عنه، فيقول في قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣] قَالَ: «سِيقُوا حَتَّى إِذَا انْتَهَوْا إِلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَجَدُوا عِنْدَ بَابِهَا شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ سَاقِهَا عَيْنَانِ، فَغُمِسُوا فِي إِحْدَاهُمَا كَأَنَّمَا أُمِرُوا بِهَا، فَاطَّهَّرُوا مِنْهَا فَجَرَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةُ النَّعِيمِ، فَلَنْ تُغَبَّرَ أَبْشَارُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَبَدًا، وَلَنْ تَشْعَثَ أَشْعَارُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَبَدًا، كَأَنَّمَا دُهِنُوا بِالدِّهَانِ، ثُمَّ غُمِسُوا فِي الْأُخْرَى كَأَنَّمَا أُمِرُوا بِهَا، فَشَرِبُوا مِنْهَا فَأَذْهَبَتْ مَا كَانَ فِي بُطُونِهِمْ مِنْ أَذًى وَقَذًى، وَتَلَقَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى أَبْوَابِ الْجَنَّةِ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، ثُمَّ أَتَاهُمْ خَزَنَةُ الْجَنَّةِ يَسْتَقْبِلُونَهُمْ أَنْ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]»(١).

والتَّطهير هنا جعل الرَّازيَّ رحمه الله يلفت الأنظار إلى ثلاث لفتات يغفل عنها الإنسان:

أَحَدُهَا: أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا حَاضَتْ فَاللهُ تَعَالَى مَنَعَكَ عَنْ مُبَاشَرَتِهَا، قال اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢] فَإِذَا مَنَعَكَ عَنْ مُقَارَبَتِهَا لِمَا عَلَيْهَا مِنَ النَّجاسة الَّتِي هِيَ مَعْذُورَةٌ فِيهَا، فَإِذَا كَانَتِ الْأَزْوَاجُ اللَّوَاتِي فِي الْجَنَّةِ مُطَهَّرَاتٍ، فَلَأَنْ يَمْنَعَكَ عَنْهُنَّ حَالَ كَوْنِكَ مُلَوَّثًا بِنَجَاسَاتِ الْمَعَاصِي مَعَ أَنَّكَ غَيْرُ مَعْذُورٍ فِيهَا كَانَ أَوْلَى.

---

(١) أخرجه الحسين المروزي في زوائده على الزهد والرقائق لابن المبارك (١٤٥٠)، مصنف ابن أبي شيبة (٣٥١٣٨)، وأخرجه الضياء في المختارة (٥٤٢)، وقال ابن حجر في "المطالب العالية" (١٨/ ٦٤٩): «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ، وَحُكْمُهُ حُكْمُ الْمَرْفُوعِ، إِذْ لَا مَجَالَ لِلرَّأْيِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ».

وَثَانِيهَا: أَنَّ مَنْ قَضَى شَهْوَتَهُ مِنَ الْحَلَالِ فَإِنَّهُ يُمْنَعُ الدُّخُولَ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ، فَمَنْ قَضَى شَهْوَتَهُ مِنَ الْحَرَامِ كَيْفَ يُمَكَّنُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ الَّتِي لَا يَسْكُنُهَا إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ آدَمَ عليه السلام لَمَّا أَتَى بِالزَّلَّةِ أُخْرِجَ مِنْهَا.

وَثَالِثُهَا: مَنْ كَانَ عَلَى ثَوْبِهِ ذَرَّةٌ مِنَ النَّجاسة لَا تَصِحُّ صَلَاتُهُ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ رحمه الله، فَمَنْ كَانَ عَلَى قَلْبِهِ مِنْ نَجَاسَاتِ الْمَعَاصِي أعظم من الدُّنيا كيف تُقْبل صلاته؟![1].

فهذا نعيم الجنَّة العظيم متنوع الأفنان، عظيم الهيئة؛ فيتضمَّن الأكل والشُّرب وجميع الاحتياجات الجسديَّة، عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ، وَلَا يَتْفُلُونَ، وَلَا يَبُولُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَلَا يَمْتَخِطُونَ» قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟ قَالَ: «جُشَاءٌ، وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ، كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ»[2].

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٥٩).

(٢) مسلم (٢٨٣٥).

الأَصْلُ التَّبشيريُّ السادس: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥]، والخلود يعني الديمومة، فهم آمنون من أن ينقطع نعيمهم:

﴿وَهُمْ﴾: تصوِّرُ لك هذه الكلمة الذين آمنوا وعملوا الصَّالِحات الذين أكرمهم الله ﷻ بالجَنات.

﴿فِيهَآ﴾: تصوِّرُ لك هذه الكلمة الجَنَّات مجدَّدًا، و﴿في﴾ ظرفيَّة مكانيَّة، فكأنَّ الجنَّة تحيط بهم إحاطة الظَّرف بالمظروف.

﴿خَٰلِدُونَ﴾: تصوِّرُ لك الدَّيمومة الكاملة لنعيمهم.

وستسأل: ما معنى كلمة ﴿خَٰلِدُونَ﴾؟

الجواب: كلمة ﴿خالدين﴾ من خَلَدَ[1]، وهي كلمة تدلُّ على الثَّبات والملازمة والبقاء، والفِعْلُ: خَلَدَ يَخْلُد وَأَخْلَدَ، والخوالد: الأثافيُّ في مواضعها، والخوالد: الجبال، والحجارة، والصُّخور لطول بقائها بعد دروس الأطلال أَيْضًا، وَمِنْهُ جَنَّةُ الْخُلْدِ، ومثلها الخُلُود لبقائها وبقاء أهلها. قال ابْنُ أَحْمَرَ:

خَلَدَ الْحَبِيبُ وَبَادَ حَاضِرُهُ … إِلَّا مَنَازِلَ كُلُّهَا قَفْرُ[2]

فالخلود يصفه الرَّاغب رَحِمَهُ اللهُ بأنه: «تَبَرِّي الشَّيء من اعتراض الفساد، وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، وكلُّ ما يتباطأ عنه التَّغيير والفساد تَصِفُهُ العرب بالخلود، كقولهم للأثافيِّ: خوالد؛ وذلك لطول مكثها، لا لدوام بقائها، والخُلْد اسم للجزء الذي يبقى من الإنسان على حالته، فلا يستحيل ما دام الإنسان حيًّا استحالة سائر أجزائه، وَيَقُولُونَ رَجُلٌ مُخْلَدٌ وَمُخْلِدٌ،

(١) مقاييس اللغة (٢/ ٢٠٧)، المفردات في غريب القرآن (ص: ١٥٤)، تاج العروس (٨/ ٦١).

(٢) البيت منسوب له في مقاييس اللغة (٢/ ٢٠٧)، الإبانة في اللغة العربية (٣/ ٣٠).

إِذَا أَبْطَأَ عَنْهُ الْمَشِيبُ؛ لِأَنَّ الشَّبَابَ قَدْ لَازَمَهُ وَلَازَمَ هُوَ الشَّبَابَ[(١)]، ومن ذلك قول امرئ القيس -ولم أرَهم ذكروه أو احتفوا به-:

ألا عِمْ صَبَاحًا أيّهَا الطَّلَلُ البَالي ... وَهل يَعِمنْ مَن كان في العُصُرِ الخالي

وَهَل يَعِمَنْ إلا سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ ... قليل الهُموم ما يَبيتُ بأوجالِ

وَهَل يَعِمَنْ مَن كان أحدثُ عَهدِهِ ... ثَلاثِينَ شهرًا في ثَلاثَةِ أحوَالِ[(٢)]

والخلود بمعنى طول البقاء، والثَّبات، والملازمة لحالة الحياة القويَّة، يرهبها المرء إن كانت خلود سوء، ويرغب فيها إن كانت خلود هناء.

هذا الأصل التَّبشيريّ العظيم يضع سؤالًا: لماذا كان ختم الله ﷻ هذه الأصول التَّبشيريَّة به؟

الجواب: نجيب عن السُّؤال بسؤال: ما الشَّيء الذي يُنَغِّصُ كلَّ نعيمٍ مهما التذَّ به الإنسان؟ إنه الانقطاع، فكلُّ نعيمٍ منغصٌ بالتغير والانتقال، كما قال أبو الطَّيِّب:

كأنّ الحُزْنَ مَشْغُوفٌ بقلبي ... فَساعَةَ هَجرِها يَجِدُ الوِصالا

كَذا الدُّنيا على مَن كانَ قَبْلي ... صُروفٌ لم يُدِمْنَ عَلَيْهِ حَالا

أَشَدُّ الغَمِّ عِنْدي في سُرورٍ ... تَيَقَّنَ عَنهُ صاحِبُهُ انْتِقالا[(٣)]

فبيَّنَ الله تعالى أنَّهم في الجنَّة خالدون فليطمئنوا إلى الإقامة الدَّائمة، وعدم الحِوَل والتَّنقل.

---

(١) العين (٤/ ٢٣١)، تهذيب اللغة (٧/ ١٢٤)، مقاييس اللغة (٢/ ٢٠٧)، المفردات في غريب القرآن (ص: ١٥٤).

(٢) ديوان امرئ القيس (ص ١٣٥). (الطلل): ما شَخَصَ من آثار الديار. (أوجال): الأمور الموجبة للوجل وتوقُّع المصائب. (أحدث عهده): أقرب عهده بالنَّعيم.

(٣) ديوان المتنبي (ص:١٤٠).

﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: تأمين لأهل الجنَّة من أنَّ ألوان النَّعيم السَّابِقَة لن تَقِلَّ، أو تَفْنى، أو تنقطع، أو تتغيِّر، فلن تتغيَّر أحوالهم، أو تبلى مسرَّاتهم، أو يتقادم نعيمهم، أو يعتريهم الملل من عيشهم.

ومن دعاء النَّبيِّ ﷺ: «وأسألك نعيمًا لا يبيد، وأسألك قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تنفد ولا تَنْقَطِعُ»(١)، وسئل النَّبيُّ ﷺ عن الجنَّة: ما بناؤها؟ قال: «لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَمِلَاطُهَا الْمِسْكُ الأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرْبَتُهَا الزَّعْفَرَانُ مَنْ دَخَلَهَا يَنْعَمُ وَلَا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ وَلَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُمْ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُمْ»(٢).

وهذا الأصل السَّادس من أصول النَّعيم المنتظر هو أعظمها، وإلا فكلُّ نعيم يزول هو وهمٌ كبير، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧﴾ [الشُّعراء: ٢٠٥-٢٠٧].

وهنا نستذكر أنَّ الرَّشيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بنى قصرًا زَيَّنَهُ، واستدعى أبا العتاهية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال له: صِفْ لي ما نحن فيه من العيش، فأنشأ يقول:

عِشْ ما بَدا لك سَالِمًا ... في ظِلِّ شاهِقَة القُصُورْ
يُسعى عليك بما اشتهيتَ ... لدى الرَّواح وفي البُّكُورْ
فإذا النُّفُوسُ تَقَعْقَعَتْ ... في ضيقِ حَشْرَجَةِ الصُّدُورْ

(١) المستدرك (١٩٢٣)، وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (ص: ٣٧٩): «أخرجه النَّسَائيّ فِي الْيَوْم وَاللَّيْلَة، وَالْحَاكِم من حَدِيث عبد الله بن مَسْعُود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ...وَقَالَ: صَحِيح الْإِسْنَاد، وَالنَّسَائِيُّ من حَدِيث عمار بن يَاسر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بِإِسْنَاد جيد».

(٢) الترمذي (٢٥٢٦)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ لَيْسَ إِسْنَادُهُ بِذَاكَ القَوِيِّ، وَلَيْسَ هُوَ عِنْدِي بِمُتَّصِلٍ» وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الحَدِيثُ بِإِسْنَادٍ آخَرَ عَنْ أَبِي مُدِلَّةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ».

فهناك تعلمُ موقِنًا ... ما كنتَ إلا في غُرورْ[1]

فبكى الرَّشيد رحمه الله فقال له الوزير: دعاك أمير المؤمنين لتَسُرَّه فأحزنته؟ فقال الرَّشيد رحمه الله: دعه فإنه رآنا في عمى، فكَرِهَ أن يزيدنا عَمًى.

وقد قال الأسود بن يَعْفُر:

ماذا أؤمِّلُ بعدَ آل مُحَرِّقٍ ... تركوا منازلَهم، وبَعْدَ إيادِ
أهلُ الخَوَرْنَق والسَّديرِ وبارقٍ ... والقصرِ ذي الشُّرُفاتِ من سِنْدَادِ
نزلوا بأنْقِرةٍ يسيلُ عليهمُ ... ماءُ الفُرَاتِ يجيءُ من أَطْوادِ
أرضٌ تخيَّرَها لطِيبِ مَقِيلِها ... كعبُ بن مَامَةَ وابنُ أمِّ دُؤَادِ
جَرَتِ الرياحُ على مَحلِّ ديارهم ... فكأنهم كانوا على مِيعادِ
فإذا النَّعيم وكلُّ ما يُلهى به ... يومًا يصير إلى بِلًى ونَفَادِ[2]

ولقد بكى المعتمد بن عَبَّاد بعد أن كان يرفل في النَّعيم لما انقطع عنه ذلك، فقال:

فيما مضى كنتَ بالأعياد مسرورًا ... فساءك العيدُ في أَغْماتَ مأسورا
ترى بناتِك في الأطمارِ جائعةً ... يَغْزِلن للنَّاس لا يملكن قِطْميرا
بَرَزْنَ نحوك للتَّسليم خاشعةً ... أبصارهُنَّ حَسِيراتٍ مَكَاسيرا
يَطَأْنَ في الطِّينِ والأقدامُ حافيةٌ ... كأنَّها لم تَطَأْ مِسْكًا وكافورا
مَنْ باتَ بعدَكَ في مُلكٍ يُسَرُّ به ... فإنَّما باتَ بالأحلامِ مَغْرُورا[3]

وهنا تعرف نعيم: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ **فقد أَمِنوا الانقطاع، فشعروا بالرَّاحة في اللَّذَّة والمتاع.**

---

(١) ينظر: البداية والنهاية (١٠/ ٢١٨).

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص: ١٦)، و(أنقرة) هنا جمع نقير مثل أرغفة ورغيف يراد به الحفرة.

(٣) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٤/ ٢٧٣، ٢٧٤).

فإن سألت: ما الجامع بين هذه الأصول التَّبشيريَّة السِّتَّة التي أظهرت هذا النَّعيم العظيم للجنَّات؟

الجواب: بيَّن الرَّازيُّ[1] رَحِمَهُ اللَّهُ مقدار الجاذبيَّة العظيمة التي أبانتها الأصول التَّبشيريَّة الكبرى في الآية المباركة، ولنتكئ على ما قرَّر رَحِمَهُ اللَّهُ لنزيده بهجة:

فمَجَامِعُ اللَّذَّاتِ، والكُلِّيَّات التي تجلب كمال السَّعادة والسُّرور، والملك العظيم:

إِمَّا الأخبار التي تَسُرُّ، فتنبسط بها الأسارير، ويشرق لها الوجه، وهذا هو الأصل التَّبشيريُّ الأوَّل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥].

وإمَّا الْمَسْكَنُ الهنيء، وهذا هو الأصل التَّبشيريُّ الثَّاني: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ﴾.

وإمَّا الزِّينة المكمِّلة للمسكن الهنيء، وهذا هو الأصل التَّبشيريُّ الثَّالث: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾.

وإمَّا الْمَطْعَمُ الْمُسْتَلَذُّ الذي لا ينقص حُسْنُه مهما امتدَّ الزَّمان، وهذا هو الأصل التَّبشيريُّ الرَّابع: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا﴾.

وإمَّا الزَّوجة الكاملة الأوصاف في حُسْنِها التي تكمِّل حياة الرَّجُل، ويكمِّل حياتها محبَّة ولذَّة واستمتاعًا، وهذا هو الأصل التَّبشيريّ الخامس: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾.

وإمَّا الأمن من انقطاع أيِّ متعة من تلك الْمُتَع الخمس السَّابِقَة، وهذا هو الأصل التَّبشيريُّ السَّادس: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٥٦).

الدليل الثاني عشر:

دليل صغار المخلوقات، ويبصِّرُنا بذلك قول الله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾ [البقرة: 26].

المشهد الأول:

قوة الدليل الثاني عشر في إيجاب أن يَعْبُدَ الإنسانُ اللهَ رب العالمين.

المشهد الثاني:

هدى الكتاب حسب استقبال الألباب.

الفريق الأول:

المؤمنون، وهم أعظم الناس فكرًا؛ إذ يهديهم فكْرُهم إلى الإيمان والتسليم، ويُبَصِّرُنا بهم قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 26].

الفريق الثاني:

الكفار الذين يغطُّون الحقَ والحقائق بالتشويش والإعلام المضلِّل: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ﴾ [البقرة: 26].

الدليل الثَّاني عشر: دليل صِغار المخلوقات، ويُبَصِّرنا بذلك قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]، فالذي خلقكم وخلق صغار المخلوقات التي لا تستطيعون خلقها، أفلا يستحقُّ أن تعبدوه بدلًا من أن تعبدوها، أو تعبدوا أنفسكم، أو ما تصنعونه من أوثان؟

المناسبة والاتِّصال:

ستبادر إلى السُّؤَال: ما وجه قوَّة هذا الدَّليل وعظمته؟ وما الحكمة من بدء هذا الدَّليل بهذا التَّعبير اللَّافت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]؟

الجواب: انظر الآن إلى جمال الاتِّصال القرآني لتأخذك روعة الإحساس بالمحاورة المباشرة المحاصِرة.. فبعد أن استكمل أدلَّة الحياة الثَّمانية، وهي الأدلة المادِّيَّة السَّبعة، ودليل المآل، ثم جاء بدليل التَّحدِّي العقليِّ ليكون الدَّليل التَّاسع، ثم حاصر العاطفة بالإقناع بالتَّرهيب، والتَّرغيب- عاد مجدَّدًا للإقناع بالمادِّيَّات، ولكن في جهاتٍ أخرى بديعة لا تعبأ بها النَّفْس الإنسانيَّة الغافلة أو المتكبِّرة: إنه يذكر الآن بعض أصغر المخلوقات المشاهَدة، فيقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦].

وفي هذا الدَّليل المشاهد الآتية:

المشهد الأول: قوة الدَّليل الثاني عشر في إيجاب أن يَعْبُدَ الإنسانُ اللهَ رب العالمين.

المشهد الثاني: هدى الكتاب حسب استقبال الألباب.

المشهد الأول: قوّة الدَّليل الثَّاني عشر في إيجاب أن يَعْبُدَ الإنسانُ اللهَ ربَّ العالمين، وفيه البصائر الآتية:

بصيرة [١]: إقناع مستمرٌّ: فبدأت الآية بأسلوب استئنافيٍّ دون أدوات صلةٍ أو عطفٍ، فقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]؛ ليبصِّرك بالانتقال من الأساليب الإقناعيَّة السَّابِقة إلى دليلٍ مدهشٍ جديد، كأنه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]؛ لأنَّه ربُّكم الذي خلقكم وخلق من قبلكم، ويجب أن تعبدوه لعلكم تتَّقون، ولأنه جعل لكم الأرض فراشًا، والسَّماء بناء، وأنزل من السَّماء ماء فأخرج به من الثَّمرات رزقًا لكم، ولأنه نزَّل عليكم كتابًا لا يمكن أن تأتوا بسورة من مثله، ولتتقوا عقوبته في الآخرة، ولتستمتعوا بجنَّات الخلد، واعبدوه لأنه خلق صغار المخلوقات مثل البعوضة، وعلى صغرها فإنكم لا تستطيعون خلق مثلها.

فإن قلتم: وهل خَلْقُ البعوضة يعدُّ آية تدلُّ على عبادته؟ نجيبكم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ [البقرة: ٢٦]، فجاءت ﴿إِنَّ﴾ التأكيدية لتنبِّئك أن هناك مَنْ يُنْكِر ضرب المثل بالبعوضة، فإذا بالإجابة تعاكسه، وتؤكِّد أن ضَرْب المثل بالبعوضة منهجٌ إلهيٌّ، فلا يستحيي الله ﷻ منه، وينبغي لكم أنتم أن تستحيوا من عدم إدراك الأسرار العظيمة وراء مثل هذا النَّوع من الأمثال.

نعم! إنها البعوضة.. فكما تدلُّ السَّمَوات والأرض على ألوهيته والإيمان به ترشدك صغار المخلوقات، وكلُّ ذرَّةٍ في الكون إلى عظمته وإبداع صنعه، وواحديته.. تقودك إلى نعيم الإيمان به.

وأنت بصيرٌ -أيَّدك الله- أن المناسبة بهذا التقرير باتت واضحة، وأن الكلام الإلهيَّ -تعالت عظمة قائله- متناسق جدًّا، حيث جعل البعوضة دليلًا جديدًا من أدلَّة الوحدانيَّة، لتمثِّل صغار المخلوقات مقابل كبارها التي ذكرت من قبل وسيعود ذكرها بعد قليل ولكن من جهةٍ أخرى، وهذا التناسق المتين المحكم يعفي القارئ من التكلُّفات والنَّصَب الشَّديد الذي عاناه مفسرونا لإثبات بلاغة كلامٍ ورد فيه ذكر البعوض، ولإثبات اتِّصال ما ذكر من سبب النزول في مكَّة بهذه الآية المدنيَّة، ولقد أضنى ابن عاشور رحمه الله نَفْسه لبيان تفصيل ذلك فأتى ببديعٍ من القول، وأفانين من الكلام لكنه لم يُصِبِ المَحَزَّ، ولا رمى كَبِدَ الحقيقة مع أنه رامها، وأظنه كان سيُسَدَّدُ على عادته رحمه الله لو رجع إلى منهج الاتِّصال ومدَّه هنا، دون أن يبقى أسيرًا لاتِّصال آية بآية، بل لاتِّصال الآيات بموضوعها العامِّ.

فالبداية تنبئك بالارتباط بما سبق على صورة مشوِّقة.

> **بصيرة [٢]: العلم مصدر القوَّة، والجهل يوجب الخجل، ويُبَصِّرنا بذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾** [البقرة: ٢٦]، **فضرب الأمثال أسلوبٌ قرآنيٌّ لا يُستحيا منه، بل يجب على السَّاخرين أن يستحيوا من أنفسهم عندما لا يُسَلِّمون بقوَّة هذا التَّمثيل، أو لا يدركون سِرَّه.**

ولا بدَّ أن تتساءل في البداية عن هذا الوصف الإلهيِّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ [البقرة: ٢٦] ما معناه؟

الجواب: لا يستحيي أن يضرب بها مثلًا؛ لأنَّها على صغرها لا تستطيعون أن تخلقوا مثلها.

وَمَعْنَى الْآيَةِ عند ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَسْتَحْيِي، أَيْ: لَا يَسْتَنْكِفُ، وَقِيلَ: لَا يَخْشَى أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا، أَيْ: أَيَّ مَثَلٍ كَانَ، بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ، صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا[١].

فالمعنى واضحٌ، قويٌّ، مدهشٌ، أخَّاذ للنَّفْس والعقل: أن يَذْكُرَ الله عَزَّ وَجَلَّ البعوضة للإنسان؛ إذ يظهر عجزه أمام ضخامة أجهزتها التي ركَّبها الله عَزَّ وَجَلَّ فيها على ضآلة حجمها.

يذكر الله عَزَّ وَجَلَّ أنواعًا من الأدلَّة ليُقْنِعُ البشريَّة بأنه ربُّهم الذي يجب عليهم أن يُقيموا نظام حياتهم وَفْقَ عبادته، ويُصَرِّف الله لهم الأمثال في ذلك، فكما ذكر خَلْقهم وخَلْق من قبلهم، وكما ذكر أنه جعل الأرض فراشًا والسَّماء بناء يلفت نظرهم إلى أنَّ أصغر ذرَّاتِ الكون إنما وُجِدَ بصُنْعه وخلقه.

هل ذِكْرُ الذَّرَّاتِ الصَّغيرة لا يقنع؟

فلماذا وجدت هذه الطَّاقة الهائلة المدمِّرة من انفجار ذريٍّ؟!

فذِكْرُ البعوضة لا يقتضي ضَعْفًا في الدَّليل، أو طعنًا في عظمة الله الجليل.

يَؤُزُّ الشَّيطان القُوَى العاتيةَ المستكبرةَ لتحاول التَّشويش على قوَّة هذا الجمال الذي يفيض من الأنوار القُرآنِيَّة، ومن هذه الأنوار أن يضرب الله جَلَّ جَلَالُهُ الأمثال في الصَّغير والكبير من المخلوقات؛ وذلك لتقريب المعلومات، وإظهار الحقائق النَّيِّرات التي حَجَبَ الإنسانَ عنها حِجابُ الغفلة؛ إذ كلُّ مخلوق يحمل آياتٍ تدلُّ عليه، وترشد إليه، وتُبَرْهِنُ على واحديته، وتبيِّن حاجة خلقه إلى نظام العبادة الاختياريِّ، كاحتياجهم إلى النِّظام الجَبْري الذي جُبِلت عليه أجهزتهم المخلوقة.

ولكنك قد تسأل: ما معنى هذه الكلمة في ذاتها ﴿يَسْتَحِۦٓ﴾؟

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٧).

الجواب: كلمة ﴿يَسْتَحْيِۦٓ﴾[١] مأخوذة من: حَيِيَ منه حياءً، فهو حَيِيٌّ عَلَى فَعِيلٍ.

والحياءُ صفة تبعث على الكفِّ عن فعل شيء، فقد يكون باعثها الكرم والفضل، وقد يكون باعثها الخجل الذي هو الانقباض بالامتلاء بالغضاضة والطَّراءة والحسِّ المرهف المتمثِّل في سرعة التأثُّر، ويُقال: اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ وَاسْتَحْيَيْتُهُ، وَفِيهِ لُغَتَانِ: إِحْدَاهُمَا لُغَةُ الْحِجَازِ وَبِهَا جَاءَ الْقُرْآنُ بِيَاءَيْنِ، وَالثَّانية: لِتَمِيمِ بِيَاءٍ وَاحِدَةٍ.

وقد تسأل: هل الحياء صفة ضعف أم صفة كمال؟

الجواب: كما ترى فإن الحياء إذا كان كفًّا عن الشَّيء بسبب الكرم والفضل فهو ممدوح، ويمكن أن يوصف به الله -جلَّ مَجدُهُ-، ويرى الرَّاغب رَحِمَهُ اللهُ أنَّ الحياء انقباض النَّفْس عن القبائح وتَرْكُها، فوصْف الله عَزَّ وَجَلَّ بأنه حييٌّ، أي: تارك للقبائح، فاعل للمحاسن[٢]، ومن هنا وجدنا النَّبيَّ ﷺ يَصِف ربَّنا بالحياء في قوله: «إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ، أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا»[٣].

وأمَّا إذا كان باعثه الخجل فهو صفة مدح وذمٍّ بحسب سياقها، وتناسب المخلوقين، فيكون كَمالًا لَلنَّفس، خِلَافًا لِأُولِي الْوَقَاحَةِ الَّذِينَ يَعُدُّونَهُ ضَعْفًا وَنَقْصًا، وَإِنَّمَا النَّقْصُ الْإِفْرَاطُ فِي هَذِهِ الصِّفة، بِحَيْثُ تَضْعُفُ عَنِ الْإِقْدَامِ عَلَى الشَّيءِ الْحَسَنِ النَّافِعِ اتِّقَاءً لِذَمِّ مَنْ لَا يَعْرِفُ حُسْنَهُ أَوْ لَا يَعْتَرِفُ بِهِ[٤].

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٦٨)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (١/ ١٦٠)، تاج العروس (٣٧/ ٥٠٦)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ٣٥٧).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ١٤٠).

(٣) الترمذي (٣٥٥٦)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، أبو داود (١٤٨٨)، واللفظ له، وجوَّد ابن حجر إسنادَه. فتح الباري (١١/ ١٤٣).

(٤) تفسير المنار (١/ ١٩٧).

والعامَّة تصف الحَيِيَّ بأنه عنده دم، وأنه حسَّاسٌ، ومن توقَّح بأنه فاقد الدَّم والإحساس، ويقال لمن عانَى خجلًا: أراق ماءَ وجهه، قال الشاعر:

عســـــاها تنجلـــــي وخـــــلاك ذمٌّ ... ومـــاء الوجـــه في الوَجَنـــات جـــمٌّ

وهذا التَّعريف الخاصُّ بالمخلوقين يناسب ما قرَّره الزَّمخشريّ رحمه الله من أن الحياء «تغيُّرٌ وانكسار يعتري الإنسان من تخوُّف ما يعاب به ويُذمُّ، واشتقاقه من الحياة، يقال: حَيِيَ الرجل، كما يقال: نَسِيَ، وحَشِيَ، وشَظِيَ الفرس، إذا اعتلَّت هذه الأعضاء»[١].. جعل الحياء لما يعتريه من الانكسار والتغيُّر، منتكس القوَّة منتقص الحياة[٢].

وبناء على هذا الفهم لمعنى الحياء يصحُّ وصف الله سبحانه وتعالى بالحياء، ويكون من أجمل الوصف وأكمله.

وبذا يكون لقول ربِّنا عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦] معنيان:

الأول: أوَّل بعضهم هذا الفعل ﴿يَسْتَحْيِۦٓ﴾ بالخشية[٣] أي: لا يخشى، فقد نقل الطَّبريُّ رحمه الله هذا المعنى عن بعض العرب، ولكن طريقته في النَّقل تدلُّ على أنه لم يرضه، ولم يحقِّق المعنى في الوقت ذاته، ويمكن أن نقول: لا يمنعه مانع الخشية من لوم الجاهلين، ولا يترك من أن يَضْرب المثل بالبعوض لحقارتها في أعين الناس؛ لأنه ضَرْبُ مثلٍ في موضعه، والجُهَّال لا يعرفون المعنى فينكرونه، وكان ينبغي أن يصيبهم الحياء بسبب ذلك.

---

(١) قال السَّمين الحلبي رحمه الله في توضيح كلام الزَّمخشريّ: «نَسِيَ، وَحشِيَ، وشَظِيَ» أي: أصيب نَساه وهو عِرْقٌ، وحَشاهُ وهو ما احتوى عليه البطن، وشَظاه وهو عَظْم في الوَرِك. الدر المصون (١/ ٢٢٢).

(٢) الكشاف (١/ ١١١).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٤٠١).

الثاني: لـمَّا ذكر الله ﷻ التَّحدِّي بالقرآن، وحاصر العاطفة بذكر الجنَّة والنَّار، مَالَ بعضهم نحو القرآن رغبًا ورهبًا.. حتى إذا رأى كبار صُنَّاع القرار من مستكبري القوى المجرمة والمنافقة انجذاب النَّاس نحو القرآن.. أعيتهم الحيلة في كيفية التصرُّف أمام هذا الانجذاب.. فربَّما تذكروا أن الله –تعالى عِزُّه– ذكر ضمن القرآن أمثلةً تتعلَّق بالحشرات كالعنكبوت: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١]، والذُّباب ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣]، فظنُّوها فرصةً سانحةً للتَّشويش والطَّعن على القرآن، فقاموا يشوِّشون، ويحاولون تغطية الحقَّ الواضح، وكان من تشويشهم أنْ قالوا: أَمَا يستحيي ربُّ محمَّد أن يَضْرب مثلًا بالذُّباب والعنكبوت؟ يقولون: ما الحكمة؟ لماذا يمثِّل الله ﷻ بشيء حقير في أعينهم كالذُّباب والعنكبوت؟ عندها ردَّ الله تعالى عليهم فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦].

فجاءت الآية على سبيل المقابلة وإطباق **الجواب** على السُّؤَال: وهو فنٌّ من كلامهم بديع، وطراز عجيب، منه قول أبي تمَّام:

مَــنْ مُبلِــغٌ أَفنــاءَ يَعْــرُبَ كُلَّهــا ... أَنِّـي بَنَيْـتُ الجَـارَ قَبْـلَ الـمَنْزِلِ؟[1]

فالذي سوَّغ بناء الجار مراعاة المشاكلة، ولولا بناء الدَّار لم يصحَّ بناءُ الجار، قال الزَّمخشريُّ رحمه الله: «ولله درُّ أمر التَّنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشُعَبها»[2]، فصفات المجد الإلهيِّ لا تعني أن يحجب الله ﷻ علمه عن العباد لمجرَّد استكبار الغافلين وتضييعهم لعقولهم، فهو –سبحانه– لا يستحيي أن يضرب لهم ما تزكو به عقولُهم، وترتقي به نفوسُهم

(١) ديوان أبي تمام الطائي (ص:٢٣٧)، وفيه (من مبلغ أبناءَ) بدلًا من (أفناء)، وفيه أيضًا (أني ابتنيت) بدلًا من (أني بنيت).

(٢) الكشاف (١/ ١١٣).

وترتفع به أرواحُهم، وإن لم يعلموا بادي الرأي حقيقته، فالمراد بالصِّفة هنا الأثر المترتِّبُ على وجودها[١]، وهو ترك الفعل الذي يترتَّبُ على الاستحياء منه، فبيَّن الله ﷻ أنه لا يترك لهم ما يتجمَّلون به لمجرَّد جهلهم.

بصيرة [٣]: ضرب الأمثال مصدر لسعة الإدراك والتَّفكير والخيال، ويُبَصِّرنا بذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]، فالتَّمثيل بالبعوضة فما فوقها يُنَمِّي العقل، ويزكِّي الرُّوح، ويوسِّع آفاق التَّفكير، ويلفت النَّظر إلى استكشاف البيئة التي تحيط بنا.

فمعنى قوله: ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾: أن يبيِّن ويَصِف، كما قال جلَّ ثناؤه: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]، بمعنى وصف لكم، وكما قال الكُمَيْت:

وَذَلِكَ ضَرْبُ أَخْمَاسٍ أُرِيدَتْ ... لأَسْدَاسٍ، عَسَى أَنْ لا تَكُونَا[٢]

بمعنى: وصف أخماس[٣].

والبيان والوصف يقتضيان جعل شيء مصوَّرًا أمامك، أو تشبيهه بصورةٍ واضحة في ذهنك لتقيسه بها، فيتمُّ البيان على أحسن وجه، وهذا هو ضرب الأمثال، ولذا فَالضَّرْبُ هنا مُسْتَعْمَلٌ مَجَازًا فِي الْوَضْعِ وَالْجَعْلِ مِنْ قَوْلِهِمْ: ضَرَبَ خَيْمَةً، وَضَرَبَ بَيْتًا كما قال الْفَرَزْدَق:

ضَرَبَتْ عَلَيْكَ الْعَنْكَبُوتُ بِنَسْجِهَا ... وَقَضَى عَلَيْكَ بِهِ الْكِتَابُ الْمُنْزَلُ[٤]

---

(١) مال الرازي ؒ في تفسيره (٢/ ٣٦١) إلى تقرير كيفية التعامل مع هذه الصفة وأمثالها، وهنا تتعجب من الفرق المتشاغبة! إذ مع نوعٍ من خفض الجناح ستجد أن الرَّازيَّ ؒ يصل إلى النتيجة ذاتها التي وصل إليها الزَّمخشريُّ ؒ، وهو المؤدَّى ذاته الذي يميل إليه أهل الحديث هنا.

(٢) ديوان الكُمَيت بن زيد الأسدي (ص:٤٢٧).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٤٠٣).

(٤) ديوان الفرزدق (ص:٤٩٠).

أَيْ جَعَلَ شَيْئًا مَثَلًا، أَيْ: شَبَهًا، قال تَعَالَى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤] أَيْ: لَا تَجْعَلُوا لَهُ مُمَاثِلًا مِنْ خَلْقِهِ، فَانْتِصَابُ ﴿مَثَلًا﴾ عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ(١).

ويأتي المَثَل بمعنى الأنموذج الذي يُقتدى به، ويستفاد من معرفته في الجوانب الإيجابيَّة أو السَّلبيَّة، كما في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧]، وَقال فِيهِ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩](٢).

قد تتساءل: ما الحكمة من ضرب المثل ابتداء؟

الجواب: يضرب الله ﷻ الأمثال لتوسيع المدارك العقليَّة؛ ولذا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦].

فضرب الأمثال يحقِّق أغراضًا كثيرة، يقف في مقدِّمتها: الإفهام، والوصول بالبيان إلى منتهاه، كما يقول رشيد رضا ﵀: «الْمَعَانِي الْكُلِّيَّة تَعْرِضُ لِلذِّهْنِ مُجْمَلَةً مُبْهَمَةً، فَيَصْعُبُ عَلَيْهِ أَنْ يُحِيطَ بِهَا، وَيَنْفُذَ فِيهَا فَيَسْتَخْرِجَ سِرَّهَا، وَالْمَثَلُ هُوَ الَّذِي يُفَصِّلُ إِجْمَالَهَا، وَيُوَضِّحُ إِبْهَامَهَا، فَهُوَ مِيزَانُ الْبَلَاغَةِ وَقِسْطَاسُهَا، وَمِشْكَاةُ الْهِدَايَةِ وَنِبْرَاسُهَا»(٣).

وقد تتساءل: ما الحكمة من ضرب الله ﷻ المثل بصغار المخلوقات؟

الجواب: الله ﷻ خالق النَّفس الإنسانيَّة ومربيها، وقد علم أنَّ النُّفوس تسلو بالتَّنوُّع والانتقال من دليل إلى دليل، ومن أسلوبٍ إلى أسلوب؛ فَإِنَّ مَنْ أَوْجَدَ هَذَا الْإِنْسَانَ الْكَرِيمَ، وَجَعَلَهُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَرَكَّبَ صُورَتَهُ مِنْ تِلْكَ الذَّرَّاتِ الصَّغيرة، وَالنُّطْفَةِ الْمَهِينَةِ الْحَقِيرَةِ،

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٦١).

(٢) وذهب العالم المسدَّد محمد رشيد رضا ﵀ في تفسير المنار (١/ ٢٠٠) إلى أنَّ المراد بالمَثَل هنا القدوة والأنموذج، والمراد نفي استنكارهم أن يوحي الله ﷻ إلى بشر، ولا يظهر لي صواب هذا المعنى.

(٣) تفسير المنار (١/ ١٩٨).

وَالْعَلَقَةِ الدَّمَوِيَّةِ أَوِ الدُّودِيَّةِ، وَالْمُضْغَةِ اللَّحْمِيَّةِ ﴿لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦](١).

وقد ضرب الله ﷻ الأمثال بالبيئة المحيطة بالإنسان؛ لأنه يعرفها، أو للفت نظره إليها ليكتشفها، ثم ليقارن بينها وبين الممثَّل به، ولذا ضرب الله ﷻ الْمَثَل بِالذُّبَابِ وَالْعَنْكَبُوتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، وَقَالَ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

وضرب المثل بالأشجار فقال تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٧].

وضرب الله ﷻ مثلًا بحالات خاصّة من البَشَر فقال تعالَى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النحل: ٧٦]، كَمَا قَالَ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]، وَقَالَ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩]، وَقَدْ قال تعالَى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

---

(١) تفسير المنار (١/ ٢٠٥).

واسمع إلى هذا البيان العالي من إمام صنعة البلاغة عبد القاهر الجُرجانيِّ رحمه الله يبيِّن مكانة ضرب الأمثال في البيان اللُّغويِّ فيقول: «مما اتفق العقلاءُ عليه أن التَّمثيل إذا جاءَ في أعقاب المعاني، أو بَرَزَتْ هي باختصارٍ في مَعرِضه، ونُقِلت عن صُوَرها الأصليَّة إلى صورته، كساها أُبَّهةً، وكَسَبها مَنْقَبةً، ورفع من أقدارها، وشَبَّ من نارها، وضاعف قُواها في تحريك النُّفوس لها، ودعا القُلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابةً وكَلَفًا، وقَسَر الطِّباع على أن تُعطيها محبَّة وشَغَفًا، فإن كان مدحًا، كان أبْهَى وأفخم، وأنبلَ في النفوس وأعظم، وأهزَّ للعِطْف، وأسْرع للإِلف، وأجلب للفَرَح، وأغلب على الـمُمْتَدَح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقضى له بغُرِّ المواهب المنائح، وأَسْيَر على الألسن وأَذْكَر، وأولى بأن تَعْلَقَه القلوب وأجدر، وإن كان ذمًّا، كان مسُّهُ أوجعَ، ومِيسَمُه[1] ألذع، ووقعُه أشدَّ، وَحدُّه أحَدَّ، وإن كان حِجاجًا كان بُرهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبَيَانه أبْهر، وإن كان افتخارًا؛ كان شَأْوُه أمدَّ، وشَرَفُه أجَدَّ، ولسانه أَلَدَّ، وإن كان اعتذارًا، كان إلى القَبُول أقرب، وللقلوب أخْلَبَ، وللسَّخائم [أي: للضَّغائن] أسلَّ، ولغَرْب الغَضَب أفلَّ، وفي عُقَد العُقود أَنْفث، وعلى حُسن الرجوع أَبْعث، وإن كان وعظًا، كان أشْفَى للصَّدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التَّنبيه والزَّجر، وأجدر بأن يُجلِّيَ الغَيَاية[الغمامة]، ويُبصِّر الغاية، ويُبرئ العليل، ويَشْفِي الغليل، وهكذا الحُكْم إذا استقريت فنُونَ القول وضروبَهُ، وتتبّعت أبوابَهُ وشُعوبه، وإن أردت أن تعرف ذلك وإن كان تَقِلُّ الحاجة فيه إلى التَّعريف، ويُستغنَى في الوقوف عليه عن التوقيف، فانظر إلى نحو قول البحتري:

دانٍ علـــى أيـــدي العُفَـــاةِ وشَاسِـــعٌ	عَـــنْ كـــلِّ نِـــدٍّ في النَّـــدَى وَضَـــرِيبِ

(١) المِيسَم: الحديدة الَّتِي يُوْسَم بهَا. جمهرة اللغة (٢/ ٨٦٢).

كالبَـدْرِ أَفْـرَطَ في العُلُـوِّ وضَـوْءُهُ لِلْعُصْـبَةِ السَّـارينَ جِـدُّ قَريـبِ[1]

وعند التَّأمُّل فإنك لا تكاد تصدِّق أن هناك من أنكر على المنهج القرآنيِّ أن يضرب الأمثال بصغار المخلوقات أو بكبارها؛ لأنَّ ذلك في موضعه من تمام البلاغة، ولعلَّه لذلك لم يرد نقل صريح صحيح يدلُّ على إنكار كفار قريش، أو منافقي المدينة لضرب الأمثال، ولو وقع فلا يعدو أن يكون كما قيل:

كَضَـرَائِرِ الْحَسْـنَاءِ قُلْـنَ لِوَجْهِهَـا حَسَـدًا وَبُغْضًـا إِنَّـهُ لَـدَمِيمُ[2]

والاعتراض على التَّمثيل بصغار المخلوقات -إن وقع- يدل على صغر العقول؛ فإنَّ «العبرة في المثل ليست في الحجم والشَّكل، إنما الأمثال أدوات للتَّنوير والتَّبصير. وليس في ضرب الأمثال ما يعاب وما من شأنه الاستحياء من ذكره»، وكم حجم الإنسان في الكون؟ أليس شيئًا لا يرى في كوكبه الذي يعيش فيه؟ وكم يكون حجمه في السَّمَوات والأرض؟

وقد ذكر ابن مسعود رضي الله عنه وناس من أصحاب النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم هذه المحاولة التَّشويشيَّة البائسة التي حاولها بعض المناوئين للقرآن الكريم، وذلك لَما ضرَب الله عز وجل هذين المثلين للمنافقين -يعني المثل النَّاري والمثل المائي- قال المنافقون: الله أعلى وأجلُّ من أنْ يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ [البقرة: ٢٦] إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧][3].

---

(١) أسرار البلاغة (ص: ١١٥)، والبيتان في ديوان البحتري (١/ ٢٤٨، ٢٤٩)، وفيه: "في العُلا" بدلًا من: "في الندى". (العُفاة): جمع العافي، وهو كلُّ طالب فضل، أو رزق. (الضريب): المثل والنظير.

(٢) البيت لأبي الأسود الدؤلي في ديوانه (ص: ٤٠٣).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٣٩٩).

انظر إلى عقولهم! وهل الصِّغر والكبر يدلان على العظمة والحقارة؟ إن الله ﷻ يريد أن ترتقي عقولهم ليكتشفوا أسرار الكون، حتى يستطيعوا الاستفادة منها. إنك تنبهر الآن بالجهاز البالغ في الصِّغر الذي يوفِّر لك من العمليات الحيويَّة ما لا يمكن أداؤه إلا عَبْرَ شركات، بل ربَّما عَبْرَ جيش بأكمله.

وهؤلاء الجاهلون الذين لا يُعمِلون عقولهم في الآيات الكونيَّة صغَّر عقولَهم الكِبرُ الثقافيُّ الذي انتشر في كلامهم وشعرهم، كقول أَبِي الطَّيِّبِ:

أَمَاتَكُمُ مِنْ قَبْلِ مَوْتِكُمُ الْجَهْلُ وَجَرَّكُمُ مِنْ خِفَّةٍ بِكُمُ النَّمْلُ (١)

ولكن المسألة هنا مختلفة؛ ففي هذه الأبيات الشِّعريَّة أصحابها لا يتكلَّمون إلا عن بُعْدٍ واحدٍ يتعلَّق بالضَّعف في المبارزة عند المواجهة، ولم يخطر ببالهم –لضعف تصوراتهم– أن يتكلَّموا عن عظمة هذا المخلوق الصَّغير؛ كيف يتكيَّف مع الكون على الرَّغم من ضعفه، وكيف يسلب الإنسان في بعض الأحيان على الرَّغم من صغره، وأمَّا الله تعالى فيريد أن يرفع عقولهم ليكتشفوا صغار المخلوقات، وليدرسوا في الوقت ذاته كبارها، فكلُّها تشكِّل حركة هذا الكون العظيم، ومن خلالها يستبين للبشريَّة كيف يمكنها أن تسخِّر الأرض لرُقيِّها، ومعرفة ربِّها، وتسبيحه الذي يعود عليها بزيادة حفظ أنظمة الكون حولها، ولذلك كانوا يستحسنون بعض التَّشبيهات، كقَوْلِ النَّابِغَةِ يُخَاطِبُ الْمَلِكَ النُّعْمَانَ:

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي (ص: ٢٠٥).

(٢) ديوان النابغة الذبياني (ص: ٣٨)، والمعنى: أنا في قبضتك حيث كنتُ، وإن بعدتُ عنك، فأنت كذلك كالليل الذي يدركني ويشملني بظلامه أينما وجَّهت.

فيحرِّك الله ﷻ نظر المخاطبين ليُعمِلوا عقولهم فيما حولهم، فيضرب لهم الأمثال، وما زال العالِم يضرب الأمثال بما يَجْمَع معنىً محددًا، ويُبيِّنُهُ، ويكشفه للسَّامع حتى لو كان المُمَثَّل به صغيرًا في الحجم، فَهُمْ شعروا بذلك من قبل، فقاموا يمثِّلون بأمثال متعدِّدة، تجدها عند معظم شعوب العالم، فيقولون: أَجْمَعُ مِنْ ذَرَّةٍ، وَأَضْبَطُ مِنْ ذَرَّةٍ، وأَجْرَأُ مِنَ الذُّبَابِ، وَأَطْيَشُ مِنَ الذُّبَابِ، وأضعف من فَرَاشة، وآكَلُ من السُّوس، وأضعف من بعوضة، وأعزُّ من مُخِّ البعوض، وكَلَّفْتَنِي مخَّ البعوض، أي: الأمر الشَّديد.

والأمثال منتشرة في جميع الكتب المتقدِّمة والمتأخِّرة المنزلة والموضوعة، ففي كتاب "التَّناخ" اليهوديِّ سِفرٌ خاصٌّ باسم الأمثال، وتكثر الأمثال على لسان عيسى عليه السلام ففي إنجيل "مَتَّى" مثلًا:

١٣: ٢٤ قدَّم لهم مثلًا آخر قائلًا: «يشبه ملكوت السَّمَوات إنسانًا زرع زرعًا جيِّدًا في حقله».

١٣: ٢٥ وفيما النَّاس نِيام جاء عدوُّه وزرع زَوَانًا في وسط الحنطة ومضى.

١٣: ٢٦ فلما طلع النَّبات وصنع ثمرًا حينئذ ظهر الزِّوَان(١) أيضًا.

١٣: ٢٧ فجاء عبيد ربِّ البيت وقالوا له: يا سيِّد أليس زرعًا جيِّدًا زرعت في حقلك فمن أين له زِوان؟

١٣: ٢٨ فقال لهم: إنسان عدوٌّ فعل هذا. فقال له العبيد: أتريد أن نذهب ونجمعه؟

١٣: ٢٩ فقال: لا لئلَّا تقلعوا الحنطة مع الزِّوَان وأنتم تجمعونه.

١٣: ٣٠ دعوهما ينميان كلاهما معًا إلى الحصاد وفي وقت الحصاد أقول للحصَّادين: اجمعوا أولًا الزِّوَان، واحزموه حُزَمًا ليُحرق، وأما الحنطة فاجمعوها إلى مخزني.

١٣: ٣٤ هذا كلُّه كلَّم به يسوع الجموع بأمثال وبدون مثل لم يكن يكلِّمهم.

---

(١) في المحكم والمحيط الأعظم (٩/ ١٠٧) الزُّوَانُ والزِّوانُ: ما يَخْرُجُ مِنَ الطَّعامِ فيُرْمَى به.

١٣: ٣٥ لكي يتمَّ ما قيل بالنَّبيِّ القائل سأفتح بأمثال فمي وأنطق بمكتومات منذ تأسيس العالم.

١٣: ٣٦ حينئذ صرف يسوع الجموع وجاء إلى البيت فتقدم إليه تلاميذه قائلين: فَسِّرْ لنا مَثَل زِوَان الحقل.

١٣: ٣٧ فأجاب وقال لهم الزَّارع: الزَّرع الجَيِّد هو ابن الإنسان.

١٣: ٣٨ والحقل هو العالَم، والزَّرع الجيِّد هو بنو الملكوت، والزِّوَان هو بنو الشِّرير.

١٣: ٣٩ والعدوُّ الذي زرعه هو إبليس، والحصاد هو انقضاء العالَم، والحصَّادون هم الملائكة.

١٣: ٤٠ فكما يُجمع الزِّوَان ويُحرق بالنَّار هكذا يكون في انقضاء هذا العالَم.

١٣: ٤١ يرسل ابن الإنسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر وفاعلي الإثم.

١٣: ٤٢ ويطرحونهم في أتون النَّار هناك يكون البكاء وصرير الأسنان.

١٣: ٤٣ حينئذ يضيء الأبرار كالشَّمس في ملكوت أبيهم. من له أُذُنان للسَّمع فليسمع[(١)].

فيتوسَّع العقل من جهات متعدِّدة بضرب الأمثال؛ ومنها توسُّع الصُّورَة في التفكير؛ فمِنْ «طَبْعِ الْخَيَالِ الْمُحَاكَاةُ وَالتَّشَبُّهُ، فَإِذَا ذُكِرَ الْمَعْنَى وَحْدَهُ أَدْرَكَهُ الْعَقْلُ وَلَكِنْ مَعَ مُنَازَعَةِ الْخَيَالِ، وَإِذَا ذُكِرَ مَعَهُ الشَّبَهُ أَدْرَكَهُ الْعَقْلُ مَعَ مُعَاوَنَةِ الْخَيَالِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الثَّانِيَ يَكُونُ أَكْمَلَ، وَأَيْضًا فَنَحْنُ نَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَذْكُرُ مَعْنًى وَلَا يَلُوحُ لَهُ كَمَا يَنْبَغِي، فَإِذَا ذَكَرَ الْمِثَالَ اتَّضَحَ وَصَارَ مُبَيَّنًا مَكْشُوفًا، وَإِنْ كَانَ التَّمْثِيلُ يُفِيدُ زِيَادَةَ الْبَيَانِ وَالْوُضُوحِ، وَجَبَ ذِكْرُهُ فِي الْكِتَابِ الَّذِي لَا يُرَادُ مِنْهُ إِلَّا الْإِيضَاحُ وَالْبَيَانُ»[(٢)].

---

(١) إنجيل متَّى، القس أنطونيوس فكري (ص: ١٨٠، ١٨١).

(٢) تفسير الرازي (٢/ ٣٦٢).

بصيرة [٤]: البعوضة تجمع القوَّة، والضَّعف، والصِّغر: مثل البعوضة مثل جامع للإنسان والدُّنيَا، فهو يختصر صورة الحياة الدُّنيَا، فتجمع البساطة لوضوحها، والضَّعف لصغرها وهشاشتها، والتَّعقيد لما تحتويه من أجهزة هائلة في حجم صغير، والإدهاش لامتلاكها ما لا يمتلكه الإنسان، والقوَّة لقدرتها على سلبه وقتله.

وهاهو الرَّبيع بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ يبيِّن واحدةً من المعاني الرائعة التي ضُرِب لها المثل فيقول: «هذا مثلٌ ضربه الله عَزَّ وَجَلَّ للدنيا، إن البعوضة تحيا ما جاعتْ، فإذا سمنت ماتتْ. وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب الله عَزَّ وَجَلَّ لهم هذا المثل في القرآن: إذا امتلأوا من الدُّنيَا رِيًّا أخذَهم الله عَزَّ وَجَلَّ عند ذلك. قال: ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]»[1].

لعلك تسأل: ما المعاني الثَّرية التي نجتنيها من الموقع الإعرابيِّ لكلمة ﴿مَا﴾؟

الجواب: هذه الجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦] تبيِّن آفاقًا رحبة في معانيها من خلال تعدُّد إعراب كلمة: ﴿مَا﴾ فيها؛ إذ يجوز في إعرابها عِدَّة وجوه، ومن أهمِّ التَّقْديرات التي توضِّح لك تصوير هذه الكلمة للواقع:

الأول: أن تكون بمعنى (الذي)، ويكون معنى الكلام: إنَّ الله لا يستحيي أن يضرب الذي هو بعوضةً في الصِّغَر والقِلَّة فما فوقها – مثلًا، ونصبت ﴿بَعُوضَةٗ﴾؛ لأن (ما) لما كانت في محلِّ نصْب بقوله: ﴿يَضۡرِبَ﴾، وكانت البعوضة لها صِلَة أُلزمت إعرابها، كما قال حسَّان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٩٩).

وَكَفَى بِنَا فَضْلًا عَلَى مَنْ غَيْرِنَا حُبُّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ إِيَّانَا(١)

فعُرِّبت(غيرُ) بإعراب (من)، ويقرِّر الطَّبريُّ رحمه الله أنَّ العرب تفعل ذلك خاصَّة في (من) و(ما)، تعرب صِلاتهما بإعرابهما، لأنهما يكونان معرفة أحيانًا، ونكرة أحيانًا.

فالمؤمن يعلم أنه الحقُّ، ويبحث في تفاصيل هذا المثل طالبًا التَّعلُّم، والتَّعقُّل، والتَّفكُّر، والتَّدبُّر، والكافر يسخر، ويستهزئ، لكنَّه سيفاجأ عند التَّعلُّم بخطورة هذا المثل.

الثاني: (ما) إبهاميَّة، وهي التي إذا اقترنت باسمٍ نكرة أبهمته إبهامًا، وزادته شياعًا وعمومًا، وأكَّدَتْ معناه مِنْ تَنْوِيعٍ، أَوْ تَفْخِيمٍ، أَوْ تَحْقِيرٍ، كقولك: لِأَمْرٍ مَا، ويكون المعنى: إنَّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلًا أيَّ مثلٍ كان، بعوضة فما فوقها، لترتقي عقولكم بالالتفات إلى ما حولكم.

الثالث: رأى الفرَّاء رحمه الله أنَّ (ما) التي مع المَثَل صِلَةٌ في الكلام، والطَّبريُّ رحمه الله يبيِّن غايتها، ويصفها بأنه للتَّطَوُّل، ويكون أصل الكلام: إنَّ الله لا يستحيي أن يضربَ بعوضةً مثلًا فما فوقها. و﴿بَعُوضَةً﴾: منصوبةٌ بـ﴿يَضْرِبَ﴾، وأن تكون(ما) الثَّانية التي في ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ معطوفة على البعوضة لا على(ما)، والصِّلَة أو التَّطَوُّل للتأكيد، ويكون المعنى بإدخال (ما): إنَّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلًا حقًّا أو البتَّة بعوضةً فما فوقها(٢).

---

(١) نسبه الطبري في تفسيره (١/ ٤٠٤) لحسان بن ثابت، وليس في ديوانه، ونسبه ابن منظور في لسان العرب (١٣/ ٤١٩) لبشير بن عبد الرحمن بن كعب بن مالك الأنصاري.

(٢) انظر: معاني القرآن للفراء (١/ ٢١-٢٣)، تفسير الطبري (١/ ٤٠٤)، الكشاف (١/ ١١٤).

بصيرة [٥]: قد يكون الأصغر أكبر، فيُبَصِّرنا قوله: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ إلى ما هو أقل من البعوضة في الصِّغَر والحقارة، أو إلى ما هو أكبر منها.

قد تساءل: ذكر الله ﷻ كلمة: ﴿بَعُوضَةً﴾ ثم قال: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾، وذلك يستثيرك للبحث عن معنى هذه الكلمة: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ فما معناها؟

الجواب:

﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾: تبصِّرك بأن القرآن يحثُّك على إعمال عقلك، والارتقاء في تفكيرك؛ فهي كلمة لافتة في السِّيَاق.

وحتى نعرف معنى الفاء هنا لا بدَّ أن نبدأ بفَهْمِ قوله: (ما)، (فوقها).

فكلمة ﴿ما﴾: موصولة بمعنى (الذي)، و(فَوقَ): كلمة تدلُّ على عُلُوٍّ، فيقال في الجهة: فوق، ضدَّ، تحت، نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، وهذه الجهة المقابلة لـ(تحت) ماذا يكون شأنها؟ هل يكون ما فيها أكبر من مقابلها وهو تحت، أم يكون أصغر؟

فهي تستعمل لبيان الجهة، وتستعمل لبيان التَّفوُّق في الصِّفة، «وَالتَّغَلُّبِ وَالزِّيَادَةِ فِي صِفَةٍ، سَوَاءٌ كَانَتْ مِنَ الْمَحَامِدِ، أَوْ مِنَ الْمَذَامِّ، يُقَالُ: فُلَانٌ خَسِيسٌ وَفَوْقَ الْخَسِيسِ، وَفُلَانٌ شُجَاعٌ وَفَوْقَ الشُّجَاعِ، وَتَقُولُ: أُعْطِيَ فُلَانٌ فَوْقَ حَقِّهِ، أَيْ: زَائِدًا عَلَى حَقِّهِ»[(١)].

وهنا تدرك أن الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ للتَّشريك في ضرب المثل بهما، وللتَّرتيب في الحجم أو الوجود، والمعنى: إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلًا ما بعوضة فأيَّ مخلوقٍ آخر فوقها، فهو تدرجٌ رُتبي، وتحتمل بذلك ثلاثة معانٍ:

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٦٢).

الأوَّل: ما فوقها في الصِّغَر، فهي متفوقة عليها في حجمها، ولكن لجهة الصِّغر، أي فالذي أقلُّ منها في الحجم والصِّغَر والحَقارة في نظركم أنتم، أي: فما تجاوزها وزاد عليها في معنى ضَرَبْتُ فيه مثلًا، وهو القِلَّة والحقارة عندكم، فمما هو دون البعوضة في الحجم جناحُ البعوضة، وأنت ترى أنَّ النَّاس يكتشفون ما هو دونها في الحجم من الميكروبات التي قد تدمِّر البشريَّة، وهاهو مخلوق سمَّوه (كوفيد) قد أفزع كلَّ البشريَّة على الأرض حتى عطَّل عليهم حياتهم نحو سنتين، فسبحان من أنشأ تلك المخلوقات، وأحاط بأعضائها الظَّاهرة والباطنة وتفاصيل خلقتها، ويبصر بصرها، ويطَّلع على ضميرها: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

وممَّا هو أدنى من البعوضة أبعاض جسمها، فقد ضرب النَّبيُّ ﷺ به المَثل؛ فعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّه لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ -وَقال-: اقْرَؤُوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]»(١).

الثَّاني: ما فوقها في الحجم، فهي متفوِّقة عليها في حجمها ولكن لجهة الكِبَر، أي: فالذي أعلى منها في الحجم والكِبَر في نظركم، أي: فما تجاوزها وزاد عليها في معنى ضربت فيه مثلًا.

وذهب إلى هذا الطَّبريُّ رحمه الله فقال: «وأما تأويل قوله ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾: فما هو أعظم منها - عندي- لما ذكرنا قبل من قول قتادة وابن جُريج رحمهما الله: أنَّ البعوضة أضعفُ خلق الله عز وجل، فإذْ كانت أضعفَ خلق الله عز وجل، فهي نهايةٌ في القِلَّة والضَّعف. وإذ كانت كذلك، فلا شكَّ أنَّ ما

---

(١) البخاري (٤٧٢٩).

فوق أضعفِ الأشياء، لا يكون إلا أقوى منه»[١]، والمعنى صحيح، فالبعوضة ضعيفة، ولكنها ليست أضعف خلق الله ﷻ، كما هو مشاهد معلوم.

الثَّالث: ما فوقها حقيقة أي: هناك مخلوق يمتطيها في أعلاها على ظهرها.

وقد استخدم النَّبيُّ ﷺ كلمة: ﴿فَوْقَهَا﴾ بالمعنيين في كلامه، كما في حديث عَبْدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهْوَ يُوعَكُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّكَ تُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا. قال: «أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ» قُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ قال: «أَجَلْ، ذَلِكَ كَذَلِكَ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى؛ شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا»[٢]، وعَنِ الأَسْوَدِ رحمه الله قال: دَخَلَ شَبَابٌ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى عَائِشَةَ رضي الله عنها وَهِيَ بِمِنًى وَهُمْ يَضْحَكُونَ، فَقَالَتْ: مَا يُضْحِكُكُمْ؟ قالوا: فُلَانٌ خَرَّ عَلَى طُنُبِ فُسْطَاطٍ فَكَادَتْ عُنُقُهُ، أَوْ عَيْنُهُ أَنْ تَذْهَبَ. فَقَالَتْ: لَا تَضْحَكُوا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا، إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ»[٣]، فقوله «فما فوقها»: يعني أعظم أو أقوى، أو ما هو أصغر منها كالارتياع عندما يرى الإنسان شيئًا يفزعه.

وقد مثَّل النَّبيُّ ﷺ بما هو أصغر من البعوضة، فمَثَّلَ الدُّنيَا بجناحها، وجعلها كلَّها بما فيها من الأموال والقصور وأوجه المتاع لا تساوي عند الله جَناح بعوضة، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٠٥).

(٢) البخاري (٥٦٤٨).

(٣) مسلم (٦٦٥٣).

قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدُّنيَا تَعْدِلُ عند الله جَناح بعوضةٍ، ما سقى كافرًا شَرْبة ماء»(١)، **وهذا يدلُّ على أمرين:**

الأمر الأوَّل: هَوَان الدُّنيَا، مَثَل هَوَان البعوضة في نظر الناس، وفي ذلك قال أبو بكر ابن المقري رحمه الله:

لقد ضاع عُمْرٌ ساعةٌ منه تُشْتَرَى ... بِمِلْءِ السَّما والأرضِ أَيَّة ضَيْعَةِ
أَتُنْفِقُ هذا في هَوى هذه الَّتي ... أَبَى اللهُ أن تَسْوَى جَناحَ بعوضةِ
أترضى من العيشِ الرغيدِ بِعِيْشَةٍ ... مع الملأِ الأعلى بِعَيْشِ البهيمةِ
فيا دُرَّةً بين المَزابلِ أُلْقِيَتْ ... وجَوْهَرةً بِيْعَتْ بأَبْخَسِ قِيمَةِ
أَفَانٍ بِبَاقٍ تَشْتريه سَفاهةً ... وسُخْطًا بِرضوانٍ ونارًا بجنَّةِ(٢)

وقد تسأل: فما معنى كلمة ﴿بَعُوضَةً﴾؟

الجواب: اشتقاق البَعوض(٣) من البَعْضِ، وهو القَطْع كالبَضْع والعَضْب، فهو اقتطاع شيء من آخر، فيقال: بَعَضَه البَعُوض: عَضَّه وآذاه بامتصاص بعض دَمِهِ، وأنشد:

لَنِعْمَ البَيْتُ بَيْتُ أَبي دِثارِ ... إذَا مَا خافَ بعضُ القَوْمِ بَعْضَا(٤)

والبعوض في أصله صِفة على فَعُول كالقَطُوع فغلبت، وقال الرَّاغب رحمه الله: والبَعُوض بُنِيَ لَفْظُه من بَعضٍ، وذلك لصغر جسمها بالإضافة إلى سائر الحيوانات.

وهنا ستتساءل عن بعض أوجه دلالة هذه المخلوقة على الإيمان بالله، ووجوب عبادته؟

---

(١) الترمذي (٢٣٢٠) وقال «هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه»، وصحَّحه الألباني، وذكر محققو المطالب العالية (١٣/ ٣٢٨) شواهد لهذا الحديث، وذكروا أنه لا يقل عن درجة الصحيح لغيره بهذه الشواهد.

(٢) مجموع القاضي أبي الذبيح إسماعيل بن أبي بكر المقرئ اليمني (ت ٨٣٧ هـ) (ص: ٦٠، ٦١).

(٣) المفردات في غريب القرآن (ص: ١٣٤)، تاج العروس (١٨/ ٢٤٢)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ١٤٧).

(٤) البيت بلا عزو في ثمار القلوب للثعالبي (ص: ٢٤٦)، لسان العرب (٧/ ١٢٠).

الجواب: لو تأمَّلوا في هذه المخلوقة الصَّغيرة التي خلقها الله ﷻ، وبثَّ فيها الحياة لوجدوا فيها البرهان على الإيمان، ولكنهم لا يريدون أن يتأمَّلوا، بل يعتمدون على العناد والاستكبار، فتعال تأمَّل خلق البعوضة قليلًا؛ فهي على شِدَّة هَوَانها عند النَّاس تحوي من العظمة والخلق والإبداع ما يُعيي الإنسان تَتَبُّعه أو فِعْله، وربَّما وجد فيها ما لا يوجد في المخلوقات العظيمة الكبيرة، فهذا الضَّرب للمثل لفتٌ للنَّظر إلى ما يستهينون به.

فانظر كيف تحوي البعوضة من العجائب التي تذهل الخلق شيئًا يقابل ما يدهشهم في الكون الكبير، فصِغَر حجم مخلوق مع وجود كلِّ أدوات الحياة الموجودة في المخلوق الكبير يدلُّ على روعة الإبداع وعظمة القدرة، والبعوضة يوجد فيها من العجائب ما لا يوجد في الفيل، وإذا كان الله ﷻ قد ضرب المثل بالبعوضة في أول القرآن فلقد ختمه بذكر الفيل في قوله تعالى شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، ولكلٍّ من الدَّابَّتين خرطوم، ولكن شتان بين استعمال كلٍّ من الخرطومين!

واضرب لهم مثلًا بالإعجاب بمن يخترع الكمبيوتر الصَّغير الحجم الذي يحوي أعظم ممَّا كان يحويه الكمبيوتر عندما كان على مساحة غرفة كبيرة، والبعوضة المذكورة هنا هي الأنثى التي تلسع الإنسان، أما الذَّكَر فيذهب إلى رحيق الأزهار، ومن **عجائبها المكتشفة** أن إناث معظم أنواع البعوض تضع البَيْض في الماء أو بالقرب منه، وتُفَضِّلُ بعضُها المستنقعاتِ العذبةَ، بينما تُفَضِّلُ أخرياتٌ المستنقعاتِ المالحةَ، وهذا البَيْض له أجزاء مزخرفة وشفافة من القشرة تسمَّى العوَّامات تُبقيه طافيًا إلى أن يفقس. وتضع أنواع أخرى من الإناث بَيْضَها

في مجموعات تبدو كالأطواف حتى إذا ما خرجت اليرقات إلى الحياة، فعلت ما تفعله الأمهات دون حاجة إلى خبرة تعليمية سابقة[١]، فمن هداها إلى ذلك؟

إنه ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

ويكفي لتعلم ضخامة عالم البعوضة أن (رونالد روس) عالِم الجراثيم حصل في عام ١٩٠٢م على جائزة نوبل للعلوم؛ -فقط- لأنه درس نوعًا من أنواع البعوض، وهي [أنوفوليس]، واكتشف أنها تقوم بنقل مرض الملاريا الذي كان يفتك بعشرات الألوف من النَّاس كلَّ عام.. أمضى سنوات في مختبره ليكتشف شيئًا يسيرًا ممَّا تقوم به تلك الحشرة.

ومن عجائب هذه الحشرة أنها عندما تمتصُّ الدَّم فإن إنزيم التَّخثر يسبِّب مشكلة كبيرة لها؛ لأن الثَّقب الذي أحدثته سينغلق، ولن تستطيع أن تمتصَّ الدَّم، فتقوم بصنع مادة في جسمها، وتفرزها في جسم الإنسان في تلك المنطقة لتمنع تخثُّر الدَّم، وتسبِّب إحداث تهيُّجٍ في الجِلْد، فينتفخ، ويشعر الإنسان بحكَّة[٢].. من هداها؟ من علمها؟ من هيَّأ جسمها بكلِّ تلك الأجهزة؟ كيف حصلت على كلِّ تلك المعلومات؟ من هيَّأ لها كلَّ تلك التِّقنيات لتكمل عملية الامتصاص؟

---

(١) ينظر هذه المعلومات في الرابط الآتي:

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A8%D8%B9%D9%88%D8%B6%D9%8A%D8%A7%D8%AA

(٢) ينظر مقال بعنوان: آيات علمية في القرآن. د. رنده فؤاد خصاونه، تاريخ النشر: ٥/ ٦/ ٢٠١٣م، الرابط:

https://alrai.com/article/586690/

بصيرة [٦]: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ تكشف إعجازًا مذهلًا لمن يبحث في كنوز القرآن التي تشير إليها كلماته؛ فإنه يدخل في معناه: وجود مخلوق أصغر من البعوضة يعيش فوقها، وذلك ما أثبتته الدِّراسات الحديثة.

ربَّما تتساءل: سبق أن تدارسنا أن كلمة ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ تحتمل أن تكون الفوقية حقيقيَّة ماديَّة، وأنَّ المراد أعلى جسد البعوضة، فهل يوجد مخلوق فوق جسد البعوضة حقًّا؟ وهل يدخل هذا في معنى كلمات الآية مع أنَّ الذين سمعوا هذه الكلمات من رسول الله ﷺ لم يفهموا ذلك حين نزول القرآن؟

الجواب: ففي مجلة Scientific American نجد هذا الخبر:

Mosquitoes Have Flying, Blood-Sucking Parasites of Their Own

أي: إن البعوض له طُفَيليَّات طيَّارة ماصَّة للدِّماء.

وبما أنك تجد كلمة "فوق" تحتمل عِدَّة معانٍ، فهي من المشترك الذي قال فيه علماؤنا: «هُوَ اللَّفْظُ الْوَاحِدُ الدَّالُّ على معْنَيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ دَلَالَةً عَلَى السَّوَاءِ عِنْدَ أَهْلِ تِلْكَ اللُّغَةِ، سَوَاءٌ كَانَتْ الدَّلَالَتَانِ مُسْتَفَادَتَيْنِ مِنْ الْوَضْعِ الْأَوَّلِ، أَوْ مِنْ كَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ، أَوْ اسْتُفِيدَتْ إحْدَاهُمَا مِنْ الْوَضْعِ، وَالْأُخْرَى مِنْ كَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ»(١).

فإنَّ الذين سمعوا القرآن عندما نزل فهموا منه ما يعرفونه معتادًا بينهم، ففهموا من كلمة ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ المعنيين الأوَّلين، وهذا لا يمنع من ظهور معنى ثالث اكتَشف الإنسان حقيقته لاحقًا، واحتمله اللفظ القرآنيُّ المبين.

---

(١) البحر المحيط في أصول الفقه (٢/ ٣٧٧).

وبناء على هذا العلم والحكمة للخالق الذي خلق هذا المخلوق قال بعضهم:

يا من يرى مَدَّ البعوضِ جناحَها ... في ظُلمةِ الليلِ البَهيمِ الأليلِ
ويرى نِياطَ عروقِها في نَحْرِها ... والمُخَّ من تلك العِظامِ النُّحَّلِ
ويرى خَريرَ الدَّمِ في أوصالِها ... مُتَنقلًا من مِفْصَلٍ في مِفْصَلِ
ويرى وصولَ غِذا الجنينِ ببطنِها ... في ظلمةِ الأحشا بغير تمهُّلِ
ويرى مكانَ الوَطْءِ مِنْ أقدامِها ... في سَيْرِها ومَشْيِها المُسْتَعجلِ
ويرى ويسمعُ كلَّ ما هُوَ دونَ ذا ... في قاعِ بحرٍ مُظْلِمٍ مُتَهَوِّلِ
اغْفِرْ لِعَبْدٍ تابَ من فَرَطاتِه ... ما كانَ منه في الزَّمانِ الأوَّلِ[١]

---

(١) أنشد بعض أبياتها الزَّمخشريّ ولم يسمِّ قائلها. الكشاف (١/ ١١٦)، ونسبها القرطبي في التذكرة (ص: ٤٦٤) إلى أبي العلاء بن سليمان المعري، وذكر منها ثلاثة أبيات، باختلاف في بعض الألفاظ، ويظهر أنها للمؤيد في الدين أبي نصر هبة الله بن موسى الشيرازي؛ إذ وردت في ديوانه، القصيدة الثالثة والأربعون، (ص: ٣٠٣)، ثم تناقلها الناس وزادوا فيها وغيَّروا بعض ألفاظها، والله أعلم..

المشهد الثاني: هدى الكتاب حسب استقبال الألباب:

فيُبَصِّرنا الله ﷻ بِرَدَّةِ فعل العالَم عندما يسمعون هذه الأمثال، حيث ينقسم إلى فريقين:

الأول: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾.

الثاني: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾.

ينبثق عن الدَّليل الثاني عشر من أدلَّة وجوب أن يعبد البشر الله -تعالى مَجدُهُ- أن يُبَصِّرنا الله ﷻ بقوَّة الاستدلال بصغار المخلوقات.

ولكنك قد تتساءل: إذا كان ضرب المثل بصغار المخلوقات له هذه القوَّة، فنحن نشتاق إلى معرفة موقف النَّاس من المسلمين، والمشركين، والمنافقين في المدينة عند سماعهم لهذا المثل؟ أفلا يؤمنون؟

الجواب: عندما يتفكَّرون ولا يعاندون فإنهم سيؤمنون، ولكنك تفاجأ باستجابة بعضهم لنوازع السوء والعناد عندهم، وهنا لا يتركك القرآن لتواجه الحياة دون إرشاده، فهاهو الله ﷻ يخبرك عن رَدِّ فعل النَّاس أمام هذه الأمثال في هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وفي هذا المشهد البصائر الآتية:

بصيرة [١]: كلمة ﴿فَأَمَّا﴾ تبصِّرك الفاء في هذه الآية أن العالم سينقسمون أمام هذه الأمثال إلى فريقين:

الفريق الأول: المؤمنون، وهم أعظم الناس فِكرًا؛ إذ يهديهم فِكْرُهم إلى الإيمان والتَّسليم: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦].

الفريق الثاني: الكفَّار الذين يغطُّون الحقَّ والحقائق بالتَّشويش والإعلام المضلِّل: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦]، **فبدلًا من أن يشعروا بعظمة القائل، ويبحثوا في أوجه قوَّة المَثَل المضروب قاموا يشوِّشون بالجهل.**

الفريق الأول: المؤمنون، وهم أعظم الناس فِكرًا؛ إذ يهديهم فِكْرُهم إلى الإيمان والتَّسليم:

ويُبَصِّرنا بهم قوله ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦]، **يؤمنون بالغيب، ويتيقنون أن هناك كنوزًا من المعاني العلميَّة الضَّخمة فيما ضربه الله** ﷻ **من أمثال، فتكون مركزًا للاستكشاف والتَّفكُّر:**

ستتساءل: كيف كشفت لنا ﴿فَأَمَّا﴾ انقسام النَّاس أمام أمثال القرآن إلى عقلاء مؤمنين ومعاندين كافرين؟

الجواب:

الفاء هنا تدلُّ على التَّفصيل بعد الإجمال، وعلى التَّفريع على ما سبقها، فهي تقصُّ علينا رِدَّةَ الفعل على الواقع المحكي بعد حكاية الواقع.

وقوله (أَمَّا): حرف فيه معنى الشَّرط، ولذلك يؤتى بالفاء في جوابه، وفائدته في الكلام أن يعطيه فَضْلَ توكيدٍ. تقول: زيد ذاهب. فإذا قصدت توكيد ذاك وأنه لا محالة ذاهب، وأنه

بصدد الذَّهاب، وأنه منه عزيمة قلت: أمَّا زيد فذاهب. ولذلك قال سيبويه رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره: مهما يكن من شيء فزيد ذاهب. **وهذا التَّفسير له فائدتان: بيان كونه توكيدًا، وأنه في معنى الشَّرط**(١).

فأورد الجملتين مصدَّرتين به، فلم يقل: فالذين آمنوا يعلمون، والذين كفروا يقولون، بل قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وذلك ليظهر المدح الكبير للمؤمنين، والاعتداد بفكرهم وعلمهم، وأنه الحقُّ، وليَنعى على الكافرين إغفالهم حظَّهم، وعنادهم، ورميهم بالكلمة الحمقاء(٢).

وستقول: ما الحكمة من وصف الله عَزَّوَجَلَّ الفريق الأوَّل بأنهم ﴿ءَامَنُواْ﴾ بالفعل الماضي؟ ولماذا لم يصفهم بأنهم صدَّقوا؟

الجواب: تجده في هذه البصيرة:

بصيرة [٢]: استعداد، واعتناق: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تبصِّرك بأنَّ الفريق الأول كان عنده استعدادٌ لقبول الحقِّ، واعتنقه عند ظهوره، فصدَّق به، والتزمه، ووجد الأمن فيه، ولذلك وُصِفَ بلفظ: ﴿ءَامَنُواْ﴾.

وصف الله عَزَّوَجَلَّ الفريق الأول بأنهم ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ لأن **(الإيمان) يقتضي التَّصديق بالله عَزَّوَجَلَّ والتَّصديق بكلماته، والاعتقاد بها، والإذعان لها، والتَّسليم والانقياد لمقتضياتها، وطلب الأمن والطُّمَأْنِينَةِ في ظِلِّها**، فأما مجرد التَّصديق فستجده عند إبليس، فإنه يصدِّق بالله عَزَّوَجَلَّ، لكنه لا يجمع إلى التَّصديق الاعتقاد والانقياد والإذعان، وطلب الأمن في ظِلِّها، والْتَفِتْ مرَّة أخرى لترى أن الله عَزَّوَجَلَّ وصفهم بالفعل الماضي؛ **لأن الماضي يدلُّ على أمرين:**

(١) ينظر: مغني اللبيب (ص: ٨١).

(٢) الكشاف (١/ ١١٧).

الأول: الحقيقة الرَّاسخة التي بدأت في الماضي، ثم دلَّت القرينة على أنها صارت حقيقة ثابتة.

الثاني: لأن الماضي يُظهِر أنهم قبل أن يسمعوا كانوا مؤمنين، أي: أصحاب استعداد لأنْ يؤمنوا، بخلاف الذين كفروا فكانوا أصحاب استعداد لأن يعاندوا، فيكفروا، أي: يغطُّوا أعظم الحقائق استجابة لعنادهم وأهوائهم المريضة.

وهذا البيان يُظْهِرُ أنَّ المؤمنين عادتهم الإصغاء، والاهتمام، والهدوء، والتَّركيز فيما يقال لهم، ثم يتعاملون مع ما يقال لهم بالتَّفكُّر العادل، ويَزِنُون الأمور بميزان العقل، فـ«إذا سمعوا بمِثْل هذا التَّمثيل علموا أنه الحقُّ الذي لا تمرُّ الشُّبهة بساحته، والصَّواب الذي لا يرتع الخطأ حوله»(١).

بصيرة [٣]: ﴿فَيَعْلَمُونَ﴾: تبصِّرك بأن معرفتهم يقينيَّة جازمة مطابقة للواقع، حتى كأنَّ الذين يعلمونه شيء محسوس عليه عَلَمٌ، أو علامة تجعل من يراه متيقنًا به، لا يخلطه بغيره، ومنه يُقَالُ: أَعْلَمَ الْفَارِسُ، إِذَا كَانَتْ لَهُ عَلَامَةٌ فِي الْحَرْبِ.

بصيرة [٤]: يُبَصِّرنا قول ربِّنا ﷻ: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ بأنهم يعلمون أنَّ المثل الذي يضربه ربُّهم حقٌّ، أي: ثابت، لا يمكن أن تستقيم أحوال الكون على طبيعتها وحقيقتها بدونه، فهو من الله الرَّبِّ الملك المالك المربِّي للكون.

---

(١) الكشاف (١/ ١١١).

بصيرة [٥]: استعداد: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦] تبصِّرنا بأن نفوسهم المخبتة الشَّفَّافة تستعدُّ لفعل الذي يجب عند سماع كلام ربِّهم، والانتفاع به، ويكون عندهم الاستعداد لاستكشاف الحكمة فيما قال ربُّهم، ودراسته واقعًا ليزدادوا إيمانًا.

فهذه الآية أنموذج يبيِّن الله ﷻ فيها من ينتفع بكلامه، وهو الذي يؤمن به، ويعلم أن الله ﷻ له حكمته البالغة فيما يقول أو يأمر، فقد تظهر الحكمة من ضرب هذه الأمثال بصورة مباشرة، وقد تخفى، فلا تظهر إلا بعد الدِّراسة والبحث والتَّأمُّل، فإن لم تدرك حكمتها، وأهمِّيَّتها الآن، فحسبك أن تعلم أنها صدرت عن خالق البعوضة والنَّاس والكون؛ فلماذا تسأله عن الحكمة؟ يمكنك أن تسأل مخلوقًا مثلك، أما الخالق المعبود ﷻ فلا يُسأل عما يفعل، بل يقال عند استماع آياته: صدق الله، ومن أصدق من الله قيلًا، وهذا معنى قوله ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦]، فَهُمْ متيقنون أن ما أتى الله ﷻ به هو الحقُّ، وإن لم يدركوا سِرَّهُ، فلا يستنكرون شيئًا مما يسمعونه من قول ربِّهم.

ليس في هذا دعوة إلى ترك البحث عن تفصيل تلك الحكمة، وتعلُّمِ أسرار الخلق، إلا أنهم إذا سمعوا قول الله ﷻ فينبغي أن يصدقوا ويُسَلِّموا أول الأمر تسليمًا، ويتيقنوا بأنَّه الحقُّ من ربِّهم.

ويقوِّي ما ذهبت إليه المناسبة بين هذه الآية وقِصَّة البقرة التي سمِّيت السُّورَة باسمها، فقد قال الله ﷻ فيها: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]، فيفترض أن يعلموا أنه الحقُّ كما ذكر الله ﷻ عن المؤمنين هنا، لكنهم لم يفعلوا ذلك بل استنكروا، فلعلَّ منهم من خاف من انكشاف حقيقة القاتل، ومنهم من رأى نفسه أكبر من أن يطيع نبيَّ الله موسى عليه السلام عنادًا، أو استكبارًا، أو جهلًا، ومنهم من جهل الواجب عليه عندما يسمع

بلاغًا من موسى ﷺ،ولذا قال بَعْضُ السَّلَفِ: إِذَا سَمِعْتُ الْمَثَلَ فِي الْقُرْآنِ فَلَمْ أَفْهَمْهُ بَكَيْتُ عَلَى نَفْسِي؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وَقال مُجَاهِدٌ رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦] الْأَمْثَالُ صَغِيرُهَا وَكَبِيرُهَا، يُؤْمِنُ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ، وَيَهْدِيهِمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا[1].

فهؤلاء المؤمنون يَعْلَمُونَ، أي: علمًا يقينيًا أنَّ ما سمعوه من ربِّهم فهو الحقُّ، والحقُّ هو الثابت الذي لا يمكن إنكاره لثبوته، وهو في ذاته لا يقبل التَّلَجْلُجَ عند سماعه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٦]، أي: ثبتت فلا يمكن تغييرها، وثَوْبٌ محقَّقٌ، أي: مُحْكَم النَّسْج.

هنا ربَّما تقول: قد جاء هذا الدَّليل الثاني عشر؛ ليثبت لنا أننا يجب أن نعبد الله عَزَّ وَجَلَّ، فهو كما خلقنا فقد خلق صغار المخلوقات، وقد ضرب لنا بها الأمثال، فانقسم العالم أمام هذه الأمثال إلى هذين الفريقين: فريق آمنوا، وتميَّزوا بالعلم الصَّادق: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦] فما الفريق الثاني؟

الجواب:

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٨).

الفريق الثاني: الكفَّار الذين يغطُّون الحقَّ والحقائق بالتَّشويش والإعلام المضلِّل: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦]، فبدلًا من أن يشعروا بعظمة القائل، ويبحثوا في أوجه قوَّة المَثَل المضروب قاموا يشوِّشون بالجهل:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: والكفر سَتْر الحقيقة الواضحة، وتغطيتها تغطية تامَّة، وهنا قارِنْ بين وصف الله ﷻ للفريقين:

فالفريق الأول: ترى العلم عنده مقترنًا بالإيمان دائمًا: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦]، فعَبَّرَ فِي جَانب الْمُؤمنِينَ بـ(يعلمون)؛ تَعْرِيضًا بِأَنَّ الْكَافِرِينَ الذين يغطون الحقائق ينطلقون في ذلك من الجهل والعناد والمكابرة، ولذا يشوِّشون ويغالطون فذكر الله ﷻ أنهم (يقولون)، وهي إشارة مدهشة تصف لُجُوءَهم إلى الوسائل الإعلاميَّة لتغطية جهلهم، أو ستر أخطائهم الشَّنيعة بدلًا من أن يلجؤوا إلى الدَّليل العلميِّ.. المؤمنون يتميَّزون بالقلب المفتوح، والعقل المفتوح فيتعلَّمون، أما الكافرون فقد أغلقوا قلوبهم وعقولهم فانبعثوا يسألون **سؤال المشوِّشِ المنقطعِ عن نور الله ﷻ وتدبيره، البعيدِ عن اكتشاف الكون وسُنَنه، ولم يسألوا سؤال المستفهم الذي يريد أن يفهم واقع الكون وحقيقته، فقالوا:** ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦].

فالكفَّار سلكوا مع القرآن أمرين:

الأمر الأول: التَّعذيب والإيذاء والاضطهاد لمن يتَّبع نوره المبين، ثم تطوَّر ذلك عندهم إلى استباحة أموال المسلمين ثم دمائهم، وهذا الذي قاله دِرَاز رحمه الله: «فما كان جوابهم إلا أن ركبوا متن الحُتُوف، واستنطقوا السُّيوف بدل الحروف، وذلك عندما عجزوا عن الإتيان بالبرهان، وهذه حيلة كلِّ من يعجز عن الدِّفاع عن نفسه باللِّسان والبيان»[١].

---

(١) النبأ العظيم (ص: ١١٤).

الأمر الثاني: حاولوا أن يشوِّشوا على القرآن أمام الرَّأي العامِّ العالميِّ فقالوا: لماذا يمثِّل الله بهذه الأمثلة؟!

إنهم يغالطون ويغطُّون الحقائق ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦].

كلمة ﴿مَاذَآ﴾ [البقرة: ٢٦] تتكون من ﴿مَا﴾ الاستفهامية وَ﴿ذَا﴾ مَوْصُولَة، كَقَوْل لبيد:

أَلا تَسْأَلَانِ الْمَرْءِ مَاذَا يحاولُ ... أَنَحْبٌ فَيُقْضَى أم ضلالٌ وباطلُ[(١)]

وقد طرح الكفَّار هذا السُّؤَال: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦] لا ليطلبوا به الفهم، بل ليكون بمثابة الإنكار، ولذا لا ينتظرون الجواب عنه، فَهُمْ يقولونه للتَّشويش على الرَّأي العامِّ حولهم لئلَّا يتأثَّروا بما سمعوا، وَالْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿بِهَٰذَا﴾ مُفِيدَةٌ لِلتَّحْقِيرِ بِقَرِينَةِ الْمَقَامِ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦][(٢)].

فبدلًا من الإيمان يشوِّشون على البشر لئلَّا يروا الحقَّ فيقولون: ماذا أراد الله من خير أو علمٍ عندما ضرب هذه الحشرات مثلًا، و﴿مَثَلًا﴾ هنا منصوبةٌ على التَّمييز كما تقول: كيف تنتفع بهذا سلاحًا؟[(٣)].

> **بصيرة [٦]**: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦]
>
> **تبصِّرنا بأن الكفر يمثِّل أزمة نفسيَّة عميقة، ولذا يلجأ أصحابه إلى التَّشويش على الحقِّ بدلًا من البحث عن العلم الذي يُظهره الحقُّ.**

---

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (ص: ٣٩٥)، وظاهر عبارة ابن عاشور أن ﴿ذَا﴾ اسْم إِشَارَة. التحرير والتنوير (١/ ٣٦٤)، والبيت للبيد في ديوانه (ص: ١٣١).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٦٥).

(٣) وقيل هو على الحال، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣].

الكافر الْمُكَابِرُ يَقُولُ مَا لَا يَعْتَقِدُ(١)، ويعمل على أن يعيث في الأرض ويفسد، ولما سمع النَّاس كلام الله عَزَّوَجَلَّ ظهر نوره في قلوبهم وعقولهم، وبُهِتَ الذي كفر، وبدلًا من أن يسلم لجَّ وعاند وكابر، فأظهر المستقيم في صورة المعوجِّ، والحسن الوسيم في صورة القبيح الفجِّ.

هنا ربما تسأل عن التَّشويش، فلماذا يلجأ إليه الكفَّار؟

الجواب: ليحقِّقوا الكفر في حياتهم، ويعملوا على إدخال الكفر إلى النَّاس، فعندما يشوِّشون يضمنون ألا ينتفع البشر بكلمات الله المباركات التي أنزلها إلى الأرض، فينصرفون عمَّا فيها من الدُّروس والعِبَر، ويذكر ابن عبَّاس وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم أنَّ الله تعالى لما قال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧]، وقال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩] قال المنافقون: الله أَجَلُّ من أن يضرب هذه الأمثال.

وهذا التَّشويش يتكرَّر مع من يغطُّون الحقائق، كما حصل مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قال له فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشُّعَراء: ٢٣-٢٤] ردَّ عليه بذلك، لأنه قال: أليس لي ملك مصر، فكأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال له: إذا أنت لك ملك مصر، فالإله الذي أدعو إليه هو ربُّ السَّموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين، فبدلًا من أن يردَّ على الحُجَّة قام يشوِّش: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشُّعَراء: ٢٥]، فكذلك الذين كفروا عندما يسمعون كلام الله ينصرفون، ويحاولون أن يشوِّشوا على جماله، وكماله، وجلاله.

وترى الله جَلَّ جَلَالُهُ **يصف هذا الفريق بأنَّهم** (كفروا) وقد سبق أن كلمة (كفر) تصف واقعًا عقليًّا ونفسيًّا متأزِّمًا، كما تصف جُرْمًا فكريًّا في حقِّ من يوصف بذلك وفي حقِّ البشريَّة؛ إذ معنى كلمة (كفر): غَطَّى وسَتَرَ، وبذا تكشف هذا الكلمة كثيرًا من الزَّيف الذي تعيشه الأُمَّة، يعني:

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٥٩).

غطَّوا وجدوا الحقائق العظيمة التي تؤسِّس لحياة إنسانية أفضل، وفي مقدِّمتها حقيقة الإيمان.. وهم لا يحتاجون في موضوع البعوضة وأخواتها إلى الاستكشافات العلميَّة ليعرفوا الإعجاز في خلقها، فهذا المخلوق الصَّغير فيه من العجائب ما جعلهم يقولون:

لا تَسْتَخِفَّنَّ الفتى بعَداوةٍ أبدًا وإن كان العَدُوُّ ضَئِيلا

إنَّ القَذَى يُؤْذِي العُيُونَ قليلُه ولرُبَّما جَرَحَ البَعُوضُ الفِيلا[1]

ويُظْهِرُ الزَّمخشريُّ رحمه الله حقيقة الأزمة التي يمرُّ بها الكفَّار، وهم يحاولون عبثًا أن يطمسوا هذه الأنوار، فيقول: «والتَّمثيل بهذه الأشياء وبأحقر منها مما لا تخفى استقامته وصحَّته على من به أدنى مُسْكَة، ولكنَّ ديدنَ المحجوجِ المبهوت الذي لا يبقى له مُتَمَسَّكٌ بدليل، ولا مُتَشَبَّثٌ بأمارة ولا إقناع، أن يرمي لفَرْط الحَيْرةِ والعجز عن إعمال الحيلة بدَفْعِ الواضح، وإنكار المستقيم، والتَّعويل على المكابرة والمغالطة، إذا لم يجد سوى ذلك مُعَوَّلًا.

وعن الحسن وقتادة رحمهما الله: لما ذكر الله عز وجل الذُّباب والعنكبوت في كتابه، وضرب للمشركين به المثل، ضحكت اليهود وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله سبحانه وتعالى، فأنزل الله عز وجل هذه الآية»[2].

وليس بالضَّرورة أن توجد أسباب لنزول الآية كما ترى، خاصَّة مع ضعف الآثار الواردة في ذلك، وتعدُّدِ جهاتِها ووَهْنِ أسانيدها.. يكفي أن يكون هذا الأسلوب البديع: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦] إثاريًّا محفِّزًا للفت الأنظار الغافلة إلى إعمال العقل، وتحريك التَّفكير فيما حولها لترى دلائل استحقاق الله عز وجل لأَنْ يُعْبَدَ واضحة، ولتكتشف قوانينَ حركة الحياة مِنْ حولها من أصغر المخلوقات إلى أكبرها.

(١) البيتان لأبي الفتح البُستي. ينظر: حياة الحيوان الكبرى (١/ ١٨٥).

(٢) الكشاف (١/ ١١١).

بصيرة [٧]: أثر المثل القرآنيِّ في العالم: فيُبَصِّرنا قوله جلَّ ذكره ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] بالأثر العظيم الذي يُحْدِثه المَثَل القرآنيُّ حسب صفاء القلوب: فالفُسَّاق قساة القلوب يضلُّهم الله ﷻ به لرداءة قلوبهم، حيث يصرُّون على ردِّ الحقِّ، وأمَّا المؤمنون فيهتدون به لصفاء قلوبهم، حيث يسمعون الحقائق ويعتنقونها.

فمَن تشكَّك فيما جاء من الله ﷻ أضله الله، ومن عظَّم ما جاء عن الله ﷻ هداه الله، وانظر الجملة السَّابِقَة لتجد أن الله ﷻ ذكر المؤمنين أولًا، والكافرين ثانيًا في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦]، ثمَّ رتَّب عليهم ذِكْرَ الحكم اللَّائق بكلِّ واحدٍ منهم فقال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦]، فبدأ الله ﷻ بذكر الإضلال المتعلِّق بالكافرين قبل الهداية المرتبطة بالمؤمنين على طريقة اللَّفِّ والنَّشْرِ المَعْكُوس[1]؛ وأسند الفعل في ﴿يُضِلُّ﴾، و﴿يَهْدِى﴾ إليه -جلَّ مَجدُهُ-؛ ليبيِّن إحاطته بالخلق، وعدم خروج شيء عن إرادته، ولكنه سيبيِّن أن لهذا الإضلال سببًا يشير إلى سبب الهداية أيضًا.

ولكنك لا بدَّ أن تسأل عن معنى ﴿يُضِلُّ﴾؟ وما الحكمة في مجيء هذه الكلمة وصفًا لهؤلاء الكافرين المُشَوِّشين على الحقِّ؟

الجواب يتَّضح من خلال البصيرة الآتية:

---

(١) اللَّفُّ والنشر: «هو ذكر متعدِّد على التفصيل أو الإجمال، ثم ذكر ما لكلِّ واحد من غير تعيين، ثقة بأنَّ السامع يردُّه إليه»، وهو نوعان: مُرَتَّب، ومُشَوَّش؛ فإن رُتِّبَ الكلام حسب ما ذُكِرَ أوَّلًا كان مُرَتَّبًا، وإن لم يرتَّب الكلام حسب ما ذُكِر أوَّلًا، كان مُشَوَّشًا. ينظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (٢/ ٢٤٦).

بصيرة [٨]: ﴿يُضِلُّ﴾ [البقرة: ٢٦] تبصِّرك بأن جهود الكافرين في التَّشويش على الحقِّ، ليست إلا في طريق الضَّلال الذي يعني الضَّياع والغياب عن الصَّواب، والهلاك الحتميِّ النِّهائيِّ.

ستقول: وكيف ذلك؟

أجيبك بأن كلمة ﴿يُضِلُّ﴾: من ضَلَّ[1]، والضَّلالُ والضَّلالةُ: ضدُّ الهُدَى والرَّشاد، مِن: ضَلَلت أضِل، وضَلِلت أضَل وأضِل، قال ﷻ: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِي﴾ [سبأ: ٥٠]، فضَلَّ الشَّيء يَضل ضلالًا، أي: ضاع وهلَك، والضَّلال: ضَيَاعُ الشَّيء وَذَهَابُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وأضللتُ الميْتَ: دَفَنْته، وقوله ﷻ: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ﴾ [السجدة: ١٠] أي: غُيِّبْنَا في الأرض، فذهبت عظامنا فيها، وغابت وضاعت، فصار الضَّلال يجمع الضَّياع، والهلاك، والغياب، والذَّهاب في غير الوجهة الصَّحيحة.

والآن بقي لنا أن نرى مدلول كلمة ﴿كَثِيرًا﴾ في الآية؛ إذ تعجب من تقابُل المهتدين والضَّالِّين في الكميَّة، حيث وصف كلًّا من الفريقين بالكثرة، فكيف نجمع بينها، وبين الأدلَّة التي تبصِّرنا بأنَّ الضَّالِّين أكثر: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٦﴾ [الأنعام: ١١٦]؟

الجواب: لعلَّ من البصائر القُرآنيَّة التي نستنبطها من كلمة ﴿كَثِيرًا﴾ في وصف المهتدين أنَّ الله ﷻ أشاد بهم، فَهُمْ مَنْ يهتدي بالأمثال القُرآنيَّة، فلا تمرُّ الأمثال عليهم مرور المستمع غير المنتفع، بل يجعلون مضامينها مناهج حياة، وبذا فإن المهتدين بالأمثال القُرآنيَّة -وإن كانوا

---

(١) مقاييس اللغة (٣/ ٣٥٦)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٠٩)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٢٩٦).

قليلًا- فَهُمْ كثرةٌ بانتفاعهم ونفعهم للبشريَّة، في مقابل كثرة الضَّالِّين الفاسقين بعددهم وإضلالهم، كما قيل:

قليـــلٌ منــــكَ يَكْفِينِــــي ولكـــن   قليلُـــك لا يقـــال لـــه قليـــلُ[١]

فالمؤمنون هم الأقلُّون في غالب الأزمنة، فقد قال النَّبيُّ ﷺ: «مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ»[٢]، وقال ﷺ: «إِنَّمَا النَّاسُ كَالإِبِلِ الْمِائَةِ، لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً»[٣]، ولعلَّ ذلك لأن الْمُهْتَدِينَ -عَلَى قِلَّتِهِمْ- هم الذين يعمرون الأرض، ويقيمون اعوجاج الحياة، ويعالجون جروح البشريَّة، فكأنهم -على قِلَّتِهِمْ- يعينون البشريَّة على البقاء على عكس الضَّالِّين الذين يقودون البشريَّة إلى الفناء، كما قيل:

سَــأَطْلُبُ حَقِّــي بِالقَنَــا وَمَشَــايِخٍ   كَــأَنَّهُمُ مِــنْ طُــولِ مَــا الْتَثَمُــوا مُــرْدُ
ثِقَــالٍ إِذا لاقَــوا، خِفَــافٍ إِذا دُعُــوا   كثيــرٍ إِذا شَــدُّوا، قَلِيــلٍ إِذا عُــدُّوا
وَطعــنٍ كَــأَنَّ الطَّعْــنَ لَا طعــنَ بعــده   وَضَــرْبٍ كَــأَنَّ النَّــارَ مــن حَــرِّه بَــرْدُ[٤]

وترى الْوَاحِد من المهتدين بأمثال القرآن بِعَشَرَةٍ فِي مواجهة أزمات الحياة حَالَ الْقُوَّةِ وَالْعَزِيمَةِ، وهم الذين يقودون العالم إلى الرُّشد والخير والحفاظ على الإنسانيَّة، على عكس الضَّالِّين الفاسقين المفسدين في الأرض:

---

(١) البيت لأبي نصر أحمد بن علي المِيكَاليِّ. ينظر: الدر الفريد وبيت القصيد (٨/ ٣٥٦).

(٢) البخاري (٣٣٤٨).

(٣) البخاري (٦٤٩٨).

(٤) القصيدة للمتنبي في ديوانه (ص: ١٩٨)، وفيه: (إذا اشتدوا) بدلًا من (إذا شدوا).

وَلَــــمْ أَرَ أَمْثَـــالَ الرِّجَـــالِ تَفَاوُتًـــا إِلَـى الْمَجْـدِ حَتَّـى عُـدَّ أَلْـفٌ بِوَاحِـدِ (١)

وقيل:

النَّـــاسُ أَلْـــفٌ مـــنهم كواحـــدِ وواحـــدٌ كـــالألفِ إِنْ أَمْـــرٌ عَنَـــا (٢)

وهناك سببٌ آخر في التَّعبير عن الفريقين بالكثرة، ويشير إليه ابن المُنَيِّر رحمه الله، فيقول: «إنَّ عدد المهديين كثيرٌ في نفسه، ومضمون الآيات الأُخَر أنَّ عَدَدَهم قليلٌ بالنِّسبة إلى كثرة عدد الضَّالِّين، فعبَّر عنه تارة بالكثرة؛ نظرًا إلى ذاته، وتارة بالقِلَّةِ؛ نظرًا إلى غيره»(٣).

وردَّ ابن المُنَيِّر على الزَّمخشريِّ رحمهما الله في مثل هذا الموطن وَفْقَ ظهور الاختلاف بين الفريقين، فقال: «يا له من تمثيلٍ صار به مُثْلَةً، وتنظيرٍ صار به حائدًا عن النَّظر الصَّحيح، مردود على التَّفصيل والجملة»(٤)، مع أنك لو جمعت بين القولين وأزلت سوء الظُّنون لوجدت تقارُبًا في الفكر والهدف.

فقوله: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] بيانٌ للواقع الذي يؤول إليه البشر عندما يسمعون أجمل الكلام وأعظمه مع بقاء الاختيار العقليِّ، وعدم وجود قُوَّةٍ تُكْرِهُهُم على اختيار محدَّدٍ، واختيارهم هنا يعكس مدى صفاء نفوسهم، أو سوء معادنهم.

فعند حمل قول الكافرين الذين يسترون الحقائق على ظاهره عندما تساءلوا: ماذا أراد الله بهذا مثلًا، يأتيهم الجواب كما يأتي لغيرهم البيان:

---

(١) البيت للبحتري في ديوانه (٢/ ٦٢٥) بلفظ: ولم أر أمثال الرجال تفاوتت ... إلى الفضل حتى عُدَّ ألفٌ بواحِدِ.

(٢) البيت لابن دريد في ديوانه (ص: ١٤٠).

(٣) انظر: الكشاف (١/ ١١٨) مع حاشية ابن المُنَيِّر.

(٤) انظر: الكشاف (١/ ١١٨) مع حاشية ابن المُنَيِّر، تفسير البيضاوي ١/ ٦٤، تفسير المنار (١/ ٢٠٠).

إذا سمعتم أقوى الكلام فلا تتوقَّعوا الاقتناع التامَّ به من كلِّ البشر! لا تتوقَّعوا الاعتناق المباشر لحقائقه، والإيمان بمحتواه.. لماذا؟ لأنَّ الله ﷻ لم يُكْرِهِ النَّاس على اختيار محدَّدٍ، بل أعطاهم حريَّة الاختيار، وبذا فإنَّ كلامه –جلَّ في علاه-: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦]، يُظْهِرُ عدل الله ﷻ، فهو –جلَّ مجدُه– يُضلُّ بالقرآن كثيرًا.. لماذا؟ لأنَّ هذا الذي أضلَّه الله ﷻ يستحقُّ الإضلال؛ فقد سمع الحقَّ الواضح، إلا أنه كابر، وأعرض عنه، وعاند، وأصرَّ على ستر الحقيقة بكفره، ومال عن النُّور باستكباره وخيلائه وفخره.

وهو –تعالى شأنه– يهدي بالقرآن كثيرًا؛ لماذا؟ لأنَّ هذا الذي هداه الله ﷻ سمع الحقَّ، فآمن، فوجد الأمان النَّفسيَّ، والمعيشيَّ، فاستحقَّ أن يزيده الله ﷻ هدى؛ لصبره على الحقِّ، وصدقه، وشكره.

وهنا يأتي السُّؤال: هل يعني قول الله ﷻ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] أنَّ الله ﷻ يُكْرِه كثيرًا على الضَّلال، كما يُكْرِه فريقًا آخر على الهدى؟

يأتي الجواب في الجملة الأخيرة من الآية ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، وتبصِّرنا بالبصيرة الآتية:

بصيرة [٩]: المسؤوليَّة الذَّاتيَّة، وأثر الاختيار: فيُبَصِّرنا قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] بأن الإضلال يكون جزاء وفاقًا، فليس المَثَل القرآنيُّ منشأ للإضلال بذاته، لكن الفاسق يتلقَّاه بالردِّ والصَّدِّ، ويستخدمه في السُّوء، فطبيعته الفاسقة جعلته يتلقَّى الخير بالسُّوء، فيصبح به ضالًّا، من قول العرب: فَسَقتِ الرُّطبة مِن قشرِها إذا خرجت منها لعَاهَةٍ أفسدتها فجعلتها رديئة.

هذه الجملة الذَّهبية الرَّائعة مفتاحٌ لفهم كثيرٍ من النُّصوص القُرآنيَّة، فربُّما كَانَ التَّعبير بِقوله: ﴿يُضِلُّ﴾ مُشْعِرًا بِأَنَّ الْمَثَلَ هُوَ مَنْشَأُ الْإِضْلَالِ بِذَاتِهِ، أو مُشْعِرًا بأن الله ﷻ يضلُّ بالمثل كيفما اتفق لا وَفْقَ الحكمة، فجاءت هذه الجملة البديعة ليخبرنا الله ﷻ فيها عن سبب الإضلال.. تأمَّل ذلك: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، ولاحظ العجب في وصفهم، فقد وصفهم بالاسم ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ لا بالفعل، والاسم يدلُّ على رسوخ الفسق فيهم، وفي حياتهم وأحوالهم.

ولكن ما معنى كلمة ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؟ وما الحكمة في اختيار هذه الكلمة في وصف هذا الصِّنف الذي أضلَّه بالقرآن بدلًا من أن يهديه به؟

الجواب: الْفِسْقُ(١) هُوَ الْخُرُوجُ عَنِ الأمر الفِطريِّ الطَّبيعيِّ، فنقول: فَسَقَ فلان أي: خرج عن نظام الفطرة الإلهيَّة، وهذا التَّعريف مأخوذ من قول الْعَرَب: فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ عَنْ قِشْرِهَا: إِذَا خَرَجَتْ منها لرداءتها، فالخروج من القِشْر عَاهَةٌ، أَوْ رَدَاءَةٌ فِي الثَّمَرِ، فَهُوَ خُرُوجٌ مَذْمُومٌ، يُعَدُّ مِنَ الْأَدْوَاءِ، مِثْلَ مَا قال النَّابِغَةُ:

صِـغَارُ النَّـوَى مَكْنُـوزَةٌ لَـيْسَ قِشْـرُهَا ... إِذَا طَـارَ قِشْـرُ التَّمْـرِ عَنْهَـا بِطَـائِرِ(٢)

وهذه الكلمة من مبتكرات القرآن؛ فقد نقل ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ أن ابْن الْأَعْرَابِيِّ قال: لَمْ يُسْمَعْ قَطُّ فِي كَلَامِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي شِعْرٍ وَلَا كَلَامٍ: (فَاسِقٌ). قَالَ: وَهَذَا عَجَبٌ، هُوَ كَلَامٌ عَرَبِيٌّ، وَلَمْ يَأْتِ فِي شِعْرٍ جَاهِلِيٍّ(٣)، وتسمَّى الحشرة الخارجة من جُحْرها لتعيث فسادًا فُوَيْسِقة، فعَنْ

---

(١) ينظر: العين (٥/ ٨٢)، تفسير الطبري (١/ ٤٠٩)، تهذيب اللغة (٨/ ٣١٥)، مقاييس اللغة (٤/ ٥٠٢)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٣٨٠)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٦٧٣).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٦٦)، والبيت في ديوان النابغة الذبياني (ص: ٩٩).

(٣) مقاييس اللغة (٤/ ٥٠٢).

جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﵄ رَفَعَهُ قَالَ: «فَإِنَّ الْفُوَيْسِقَةَ رُبَّمَا اجْتَرَّتِ الْفَتِيلَةَ فَأَحْرَقَتْ أَهْلَ الْبَيْتِ»(١) أي: الفأرة -وكلُّ حيوان أو حشرة مثلها- وكأنَّ الفأْرَةَ سمِّيَتْ فُوَيْسِقَةً؛ لخروجها من جُحرها، فكذلك المنافق والكافر سُمِّيا فاسقيْن، لخروجهما عن طاعة ربِّهما، ومنه قولهم:

ائـــتِ غلامًـــا كـــالفَنِيقِ ناشـــئًا أَبْلَـــجَ فِسِّـــيقًا كَـــذُوبًا خَاطِئـــا(٢)

وذهب الرَّاغب ﵀ إلى أن الفِسْق أعمُّ من الكفر، فالفِسْقُ يقع بالقليل من الذُّنوب وبالكثير، لكن تُعُورِفَ فيما كان كثيرًا، وأكثر ما يقال الفَاسِقُ لمن التزم حكم الشَّرع وأقرَّ به، ثمَّ أخلَّ بجميع أحكامه أو ببعضه، وإذا قيل للكافر الأصليِّ: فَاسِقٌ، فلأنَّه أخلَّ بحكم ما ألزمه العقل، واقتضته الفطرة، هكذا ذهب الرَّاغب ﵀، ثم استدلَّ بآيات القرآن المجيد، وما قرَّره ﵀ صحيح، وقد أضاف قاعدة أخرى، فقال: «فالفاسق أعمُّ من الكافر، والظَّالم أعمُّ من الفاسق»(٣).

فالكفر يطلق على الذُّنوب الكبيرة، سواء أكانت مخرجةً من المِلَّة أم لا؛ إذ الأمر كما قال البخاري ﵀: «باب كُفْرَانِ الْعَشِيرِ، وَكُفْرٍ دُونَ كُفْرٍ»(٤)، فالكفر تغطية للحقِّ، ومن تغطية الحقِّ ما يكون كفرًا مخرجًا يساوي الشِّرك، ومن تغطية الحقِّ ما لا يكون كذلك، ولكنه إن لم يكن كفرًا أكبر كان من الكبائر، والفسق خروج عن النِّظام الحقِّ إلى الباطل، وفي الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «سِبابُ المسلم فسوق، وقِتالُه كفرٌ»(٥) قال التِّرمذيُّ ﵀: «ومعنى هذا الحديث «قتاله كفر»: ليس به كفرًا(٦)، مثل الارتداد

(١) البخاري (٣٣١٦).

(٢) العين (٥/ ٨٢)، والبيت غير منسوب لأحد. والفنيق: المُنَعَّم.

(٣) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٣٧).

(٤) البخاري (١/ ١٤).

(٥) البخاري (٤٨).

(٦) والتقدير: ليس الكفر الواقع به كفرًا مُخرجًا من الملة. فـ(كفرًا) خبر ليس.

عن الإسلام...وقد روي عن ابن عبَّاس ﵄، وطاووس، و عطاء ﵏، وغير واحد من أهل العلم قالوا: كفر دون كفر، وفسوق دون فسوق»[(١)].

وقال البيهقيُّ ﵀: «وَالَّذِي رُوِّينَا عَنِ الشَّافِعِيِّ ﵀ وَغَيْرِهِ مِنَ الأَئِمَّةِ مِنْ تَكْفِيرِ هَؤُلَاءِ الْمُبْتَدِعَةِ، فَإِنَّمَا أَرَادُوا بِهِ كُفْرًا دُونَ كُفْرٍ، وَهُوَ كَمَا قال اللهُ ﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] قال ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄: إِنَّهُ لَيْسَ بِالْكُفْرِ الَّذِي تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ، إِنَّهُ لَيْسَ بِكُفْرٍ يَنْقُلُ عَنْ مِلَّةٍ، وَلَكِنْ كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ»[(٢)].

وقَعَّد عطاء ﵀ في فَهْمِ هذه المصطلحات تقعيدًا عامًّا فقال: «كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق»[(٣)].

معاني الفِسق في القرآن الكريم:

وردت آيات القرآن في الوصف بالفسق على ثلاثة أنحاء:

النَّحو الأول: آياتٌ ذكَرَتِ الفِسْق على أنه كفر أكبر، كما قال الله تعالى عن إبليس: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]، فلا يحتمل فِعْلُه إلا الكفر الأكبر، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [البقرة: ٩٩]، فِسْقُهم هنا كفر أكبر؛ لأن سياق الكلام عن صنف من أهل الكتاب عادَوا جبريل ﵇، ثم كفروا بمحمَّد ﷺ، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧]، فإن الكلام عن الكفر الأكبر، فقد تقدَّم ذكر ذلك عنهم في السُّورَة في

---

(١) الترمذي (٤/ ٣١٨)، تحقيق: د. بشار، وينظر: صحيح سنن الترمذي (٣/ ٥٠)، حديث رقم (٢٦٣٥)، وكلام الترمذي المذكور أنكره د. بشار عواد معروف، وذكر أنه لم يجد له أصلًا في النُّسَخ والشروح، ولا ذكرها المزي في التحفة.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٣٥٠).

(٣) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٢١) رقم (٧١٧).

قوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٦].

النَّحو الثاني: آياتٌ ذَكَرَتْ الفِسْق على أنه ذنوب يقترفها المسلم، وليست كفرًا أكبر، ولكنها من كبائر الذنوب، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤]. فإن الله ﷻ قال بعدها: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٥].

النَّحو الثالث: ما يحتمل الأمرين معًا: الكفر الأكبر، والكفر الأصغر، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨] فسياق الآية في الوصية والإشهاد عليها، ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ﴾ [السجدة: ١٨]، فقابل به الإيمان.

ولكنَّ مصطلح (الكفر) إذا اجتمع مع مصطلح الفسق أريد بالأوَّل الكفر الأكبر، وبالثاني كبائر الذُّنوب، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧].

فالفاسقون هم الذين خرجوا عن الأمر الطَّبيعيِّ الذي ينبغي أن يكونوا عليه، كما تخرج التَّمرة من قشرها، وهم هنا يخرجون عن الاستماع الواعي للبيان الإلهيِّ الخاتم، ويراوغون فيقولون عن كلِّ كلامٍ يجيء من الله تعالى: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦].

واختار الله ﷻ هذه الكلمة في وصف هذا الصِّنف الذي أضلَّه بالقرآن؛ لأنها الكلمة المناسبة التي تصف حالهم، فَهُمْ بدلًا من أن يستمعوا إلى كلمات الله ﷻ، فيؤمنوا بها، ويعلموا أنها الحقُّ يخرجون عن الطَّوْر الطَّبيعيِّ كما تخرج التَّمرة عن قشرتها، وكما تخرج الفأرة لتعيث

في البيت فسادًا، وذو الطَّبيعة السَّليمة يعلم أنَّ ما يصدر عن خالقه لا يمكن إلا أن يكون حقًّا، لكن هؤلاء اختاروا الفسق بالخروج عن الطَّبيعة السَّليمة، وصوَّرت لنا ذلك هذه الجملة الذَّهبيَّة: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] فإضلالهم كان جزاء وفاقًا على اختيارهم.

ولكن هذا يسوقنا إلى أن نتعرف إلى المعنى الكلِّيِّ لقوله ﷻ: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، فما المعنى الكلي لها؟

الجواب: كلمة ﴿يُضِلُّ﴾ من أضل تدلُّ على معنيين في وقتٍ واحدٍ:

المعنى الأول: وما وجدنا ضالِّين إلا الفاسقين كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢]، فالْهَمْزَة قد تَجِيءُ لِمُجَرَّدِ الْوُجْدَانِ، فقد حُكِيَ عن عمرو بن معد يكرب أنه قال لبني سُلَيْمٍ: قَاتَلْنَاكُمْ فَمَا أَجْبَنَاكُمْ، وَهَاجَيْنَاكُمْ فَمَا أَفْحَمْنَاكُمْ، وَسَأَلْنَاكُمْ فَمَا أَبْخَلْنَاكُمْ. أَيْ: فَمَا وَجَدْنَاكُمْ جُبَنَاءَ، وَلَا مُفْحَمِينَ، وَلَا بُخَلَاءَ. وَيُقال: أَتَيْتُ أَرْضَ فُلَانٍ فَأَعْمَرْتُهَا، أَيْ: وَجَدْتُهَا عَامِرَةً، قال الْمُخَبَّلُ:

تَمَنَّى حُصَيْنٌ أَنْ يَسُودَ جِذَاعُهُ ... فَأَمْسَى حُصَيْنٌ قَدْ أَذَلَّ وَأَقْهَرَا[1]

أَيْ: وُجِدَ ذَلِيلًا مَقْهُورًا[2].

المعنى الثَّاني: صيَّرناهم ضالِّين أي: لما وجدناهم يضلون -وهو المعنى الأوَّل- ويصرُّون على الضَّلال عاقبناهم بجعل قلوبهم سوداء، مختومًا عليها، لا يصلها نور الهداية، وذلك لأنَّهم اتبعوا غواية الشَّيطان، الذي قال الله ﷻ عنه: ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥] وَقَالَ:

---

(١) البيت للمُخَبَّل السعدي. ينظر: الصحاح (٢/ ٨٠١)، لسان العرب (٥/ ١٢٠)، وهذا البيت فيه خطأ، وكأنه تَحَرَّفَ في تفسير الرازي في تفسيره (٢/ ٣٦٥)، فجميع مصادر اللغة والتفسير مطبقة على أنه بلفظ: (أن يسودَ جِذَاعُهُ)، وبعضها تنصب العين: (جِذَاعَهُ)، يروى أيضًا: (قد أُذِلَّ وأُقْهِرَا)، وهذا البيت يهجو فيه المُخَبَّلُ الزِّبْرِقانَ، والجِذاع: هم رهط الزِّبْرِقان، وهم أولاد السَّعْفاء بنت غَنْم من بني باهلة، ويقال لَبَنِيها: الجِذاع، وليس المقصود قبيلة خزاعة.

(٢) تفسير الرازي (٢/ ٣٦٥).

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [النِّساء: ١١٩]، وقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النَّمل: ٢٤، العنكبوت: ٣٨]، لكنه لم يفرض عليهم، بل دعاهم فاستجابوا له، كما قال الله ﷻ حاكيًا قول الشَّيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وكذلك اتبعوا أولياء الشَّيطان الذين قال الله ﷻ عن واحدٍ منهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ [فصلت: ٢٩]، وقال عن وليٍّ آخر من أولياء الشَّيطان: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩]، فالإضلال حدث بضرب تلك الأمثال لفسق السَّامعين، لا لأنَّ الله ﷻ ظلمهم، أو أراد لهم السُّوء ابتداء، فإذا سمع المؤمن الأخبار في القرآن بادر إلى التَّصديق والتَّسليم، وإذا سمع الأحكام بادر إلى السَّمع والطَّاعة والإذعان، فلا يقول: لماذا يا الله قلت كذا؟ أو ما أردت بهذا؟ بل يقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فإذا كانت الهداية منحة خالصةً حقيقية من الله -تعالى جَدُّه- فإن الإضلال -حسب هذه الجملة المباركة- جزاءٌ مستحَقٌّ على الإعراض عن استماع كلام الله ﷻ، واختيار جانب الفسق ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

ألا ترى أنه يذكر أنه يضلُّ بالأمثال التي يضربها الفاسقين الخارجين عن طاعته؟

وهكذا ظهر الجواب عن السُّؤال المتكرِّر: لماذا يضلُّ الله الكفَّار؟ وقد ترى بعضهم ينبري هنا ليسألك عن قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] إذا كان الضَّمير في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ يعود إلى القرآن، أو إلى أمثال القرآن، فهل هذا يعني أنَّ القرآن سببٌ للإضلال؟

الجواب واضحٌ: فالقرآن ليس سببًا للإضلال، بل هو سببٌ للهداية، ولكن الفاسقين يأبون إلا اختيار الإعراض عنه.. تنبَّه معي -وفَّقك الله- إنهم لا يختارون الإعراض عنه فحسب. بل يختارون مخالفته فسقًا أي: خروجًا عن طاعة الله ﷻ التي بها يمكنهم أن يجدوا الحياة

الطَّيِّبة.. فإن أمرهم بالعفاف أقاموا مؤسَّسات العُهر الدَّولية للتَّرويج للفسق والفواحش، وإن نهاهم عن الرِّبا أبوا إلا أن يدخل الرِّبا في كلِّ زوايا الحياة.. فماذا يكون جزاؤهم وقد أصرُّوا على تسميم الحياة إلا أن يضلَّهم الله ﷻ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، فالفعل ﴿يُضِلُّ﴾ ليس بمعنى يجبر على الضَّلال ابتداء، بل يوقع في الضَّلال جزاء، وقد فصَّلَ الله ﷻ ذلك بِجلاء في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فالإنسان هو المستفيد الأكبر من سعيه للهداية: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٨]، كما أنه هو الخاسر الأكبر من اختياره الضَّلال: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠٨]، وقد تعدَّدت الآيات التي تبيِّن المسؤوليَّة الذَّاتيَّة عن الاختيار في الحياة الدُّنيا، حيث يقول الله ﷻ: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، إلا أن المعاندين المشوِّشين على القرآن بقولهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦] يزدادون ضلالًا؛ لأن عنادهم يورث قلوبهم قسوة، ويبيِّن النَّبيُّ ﷺ حالهم فيقول: «إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ ﷻ: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»[1].

(١) الترمذي (٣٣٣٤)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وحسَّنه الألباني، والوادعي في الجامع الصحيح (١٦٥٣)، وقوله: (سُقِلَ قَلْبُهُ) بِالسِّينِ الْمُهْمَلَةِ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَفِي رِوَايَةِ أَحْمَدَ: (صُقِلَ) بِالصَّادِ، قَالَ فِي الْقَامُوسِ: السَّقْلُ: الصَّقْلُ، وَقَالَ فِيهِ صَقَلَهُ: جَلَّاهُ. ينظر تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٩/ ١٧٨).

أنعمِ النَّظر: إنه قلبٌ خليٌّ، إذا أتاه أمرٌ من الله ﷻ اتبعه فتُنْكَت فيه نكتة بيضاء، ثم يزداد بازدياد ذلك بياضًا، وإذا لم يتبعه وعصى نُكِتَتْ فيه نكتة سوداء؛ لأنه أعرض عنه، ثم يزداد اسودادًا ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، فشَبَّه العاصي المتمرِّد على الله ﷻ الذي لا يتَّبع هداه بالذي يخرج من المكان الآمن الذي يجد فيه الرِّي والغذاء فينفصل عنه، فكذلك هو يخرج عن المكان الذي يجد فيه الأمن وهو القرآن الكريم.

وبعد أن عَرَّفَتْنا الآية على منشأ الفسق، وهو التَّشويش على البيان الإلهيِّ الخاتم بدلًا من الانتفاع له، فيقولون: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا﴾، تُعَرِّفُنَا بأن الإضلال لا ينال إلا الفاسقين الذين فسقوا بخروجهم عن المنهج المنطقيِّ الحقِّ الذي يفترض أن يتعامل به المخلوق، وهو المنطق الذي يهديه إلى البرنامج الذي هيَّأه له خالقه.

وأزيدك بيانًا يَظْهر شعاعه في الكلمات القُرآنِيَّة، فقد تتساءل: ما الحكمة في اختيار الاسم ﴿ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ دون الفعل، فلم يقل: وما يضل به إلا من يفسق؟

الجواب: لاحِظْ معي البيانَ القرآنيَّ أكثر لتجد أنَّ الله ﷻ ذكر أنه لا يُضِلُّ إلا ﴿ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾، فهم لم يفسقوا فحسب، بل رسخوا في الفسق وأصرُّوا عليه، كما هي عادة الاسم في الدِّلالة على ثبات الشَّيء ودوامه، ولو كان عصيانهم مسألة عابرة طارئة لَمَا أضلَّهم الله ﷻ، بل هو يرحم العبد حيث لا يرحم العبدُ نَفْسَه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

ولذا ذَكَرَ الله ﷻ الضَّلَالَ مَنْسُوبًا إِلَى الْعُصَاةِ، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤]، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [محمد: ١].

وهم بذلك يجعلون ما أمامهم سببًا للضَّلالة، فإن جاءهم الحقُّ أعرضوا عنه وحاربوه، فصار سببًا في إضلالهم بدلًا من أن يكون سببًا لهدايتهم؛ بسبب عقلهم المغلق، وفِكْرهم المتعصِّب، حيث استحبوا العمى على الهدى، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٦]، وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ [المؤمنون: ١١٠]، وكذلك إن جاءهم الباطل اتَّبعوه، فصار سببًا في إضلالهم بصورةٍ أعظم، كما في قوله تعالى فِي حَقِّ الْأَصْنَامِ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] أَيْ: ضَلُّوا بسببهن، ولأن الفاسق مُصِرٌّ على اتخاذ أولياء من دون الله ﷻ، فإنه يصير أكثر ضلالًا، كما قال تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤].

بصيرة [١٠]: قوله -تعالى ذِكْرُهُ- ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] تعني انتبه لخطواتك، فالله تعالى خلقك على الفطرة، ولكنه مع ذلك جعلك مختارًا، فإن خرجت عن طاعة الله ﷻ فستُعَاقَب بالطّرد والإبعاد عن طريق السَّعادة والرَّشاد.

لذا قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: فسقوا فأضلَّهم الله ﷻ على فسقهم[(١)]، أي: فسقوا فعاقبهم الله سبحانه وتعالى بالإضلال، وهو قول ابن عبَّاس رضي الله عنهما في قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩] أي: بما بعُدوا عن أمري[(٢)]، فكلَّما ابتعد الإنسان عن الله ﷻ أضله الله سبحانه وتعالى، ولذلك قال أبو نواس:

لـن تَرْجِـعَ الأَنْفُـسُ عـن غِيِّهـا ... مـالم يكـن منهـا لهـا زاجـر[(٣)]

ومعنى هذا: لا تقل: لو أراد الله سبحانه وتعالى لأيقظني للفجر.. لو أراد الله ﷻ لأَغَثْتُ المسكين، وأعنت اليتيم..

لا تختبر ربَّك -أعزك الله- بل جعل الله ﷻ لك الاختبار، فينبغي أن تقوم للصَّلاة وتبادر، وتستبق الخيرات وتثابر.. انتبه لخطواتك، واختر قراراتك.. وكن كما قال ابن رسلان رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَزِنْ بحُكْـمِ الشَّـرعِ كـلَّ خَـاطِرِ ... فـإن يكـنْ مـأمورَه فبـادرِ

ولا تخـفْ وسوسـةَ الشَّـيطانِ ... فإنـه أمـرٌ مـن الـرَّحمنِ[(٤)]

والشَّكل الآتي يوضِّح موقف النَّاس من الأمثال:

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٠٩).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٤١٠).

(٣) ينظر: ذم الهوى لابن الجوزي (ص: ٧٦).

(٤) الزبد في الفقه الشافعي (ص: ٣٤٠).

موقف الناس من الأمثال

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: 26].

﴿فأما﴾ تبصرك الفاء في هذه الآية أن العالم سينقسمون أمام هذه الأمثال إلى فريقين:

الفريق الأول: المؤمنون، وهم أعظم الناس فِكرًا: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

1. استعداد لقبول الحق واعتناقه ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.
2. المعرفة النافعة المطابقة للواقع: ﴿فَيَعْلَمُونَ﴾.
3. اليقين بأن المثل حقٌّ ثابت لصدوره من الله: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.
4. نفوسهم مخبتة شفافة تستعد لفعل الذي يجب ولاستكشاف الحكمة ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

الفريق الثاني: الكفار الذين يغطُّون الحقَّ والحقائق بالتشويش والإعلام المضلِّل: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾:

1. الجهل والعناد وذلك من خلال وصف المؤمنين بـ(يعلمون).
2. اللجوء إلى التشويش الإعلامي المضلِّل لتغطية جهلهم: ﴿فيقولون﴾.
3. إنكار الحقائق وتغطية الحق لأول وهلة؛ ولهذا بادروا بالتشويش
4. لديهم أزمة نفسية عميقة بسبب كفرهم تدفعهم إلى التشويش على الحق: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾.

أثر المثل القرآني في العالم

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: 26]

1. **الفساق:** قساة القلوب يضلهم الله به لرداءة قلوبهم، حيث يصرون على رد الحق.
2. **المؤمنون:** فيهتدون به لصفاء قلوبهم، حيث يسمعون الحقائق ويعتنقونها.

الانتقال: ثم قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾ [البقرة: ٢٧] فما المناسبة والاتِّصال بين هذه الآية وما سبقها؟

بصيرة [١١]: الصِّفات العمليَّة الثَّلاث الكبرى التي اتَّصف بها الفاسقون، وبها استحقُّوا أن يضلَّهم الله ﷻ سواء انتسبوا إلى الكفر أم إلى الإسلام، ويُبَصِّرنا الله ﷻ بها في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ٢٧].

المناسبة والاتِّصال:

ذكر الله ﷻ الذين يَضِلُّون بالقرآن بدلًا من أن يهتدوا به، وعرَّفهم لنا، فسمَّاهم الفاسقين، وهم الذين خرجوا عن الأمر الطَّبيعيِّ (الشَّرعيِّ الفطريِّ) الذي ينبغي أن يكونوا عليه، كما تخرج التَّمرة من قشرها، وهم هنا يخرجون عن الاستماع الواعي للبيان الإلهيِّ الخاتم، ويراوغون فيقولون عن كلِّ كلامٍ يجيء من الله تعالى: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾ [البقرة: ٢٦]، وليكشفهم أكثر، ويبيِّن انعكاس أفكارهم الرَّديئة على العِوج الإداري في تعاملهم مع الحياة، بَيَّنَ صفاتِهم العمليَّة المدمِّرة، فقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

أصول صفات الفاسقين الضَّالِّين:

مفصل تفسير سورة البقرة (٢) — عبد السلام مقبل المجيدي

الصِّفة الأولى: تدمير علاقتهم بالله: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧]، فالنَّقْضُ: إفساد ما كان مُحْكَمًا، أو نكث ما كان مُبْرَمًا، والعهد: هو الوَصِيَّةُ الملزمة الحاضرة دومًا، وتكون من طرفٍ ويلتزم بها طرفُ آخر، والمعنى: ينقضون وصية الله ﷻ الملزمة التي عاهدوه عليها مع إحكام هذا العهد بشتَّى المواثيق المؤكِّدة، مثل عهد الألوهِيَّة، وعهد العدل بين الناس.

هنا تجذبك هذه الكلمات العظيمات في وصفهم ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧]، فما الذي تصوِّره لنا كلمة ﴿يَنقُضُونَ﴾؟

الجواب:

تبصِّرنا كلمة ﴿يَنقُضُونَ﴾ بأن عمل الفاسقين قائم على تدمير أيِّ بناء متين، سواء كان ماديًّا أم معنويًّا، فينكثون ويَحُلُّون كلَّ عروة محكمة صالحة.

فالنقض: نكثٌ وحَلٌّ لما كان محكمًا متَّصلًا من حبلٍ أو بناء، أو فسخ للوعود، أو انتثار للعقود، أو فكٌّ للمركب المعقود، بِفِعْلٍ يُعَاكِسُ الْفِعْلَ الَّذِي كَانَ بِهِ التَّرْكِيبُ(١)، فهو يطلق على تدمير ما كان محكمًا جميلًا قويًّا، ولذا فالنِّقْضُ والنِّقْضةُ هما الجمل والنَّاقة اللذان هزلتهما الأسفار وأدبرتهما، والمناقضة في الأشياء: العمل على تحطيم البناء المقابل إمَّا بصورةٍ مباشرة، أو بفعلٍ يجعل المقابل لا شيء كالمناقضة في الشِّعْر، والاسم النَّقيضةُ ويُجمَع نَقَائِض، والانتِقاضُ: أن يعود الجُرْحُ بعد البُرْء، ومنه قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٣] أي: كَسره حتى صار له نقيضٌ، والنَّقيضُ: صوت الأصابع، والمفاصل، والأضلاع، ومن ذلك قوله:

وحُــزْنٌ تُــنْقِضُ الأضــلاعُ منــه   مُقِـيمٌ فِـي الجَـوَانحِ لـن يَـزُولا (٢)

فإن قلت: فهمنا معنى كلمة ﴿يَنقُضُونَ﴾ في قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧]، فما الذي تصوِّره لنا كلمة ﴿عَهْدَ﴾؟

الجواب:

تبصِّرنا كلمة ﴿عَهْدَ﴾ بأنه الوَصِيَّةُ المُلْزِمة الحاضرة دومًا، وتكون من طرفٍ فيلتزم بها طرفٌ آخر، ويتعاهدها فلا ينساها، ولا يغفل عنها، ونقض العهد: إفساد تلك الوصيَّة وتغييرها، أو الإعراض عنها، أو الغفلة عما فيها.

(١) التحرير والتنوير (٣٦٧).

(٢) العين (٥/ ٥٠)، مقاييس اللغة (٥/ ٤٧٠)، المفردات للراغب (ص: ٥٠٤)، التحرير والتنوير (١/ ٣٦٨)، والبيت غير منسوب في تهذيب اللغة (٨/ ٢٧٠)، لسان العرب (٧/ ٢٤٤).

ومنه اشتُقَّ العَهْدُ[١] الذي يُكتب لِلْوُلاةِ، ويُجْمَعُ على عُهودٍ، وقد عَهِدَ إليه يَعْهَدُ عَهْدًا، وتضفي لنا هذه الكلمة من الناحية اللُّغَوِيَّة عددًا من الخصائص:

الأولى: لا بدَّ من استحضار الأمر الذي تمت عليه المعاهدة في كلِّ وقتٍ حتى كأنَّ الإنسان على صِلَة به، ولذا ذكر الخليل رَحِمَهُ اللَّهُ أن «العَهْد: الالْتِقاءُ، والإلمامُ، يقال: إنَّه لقريبُ العَهْد بِهِ، والعَهْدُ: المَنْزِلُ الذي لا يكادُ القوم إذا انْتَأَوْا عنه رجَعُوا إليه، قال رؤبة:

هـل تَعْـرِفُ العَهْـدَ الـمُحِيلَ أَرْسُـمُهْ   عَفَــتْ عَوَافِيــهِ وطــالَ قِدَمُــهْ[٢]

والـمَعْهَدُ: الموضع الذي كنت عَهِدْتَه أو عَهِدْتَ فيه هوىً لك، أو كُنْتَ تَعْهَدُ به شيئًا»، ويجمعُ على الـمَعَاهِدِ، ولعله لضرورة استحضاره يسمَّى المطر المتكرِّر العَهْد، وأنت تصف الشَّيء الذي تراه وتعرفه بأنه: شيء معهود.

الثَّانية: يترتَّب على العهد حقوق وواجبات، ولعلَّ الـمُعَاهَدَ سمِّي كذلك؛ لأنه لا بدَّ أن يستحضر في كلِّ وقت ما عاهد عليه من حقوق وواجبات، سواء أكان معاهدًا ضمن الدَّولة التي أقام فيها، ممَّا يسمَّى هذه الأيام (الإقامة)، أم كان المعاهد ضمن الاتفاقات الخارجيَّة، وسمَّوا العهد بالحَبْل على سبيل الاستعارة، لما فيه من ثبات الوَصْلة بين المتعاهدين، كما قال أبو الهيثم بن التَّيِّهان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بيعة العقبة: «يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالًا، وإنَّا قاطعوها»[٣]، يعني: العهود[٤].

---

(١) انظر: العين (١/ ١٠٢)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ٥١٥)، مقاييس اللغة (٤/ ١٦٧)، مفردات ألفاظ القرآن (٢/ ١٣١).

(٢) كذا في العين (١/ ١٠٢)، مقاييس اللغة (٤/ ١٦٨)، وفي ديوان رؤبة (ص: ١٤٩) بلفظ: هل تعرِفُ الرَّبْعَ ...

(٣) أحمد (١٥٨٣٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٤٥): «رواه أحمد، والطبراني بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع»، وقال الأرناؤوط: «حديث قوي، وهذا إسناد حسن».

(٤) الكشاف (١/ ١١٩

ولذا جعل الجوهري الفارابي رحمه الله العهد بمعنى: الأمان، واليمين، والمَوْثِق، والذِّمَّة، والحِفاظ، والوصية[(١)].

الثَّالثة: يذكر الخليل رحمه الله أن التعاهُد: الاحتفاظ بالشَّيء، وإحداثُ العَهْدِ بِه، وكذلك التَّعَهُّدُ والاعْتِهاد، ولذا يقال لِمَا اعتيد عليه: عهد، كقول الشاعر:

فَلَيْسَ كَعَهْدِ الدَّارِ يا أُمَّ مالِكٍ ... ولَكِنْ أَحاطَتْ بالرِّقَابِ السَّلاسِلُ

أي: ليس الأمر كما عهدت، ولكن جاء الإسلام فهدم ذلك، وأراد بالسَّلاسل الإسلام، وأنه أحاط برقابنا فلا نستطيع نعمل شيئًا مكروهًا.

ولهذه الخصائص الثَّلاث قال الرَّاغب رحمه الله -مُعَرِّفًا العهد-: «حفظ الشَّيء، ومراعاته حالًا بعد حال، وسمِّي المَوْثِق الذي يلزم مراعاته عهدًا، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]»، وهذا يقتضي كما يقول أبو عبيد رحمه الله: رعاية الحرمة[(٣)].

وقسَّم الرَّاغب رحمه الله عهدَ الله إلى ثلاثة أقسام: «تارة يكون بما رَكَزَه في عقولنا، وتارة يكون بما أَمَرَنا به بالكتاب وبالسُّنَّة رُسُلُه، وتارة بما نلتزمه وليس بلازم في أصل الشَّرع كالنُّذور، وما يجري مجراها، وعلى هذا قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ٧٥]، ﴿أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ﴾ [البقرة: ١٠٠]»[(٤)].

ولِاخْتِيَارِ لَفْظِ الْعَهْدِ هُنَا وَقْعٌ عَظِيمٌ على المسلمين، وعلى أهل الكتاب، وعلى بني إسرائيل بصفة خاصَّة، وذِكْرُه يَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الْمِفْتَاحِ الَّذِي يُفْهِمنا مدارًا عظيمًا من مدارات السُّورَة،

---

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ٥١٥).

(٢) البيت لأبي خِراش الهذلي. شرح أشعار الهذليين (٣/ ١٢٢٣).

(٣) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٤٣٥).

(٤) المفردات للراغب (ص: ٣٥٠).

وليشير إلى أحد أسباب تسمية السُّورَة بسورة البقرة، فهي تشير إلى العهد المأخوذ على البشريَّة وخاصَّة على بني إسرائيل، وعلى هذه الأُمَّة من بعدهم بأن يُوفوا بعهد الله وميثاقه، فليس الأمر خاصًّا ببني إسرائيل، وإن كانت آيات البقرة دائرةً على العهد المأخوذ عليهم في الجملة، لكن ذلك لبناء هذه الأُمَّة، لا لإعطائها العذر لتفعل ما شاءت.

ومن الوفاء بالعهد إكرام ذوي المودة، فعن عائشة ﵂ قالت: «جاءت عجوز إلى النَّبيِّ ﷺ، وهو عندي، فقال لها رسول الله ﷺ: «من أنت؟» قالت: أنا جَثَّامَةُ الْمُزَنِيَّة، فقال: «بل أنتِ حَسَّانَةُ الْمُزَنِيَّة، كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟» قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فلما خَرَجَتْ، قلت: يا رسول الله، تُقْبِلُ على هذه العجوز هذا الإقبال؟! فقال: «إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حُسْنَ العهد من الإيمان»[1].

وهكذا أبصرنا المعاني الثَّريَّة لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧]، فما الذي تصوِّره لنا كلمة ﴿مِيثَٰقِهِۦ﴾؟

الجواب: تبصِّرنا كلمة ﴿مِيثَٰقِهِۦ﴾ بأن الله ﷻ أبان وصاياه لبني آدم، فجعلها عهدًا موثَّقًا مُحْكمًا معقودًا.

فهذه الكلمة ﴿مِيثَٰق﴾ مشتقة[2] من وَثِقْتُ بفلان أثق به ثِقةً، فهي كلمة تدلُّ على عَقْدٍ وإحكام، والوَثيقُ: المُحْكَم، وَثُقَ يَوْثُقُ وَثاقه، والوِثاقُ: الحَبْل، ويُجْمَع على وُثُقٍ، مثل رباط ورُبُط، وناقة وثَيقةٌ أي مُحكَمة، والوَثيقةُ في الأمر: إحكامه والأخذ بالثِّقة، ومنه الـمَوْثِقُ،

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم مع تعليقات الذهبي في التلخيص (١ / ٦٢) برقم (٤٠)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، فقد اتفقا على الاحتجاج برواته في أحاديث كثيرة، وليس له علة، وقال: على شرطهما وليست له علة»، وقال د. عبد العلي عبد الحميد في تخريج أحاديث شعب الإيمان (٨٧٠١): «إسناده حسن».

(٢) العين (٥/ ٢٠٢)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٤/ ١٥٦٣)، مقاييس اللغة (٦/ ٨٥)، تاج العروس (٢٦/ ٤٥٠)، مفردات ألفاظ القرآن (٢/ ٤٨٩).

تقول: واثَقْتُه باللهِ لأفعلن كذا، فالميثاق: العهد، صارت الواو ياء لانكسار ما قبلها. والجمع المواثيق على الأصل، والمياثق والمياثيق أيضًا، وأنشد ابن الأعرابي:

حِمًى لَا يُحَلُّ الدَّهْرَ إِلَّا بإِذْنِنا ... وَلَا نسْأَلُ الأقوامَ عقْدَ المَياثِقِ(١)

فالميثاق: عهد مربوط شديد الإحكام، يقوم على الثِّقة، فقد قال الكُمَيْتُ يمْدَحُ مَخْلَد بنَ يَزِيد بن المهلَّب:

وخَلائِقُ منْه إلَيَّ جميلَةٌ ... حسْبي، ونِعْمَ وَثيقَةُ المُسْتَوثِقِ(٢)

فالميثاق بذلك عقدٌ مؤكد شديد الإحكام يربط بيمينٍ وعهد، ويعني منح الثِّقة للمستوثق منه كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ١٥٤].

بصيرة [١٢]: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧] يقومون بنكث كلِّ وصايا الله ﷻ الملزمة التي عاهدوه عليها، ويعملون على تفتيتها وتدميرها، مع أنها كانت شديدة الإحكام، قويَّة الرِّباط.

انظر إلى هذه الصُّورَة؛ إذ عهد الله تعالى موثَّقٌ شديد الإحكام فيقوم الفاسقون بنقضه، فكأنه حَبْلٌ مفتول بإحكام، وهم يأبون إلا نقضه.. **فما عهد الله ﷻ الموثق؟ وما أنواعه؟**

الجواب: يدخل في هذا العهد:

عهد الفطرة الذي تجده منغرسًا في صدور البشر، وأعظم معالمه توحيد الله ﷻ الذي يعني الإسلام له، وهو عهدٌ منغرس في أصل الفطرة، وقد أخذه الله ﷻ علينا ونحن في صُلْب أبينا آدم عليه السلام، فبه يشعر كلُّ إنسانٍ بأن له خالقًا، ولكنَّ شياطين الإنس والجنِّ يعملون على تغيير هذا العهد، والنَّاس مراتب في نقضه، حتى ينقض بعضهم عهد الله الأعظم وهو الإسلام

(١) البيت لعياض بن دُرَّة الطائي. لسان العرب (١٠/ ٣٧١)، تاج العروس (٢٦/ ٤٥٠).

(٢) ديوان الكميت بن زيد الأسدي (ص: ٢٤٣).

والتَّوحيد فيصبح مشركًا: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٞ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦١﴾ [يس: ٦٠-٦١]، وقد يقوم الفاسق بنقض ما دون التَّوحيد من العهود مثل: عهود المعاملات، والمعاوضات، والعقود الاجتماعيَّة كعقود المناكحات، مع أنه مأمور بالوفاء بالعهود كلِّها، كما قال تعالى ممتنًّا على عباده: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ [المائدة: ٧] .

ويصف النَّبيُّ ﷺ ذلك، فيقول: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا: كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا»(١).

ويعضد الله ﷻ العهدَ الفطريَّ بالعهد الشَّرعيِّ حيث يرسل الرُّسل ﵈ بآياته البيِّنات، «فَمَنْ أَنْكَرَ بَعْثَةَ الرُّسُلِ ﵈، وَلَمْ يَهْتَدِ بِهَدْيِهِمْ فَهُوَ نَاقِضٌ لِعَهْدِ اللهِ، فَاسِقٌ عَنْ سُنَنِهِ فِي تَقْوِيمِ الْبِنْيَةِ البشريَّة وَإِنْمَائِهَا، وَإِبْلَاغِ قُوَاهَا وَمَلَكَاتِهَا حَدَّ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ الْمُمْكِنِ لَهُ»(٢).

ونقض العهد يجعل الإيمان بلا معنى، فعن أنس بن مالك ﵁ قال: ما خطبنا نبيُّ الله ﷺ إلا قال: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ»(٣)، ونقض العهد من أسوأ ما يتكرَّر من مجرمي البشر: ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢].

---

(١) مسلم (٧٣٠٩).

(٢) تفسير المنار (١/ ٢٠٣).

(٣) أحمد (١٢٤٠٦) وقال شعيب الأرناؤوط: حديث حسن، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي هلال، فقد روى له أصحاب السنن.

والنَّقض للعهد قد يَحْدُثُ من المسلم كما يَحْدُثُ من الكافر حسب درجات كلٍّ منهما في النَّقض، فقَصْرُ الطَّبريِّ رحمه الله هذه الصِّفَات على كفار أحبار اليهود فيه نظر، وإن كانوا من أوَّل من يدخل في النَّاقضين، على أنَّ الطَّبريَّ رحمه الله بنظرته الثَّاقبة عاد؛ ليبيِّنَ أنَّ هذه الصِّفة تشمل كلَّ من تحقَّقت فيه ممَّن ينتسب إلى الإسلام أو الكفر، فاسمع لبيانه المُشرق: «وما قرُب منها من بقايا بني إسرائيل، ومن كان على شِرْكه من أهل النِّفاق، وقد دلَّلنا على أن قول الله -جلَّ ثناؤه-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [البقرة: ٦]، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة: ٨]، فيهم أُنْزِلت، وفيمن كان على مِثْلِ الذي هم عليه من الشِّرك بالله. غيرَ أن هذه الآيات عندي، وإن كانت فيهم نزلتْ، فإنه معنيٌّ بها كلُّ من كان على مِثْل ما كانوا عليه من الضَّلال، ومعنيٌّ بما وافق منها صفة المنافقين خاصَّةً، جميعُ المنافقين؛ وبما وافق منها صفة كفار أحبار اليهود، جميعُ من كان لهم نظيرًا في كفرهم»(١).

ومن العهود التي ذكرها الله عز وجل عقد النِّكاح: ﴿وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١]، والالتزام بالرِّسالات: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢]، ويدخل فيه كلُّ الأمور الجزئيَّة الحياتيَّة، ولذا عدَّ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الخوارج ممن يدخلون في هذه الصِّفة: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧] فقد نقضوا العهود الإسلاميَّة الاجتماعيَّة عندما عاثوا في الأرض فسادًا، فعَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ رحمه الله، قَالَ: سَأَلْتُ أَبِي فَقُلْتُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَقَالَ: «هُمُ الْحَرُورِيَّةُ»(٢).. قال

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤١١).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٢٨٧)، وهو عند البخاري (٤٧٢٨) عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبِي: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ [الكهف: ١٠٣]: هُمُ الحَرُورِيَّةُ؟ قَالَ: «لَا، هُمُ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى، أَمَّا اليَهُودُ فَكَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ، وَأَمَّا

ابن كثير ﵀: «وَهَذَا الْإِسْنَادُ إِنْ صَحَّ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﵁، فَهُوَ تَفْسِيرٌ عَلَى الْمَعْنَى، لَا أَنَّ الْآيَةَ أُرِيدَ مِنْهَا التَّنْصِيصُ عَلَى الْخَوَارِجِ، الَّذِينَ خَرَجُوا عَلَى عليٍّ ﵁ بِالنَّهْرَوَانِ، فَإِنَّ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا حَالَ نُزُولِ الْآيَةِ»(١).

هنا ستتساءل: ما الحكمة في التَّعبير عن ترك العهد بالنَّقض؟ لِمَ لَمْ يقل مثلًا: يتركون عهد الله، أو يصرمونه (يقطعونه)، أو لا يستقيمون عليه؟

الجواب: مصطلح "نقض العهد" من مبتكرات القرآن المدهشة التي يطبع بها الحياة الثَّقافيَّة والعمليَّة في العالم على كره السلوكيات الخاطئة واجتنابها، وَكَانَ الشَّائِعُ فِي الْكَلَامِ إِطْلَاقَ لَفْظِ الْقَطْعِ وَالصَّرْمِ وَمَا فِي مَعْنَاهُمَا عَلَى إِبْطَالِ الْعَهْدِ -أَيْضًا- فِي كَلَامِهِمْ، قال امْرُؤُ الْقَيْسِ:

أفــاطمَ مهْــلًا بَعْــضَ هــذا التَّــدلُّلِ ... وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ صَرْمِي فَأَجْمِلِي(٢)

وَقال لبيد:

أَوَلَــمْ تكُــنْ تَــدْرِي نَــوارُ بِــأَنَّنِي ... وَصَّــالُ عَقْدِ حَبَائِلٍ جَذَّامُهَا(٣)

وَقَالَ:

النَّصَارَى فَكَفَرُوا بِالْجَنَّةِ، وَقَالُوا: لَا طَعَامَ فِيهَا وَلَا شَرَابَ، وَالحَرُورِيَّةُ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ»، وَكَانَ سَعْدٌ يُسَمِّيهِمُ الفَاسِقِينَ.

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٩).

(٢) ديوان امرئ القيس (ص: ١٢).

(٣) ديوان لبيد بن ربيعة (ص: ١٧٥)، و(نَوَار): اسم امرأة، (جذَّامها): قطَّاعها، أي: أصل في موضع المواصلة من يستحقها، وأقطع من يستحق القطيعة.

فَـاقْطَعْ لُبَانَـةَ مَـنْ تَعَـرَّضَ وَصْـلُهُ   فَلَشَـرُّ وَاصِـلِ خُلَّـةٍ صَـرَّامُهَـا(١)

وَوَجْهُ اخْتِيَارِ اسْتِعَارَةِ النَّقْضِ الَّذِي هُوَ حَلُّ طَيَّاتِ الْحَبْلِ إِلَى إِبْطَالِ الْعَهْدِ، أَنَّهَا تَمْثِيلٌ لِإِبْطَالِ الْعَهْدِ رُوَيْدًا رُوَيْدًا، وَفِي أَزْمِنَةٍ مُتَكَرِّرَةٍ وَمُعَالَجَةٍ.

وَالنَّقْضُ أَبْلَغُ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْإِبْطَالِ مِنَ الْقَطْعِ والصَّرْمِ وَنَحْوهما؛ لِأَنَّ فِي النَّقْض إفسادًا لهيأة الْحَبْلِ، وَزَوَالَ رَجَاءِ عَوْدِهَا، وَأَمَّا الْقَطْعُ فَهُوَ تَجْزِئَةٌ(٢).

نقض العهد من أسوأ ما يتكرَّر من مجرمي البشر: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢].

بقي لنا تساؤل تدبُّريٌّ: ما الحكمة من ذكر عهد الله ﷻ في هذا الموضع المبكِّر من سورة البقرة؟

الجواب: هنا تأتي:

بصيرة [١٣]: ذَكَرَ الله ﷻ عَهْدَه من أوّل سورة البقرة؛ ليشير إلى خرافة العهد الإلهيِّ العنصريِّ المطلق لشعبٍ بعينه، وهو الذي يروجه الفسَّاق من بني إسرائيل.

وبذا تتَّضح مركزيَّة هذه الكلمة العجيبة التي سبق التَّنبيه عليها من أوَّل السُّورَة: عَهْدُ الله؛ إذ يراد به ما عاهد -سبحانه- عليه أهل الكتب الثَّلاثة وأمثالَهم، ثم نقض هذا العهد منهم من نقضه، وعندما تنظر إلى سياق السُّورَة، وتكَرُّرِ الكلام عن العهد المُوثق ترى الاهتمام الكبير

---

(١) ديوان لبيد بن ربيعة (ص: ١٦٧)، وفيه: (ولشرُّ) بالواو، ويروى البيت: (ولخير واصل) بدلًا من: (ولشر واصل)، و(لبانة): حاجة، (تَعَرَّضَ وَصْلُهُ): لم يستقم لك وصله، أو تغيَّر وحال عن عهده، (الصَّرَّام): القَطَّاع.

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٦٨).

بهذا العهد، وذلك ليشير إلى ما لحق هذا العهد من الأساطير النَّاقضة له من قبل أهل الكتب الثَّلاثة ابتداء ببني إسرائيل، واختتامًا بأمَّة خاتم النَّبيِّين ﷺ.

ويصرُّ المحرِّفون من الإسرائيليِّين على أن الوعد الإلهي لإبراهيم ثم لإسرائيل عليهما السلام مطلق، فَهُمْ شعبه المختار حسب زعمهم، ففي سفر التَّكوين ١٢:

١٢: ١ وَقال الرَّبُّ لأَبْرَامَ: «اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ.

١٢: ٢ فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً.

١٢: ٣ وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ، وَلاَعِنَكَ أَلْعَنُهُ. وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ»[(١)].

وفيه:

١٤: ١٢ وَقال الرَّبُّ لأَبْرَامَ، بَعْدَ اعْتِزَالِ لُوطٍ عَنْهُ: «ارْفَعْ عَيْنَيْكَ وَانْظُرْ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ شِمَالًا وَجَنُوبًا وَشَرْقًا وَغَرْبًا.

١٤: ١٥ ولأَنَّ جَمِيعَ الأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ تَرَى لَكَ أُعْطِيهَا وَلِنَسْلِكَ إِلَى الأَبَدِ[(٢)].

وفيه ١٥: ١٨-٢١:

وفي ذلك اليوم قطع الرَّب مع أبرام عهدًا، وقال: « لِنَسْلِكَ أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النَّهر الكبير، نهر الفرات أرض القِينِيِّين، والقَنِزِّيِّين، والقَدْمُونِيِّين، والحِثِّيِّين، والفَرِزِّيِّين، والرَّفَائِيِّين، والأَمُورِيِّين، والكنعانيِّين، والجِرْجَاشِيِّين، واليَبُوسِيِّين»[(٣)].

ويستدلُّون بالتَّوراة على تميُّز الشَّعب، والاختيار الإلهيِّ له، ففي سفر التَّثنية:

---

(١) سفر التكوين، القس أنطونيوس فكري (ص: ٢٣١).

(٢) سفر التكوين، القس أنطونيوس فكري (ص: ٢٣٦).

(٣) سفر التكوين، القس أنطونيوس فكري (ص: ٢٥٠، ٢٥١).

١٤: ٢ لأنك شعب مقدَّس للرَّبِّ إلهك، وقد اختارك الرَّب لكي تكون له شعبًا خاصًّا فوق جميع الشُّعوب الذين على وجه الأرض(١).

وفي سفر اللَّاويين:

٢٠: ٢٣ ولا تسلكون في رُسوم الشُّعوب الذين أنا طارِدُهم من أمامكم؛ لأنهم قد فعلوا كلَّ هذه فكَرِهْتُهُم.

٢٠: ٢٤ وقلت لكم: ترثون أنتم أرضَهم، وأنا أعطيكم إيَّاها لترثوها أرضًا تفيض لَبَنًا وعَسَلًا، أنا الرَّبُّ إلهُكُم الذي ميَّزَكُم من الشُّعوب(٢).

فيشيعون هذا، لكنهم لا يبدون أن هذا له تتمَّة في الموضع ذاته، وهو:

٧: ٩ فاعلم أن الرَّبَّ إلهك هو الله الإله الأمين الحافظ العهد والإحسان للذين يحبُّونه، ويحفظون وصاياه إلى ألف جيل.

٧: ١٠ والمُجازِي الذين يُبْغِضونه بوجوههم ليهلكَهم، لا يُمْهِل من يُبْغِضه، بوجهه يجازيه(٣).

فهم يجعلون كلمة (شعب الله المختار) مسألة قطعيَّة يُسْتَعبَدُ فيها بقية أمم الأرض، ولكنك تلحظ أن هذا الكلام -إن صحَّ- فما هو إلا عهد لمن حفظ عهد الله، وأعظم عهود الله توحيده، والإيمان برسله جميعًا، وهذه المعاهدة تماثل ما قاله الله عَزَّ وَجَلَّ لأمَّة النَّبيِّ الخاتم ﷺ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ومثل ذلك ألقاب الفرقة النَّاجية، والطَّائفة المنصورة.

---

(١) سفر التثنية، القس أنطونيوس فكري (ص: ٥٨).

(٢) سفر اللاويين، القس أنطونيوس فكري (ص: ١٧٧).

(٣) سفر التثنية، القس أنطونيوس فكري (ص: ٣٣).

فجاءت ﴿عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾ هنا في موضعها؛ لتبيِّنَ خطورة نقض هذا العهد من قِبَلِ مَنْ أخذ عليهم، وفي مقدِّمتهم أهل الكتب الثَّلاثة، وبذا تُمَيِّزُ بين الوعد الحقِّ، والوعد المُفْتَرى، وللتَّمييز بين العهد الحقِّ والعهد المُفْتَرى تكرَّرت كلمة ميثاق خمس مرَّات هذه أوَّلها، ثم ذكرها الله ﷻ في سياق الكلام عن بني إسرائيل أربع مرَّات: في الآية ٦٣، والآية ٨٣، والآية ٨٤، والآية ٩٣، وتكرَّرت كلمة: عهد وما اشتق منها عشر مرَّات على الأقلِّ في هذه السُّورَة، ويكفي فيها أن تسمع الله ﷻ يذكر مواثيق بني إسرائيل وعهده المشروط لهم: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠]، ثم يذكر افتراء بعضهم لعهدٍ مطلقٍ لم يوجد: ﴿قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ﴾ [البقرة: ٨٠]، ثم نبذ فريق منهم لكلِّ عهدٍ مع الله ﷻ: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

والمأساة أن هذا الفريق هو الذي يتولَّى زمام القيادة الإدارية والسياسية غالبًا، ويُكَوِّنُ له أتباعًا من أهل الكتب الأخرى؛ ليكون أكثر نفيرًا، وهنا يدهشك أن ترى الله ﷻ يخبر إبراهيم عليه السلام أنَّ الذُّرِّية الظَّالمة لا يمكنها أن تنال عهد الله ﷻ، سواء انتسبت إلى إسماعيل، أو إلى إسحاق، أو إلى إسرائيل عليهم السلام: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وهذه الآية فاصلة تقضي على أخبث خرافات الأرض الموعودة التي يطوف حولها سياسيو أكبر دولة معاصرة، ومن خلالها صنعوا أكثر مآسي أهل الأرض، ولذا ينبِّهنا الله ﷻ إلى أنَّ أهمَّ صفات البِرِّ ليس العكوفَ على الشَّكليات والصُّوَر، والاتجاه إلى المشرق والمغرب، وإنما تطبيق المبادئ الإيمانيَّة والأخلاقيَّة الحقيقيَّة، ومنها: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ [البقرة: ١٧٧]، ومن هنا تتَّضح قوَّة نَظَرِ المفسِّرين الذين ذهبوا إلى أن الفاسقين المذكورين هنا هم الذين نقضوا العهد من أهل الكتاب، والذي يظهر لي التَّعميم لأصحاب الكتب الثَّلاثة.

الانتقال:

كانت هذه الصِّفة ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ هي الصِّفة الأولى من الصِّفَات العمليَّة للفاسقين، فما وجه الانتقال إلى الصِّفة الثَّانية: ﴿يَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧]؟

الصِّفة الثَّانية: تدمير العلاقة مع البشريَّة:

ويُبَصِّرنا بذلك قوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧]، فقد أمر الله ﷻ أن تُوصَل العلاقات بين الإنسان وربه، وشدَّد على أن تُوصَل العلاقات الإنسانيَّة ابتداء بالوالدين، فذلك يُفضي إلى التَّنمية والاستقرار، ووصفها النَّبيُّ ﷺ وصفًا توضيحيًّا تنمويًّا مدهشًا، فقال: «وَصِلَةُ الرَّحِمِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ، وَحُسْنُ الْجِوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ»[1].

التَّرتيب بين الصِّفتين منطقيٌّ، فالصِّفة الأولى لبيان علاقتهم مع ربِّهم، وهذه الصِّفة لبيان علاقتهم ببقية الإنسانيَّة، فيدخل في عهد الله ﷻ ما أمرهم الله ﷻ به أن تكون علاقتهم مع بقية بني آدم عليه السلام.

وأول ما يقابلك هنا كلمة ﴿يَقْطَعُونَ﴾، وكلمة ﴿يُوصَلَ﴾ فلماذا عبَّر الله ﷻ عن صفاتهم البائسة بهذا التَّعبير؟

الجواب: لأنَّ هذه الكلمات ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧] تصوِّرُ لنا تصويرًا محسوسًا هذا الفعل الفظيع الشَّنيع الذي يقوم به هؤلاء الفاسقون في قطع العلاقات العظيمة التي تحتاج إليها البشريَّة مقابل النور الإلهيِّ الذي يريد الخير بالإنسان، فأمر بوصل تلك العلاقات.

---

(١) أحمد (٢٥٢٩٨)، وقال الأرناؤوط: «إسناده صحيح، رجاله ثقات، رجال الشيخين غير محمد بن مهزم فمن رجال التعجيل»، وصحَّحه الوادعي. الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٦٢٩).

وحتى تشعر بهذا التَّصوير المحسوس الماديِّ تعال بنا إلى:

قوله: ﴿يَقۡطَعُونَ﴾ فهي من قطَعَ[1]، والقَطْعُ: صَرْمٌ وَإِبَانَةٌ لشَيْءٍ ملتحم ليصبح جزأين، بعد أن كان شيئًا واحدًا، أو فَصْلُ الشَّيء عن الشَّيء كان ملتصقًا به التصاقًا ماديًّا أو معنويًّا، سواء أكان الفصل مُدْرَكًا بالبصر كالأجسام، أو مُدْرَكًا بالبصيرة كالأشياء المعقولة، يُقَالُ: قَطَعْتُ الشَّيء أَقْطَعُهُ قَطْعًا.

والقطع قد يكون ممنوعًا، وقد يكون مشروعًا، وربُّنا عَجَّلَ في قوله: ﴿يَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧] يصف لنا القطع الممنوع، فهو قطع لما أمر الله عَجَّلَ به أن يُوصل، فدخلت كلُّ صُوَر قَطْعِ الوصل المشروع مثل:

قَطْعُ الأعضاء ظلمًا، كما في قول فرعون: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾ [الأعراف: ١٢٤].

وقَطْعُ الطَّرِيقِ بمنع سلوكه، والسَّير فيه، أو بمنع التِّجارة عَبْرَه، أو بصدِّ الناس عن سبيل الله عَجَّلَ.

وقَطْعُ الرَّحِمِ، وقطيعتها بالْهِجْرَان، ومنع البِرِّ.

وانتقل الآن إلى قوله: ﴿يُوصَلَ﴾ فهي من وصل[2] يصل وصلًا، والِاتِّصَال هو ضَمُّ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى يحصل بينهما أو بينها اتِّحاد كاتِّحاد طرفي الدَّائرة، ويضادُّ الانفصال، فيقال: وَصَلْتُهُ بِهِ وَصْلًا، ويستعمل الوَصْلُ في الأعيان، وفي المعاني.

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٥/ ١٠١)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٧٧)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ١٨٠٥).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة (٦/ ١١٥)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٨٧٣)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٢٤٧).

فالاتِّصال يحصل به الامتداد، والسَّعَة، والقوَّة حتى قالت العرب: الوَصِيلَةُ للعِمارة والخِصْب؛ لِأَنَّهَا تَصِلُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ، وَإِذَا أَجْدَبُوا تَفَرَّقُوا، والوَصِيلَةُ: الأرضُ الواسعة كَأَنَّهَا وُصِلَتْ فَلَا تَنْقَطِعُ.

وعندما تسمع الآية تُدَوِّي مُخبِرة لك عن جريمة هؤلاء، فتقول: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧] **تراهم أمامك وهم يَقْطَعون كلَّ ما أمر الله به أن يوصل، مثل صِلَة الإنسان بربِّه، ولكنَّ هذا المصطلح القرآنيَّ** ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ صار خاصًّا بقطع الصِّلات البشريَّة الواجبة، مثل: **صِلَة الإنسان بوالديه، وصِلَة الإنسان بأرحامه، وصِلَة الإنسان بالأنبياء، وصِلَة الإنسان بالصَّالحين، وصلة الإنسان بالقرآن، وصِلَة الإنسان بالبيئة حوله، وصِلَة الإنسان بالكون.. تراهم يعملون على قطع كلِّ صِلَة عظيمة أمر الله ﷻ أن توصل.**

والآن قد تتساءل: ما سرُّ البيان القرآنيِّ الثَّريِّ القويِّ النَّقيِّ في وصف هؤلاء الفاسقين بهذه الصِّفة: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧]؟

الجواب: انظر إلى هذا التَّعبير القرآنيِّ الفريد عن القوى الفاسقة: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧]، فقد أمر الله ﷻ أن تكون العلاقات التي أَمَرَ بإقامتها وتوثيقها مِثْل الحِبال التي تربط بين الأشياء، فكذلك يجب أن تكون الصِّلات بين البشر، فهي حبالٌ وثيقةٌ تربط بين الإنسان وأسرته الصَّغيرة، وبين الإنسان وأسرته الكبيرة، وبين الإنسان ومجتمعه، فيدخل في ذلك العلاقات الإنسانيَّة الثلاث الكبرى:

العلاقات الإنسانيَّة الكبرى التي لا بدَّ أن توصل:

الأولى: العلاقة الرَّحمية: فيجب أن يصل الإنسان الرحم التي بينه وبين أقربائه ابتداء بوالديه، ووصولًا إلى ذوي قرابته، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ، فقال لَهُ: مَهْ، قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ العَائِذِ بِكَ

مِنَ القَطِيعَةِ، قَالَ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ، قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَذَاكِ» قال أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «اقْرَؤوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢]»(١).

والعجيب أنك ترى الحضارة المعاصرة مُؤَسَّسة على قطيعة الرحم في الواقع الحاضر، بل إن المؤسَّساتِ الدَّوليَّةَ تميل –ربما دون شعورٍ منها أحيانًا، وأحيانًا مع سبق الإصرار والتَّعمُّد– إلى ذلك من خلال الغُلُوِّ في حقوق بعض القرابات على بعض، فلا تجد ثقافة بِرِّ الوالدين شائعة كما تجد ثقافة حقوق الطِّفل مثلًا، وأحيانًا من خلال إحياء أعظم جرائم العصر مثل جريمة الإجهاض باسم حريَّة الاختيار، وهذا من الغُلُوِّ الحقيقيِّ في النِّظام الذي هو دين، سواء أكان أصله إلهيًّا أم اختراع اختراعًا بشريًّا.

ربما تسأل: هل يمكن أن تصوِّر لنا نوعًا من الأنواع البارزة التي توضِّح هذه الجريمة الضَّخمة التي يتَّصف بها الفاسقون: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧]؟

الجواب: حتى تتصوَّر مقدار جريمة الحضارة المدمِّرة المعاصرة التي تُسَوِّق لقطع ما أمر الله عز وجل به أن يوصل:

طالع موقع: (worldometers.info) لتجد تحديثًا على مدار الثَّانية لعمليات قتل الأطفال في الأرحام "الإجهاض"، وهي عمليات قتل دائمة يُقَنِّنها الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويجعلونها حريَّة اختيار، وتحت عنوان:

:Abortions worldwide this year

فحتى تاريخ ٢٥/ ١٠/ ٢٠٢١، تجد العدد الهائل الآتي لعدد عمليات قتل الأَجِنَّة: (٣٤,٨٠٩,٢٢٥).

---

(١) البخاري (٤٨٣٠).

وتُجرى سنويًّا نحو ٧٣ مليون حالة إجهاض متعمَّد في جميع أنحاء العالم، ويُنهي الإجهاض المتعمَّد ستَّ حالات من أصل كلِّ ١٠ حالات حمل غير مقصود بنسبة (٦١٪)، وثلاث حالات من أصل كلِّ ١٠ حالات حمل مقصود بنسبة (٢٩٪).

تصوَّر مقدار جرائم هؤلاء الفاسقين نحو أطفال صغار لا يملكون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئًا، ويشعر كثير ممن يقوم بعمليات القتل من الأطباء والأمهات بحركات الأَجِنَّة تسحب رجليها في نطاق الرَّحم الصغير، ولكنهم يُصرِّون على قتلهم وتقطيعهم.

الثَّانية: **العلاقة الإنسانيَّة**: فالله جعل البشريَّة من أبٍ واحد وأمٍّ واحدة، وبينهم حقوق مؤكَّدة بموجب هذه العلاقة الوطيدة مهما اختلفت الألوان والأديان، وفَصَّلَ الله ﷻ ما يتعلق بهذه العلاقة الإنسانيَّة الرَّحِمية القريبة والبعيدة في مواضع كثيرة، ومنها سورة النِّساء حيث قال ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ١﴾ [النساء: ١].

وهنا ترى الصِّلة بين هذا الموضع الذي وصف الله ﷻ فيه الفاسقين، وبين ختم هذه السُّورَة بالحثِّ على التَّصدُّق على فقراء الملل الأخرى في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

الثَّالثة: **العلاقة الإسلاميَّة المتميزة بين أصحاب دين الإسلام**، فهي أعظم الصِّلات التي أمر الله ﷻ بها أن توصل الصِّلة الإسلامية التي جعل الله ﷻ أهل رابطتها إخوانًا، وكم ترى من وسائل معاصرة لقطعها بأيدينا أو بالرضوخ لأعدائنا، وفي بيان أهميتها نقرأ هذا الحوار الذي دار بين أبي الهيثم بن التَّيِّهَانِ حليف بني عبد الأشهل في بيعة العقبة وبين النَّبيِّ ﷺ، فقد قال أبو الهيثم بن التَّيِّهان رضي الله عنه: «يا رسول الله، إن بيننا وبين الرِّجال حبالًا وإنا قاطعوها -يعني:

العهود- فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتَدَعَنا؟ قال: فتبسَّم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدَّمَ الدَّمَ، الهَدْمَ الهَدْمَ، أنا منكم، وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم»(١).

فهذه العلاقات الثَّلاث أمر الله أن توصل لصالح الإنسانيَّة جميعًا فيأبى الفاسقون إلا قطعها، وليس توهينها بل قطعها، فانظر إلى إصرارهم على معارضة كلام ربِّهم ﷻ.

وإذا قطع ما أمر الله ﷻ به أن يوصل على مستوى العلاقات الثلاث، حلَّ الفساد في الأرض، وصارت الإنسانيَّة أسوأ من الوحوش المفترسة في شُحِّها، وأنانيتِها، وجَشَعِها.

ولكنك قد تتعجَّب في هذا التَّعبير القرآنيِّ الفريد: ﴿يَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧]، فلماذا لم يحدِّد الله ﷻ لنا ما الذي أمر به أن يوصل؟

الجواب: هنا ترى سعة كلمات القرآن وعَظَمتها، فلم يحدِّد الله ﷻ الجهاتِ التي توصل، وإنما جعلها عامَّة مفتوحة؛ لتبحث عنها في القرآن والسُّنَّة من جهة، ولتعلم أن الأصل في أوامر الله ﷻ إقامة الصِّلة بين الخالق والمخلوق، وبين المخلوق والمخلوق على نحوِ ما يبصِّرك الله سبحانه وتعالى به، وقد أدخل الرَّازيُّ، ومحمد رشيد رضا رحمهما الله(٢) فيما أمر الله ﷻ به أن يوصل الأمرَ التَّكوينيَّ الفطريَّ، كمن أنكر تَرْتِيبَ النَّتَائِجِ عَلَى الْمُقَدِّمَاتِ، وَوَصْلَ الْأَدِلَّةِ بِالْمَدْلُولَاتِ، وَإِفْضَاءَ الْأَسْبَابِ إِلَى الْمُسَبَّبَاتِ، وَمَعْرِفَةَ الْمَنَافِعِ وَالْمَضَارِّ بِالْغَايَاتِ، ومِثْل من أَنْكَرَ نُبُوَّةَ النَّبِيِّ بَعْدَ مَا قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى صِدْقِهِ، أَوْ أَنْكَرَ سُلْطَانَ اللهِ ﷻ عَلَى عِبَادِهِ بَعْدَ مَا شَهِدَتْ لَهُ بِهَا آثَارُهُ فِي خَلْقِهِ، فَقَدْ قَطَعَ مَا أَمَرَ اللهُ سبحانه وتعالى بِهِ أَنْ يُوصَلَ بِمُقْتَضَى التَّكْوِينِ الْفِطْرِيِّ، وَكَذَلِكَ مَنْ

---

(١) أحمد (١٥٨٣٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٤٥): «رواه أحمد، والطبراني بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع»، وقال شعيب الأرناؤوط: «حديث قوي، وهذا إسناد حسن».

(٢) تفسير الرازي (٢/ ٣٧٤)، تفسير المنار (١/ ٢٠٣).

أَنْكَرَ الأمر الشرعي كمن أنكر شَيْئًا مِمَّا عُلِمَ أَنَّهُ جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ؛ وَصِلَةُ الْأَرْحَامِ تَدْخُلُ فِي كُلٍّ مِنَ الْقِسْمَيْنِ، والظَّاهر أنَّ ما أمر الله ﷻ به أن يوصل العلاقات البشريَّة المختلفة، مثل: علاقات الأرحام، ومثل العلاقات الإنسانيَّة العامَّة، حيث يقوم الفاسقون بقطعها بغيًا وفسادًا وتكبُّرًا وعِنادًا، وأمَّا ما يتعلَّق بإنكار نبوَّة نبيٍّ فيدخل في نقض العهد، وعند التَّوسُّع يدخل في قطع ما أمر الله ﷻ به أن يوصل، كما أنَّ قطع ما أمر الله ﷻ به أن يوصل يدخل في نقض العهد، ولكنه خُصِّص لأهمِّيَّته، ولإثراء عقل السَّامع حول الجرائم الخطيرة التي يقع فيها الفاسقون، ويدخل في العلاقات البشريَّة الجليلة قطع الصِّلة بين النُّبوَّات مما اقترفه بعض أهل الكتب الثَّلاثة، كمن أنكر منهم نبوَّة نبيِّنا محمَّد ﷺ، أو وافق على التَّخريف والتَّحريف الذي لَحِقَ بدين الله الحقِّ، ثم أقام السِّياسات العامَّة وَفْقَ ذلك كما تجده في خرافة عهد الله لشعبٍ بعينه، ومن يطوف حول ذلك من أتباع الكتب الثَّلاثة.

كان ذلك بيانًا من الشَّيخين الكبيرين، فإذا بحثت عن الفكر العاشوريِّ تجد ابن عاشور رحمه الله تبع الإمامين الكبيرين السَّابقين في فَهْمِ اتِّساع مدلول هذه الجملة فقال: «فَمَا مِنْ شَرِيعَةٍ سَلَفَتْ إِلَّا وَهِيَ حَلْقَةٌ مِنْ سِلْسِلَةٍ جُعِلَتْ وَصْلَةً لِلْعُرْوَةِ الْوُثْقَى الَّتِي لَا انْفِصَامَ لَهَا، وَهِيَ عُرْوَةُ الْإِسْلَامِ، فَمَتَى بَلَغَهَا النَّاس فقد فَصموا مَا قَبْلَهَا مِنَ الْحِلَقِ وَبَلَغُوا الْمُرَادَ، وَمَتَى انْقَطَعُوا فِي أَثْنَاءِ بَعْضِ الْحِلَقِ فَقَدْ قَطَعُوا مَا أَرَادَ اللهُ وَصْلَهُ، فَالْيَهُودُ لَمَّا زَعَمُوا أَنَّهُمْ لَا يَحِلُّ لَهُمُ الْعُدُولُ عَنْ شَرِيعَةِ التَّوْرَاةِ قَدْ قَطَعُوا مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ فَفَرَّقُوا مُجْتَمَعَهُ»(١).

وهنا تظلُّ تتساءل وقد مَلَأَك بيان الله ﷻ بالنُّور والانجذاب: ما الحكمة في التَّعبير عن هذه الصِّفة بالقطع: ﴿يَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، بينما جاء التَّعبير عن الصِّفة السَّابقة بالنَّقض: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧]؟

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٧٢).

الجواب: التَّعبير بِالْقَطْعِ هُنَا مدهشٌ بعد التَّعبير قبل ذلك عن الإخلال والتَّغيير للعهد بالنَّقض، فتأمَّل:

النَّقض: أن تأتي إلى العُقْدَة المُحْكَمَة فتزيلَ إحكامها، وتَنْقُض إبرامها، وذلك يعني تغيير التَّشريعات، وتبديل الوحي.

والقطع: أن تأتي إلى الحَبْل المُتَّصِل فيستعصي عليك نَقْضُه، فتُقطِّعه، بأن تحاول تدمير العلاقة بين الجهات التي وصلها الله ﷻ بحبلٍ منه.

كَأَنَّ عَهْدَ اللهِ – تَعَالَى – إِلَى النَّاسِ حَبْلٌ مُحْكَمُ الطَّاقَاتِ مُوَثَّقُ الْفَتْلِ، وَكَأَنَّ هَذَا الْحَبْلَ قَدْ وَصَلَ بِحِكْمَةِ أَمْرِ التَّكْوِينِ، وَحُكْمِ أَمْرِ التَّشْرِيعِ بَيْنَ جَمِيعِ الْمَنَافِعِ الَّتِي تَنْفَعُ النَّاسَ، فَلَمْ يَكْتَفِ أُولَئِكَ الْفَاسِقُونَ الْمُنْكِرُونَ لِلْمَثَلِ الَّذِي ضَرَبَهُ اللهُ لِعِبَادِهِ بِنَقْضِ حَبْلِ الْعَهْدِ الْإِلَهِيِّ وَحَلِّ طَاقَاتِهِ، وَنَكْثِ فَتْلِهِ حَتَّى قَطَعُوهُ قَطْعًا، وَأَفْسَدُوا بِذَلِكَ نِظَامَ الْفِطْرَةِ، وَنِظَامَ الْهِدَايَةِ الدِّينِيَّةِ أَصْلًا وَفَرْعًا[1].

الصِّفة الثَّالثة: تدمير العلاقة مع الحياة وبيئة الحياة: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧]، فيفسدون فيها بالإدارة الأنانيَّة، وسنِّ قوانينَ وتشريعاتٍ تدمِّر الأرض، وتقضي على الحياة الطَّيبة فيها، وكلُّ ذلك يعكس الجشع الفظيع الذي يستحوذ على قِلَّةٍ غنيَّة تبني أمجادها على تدمير ما حولها، وتريد -فقط- مضاعفة أرباحها السَّنويَّة، حتى لو دمَّرت الأرض، ويُشَرِّعون نظامًا مفترىً قائمًا على الأكاذيب، والتَّغيرات المناخيَّة مجرد نذير صغير ظهر بسبب إفسادهم في الأرض:

وهنا قد تسأل: ما العلاقة بين الصِّفة الثَّالثة: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والصِّفتين قبلها؟

يتجلَّى الجواب في البصيرة الآتية:

(١) تفسير المنار (١/ ٢٠٤).

بصيرة [١٤]: يقوم الفاسقون بثلاثية التدمير الخطيرة: فيدمِّرون العلاقة بالله، ويدمِّرون العلاقة بالآخرين من بني الإنسان ابتداء بالوالدين، ويدمِّرون العلاقة بالأرض التي نعيش عليها.

فلا يكتفون بنقض عهد الله ﷻ، ولا بقطع ما أمر الله ﷻ به أن يُوْصَل، بل يقومون بالإفساد في الأرض.

واضرب للمفسدين في الأرض مثلًا: ما تصنعه القائمة العمياء من المجرمين الذين يسعون لفرض معركة هَرْمَجِدُّون[1] الأسطوريَّة، ويتوقَّعون معها إبادة من في الأرض، بل ينظرون إلى الأرض باعتبار أنها آخر أعظم كُرَة أرضيَّة، كما يقول الصُّهيومسيحيُّ (هال ليندسي) [2]، وتصوَّر أن خُدَّامهم وعُملاءهم من المنافقين يفرحون أن يكونوا أدواتٍ لتنفيذ مخططاتهم الشِّريرة.

واضرب لهم مثلًا ثانيًا: من يتصف بهذه الثَّلاثية المدمِّرة بعض المجرمين الذين يريقون الدِّماء تديُّنًا؛ زعمًا أن ذلك سيُسهِم في خروج مُخَلِّصِ آخر الزَّمان.. كأنَّ الافتراءَين من أهواء واحدة.

ويضرب ابن عاشور رحمه الله **المثل بصنفٍ ثالث ممَّن يتَّصف بالإفساد في الأرض**: إنهم من يعكفون عَلَى شريعةٍ قَدِ اضْمَحَلَّ وَقْتُ الْعَمَلِ بِهَا فَأَصْبَحَت غَيْرَ صَالِحَةٍ لِمَا أَرَادَ اللهُ ﷻ مِنَ

---

(١) هرمجدون: كلمة عِبرية مكونة من مقطعين: (هر) أو (هار): بمعنى جبل، (مجدون): اسم وادٍ في فلسطين يقع في مرج ابن عامر على بعد ٥٥ ميلًا شمال تل أبيب، و٢٠ ميلًا جنوب شرق حيفا وعلى بعد ١٥ ميل من شاطئ البحر المتوسط، ولا يشير العهد القديم إلى هذا المصطلح، أما العهد الجديد فيذكرها في موضع واحد في سفر الرؤيا: «يجمعهم إلى الموضع الذي يُدعى بالعبرانية (هرمجدون)». الإصحاح (١٦/ ١٥)، خدعة هرمجدون (ص: ٣٤، ٣٥).

(٢) (آخر أعظم كرة أرضية) عنوان لكتاب ألَّفه (هول ليندسي)، ويعد من أكثر الكتب مبيعًا خلال السبعينيات، حيث بيع منه حوالي ١٨ مليون نسخة. ينظر: النُّبوَّة والسياسة (ص: ١٧).

الْبَشَرِ؛ فكلُّ شريعة أرسل بها رسول فهي مؤقَّتة العمل بها حتى يأتي رسول بعده، إمَّا للعمل بالشَّريعة السَّابِقَة، أو لتنسخ بعض أحكامها، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [آل عمران: ٥٠]، فيكون البقاء على الشَّريعة السَّابِقَة فَسَادًا فِي الْأَرْضِ؛ لِأَنَّهُ كَمُدَاوَاةِ الْمَرِيضِ بِدَوَاءٍ كَانَ وُصِفَ لَهُ فِي حَالَةٍ تَبَدَّلَتْ مِنْ أَحْوَالِ مَرَضِهِ، حَتَّى أَتَى دِينُ الْإِسْلَامِ عَامًّا دَائِمًا؛ لِأَنَّهُ صَالِحٌ لِلْكُلِّ(١).

فإن قلت: ما الصُّورَة التي يقدِّمها هذا التَّعبير ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ٢٧]؟

الجواب: التَّعبير بالإفساد في الأرض يجعلك تتصوَّر هذه البيئة الرَّائعة التي خلقها الله عز وجل لنا وقد امتلأت بالأوبئة والأوساخ، ودُمِّرت معالمها.. ألا ترى أن جبال الأرض وسهولها وطرقها تئن من فسادهم وعبثهم، حتى تسبَّبوا في إفساد مناخ الأرض، وأحدثوا قلاقل بيئية مدمِّرة، وتعترف اللَّجنة الدَّوليَّة المعنيَّة بتغيُّر المناخ (IPCC) بأن معظم التَّغيُّرات المناخيَّة يمكن نسبتها إلى الأنشطة البشريَّة، وهي تسبِّب الكثير من المخاطر البيئيَّة تجاه صحَّة الإنسان، وانتشار الأمراض المُعْدِيَة، وموت الآلاف سنويًّا(٢).

انظر كيف تَصِفُ الآية فِعْلَهم لهذه الجرائم: ﴿يَقۡطَعُونَ﴾، ﴿يَنقُضُونَ﴾، ﴿يُفۡسِدُونَ﴾، وكلُّها بالفعل الحاضر، فلماذا؟ وما سبب التَّعبير عنهم بواو الجماعة؟

الجواب: التَّعبير بالفعل الحاضر يدلُّ على فعلهم لتلك الجرائم في الحال، وعلى استمرارهم على فعلها في المآل والمستقبل، وعلى حبِّهم لتلك الجرائم.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٧٢).

(٢) ينظر: تغير المناخ في الموقع الرسمي للأمم المتحدة على هذا الرابط:
https://www.un.org/ar/global-issues/climate-change

بصيرة [١٥]: تبصّرنا واو الجماعة في هذه الأفعال الثّلاثة ﴿يَقْطَعُونَ﴾، ﴿يَنقُضُونَ﴾، ﴿يُفْسِدُونَ﴾ بأنّهم قد يفعلون ذلك فرديًّا، وربّما عملوا على بناء الصّدَاقات والتّحالفات الصّغيرة والكبيرة المحليّة والدّوليّة التي تتعاون على الإثم والعدوان بدلًا من إسعاد النّاس، وتنمية الحياة.

ولذا حذَّر الصَّالحون من صحبة الفاسق، فعن أبي جعفر محمد بن علي الباقر رحمهما الله قال: أوصاني أبي قال: «يا بني، لا تصحب فاسقًا؛ فإنه بائعُك بأَكْلَة فما دونها، قلت: وما هو دونها؟ قال: يطمع فيها ثمَّ لا ينالها، ولا تصحب بخيلًا؛ فإنه يقطع بك في مالك أحوج ما تكون إليه، ولا تصحب كذَّابًا؛ فإنه بمنزلة السَّراب يقرِّب منك البعيد، ويبعِّد منك القريب، ولا تصحب أحمق؛ فإنه يريد أن ينفعك فيضرَّك، ولا تصحب قاطع رحم، فإني وجدته ملعونًا في ثلاثة مواضع من كتاب الله عز وجل: في سورة البقرة، وسورة الرعد، وسورة الذين كفروا»(١).

ويبيِّن الرَّبيع رحمه الله مَلْمَحًا مهمًّا في الفهم الإداريِّ لطبيعة صنفٍ من أخطر أصناف الفاسقين، وهم المنافقون، فَهُمْ يطبِّقون هذه الصِّفَات الثلاث سرًّا، لكنهم يطبِّقونها علنًا عندما يتمكَّنون من المناصب العامَّة والخاصَّة.

ويتدبَّر الرَّبيع رحمه الله هذه الصِّفَات الثلاثَ، فيربطها مع صفات المنافقين الثَّلاث المشهورة، ويحلِّل الموقف، ويصل إلى أن المنافقين إن كانوا أذلَّ فلهم طريقة للإفساد، وإن كانوا أقوى فلهم طريقة أكثر إفسادًا، فينظر إلى هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧]، فيقول: فهي ستُّ خلال في أهل النِّفاق، إذا كانت لهم الظَّهَرَة [أي: الغَلَبَة]، أظهرُوا هذه

---

(١) الصداقة والصديق (ص٢٥٥)، وسورة (الذين كفروا) هي سورة محمد.

الخلال السِّتَّ جميعًا: إذا حدَّثوا كذبوا، وإذا وَعدوا أخلفوا، وإذا اؤْتُمنوا خانوا، ونَقَضُوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمرَ اللهُ به أن يوصل، وأفسدُوا في الأرض. وإذا كانت عليهم الظَّهَرَةُ، أظهروا الخلالَ الثلاثَ إذا حدَّثوا كذَبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اؤْتُمنوا خانوا[1].

وربما تقول: عرفنا ثلاثيَّة الصِّفَات المدمِّرة للفاسقين، فكيف يكون حال المؤمنين الذين يقفون في الصف المقابل؟

الجواب: هذه الثُّلاثيَّة المدمِّرة تخالف صفات النُّخبة المؤمنة المصلحة للأرض التي ذكرها الله ﷻ في قوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد: ١٩-٢١].

بصيرة [١٦]: نتيجة الفسق، ومصير الفاسقين: يُبَصِّرنا الله ﷻ بنتائج فسقهم وأفعالهم المجرمة، فأمَّا في الدُّنيا فيعاقبهم الله ﷻ بأن يبعدهم عن الهدى، ويضلَّهم: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، وأمَّا في الآخرة فقد قال الله ﷻ عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

فإن قلت: لماذا وصفهم بأنهم الخاسرون؟ ما وجه القوَّة في هذه الكلمة لتعبِّر عن حقيقتهم؟

الجواب: هذه الكلمة تعبِّر عن أعظم المصائب التي سيقعون فيها، ويَظْهَر ذلك في أصل الكلمة، وفي اشتقاقها، وفي وضعها في الجملة:

أما في أصلها، فكلمة ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ من (خَسِرَ)[2] بفتح السِّين وكسرها، فهي كلمة تدلُّ عَلَى النَّقْصِ، فَمِنْ ذَلِكَ الْخُسْرُ وَالْخُسْرَانُ، كَالْكُفْرِ وَالْكُفْرَانِ، وَالْفُرْقِ وَالْفُرْقَانِ، وَيُقَالُ:

---

(١) تفسير الطبري (١/ ١١٤).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة (٢/ ١٨٢)، مختار الصحاح (ص: ٩٠)، تاج العروس (١١/ ١٦٤)، المعجم الاشتقاقي (١/ ٥٥٦).

خَسَرْتُ الْمِيزَانَ وَأخْسَرْتُهُ، إِذَا نَقَصْتُهُ، والخُسْرُ والخُسْرَان: انتقاص رأس المال، وينسب ذلك إلى الإنسان، فيقال: خَسِرَ فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته، قال تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١٢]، ويستعمل ذلك في المقتنيات الخارجة كالمال والجاه في الدُّنيا وهو الأكثر، وفي المقتنيات النَّفسيَّة كالصِّحَّة والسَّلامة، والعقل والإيمان، والثَّواب، والخُسر ليس مجرَّد النَّقص بل يتحقَّق بالآتي:

الهلكة، والغَبن، وعدم الظَّفَر بالمطلوب، وعدم الانتفاع بالشَّيء، والعقوبة، والنَّقص الماديّ، والضَّعف، وذهاب القيمة والكرامة، والنَّقص المعنويّ، والنَّفسيّ، ومنه قوله: ﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ﴾ [يوسف: ١٤]: أي: عَجَزة.

وتعبِّر هذه الكلمة عن أعظم المصائب في اشتقاقها، حيث ذكرهم الله ﷻ بصيغة جمع المذكَّر السَّالم: ﴿ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾، وهذه الصيغة تدلُّ على رسوخهم في الخسارة.

وتعبِّر هذه الكلمة عن أعظم المصائب بوضعها في الجملة، حيث حصر الله ﷻ الخسارة فيهم بصيغة القصر، بتعريف المبتدأ والخبر، والإتيان بضمير الفصل: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾، وكأنه لا خاسر غيرهم؛ لفداحة الخسارة التي وقعوا فيها.

وجوه الخسارة الماحقة التي حلّت بالفاسقين:

وهنا قد تسأل: فما وجوه خساراتهم التي تظهر هذه المصيبة الأكبر التي وقعوا فيها؟

الجواب: يظهر لي أنَّ الخسارة ليست مجرَّد عدم الانتفاع، وليست مجرَّد النُّقصان، بل الخسارة نقصان ما كان عند الإنسان نقصانًا مستمرًّا يستنزف كلَّ مالٍ ماديٍّ أو معنويٍّ عنده، ومن الوجوه التي تكشف لك فداحة خسارتهم:

الوجه الأول: **أن ينقلب ما عند الإنسان من النِّعم** وبالًا عليه بدلًا من أن يكون رأس ماله:

يخسر جسده في الآخرة؛ ليصبح أداة شعوره بالعذاب.. يصبح الجسد أداة ذوقه للألم، ويخسر أهله وولده، فبدلًا من أن تكون رِبْحَهُ في الآخرة؛ إمَّا أن يفوزوا هم بالجنَّة، وهو لم ينتفع بهم، وإمَّا أن يكونوا سبب تعذيبه؛ أو سبب زيادته في العذاب؛ لأنه أضاعهم، أو ظلمهم.

الوجه الثَّاني: **خسارة النَّفْس والأهل يوم القيامة**، وإذا خسر نفسه وأهله فماذا بقي له؟ ولذا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الشُّورى: ٤٥]؛ فهذه الجملة ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ تحصر الخسارة فيهم من خلال تعريف المبتدأ والخبر.. وهي جملة عجيبة توضِّح أنهم عندما يبتعدون عن المعرفة القُرآنِيَّة التي يجلِّيها البيان الإلهيُّ الخاتم يظنُّون أنهم بذلك يحافظون على مصالحهم، انظر إلى الحاكم الفاسد.. إلى التَّاجر الفاسد.. إلى النُّخَب الفاسدة.. عندما ينقض أحدهم عهد الله ﷻ من بعد ميثاقه، فيقتل ويضرب ويظلم، عندما يتاجر بالسِّلاح والدَّواء وإعادة الإعمار.. يشتري في سبيل ذلك القضاةَ والمحقِّقين والموظَّفين، ويحرِّف نصوصًا ربَّما نزل بعضها من السَّماء.. يظنُّ أن هذا أقرب للرِّبح في الدُّنيا، ويظن أن العوامل السِّياسيَّة ستؤدِّي الى فوزه بطريقته المِعْوَجَّة، فأبان الله تعالى له خطأ تفكيره ومنهاجه، فقال تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

الوجه الثَّالث: خسارة نَعِيمِ الْجَنَّةِ؛ فلَا أَحَدَ من البشر إلا وقد جعل الله ﷻ له أهلًا ومكانًا في الجنَّة، فَإِنْ أَطَاعَ اللهَ وَجدَهُ، وَإِنْ عَصَاهُ وَرِثَهُ الْمُؤْمِنُون، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون: ١٠-١١]، وبذا تفوتهم اللَّذات الحقيقيَّة الباقية التي يجدها أهل الجنَّة(١).

الوجه الرَّابع: ضياع الأعمال التي يقومون بها دون نتيجة حقيقيَّة دائمة، فتضيع معها الحسنات التي ربما كسبوها من بعض الأعمال الصَّالحة، ولذا قال الْقَفَّالُ رَحِمَهُ اللهُ: «وَبِالْجُمْلَةِ أَنَّ الْخَاسِرَ: اسْمٌ عَامٌّ يَقَعُ عَلَى كُلِّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَا يُجْزَى عَلَيْهِ فَيُقال لَهُ: خَاسِرٌ، كَالرَّجُلِ الَّذِي إِذَا تَعَنَّى وَتَصَرَّفَ فِي أَمْرٍ فَلَمْ يَحْصُلْ مِنْهُ عَلَى نَفْعٍ قِيلَ لَهُ: خَابَ وَخَسِرَ؛ لِأَنَّهُ كَمَنْ أَعْطَى شَيْئًا وَلَمْ يَأْخُذْ بِإِزَائِهِ مَا يَقُومُ مَقَامَهُ»، كما قال تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: ٢-٣] وَقَالَ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

وهذا هو الذي جعله الله تعالى الخسران المبين.

ويمكن تقسيمها كما حصرها الله تعالى في قوله: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١] إلى قسمين:

الأول: **خسارة الدُّنيا**، ويندرج فيها وجوه كثيرة من الخسران، من ذلك :خسران الدِّين بالفسق والموت على الكفر، وخسران العمر، والصِّحَّة، والأموال بإفنائها فيما لا يرضي الله تعالى.

الثَّاني: **خسارة الآخرة**: ويندرج فيها خسران النَّفس والأهلين بالحرمان من الجنَّة، والخلود في الجحيم.

---

(١) انظر: تفسير الرازي (٢/ ٣٧٥).

والطَّبريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فسَّر ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ بما يؤول إليه الأمر، قال: أي هم الهالكون[١]؛ لأنهم سيضيِّعون كلَّ شيء: أنفسهم، وأموالهم، وأهاليهم: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، ثم -يا حسرة على العباد- سيَهلكون في عذاب الآخرة، ولكنَّه ليس كأيِّ هلاك.. هل يعدُّ مجرَّد هلاك من يقع في النار ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٣]؟ إنهم الخاسرون الذين قال الله عَزَّ وَجَلَّ عنهم: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ [الشورى: ٤٥].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١/ ٤١٧).

الانتقال إلى الآية (٢٨):

الدَّليل الثَّالث عشر: دليل مراحل الوجود الإنسانيِّ: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]:

أي: كيف تسترون حقيقة الإيمان بالله ﷻ ومراحلُ وجودكم الإنسانيِّ خمسٌ لا يتحكَّم بها أحدٌ إلا هو: ثلاث مشاهَدة (العدم، ثم الحياة، ثم الموت)، واثنتان غيبيَّتان تدلُّ عليهما المراحل المشاهدة السَّابِقَة، وهما: (الحياة الأخرى، ثم الرُّجوع إلى الله ﷻ للحساب).. إنَّ كفركم بمن يتحكَّم بكم وجودًا وعدمًا وعنده حسابكم النِّهائيُّ حالةُ خَبَلٍ عقليٍّ، فالاستفهام في قوله: ﴿كَيۡفَ﴾ للتَّعجُّب والإنكار التَّوبيخيِّ.

المناسبة والاتصال:

ستسأل: كيف ظهرت لنا المناسبة وتجلَّى الاتصال بين هذا الدَّليل الذي يُلْزِمنا بوجوب أن نعبد الله ﷻ، وبين الأدلة السَّابِقَة؟

الجواب: انظر للانتقال الرَّائع:

في الدَّليل الثَّاني عشر نوَّر الله ﷻ العقل الإنسانيَّ بأنوار المعرفة القُرآنِيَّة، ووسَّع مداركنا توسيعًا كبيرًا حول النَّظر في صغار المخلوقات، وعاقبة التَّعامل مع كلام الله ﷻ إيمانًا وتبجيلًا، أو كفرًا وفسقًا، وهنا ينقلنا الله ﷻ من التَّفكُّر في صغار المخلوقات، والتَّعامل مع كلامه بجدِّية وتبجيل إلى دليل عقليٍّ بدهيٍّ واضحٍ نراه في أنفسنا: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

فَوَضَحَتِ المناسبة هنا أتمَّ الاتِّضاح، وجاءت على أجمل نسق؛ **فالخطاب متَّصلٌ، حيث قال الله ﷻ -وهو يعلن للنَّاس عن نظام العبادة وبراهينها-:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ

ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾... ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ...فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا...﴿٢٢﴾... وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴿٢٣﴾... فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴿٢٤﴾.. وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴿٢٥﴾... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَا ﴿٢٦﴾... كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ...﴿٢٨﴾﴾ [البَقَرَة: ٢١-٢٨].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ [البقرة: ٢٦] جاءت في نسق الخطاب كأنَّه يقول: يا أيُّها النَّاس إنَّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلًا ما بعوضة فما فوقها؛ لتروا فيما يضربه من الأمثال أدلَّة بالغة على استحقاقه للعبادة، كما يجوز أن تكون جملة صغار المخلوقات إخبارًا على سبيل الالتفات للتَّفنُّن والتَّنشيط، ثم عاد إلى مخاطبة الجميع بعد أن أبان لهم بالحجج الجامعة استحقاقه وحده للعبادة[1].. ولكن الكلام عن الحُجَّة السَّابِقَة استدعى التَّوسُّعَ فيها، وبيانَ المواقف العالميَّة المختلفة منها، ثم عاد إلى المخاطبة والمحاجَّة من جديد، فَالْمُنَاسَبَةُ -كما يقول ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ -: «بَيْنَ مَوْقِعِ هَاتِهِ الْآيَةِ بَعْدَ مَا قَبْلَهَا هِيَ مُنَاسَبَةُ اتِّحَادِ الْغَرَضِ، بَعْدَ اسْتِيفَاءِ مَا تَخَلَّلَ وَاعْتَرَضَ»[2].

وهنا سنسأل: كيف تؤثِّر هذه الآية بهذه القوَّة الهائلة في عقل الكافرين والمعرضين؛ ليرجعوا من جحيم الكفران إلى نعيم الإيمان؟

الجواب:

يحدِّثنا الله عَزَّ وَجَلَّ بأسلوب خطاب سديد مباشر، فيقول:

---

(١) خلاف ما قرَّره كبير محرري التفسير من المتأخرين في التحرير والتنوير (١/ ٣٧٣) حيث قال: «وَلَيْسَ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨] تَنَاسُبُ مَعَ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَا﴾ [البَقَرَة: ٢٦] وَمَا بَعْدَهُ مِمَّا حَكَى عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قَوْلِهِمْ: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البَقَرَة: ٢٦] حَتَّى يَكُونَ الِانْتِقَالُ إِلَى الْخِطَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَكْفُرُونَ﴾ الْتِفَاتًا، فَالْمُنَاسَبَةُ بَيْنَ مَوْقِعِ هَاتِهِ الْآيَةِ بَعْدَ مَا قَبْلَهَا هِيَ مُنَاسَبَةُ اتِّحَادِ الْغَرَضِ، بَعْدَ اسْتِيفَاءِ مَا تَخَلَّلَ وَاعْتَرَضَ...».

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٧٣).

﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨]: **وهذه الآية تبصِّرُك بالأسلوب الإقناعيِّ العقليِّ العاطفيِّ الأقوى، فالاستفهام للإنكار من جهة، وللتَّعجيب من جهة أخرى، ففيه تتَّخِذ الهجوم المباشر على عقل الإنسان، متعجِّبًا منه أن تخفى عليه حقيقة الإيمان حتى يلجأ مثله إلى الكفر، ومستنكرًا عليه أن يهدر عقله إلى هذا الحدِّ المنحطِّ، فيقبل أن يغطِّي الإيمان النَّاصع، ويرضى بالكفران الخاسر.**

ولعلك تسأل: فما الذي تبصِّرنا به ﴿كَيۡفَ﴾ والواو في قوله ﷻ: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢٨]؟

الجواب: الواو في قوله ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا﴾ [البقرة: ٢٨] للحال، و﴿كَيۡفَ﴾ بمعنى التَّعجُّب والإنكار التَّوبيخيِّ، لا بمعنى الاستفهام، كأنه قال: ويْحَكم كيف تكفرون بالله، كما قال: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦]. وحلَّ قوله: ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٨] محلَّ الحال، وأضمر (قد)؛ لأن الحال جملة كاملة، وفي الكلام دليل عليها، فالماضي إذا حلَّ محلَّ الحال كان معلومًا أنها مقتضية (قد)، كما قال -جلَّ ثناؤه-: ﴿أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ﴾ [النساء: ٩٠]، بمعنى: قد حَصِرَت صدورهم. وكما تقول للرَّجل: أصبحتَ كثرت ماشيتك، تريد: قد كثرت ماشيتك[1]، فالواو دخلت على جملة: ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا﴾ إلى ﴿تُرۡجَعُونَ﴾، كأنه قيل: كيف تكفرون بالله وقِصَّتكم هذه، وحالكم أنكم كنتم أمواتًا[2].

فلما دعا سبحانه إلى التَّوحيد ودلَّ عليه، وأنذر من أعرض، وبشَّر من أقبل، وذكر حال الفريقين في قبول الأدلَّة التفت إلى تبكيت المعرض المستكبر لعله يستبصر، واستمرَّ سبحانه في بيان دلائل التَّوحيد؛ حتى قامت قيام الأعلام، ونفذت نفوذ السِّهام حتَّى تخلَّلت صميم

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٢٧).

(٢) الكشاف (١/ ١٢١).

العظام. لقد ظهرت فلا تخفى على أحد إلا على أَكْمَهٍ لا يبصر القمر في أسلوب مشيرٍ إلى البعث، منبِّهٍ على التخلُّص من الخسارة، وما أبدع افتتاح ذلك عقب (الخاسرين) بقوله على طريق التفات المُغْضَب المُستَعطِف المُعجب المنكر ﴿كيف﴾![1].

والمعنى: «أتكفرون بالله ومعكم ما يصرف عن الكفر ويدعو إلى الإيمان، وهو الإنكار والتَّعجُّب. ونظيره قولك: أتطير بغير جناح، وكيف تطير بغير جناح؟ فإن قلت: قولك: أتطير بغير جناح إنكار للطَّيران؛ لأنه مستحيل بغير جناح، وأما الكفر فغير مستحيل مع ما ذكر من الإماتة والإحياء. قلت: قد أخرج في صورة المستحيل لما قَوِي من الصَّارف عن الكفر والدَّاعي إلى الإيمان»[2]، «أَيْ: أَنَّ كُفْرَكُمْ مَعَ تِلْكَ الْحَالَةِ شَأْنُهُ أَنْ يَكُونَ مُنْتَفِيًا لَا تَرْكَنُ إِلَيْهِ النَّفْسُ الرَّشِيدَةُ لِوُجُودِ مَا يَصْرِفُ عَنْهُ، وَهُوَ الْأَحْوَالُ الْمَذْكُورَةُ بَعْدُ فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُنْكَرَ، فَالْإِنْكَارُ مُتَوَلِّدٌ مِنْ مَعْنَى الِاسْتِفْهَامِ، وَلِذَلِكَ فَاسْتِعْمَالُهُ فِيهِمَا مِنْ إِرَادَةِ لَازِمِ اللَّفْظِ، وَكَأَنَّ الْمُنْكِرَ يُرِيدُ أَنْ يَقْطَعَ مَعْذِرَةَ الْمُخَاطَبِ فَيُظْهِرُ لَهُ أَنَّهُ يَتَطَلَّبُ مِنْهُ الْجَوَابَ بِمَا يُظْهِرُ السَّبَبَ، فَيَبْطُلُ الْإِنْكَارُ وَالْعَجَبُ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْدُ ذَلِكَ كَانَ حَقِيقًا بِاللَّوْمِ وَالْوَعِيدِ»[3].

فأنكر الله ﷻ عليهم أن يكفروا به مع أنَّ كلَّ مراحل حياتهم وموتهم بيده.. أنكر عليهم، وجعلهم في موضع المُتَعَجَّب منه؛ لضياع عقله عندما يكفر، لأنَّ كلَّ مرحلة من هذه المراحل الخمس تحتوي على عجائب لا يمكن ليد مخلوق أن تصنعها، فكيف يكفر به سبحانه وهو خالقها؟! يكفي أن تتصوَّر عجائب الصُّنع، ودلائل القدرة في مرحلة واحدة هي مرحلة الحياة، فتصوَّر ما يخالطها من فنون الشُّعور بالحياة.. تصوَّرِ الأنفاس المتتابعة، وتصوَّر معها

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ٢١٢).

(٢) الكشاف (١/ ١٢١).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٣٧٤).

كم تحتاج من الآلات والأجهزة، والخبرة، والتَّكاليف، وفريق الأطباء لتوفِّر لك الأنفاس طوال الحياة.. فكيف لو وسَّعت تصوُّراتِك إلى المطاعم والمشارب والتَّلذُّذ بالمآكل والفواكه والمناكح والمراكب، والشُّعور بجمال الحياة في المناظر الحسنة البهيَّة وسائر ما ترى في الكون من العجائب.. فكيف بما لا تراه لكن تشعر بوجوده؟ وكيف بما وفَّره الله ﷻ لك من حماية وحراسة تقيك سائر الهموم والمخاوف؟

وخاطبهم سبحانه مخاطب المعاتب المشفق المنكر فقال: كيف تكفرون؟ لأنَّ الكفر تغطية الحقِّ البيِّن، فكيف يمكنهم أن يستروا نعمة الله ﷻ أو أن يغطُّوها؟ وكيف يمكنهم أن يعاندوا داعي الإيمان الذي يتحرَّك في جوانحهم وقلوبهم؟

كلُّ هذا يُبَصِّرنا به هذا الاستفهام التَّعجُّبيُّ الإنكاريُّ الهائل الذي يظهر من كلمة ﴿كيف﴾، والآن يحاصرنا بذكر المراحل الزمنيَّة التي يمر بها كلُّ إنسان:

مراحل الوجود الإنسانيِّ:

أما المرحلة الأولى فدلَّ عليها قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾، فهذه المرحلة مشاهدةٌ، حيث يرى الإنسان رؤية قلبيَّة عقليَّةً وبصريَّةً أنَّ الطِّفل الذي وُلِد كان عدمًا فوُجِد، وكان مفقودًا لم يكن شيئًا فَوُلِد:

﴿وَكُنتُمْ﴾: الواو للحال، فكأن الله ﷻ يقول لهم: أنكر عليكم أن تكفروا بي، وأثير عجب المخلوقات أن تكفروا بي مع أنَّ الحال أنَّكم كنتم أمواتًا فأحييتكم، والفعل الماضي النَّاسخ على بابه يشار به إلى حال البشريَّة في الزَّمن الماضي قبل خلقهم حيث كانوا في حيز العدم، فقد قال ابن عَبَّاس رضي الله عنهما: كنتم تُرابًا قبل أن يخلقكم، فهذه ميتة –وقال قتادة رحمه الله: كانوا أمواتًا في أصلاب آبائهم، ثمَّ أحياكم فخلقكم، فهذه إحياءة، ثمَّ يميتكم فترجعون إلى القبور، فهذه ميتة أخرى. ثم يبعثكم يوم القيامة، فهذه إحياءة. فهما ميتتان وحياتان، فهو قوله: ﴿كَيْفَ

تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]، وقال أبو العالية رحمه الله: «حين لم يكونوا شيئًا، ثم أحياهم حين خلقهم، ثم أماتهم، ثم أحياهم يوم القيامة، ثم رَجعوا إليه بعد الحياة»[١].

الموت يراد به العدم المحضُ، هذه هي المرحلة الأولى، ولذا يوصف الله عز وجل بأنه (واجب الوجود)، وذلك يعني أن العقلاء لا يتصوَّرون الكون دون وجود الإله الأوَّل الذي عنه انبثقت الحياة، فوجوده ذاتيٌّ لا يُتَصَوَّرُ الخلق بدونه، ولذا فالسُّؤَال يتوجَّه إلى الملحد: ما دليله على الإلحاد، وليس السُّؤَال للمؤمن ما دليله على الإيمان؛ لأنَّ كلَّ ذرَّة في الكون تدلُّ على خالقها سبحانه.

قال الطبري رحمه الله عند ذكره هذه الآية: «أي: لم تكونوا شيئًا، فإنه ذهب إلى نحو قول العرب للشَّيء الدَّارس والأمر الخامل الذِّكْر: هذا شيء ميِّتٌ، وهذا أمر ميِّت -يراد بوصفه بالموت: خُمولُ ذِكْره، ودُرُوسُ أثرِه من النَّاس. وكذلك يقال في ضدِّ ذلك وخلافه: هذا أمر حيٌّ، وذكر حيٌّ- يراد بوصفه بذلك أنه نابه مُتعالم في الناس، كما قال أبو نُخَيْلَة السَّعديُّ:

فَأَحْيَيْتَ لِي ذِكْرِي، وَمَا كُنْتُ خَامِلًا ... وَلَكِنَّ بَعْضَ الذِّكْرِ أَنْبَهُ مِنْ بَعْضِ[٢]

يريد بقوله: «فَأَحْيَيْتَ لِي ذِكْرِي»، أي: رفعته وشهرته في الناس حتى نَبُهَ فصار مذكورًا حيًّا، بعد أن كان خاملًا ميتًا. فكذلك تأويل قول من قال في قوله: ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا﴾ [البقرة: ٢٨]: «لم تكونوا شيئًا، أي كنتم خُمولًا لا ذكر لكم، وذلك كان موتكم فأحياكم»[٣]، وذلك مثل قوله: ﴿بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾ [الفرقان: ٤٩]، ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ [يس: ٣٣]، ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾ [النحل: ٢١]،

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤١٩).

(٢) ينظر: الدر الفريد وبيت القصيد (٧/ ٣٢٦).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٤٢١).

فعن ابن مسعود رضي الله عنه، وعن ناس من أصحاب النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: لم تكونوا شيئًا فخلقكم، ثم يميتكم، ثم يحييكم يومَ القيامة»[1].

وفي سورة (المُلك) التي تبيِّن عَظَمة المُلك الإلهيِّ يذكر الله عز وجل الموت أولًا قبل الحياة، فيقول: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

وأما المرحلة الثَّانية فيدلُّ عليها قوله تعالى: ﴿فَأَحْيَـٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]:

وهذه المرحلة مشاهدةٌ بالحَمْل المستبين الحياة، ثمَّ بالولادة، وهذه الكلمة النُّورانيَّة ﴿فَأَحْيَـٰكُمْ﴾: من حَيِيَ[2] يَحيَا حَيَاةً فهُوَ حَيٌّ، والحياة تستعمل على أوجه:

الأوَّل: للقوَّة النَّامية الموجودة في النَّبات والحيوان، ومنه قيل: نبات حَيٌّ، قال عز وجل: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧].

الثَّانية: للقوَّة الحسَّاسة، وبه سمِّي الحيوان حيوانًا، قال عز وجل: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ٢٢].

الثَّالثة: للقوَّة العاملة العاقلة، كقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقول الشَّاعر:

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حَيًّا ... ولكنْ لا حياةَ لمن تنادي[3]

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤١٨).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٦٨)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (١/ ١٦٠)، تاج العروس (٣٧/ ٥٠٦)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ٣٥٧).

(٣) البيت منسوب لكُثَيِّر عزَّة في ديوانه (ص: ٢٢٢)، ونُسب -أيضًا- لغيره كبشار بن برد، ودريد بن الصمة، وعمرو بن معديكرب، وعبد الرحمن بن الحكم، وغيرهم، وهو في دواوينهم.

فيكون معنى ﴿فَأَحۡيَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٨]: فجعلكم أحياء تتمتَّعون بقوَّة الحياة التي تمكِّنكم من العمل والنُّموِّ، وتمدُّكم بالقوَّة، والطَّاقة، والحركة.

فكنتم أمواتًا لا توجد فيكم حياة الأجساد، ولا حياة الأرواح، فأمدَّكم بالحياة طاقة، وقوَّة ونموًّا، وازدهارًا.

﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا﴾ [البقرة: ٢٨]؟ تثير تفكير السَّامعين ليقولوا مذعنين: نعم، نحن لم نك شيئًا مذكورًا، بل كنا في عالم اللَّا شيء أمواتًا، ولم ينقلنا من ذلك إلا أنت ربَّنا فأحييتنا، فكيف يمكن أن نكفر بك؟

ثم تأتي المرحلة الثَّالثة في التاريخ البشري، فماذا تكون؟

وأما المرحلة الثَّالثة فيقول الله ﷻ عنها: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٨]:

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٨]: فبعد قيام تلك الحياة في الأحياء، ومدِّ الأعمار. بعد التَّقليب في مراحل النُّموِّ وتعدُّد الأطوار يتحوَّل الأحياء إلى أجساد متجمِّدة كالفخَّار، كأنه لم تحلَّ بها حياة ساعة قطُّ. ذهب ذلك الأنس، وزال ذلك الجمال، وانقلبت محبة القرب إلى النُّفور، وزالت الابتسامات وغاب ذلك السُّرور[1]، فيحدث الاستدعاء القاهر من ملك الملوك الباطن، الظَّاهر، الأوَّل، الآخر.

وقد تتساءل: نحن نرى الإنسان يوجد من العدم في بطن أمِّه، ثم يولد ممتلئًا بالحياة العظيمة، ثم نراه يموت بعد أن يقضي أجله المعدود في الحياة، ولكن ما وجه أن يكون ذلك دليلًا على الإيمان؟

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ٢١٥).

الجواب: هذه المرحلة يشاهدها أكثرنا، فالإنسان يكون حيًّا ثمَّ يموت، والموت تراه البشريَّة أمام أعينها صباح مساء، لكن ربما لا تتأمَّل في ولادة الإنسان ونموِّه وحياته ثم موته، ألا يدفعك هذا إلى التَّساؤل عمَّن بذر فيه بذور تلك الحياة؟ ألا ترى أن الأشجار المثمرة لا بدَّ لها من أسباب تهيئ لها الوجود في الحياة، فمن الذي تحكَّم في إيجاد الأحياء وإماتتهم؟ من الذي سلب تلك الحياة المزدهرة وَفْقَ نظام دقيق، وآجال مسمَّاة عنده لا يمكن للبشر أن يحددوها مهما حاولوا؟

كُتبَ الموتُ على الخَلقِ فكمْ ... فَلَّ من جيشٍ وأفنى من دُوَلْ
أينَ نُمرودُ وكنعانُ ومن ... مَلَكَ الأرضَ وولَّى وعَزَلْ
أينَ عادٌ أينَ فرعونُ ومن ... رَفَعَ الأهرامَ من يسمعْ يَخَلْ
أينَ من سادوا وشادوا وبَنَوا ... هَلَكَ الكلُّ ولم تُغنِ القُلَلْ
أينَ أربابُ الحِجَى أهلُ النُّهى ... أينَ أهلُ العلمِ والقومُ الأُوَلْ
سيُعيدُ اللهُ كُلًّا منهمُ ... وسيَجزي فاعلًا ما قد فعَلْ(١)

فيُميتُ الله من شاء من عباده، وَيُصَيِّرُهُ بِحَيْثُ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا، وَلَا يَبْقَى مِنْهُ فِي الدُّنيَا خَبَرٌ وَلَا أَثَرٌ، وَيَبْقَى مُدَّةً طَوِيلَةً فِي اللُّحُودِ، كَمَا قال تَعَالَى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] يُنَادَى فَلَا يُجِيبُ، وَيُسْتَنْطَقُ فَلَا يَتَكَلَّمُ، ثُمَّ لَا يَزُورُهُ الْأَقْرَبُونَ، بَلْ يَنْسَاهُ الْأَهْلُ وَالْبَنُونَ، كَمَا قال يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازيُّ رحمه الله:

يَمُرُّ أَقَارِبِي بِحِذَاءِ قَبْرِي ... كَأَنَّ أَقَارِبِي لَمْ يَعْرِفُونِي

(١) الأبيات لعمر بن الوردي (ت ٧٤٩هـ) يخاطب ولده. جواهر الأدب (٢/ ٤٣٦).

وَقال -أيْضًا-: إِلَهِي كَأَنِّي بِنَفْسِي وَقَدْ أَضْجَعُوهَا فِي حُفْرَتِهَا، وَانْصَرَفَ الْمُشَيِّعُونَ عَنْ تَشْيِيعِهَا، وَبَكَى الْغَرِيبُ عَلَيْهَا لِغُرْبَتِهَا، وَنَادَاهَا مِنْ شَفِيرِ الْقَبْرِ ذُو مَوَدَّتِهَا، وَرَحِمَتْهَا الْأَعَادِي عِنْدَ جَزْعَتِهَا، وَلَمْ يَخْفَ عَلَى النَّاظِرِينَ عَجْزُ حِيلَتِهَا، فَمَا رجائي إلا أن تقول: مَا تَقُولُ مَلَائِكَتِي انْظُرُوا إِلَى فَرِيدٍ قَدْ نَأَى عَنْهُ الْأَقْرَبُونَ، وَوَحِيدٍ قَدْ جَفَاهُ الْمُحِبُّونَ، أَصْبَحَ مِنِّي قَرِيبًا، وَفِي اللَّحْدِ غَرِيبًا، وَكَانَ لِي فِي الدُّنْيَا دَاعِيًا وَمُجِيبًا، وَلِإِحْسَانِي إِلَيْهِ عِنْدَ وُصُولِهِ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ رَاجِيًا، فَأَحْسِنْ إِلَيَّ هُنَاكَ يَا قَدِيمَ الْإِحْسَانِ، وَحَقِّقْ رَجَائِي فِيكَ يَا وَاسِعَ الْغُفْرَانِ(١).

هنا تأتي المرحلة الرَّابعة، حيث قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾، فما معنى الحياة هاهنا؟ وهل تشبه الحياة السَّابِقَة في قوله: ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾؟

وأما المرحلة الرَّابعة: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في القبور، ويوم النُّشور بنوع حياة مختلفة عن الحياة الدُّنيا:

فقوله: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: بعد الموت في البرزخ، أو في الدَّار الآخرة عندما ينفخ في الصُّور النَّفخة الثَّانية: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

ويرى الرَّازيُّ رحمه الله أن الحياة هنا أقرب إلى أن يُقصد بها حياة البرزخ؛ لأن قوله ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ ليس هو الحياة الدَّائمة؛ إذ قال بعده: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ ﴿ثُمَّ﴾ تَقْتَضِي التَّرَاخِيَ، وَالرُّجُوعُ إِلَى اللهِ تَعَالَى حَاصِلٌ عَقِبَ الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ مِنْ غَيْرِ تَرَاخٍ، فَلَوْ جَعَلْنَا الْآيَةَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ دَلِيلًا عَلَى حَيَاةِ الْقَبْرِ كَانَ قَرِيبًا(٢)، ويمكن شمولها للأمرين؛ إذ الحياة البرزخيَّة نوع حياة، لا تشبه الحياة السَّابِقَة، وتشترك نوع اشترك مع النُّشور في الآخرة.

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٧٨).

(٢) تفسير الرازي (٢/ ٣٧٧).

وبعد ذلك تأتي المرحلة الخامسة، فماذا تكون هذا المرحلة؟

وأما المرحلة الخامسة: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي المرجع والمصير إلى الله ﷻ، حيث الحساب في يوم القيامة:

وذلك على إثر نفخة الحياة التي تكون في الصُّور، حيث وصفها الله ﷻ ببيانٍ يجعل القلوب تستعدُّ لما ستستقبله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]، ونفخة الحياة هذه تفزع الأرواح لتدخل في الأجساد، وتفزع الجميع ليأتوا ربَّهم خاضعين، واسمع لمنادي الحقِّ يصف ذلك، فيقول: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، «فَيَقُومُونَ خَاشِعِينَ خَاضِعِينَ، كَمَا قَالَ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨]، وَقال بَعْضُهُمْ: إِلَهَنَا إِذَا قُمْنَا مِنْ ثَرَى الْأَجْدَاثِ مُغْبَرَّةٌ رُؤُوسُنَا، وَمِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ شَاحِبَةٌ وُجُوهُنَا، وَمِنْ هَوْلِ الْقِيَامَةِ مُطْرِقَةٌ رُؤُوسُنَا، وَجَائِعَةٌ لِطُولِ الْقِيَامَةِ بُطُونُنَا، وَبَادِيَةٌ لِأَهْلِ الْمَوْقِفِ سَوْآتُنا، وَمُوقَرَةٌ مِنْ ثِقَلِ الْأَوْزَارِ ظُهُورُنَا، وَبَقِينَا مُتَحَيِّرِينَ فِي أُمُورِنَا نَادِمِينَ عَلَى ذُنُوبِنَا، فَلَا تُضْعِفِ الْمَصَائِبَ بِإِعْرَاضِكَ عَنَّا، وَوَسِّعْ رَحْمَتَكَ وَغُفْرَانَكَ لَنَا، يَا عظيم الرَّحمة، يا واسع المغفرة»[1].

ولزيادة بيان قوَّة الرُّجوع إلى الله ﷻ تجد في كلمة ﴿تُرْجَعُونَ﴾ قراءتين تصوِّران مشهدين، فكيف ذلك؟

الجواب: تبصِّرنا القراءتان بمشهدين هما:

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٧٨).

المشهد الأول: توضِّحه قراءة﴿تَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] بفتح التاء وكسر الجيم وهي قراءة يعقوب(١)، وتصوِّر لنا مشهد الرُّجوع الاختياريِّ إلى الله ﷻ، أي: ترجعون بأنفسكم إلى ربِّكم، لأنكم تكونون قسمين:

قِسم **صالح** ممن سبقت لهم من الله ﷻ الحسنى، فهؤلاء يرون نعيمًا مبكِّرًا في ظلِّ عرش الرَّحمن أو غير ذلك، وتزلف الجنَّة لهم، فيسعون نحوها بأنفسهم، فتحقَّق فيهم الرُّجوع الذَّاتيُّ الاختياريُّ المباشر.

وقِسم **مجرم** يرى أنَّ ما أنكره من القيامة قد صار حقًّا، فيصيح: ﴿يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: ٥٢].. ثم يرى الأهوال فيحاول الهرب: ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ [غافر: ٣٣] فيقال له: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾ [غافر: ٣٣]

ويصيح طالبًا الفرار: ﴿يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾ [القيامة: ١٠] فيُردُّ عليه: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ١٢﴾ [القيامة: ١١-١٢]، فهذا رجوعٌ اختياريٌ في النِّهاية بعد محاولة الفرار.

المشهد الثاني: توضِّحه قراءة الجمهور بضم التاء وفتح الجيم، أي تُرجعون رغمًا عنكم؛ لأنَّ الله ﷻ هو الذي بعثكم وأحاط بكم، فتقادون إلى الله ﷻ ليحاسبكم: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨]، فهذا رجوع قسريٌّ جبريٌّ، أين منه تفرُّون؟ فيَصْدُق على الرُّجوع أن يكون اختياريًّا، كما يَصْدُق عليه أن يكون قسريًّا.

ويلفت نظرك في الآية مجيء الفاء في المرحلة الثَّانية: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢٨]، ومجيء كلمة ﴿ثُمَّ﴾ في بقية المراحل: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]، فلماذا؟

---

(١) ينظر: النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٠٨).

الجواب: أتت الفاء في المرحلة الثَّانية ﴿فَأَحۡيَـٰكُمۡ﴾ في موضعها المحدَّد؛ لأن الفاصل بين العدم والوجود لا يكاد يُذكر، بينما أتى في البقية بـ ﴿ثُمَّ﴾ لأن هناك فاصلًا زمنيًّا معيَّنًا، وهذا من دقائق اللَّفظ القرآنيِّ.

والآن بعد هذا الاستعراض المجمل للمراحل الخمس لِنَعُد إلى أوَّل الآية حيث تسمع ربَّنا -تعالى جدُّه- يقول: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَـٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

إنه الإنكار التَّوبيخيُّ التَّعجيبيُّ الذي يهزُّ القلوب.. ويدمغ الباطل الذي تختلقه العقول، والإنكار التَّوبيخيُّ يقتضي -كما يقول ابن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ - أنَّ ما بعده واقع، وأن فاعله ملوم[1]، فما بعد الهمز واقع وهو كفرهم، وهم ملومون على ذلك.. ألم يخبرهم ربُّنا عَزَّ وَجَلَّ عن خمس مراحل، منها ثلاث يعلمونها، ويشعرون بها، ويرونها واضحةً مشاهدةً: العدم، الحياة، الموت، وبها يستدلُّون على وقوع ما لم يشاهدوه، وهما الحياة بعد الموت، والرُّجوع إلى الله عَزَّ وَجَلَّ للحساب، فيتيقنون أنها حقٌّ كما أن الذي يشاهدونه حق، فمن قَدَرَ على الثَّلاث الأُوَل لا يعجزه المرحلتان الباقيتان، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وهذا الأسلوب في الإقناع يتضمَّن التَّبشير والتَّحذير، فمن علم أو حتى ظن أنه راجع إلى ربِّه.. أيكابر فيكفر؟!

(١) ينظر: مغني اللبيب (ص: ٢٥).

ولذا كَثُر وصف الكافرين بأنهم «أناس غير قادرين عقليًّا على نبذ تفكيرهم الرُّوتينيِّ، وعلى هذا فهم كالأنعام، وكتب (Lammens) بأن القرآن يعتبر تقريبًا أنَّ حالة الكفر هي حالة ضعف في العقل البشريِّ»[1].

الانتقال: تتواصل الأدلة والبراهين وأساليب الإقناع بأن ينتبه النَّاس إلى أهمِّ أهدافهم في الحياة: أن يعبدوا الله ﷻ ربَّهم وحده لا شريك له، وهنا تأتي الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وهاهنا لا يترك الله ﷻ البشريَّة، بل يلفت نظرهم إلى دليل آخر من أعظم أدلة الإقناع بأن نعبده وحده لا سواه، فما وجه قوَّة هذا الدَّليل؟

الجواب:

(١) الصراع من أجل الإيمان لجفري لانج (ص:٥٧).

الدَّليل الرابع عشر: دليل تَسخير ما في الأرض ليتحقَّق الاستمتاع بالحياة، ويُبَصِّرنا به قوله جل ذكره ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] كأنه يقول سبحانه: كيف تكفرون به -جلَّ مَجدُهُ- وهو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعًا؟

ذكر الله ﷻ في الآية السَّابِقَة تدبيرَه لموت الإنسان وحياته، وحكمه لها، وهنا ذكر الله ﷻ المادة التي ينتفع بها لأجل الاستمتاع بهذه الحياة، فكأنه يقول:

هؤلاء المؤمنون الذين يعلمون أنه الحقُّ من ربهم يشعرون بعظيم مِنَّة الله ﷻ عليهم، حيث خلق لهم ما في الأرض جميعًا، وهؤلاء الفاسقون الخاسرون الذين يكفرون بالله: ألا يرون ما أعطاهم الله ﷻ في الأرض، لقد خلق لهم ما في الأرض جميعًا من نباتاتٍ ومياهٍ وجبالٍ وهواءٍ ومخلوقاتٍ، وخيرات ظاهرة باطنة، فكيف يكفرون به مع أن بعضهم ربَّما آمن بالبقرة التي تهب له حليبًا، وهي لا تحبوه بالحليب لولا أن الله ﷻ خلقها له؟

كيف يكفرون بالله ﷻ، وهو الذي خلق لهم ما في الأرض جميعًا، مع أنَّ أحدهم ربَّما آمن بالأصنام، وهي حجارة سخرها الله ﷻ للبشريَّة في الأرض؟

كيف يكفرون بالله ﷻ مع أنَّ بعضهم يؤمن بالمادة المشاهدة، وربَّما عبدها، وعبد قوانينها، وهي مسخرة من الله ﷻ الذي خلق للإنسانية ما في الأرض جميعًا؟

ويعبِّر أبو حيَّان رحمه الله عن قوَّة الاتصال بين هذه الآية وما قبلها، وعن وجه هذا الدَّليل، فيقول:

«﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا ظَاهِرَةٌ، وَهُوَ أَنَّهُ لَمَّا ذكر أن مَنْ كَانَ مُنْشِئًا لَكُمْ بَعْدَ الْعَدَمِ، وَمُفْنِيًا لَكُمْ بَعْدَ الْوُجُودِ، وَمُوجِدًا لَكُمْ ثَانِيَةً؛ إِمَّا فِي جَنَّةٍ، وَإِمَّا إِلَى نَارٍ، كَانَ جَدِيرًا أَنْ يُعْبَدَ وَلَا يجحد، ويُشْكر وَلَا يُكْفَرَ. ثُمَّ أَخَذَ يُذَكِّرُهُمْ عَظِيمَ إِحْسَانِهِ، وَجَزِيلَ امْتِنَانِهِ مِنْ خَلْقِ جَمِيعِ مَا فِي الْأَرْضِ لَهُمْ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ وَتَصَرُّفِهِ فِي

الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ، وَأَنَّ الْعَالَمَ الْعُلْوِيَّ وَالْعَالَمَ السُّفْلِيَّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدْرَتِهِ عَلَى السَّوَاءِ، وَأَنَّهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ»(١).

وانظر التَّكامل الذي تقدِّمه لنا الآيات، فقد تقدَّم في الآية [٢١] البرهنة على وجوب الإيمان بالله وتوحيده في العبادة بجعل الأرض فراشًا: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، وَهُنَا يكمل الله ﷻ الصُّورَة، ويحاصر العقل المفتوح غير المتعصِّب ولا المغلق، فيمتنُّ على البشريَّة بأنه خلق لها ما في الأرض جميعًا، وبذا يكون الله ﷻ قد خلق الأرض مسخَّرة فكانت فراشًا، وخلق ما فيها مسخَّرًا؛ ليكون للبشريَّة الانتفاع به.

أول كلمة تقابلها في الآية كلمة ﴿هُوَ﴾ في هذه الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، وربَّما تتساءل عن قوَّة التَّعبير بها في هذا الموضع؟

الجواب: هذه الكلمة «مِنَ الْمُضْمَرَاتِ التي وُضِعَت لتشير إلى الْمُفْرَدِ الْغَائِبِ، ويرى بعض المتدبِّرين أن أَسْمَاءَ اللهِ تَعَالَى عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: مُظْهَرَاتٌ، وَمُضْمَرَاتٌ، وَمُسْتَتِرَاتٌ(٢)..

فَالْمُظْهَرَاتُ: أَسْمَاءُ ذَاتٍ، وَأَسْمَاءُ صِفَاتٍ، وَهَذِهِ كُلُّهَا مُشْتَقَّةٌ، وَأَسْمَاءُ الذَّاتِ مُشْتَقَّةٌ وَهِيَ كَثِيرَةٌ، وَغَيْرُ الْمُشْتَقِّ وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ ﷻ.

وَأَمَّا الْمُضْمَرَاتُ فَأَرْبَعَةٌ: (أَنَا) فِي مِثْلِ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤]، و(أنت) فِي مِثْلِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، و(هو) فِي مِثْلِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم﴾ [البقرة: ٢٩]،

---

(١) البحر المحيط في التفسير (١/ ٢١٤).

(٢) ولم يذكر أبو حيان مثالًا للمستترات؛ ولم أجد من قسَّم أسماء الله الحسنى بمثل هذا التقسيم وإنما يذكرون أن الأقسام الثلاثة هي: «قسم منها للذات؛ وقسم لصفات الذات؛ وقسم لصفات الفعل». شعب الإيمان» (١/ ١٢٥).

و(نحن) فِي مِثْلِ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٣]. قَالُوا: فَإِذَا تَقَرَّرَ هذا فالله أعظم الْمُظْهَرَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى الذَّاتِ، وَالْمُضْمَرَاتِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى ذَاتِهِ... »(١).

هذه الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، تنبِّئنا بأنَّ الله ﷻ جعل جزءًا من الكون العظيم خادمًا للمصالح الإنسانيَّة، فكيف ذلك؟

الجواب: تسمع أهل العلم يستنبطون من هذه الآية ما يدلُّ على قيام الشَّريعة القُرآنِيَّة على المصالح الإنسانيَّة، فيقولون: «هذه الآية دليل على أن الأصل في كلِّ شيءٍ الإباحة».

ألا فخذ هذا القانون، وأخبر به الكاذبين والواهمين الذين يُشَوِّشون على شريعة القرآن، قل لهم: إن شريعة القرآن تبيِّن أنَّ ما في الأرض خُلِقَ لأجل الإنسان، ويجلِّي الطَّبريُّ رحمه الله رابطًا بين كون هذه الآية دليلًا على وحدانية الله، ونفع النَّاس، فيقول: «فأخبرهم -جلَّ ذكره- أنه خلق لهم ما في الأرض جميعًا؛ لأنَّ الأرضَ وجميعَ ما فيها لبني آدم منافعُ. أما في الدِّين، فدليلٌ على وحدانيَّة ربِّهم، وأما في الدُّنيا فمعاشٌ وبلاغ لهم إلى طاعته وأداء فرائضه، فلذلك قال -جلَّ ذكره-: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩](٢)، ويذكر ابن عاشور رحمه الله كيف يبيِّن هذا البرهان وجوب عبادة الله ﷻ، كما يبيِّن في الوقت ذاته بناء نصوص القرآن على مصلحة البشريَّة، فيقول: «فَالْكَلَامُ مَسُوقٌ مَسَاقَ إِظْهَارِ عَظِيمِ الْقُدْرَةِ، وَإِظْهَارِ عَظِيمِ الْمِنَّةِ عَلَى الْبَشَرِ، وَإِظْهَارِ عَظِيمِ مَنْزِلَةِ الْإِنْسَانِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى، وَكُلُّ أُولَئِكَ يَقْتَضِي اقْتِلَاعَ الْكُفْرِ مِنْ نُفُوسِهِمْ»(٣).

---

(١) البحر المحيط في التفسير (١/ ٢١٤).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٤٢٦).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٣٧٩).

فهذه الآية -كما ترى- متَّصلة اتِّصالًا دقيقًا بما قبلها، فكأن معنى الكلام: كيف تكفرون بالله ﷻ وكنتم عدمًا فجعلكم بشرًا أحياءً، ثم يميتكم، ثم يحييكم حياة خاصَّة في البرزخ، وحياة دائمة يوم القيامة، ثم إليه ترجعون لتجدوا ما عملتم حاضرًا؟ وكيف تكفرون بالله ﷻ وهو المنعِمُ عليكم بما خلق لكم في الأرض من معايشكم وأرزاقكم التي بها تتمتَّعون في هذه الحياة؟

هنا نتساءل: بما أن الله قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، فكيف يستغل الإنسان تلك المخلوقات في الأرض لينتفع بها، وهو لا يعرف بعضها؟

يتجلَّى الجواب في البصيرة الآتية:

بصيرة [١]: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] تبصِّرك بأننا يجب أن ندرس جميع ما في الأرض من مخلوقات لنتمكَّن من الانتفاع المتزن بها، فنزداد استمتاعًا بالحياة، ويحرم علينا أن نستغلَّها استغلالًا يؤدِّي إلى الإفساد فيها.

هلمَّ معي إلى هذا المعنى الذي يحمل كمال التَّحبُّب إلى البشريَّة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].. **كأنه يقول سبحانه: كيف تكفرون به -جلَّ مَجدُهُ- ولا تقبلون كلامه وتقولون ماذا أراد الله بهذا مثلًا، وهو الذي أحياكم ثمَّ يميتكم، وهو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعًا؟** والإنسان عندما ينظر إلى نعم الله ﷻ في نفسه وفيما حواليه فإنه ينبغي أن يزداد إيمانًا ويقينًا، وذكر بعض أهل العلم مثالًا جميلًا لهذا، فقال: كم يحتاج الإنسان لتوصيل الكهرباء إلى بيته؟ وكم يستهلك من أموال وطاقات؟ قارن ذلك فقط بنعمة الشَّمس.

ولاحظ في تركيب قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] لتجد أن الله ﷻ عمَّمَ كلَّ ما في الأرض ليكون في خدمة الإنسان ورعايته، سواء أكان ذلك جمادات

أم حيوانات أم نباتات، وهذا يعني أن الإنسان ينبغي أن يدرسها، ويتعرَّف إلى خصائصها حتى يتمكَّن من استغلالها على الوجه الأمثل.

وقد جاء في سفر التَّكوين من التَّوراة الحاليَّة ما يشبه ذلك مع اختلاف كبيرٍ في التَّعبير:

١: ٢٦ وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلَّطون على سمك البحر، وعلى طير السَّماء، وعلى البهائم، وعلى كلِّ الأرض، وعلى جميع الدَّبَّابات التي تَدِبُّ على الأرض.

١: ٢٨ وَبَارَكَهُمُ اللهُ وَقَالَ لَهُمْ: «أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلَؤُوا الأَرْضَ، وَأَخْضِعُوهَا، وَتَسَلَّطُوا عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانٍ يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ».

١: ٢٩ وقال الله: «إني قد أعطيتكم كلَّ بَقْلٍ يُبْزِرُ بِزْرًا على وجه كلِّ الأرض، وكلَّ شجر فيه ثمر شجر يُبْزِرُ بِزْرًا لكم يكون طعامًا».

١: ٣٠ «ولكلِّ حيوان الأرض، وكلِّ طير السَّماء، وكلِّ دبَّابة على الأرض فيها نَفْسٌ حيَّة أَعْطَيتُ كلَّ عشب أخضر طعامًا وكان كذلك»(١).

ولكنك تجد النَّصَّ القرآنيَّ الخاتم يهيمن على هذا النَّصِّ التَّوراتيِّ -إن لم يحرَّف- بما أنزله الله ﷻ قبل هذه الآية من ذمِّ المفسدين في الأرض، ووصفهم بالفاسقين الخاسرين، ولا تجد هذا التَّحديد في النَّصِّ التَّوراتيِّ.

وحتى نفهم هذا القانون جيِّدًا، فإننا لا بدَّ أن نتساءل عن معنى اللام في كلمة ﴿لَكُم﴾ في قول ربِّنا ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]؟

الجواب: ﴿لَكُم﴾ متعلِّق بكلمة ﴿خَلَقَ﴾، ودعونا فلننسبح مع طريقة أبي حيَّان رحمه الله في النَّظر لقوَّة دلالة اللَّام، فهو يقرِّر أن اللَّامَ قِيلَ: لِلسَّبَبِ، أَيْ: لِأَجْلِكُمْ وَلِانْتِفَاعِكُمْ، وَقَدَّرَ

(١) تفسير سفر التكوين، القس أنطونيوس فكري (ص: ١٤٨).

بَعْضُهُمْ لِاعْتِبَارِكُمْ. وَقِيلَ: لِلتَّمْلِيكِ وَالْإِبَاحَةِ، فَيَكُونُ التَّمْلِيكُ خَاصًّا، وَهُوَ تَمْلِيكُ مَا يَنْتَفِعُ الْخَلْقُ بِهِ وَتَدْعُو الضَّرُورَةُ إِلَيْهِ. وَقِيلَ: لِلِاخْتِصَاصِ، وَهُوَ أَعَمُّ مِنَ التَّمْلِيكِ، وَالْأَحْسَنُ حَمْلُهَا عَلَى السَّبَبِ فَيَكُونُ مَفْعُولًا مِنْ أَجْلِهِ؛ لِأَنَّهُ بِمَا فِي الْأَرْضِ يَحْصُلُ الِانْتِفَاعُ الدِّينِيُّ وَالدُّنْيَوِيُّ؛ فَالدِّينِيُّ: النَّظَرُ فِيهِ وَفِيمَا فِيهِ مِنْ عَجَائِبِ الصُّنْعِ وَلَطَائِفِ الْخَلْقِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَةِ الصَّانِعِ وَحِكْمَتِهِ وَمِنَ التَّذْكِيرِ بِالْآخِرَةِ وَالْجَزَاءِ، وَأَمَّا الدُّنْيَوِيُّ: فَظَاهِرٌ، وَهُوَ مَا فِيهِ مِنَ الْمَآكِلِ، وَالْمَشْرَبِ، وَالْمَلْبَسِ، وَالْمَنْكَحِ، وَالْمَرْكَبِ، وَالْمَنَاظِرِ الْبَهِيَّةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ (١).

بصيرة [٢]: ﴿لكم﴾ تصوِّر لنا أنَّ كلَّ ما في الأرض مخلوق للبشريَّة، سواء قدرنا على استعماله أم لا.

فيدخل في قَوْل ربِّنا ﷻ: ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] جَمِيعُ ما خلقه الله ﷻ في الأرض، سواء أكان ظاهرًا أم باطنًا، وسواء أكان جامدًا أم متحرِّكًا، مثل: الجبال، والبحار، والحيوانات، والتُّراب، والمعادن، والنَّباتات، وما كان بواسطة تعلمهم، مثل: المِهَن، والحِرَف، ولكن لا يدخل في ذلك البشر؛ فلا يجوز أن يستعبد بعضهم بعضًا؛ لأن الخطاب هنا لجميعهم.

وعندما تسمع علماءنا يختلفون: هل الْأَشْيَاء قَبْلَ وُرُودِ الشَّرْعِ عَلَى الْإِبَاحَةِ، فَلِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهَا، أم هي للحظر، أم يَجِبُ التَّوقُّف، فإن ذلك لا يحجبك عن أن سبب اختلافهم هو نظرهم فيما يوجد في الأرض، فقد توجد سموم، فذلك يعني المنع، وقد يوجد ما لا يجوز الانتفاع به؛ لأنه يعود بالضَّرر العامِّ على أهل الأرض، ولكن ذلك كلَّه يأخذنا إلى هذا المفهوم: الله ﷻ خلق لنا ما في الأرض جميعًا، وذلك يقتضي الانتفاع أكلًا أو استعمالًا، أو

(١) البحر المحيط في التفسير (١/ ٢١٦).

تركًا لما يمكن أن يؤدِّي استعماله إلى أذى أو خلل في توازن المنافع، كالقَطْع الشَّرِه للأشجار مثلًا.

«وَقال أَبُو عُثْمَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهَبَ لَكَ الكُلَّ وَسَخَّرَهُ لك؛ لِتَسْتَدِلَّ به على سَعَةِ جُودِهِ، وَتَسْكُنَ إلى ما ضَمِنَهُ لك من جزيل العطاء فِي المعاد، ولا تستكثر كَثِيرَ بِرِّهِ على قليل عملك، فَإِنَّهُ قَدِ ابْتَدَأَكَ بعظيم النِّعَمِ قبل العمل وقبل التَّوحيد"، وَقال ابْنُ عَطَاءٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿خَلَقَ لَكُم﴾ ليكون الكونُ كُلُّهُ لك، وتكون لله فَلَا تَشْتَغِلْ بِمَا لَكَ عَمَّا أَنْتَ لَهُ»، وَقال الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعلى مقامات أَهْلِ الحقائق الانقطاعُ عَنِ العلائق»[1].

ولا بد أن نتساءل عن كلمة ﴿جَمِيعًا﴾ في قول ربِّنا ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، فما الفائدة التي تثمرها؟

الجواب: حتى نعرف القيمة العظيمة التي تقدِّمها لنا كلمة ﴿جَمِيعًا﴾ لا بدَّ من معرفة إعرابها، فكلمة ﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ من المفعول به الذي هو ﴿مَا﴾، خلافًا لمن أعربه من المفسِّرين توكيدًا لـ﴿مَا﴾ ولو كان ذلك لقيل جميعه[2]، والمعنى: خلق لكم الذي في الأرض حال كونه جميعًا لا بعضه، وهذا يعني أن تبحثوا عنه، وأن تنقِّبوا في جوِّ الأرض، وبرِّها وبحرها، وظاهرها وباطنها لتنتفعوا به.

فالآية تدلُّ على أن كمال الاستمتاع الحياتيِّ بالأرض لا يتمُّ إلا باستكشافها والبحث عن خيراتها كلِّها، بما في ذلك الخيرات الباطنة والكامنة التي لا تُرى، وهذا يقتضي التَّعاوُن والتَّآزُر والتَّسانُد والتَّعاضُد بين أبناء البشريَّة، كما تعطي مؤشِّرًا قويًّا على ضرورة حمايتها من العبث والفساد فضلًا عن التَّدمير الممنهج.. واسمع لتقرير البقاعيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ هنا نقلًا عن

---

(١) البحر المحيط في التفسير (١/ ٢١٦).

(٢) إعراب القرآن وبيانه (١/ ٧٥).

بعضهم: «وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ إعلام بأنَّ حاجة الإنسان لا تقوم بشيء دون شيء، وإنما تقوم بكلِّيَّة ما في الأرض حتى لو بطل منها شيء تداعى سائرها»(١).

«وَلِلْانْتِفَاعِ بِالْأَرْضِ طَرِيقَانِ: أَحَدُهُمَا: الِانْتِفَاعُ بِأَعْيَانِهَا فِي الْحَيَاةِ الجسديَّة، وَثَانِيهِمَا: النَّظَرُ وَالِاعْتِبَارُ بِهَا فِي الْحَيَاةِ العقليَّة.

وَالْأَرْضُ: هِيَ مَا فِي الْجِهَةِ السُّفْلَى، أَيْ: مَا تَحْتَ أَرْجُلِنَا، كَمَا أَنَّ الْمُرَادَ بِالسَّماء: كُلُّ مَا فِي الْجِهَةِ الْعُلْيَا، أَيْ: فَوْقَ رُؤُوسِنَا، وَإِنَّنَا نَنْتَفِعُ بِكُلِّ مَا فِي الْأَرْضِ بَرِّهَا وَبَحْرِهَا مِنْ حَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ وَجَمَادٍ، وَمَا لَا تَصِلُ إِلَيْهِ أَيْدِينَا نَنْتَفِعُ فِيهِ بِعُقُولِنَا بِالِاسْتِدْلَالِ بِهِ عَلَى قُدْرَةِ مُبْدِعِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَالتَّعبير بِـ ﴿فِي﴾ يَتَنَاوَلُ مَا فِي جَوْفِ الْأَرْضِ مِنَ الْمَعَادِنِ بِالنَّصِّ الصَّرِيحِ»(٢).

هنا يظهر لك التَّصوُّرُ الإسلاميُّ مقارنة بالتَّصوُّرِ الغريب المقزِّز الذي يوجد في بعض التَّصوُّرات العَقَدِيَّة، فالأرض خلقت لنا جميعًا وَفْقَ هذا التَّصوُّر القرآنيِّ، ووجدت بناء على نظام دقيق خادم للإنسانيَّة، والذي أوجدها الله ﷻ الخالق البارئ، وليس الأمر كما ينسب إلى بعض الغنوصيين النَّصارى (جينوسيس) الذين زعموا -فيما ينسب إليهم- أنَّ العالم الماديَّ الذي نحيا فيه لم يكن من عمل يدي الإله الواحد الحقِّ، فلقد جاء نتيجة لكارثة وقعت في المملكة السَّماويَّة (divine realm) التي طُرِد منها أحد الكائنات الإلهيَّة (الكثيرة) لأسبابٍ غامضةٍ من نواحي السَّماء؛ وكنتيجة لسقوط العالم الماديِّ من حالة القداسة فقد قام إلهٌ أقلُّ مقامًا بخلقه، وذلك عبر سَبْيِه وسَجْنِه في أجسام الآدميِّين هنا على الأرض(٣).

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ٢٢١).

(٢) تفسير المنار (١/ ٢٠٦).

(٣) تحريف أقوال المسيح، بارت إير، من طبعة إلكترونية (ص١٣٥).

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]: تدلُّ على أن كمال الاستمتاع الحياتيِّ بالأرض لا يتمُّ إلا باستكشافها والبحث عن خيراتها كلِّها، بما في ذلك الخيرات الباطنة والكامنة التي لا تُرى، وهذا يقتضي التَّعاوُن والتَّآزُر والتَّسانُد والتَّعاضُد بين أبناء البشريَّة، كما تعطي مؤشِّرًا قويًّا على ضرورة حمايتها من العبث والفساد فضلًا عن التَّدمير الممنهج.

الانتقال: ثم قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، فما سرُّ الانتقال من الأرض إلى السَّماء في هذه الآية؟ وما علاقته بالمحور الأصليِّ؟

الجواب: يسير الأسلوب القرآنيُّ على سبيل يجمع بين القوَّة والرِّفق، فبعد أن يقنعك بوجوب أن تعبد الله ﷻ وحده في الدَّليل الرابع عشر ينقلك إلى:

الدَّليل الخامس عشر: دليل الملك والحكم للمخلوقات العظيمة: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، والمعنى -كما يفهم من كلام الطَّبريِّ وابن كثير رحمهما الله-: قصد وأقبل إليهنَّ فعَلَا عليهنَّ وارتفع، فدبَّرهنَّ بقدرته، وخلقهنَّ سبع سموات، وخلقهنَّ أكبر من خلق الناس، ولا يوجد أحد من الجبابرة الذين زعموا الألوهيَّة يدَّعون أنَّهم يقدرون على شيء منها، فهي من أعظم أدلَّة استحقاق الله عزَّ وجلَّ للإيمان به، وعبادته:

فهو خلق لكم ما في الأرض جميعًا لنفعكم، وهو الذي يملك ما يحيط بالأرض من السَّماء، ويتحكَّم بها، وقد سوَّاهن سبع سموات.. إنه الإله المعبود الذي يتحكَّم بالمخلوقات العظيمة مثل السَّماء التي سوَّاها سبع سموات.. فمن ذا يمكنه أن يزعم أنه يستطيع فِعْلَ شيء من ذلك؟ ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وبيَّن الطَّبريُّ رحمه الله أنَّ الاستواء(١) في كلام العرب منصرف على وجوه، منها:

١) انتهاءُ شباب الرَّجل وقوَّته، فيقال -إذا صار كذلك-: قد استوى الرَّجُل.

٢) استقامة ما كان فيه أَوَدٌ [أي: عِوَج] من الأمور والأسباب، يقال منه: استوى لفلان أمرُه: إذا استقام بعد أَوَدٍ.

٣) الإقبال على الشَّيء يقال: استوى فلانٌ على فلان بما يكرهه ويسوؤه بَعد الإحسان إليه.

---

(١) وردت كلمة (استوى) في القرآن المجيد في أربعة عشر موضعًا على ثلاث حالات:

الحالة الأولى: لازمة مثل: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤]، ومثل قوله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨] فمعناه الكمال وبلوغ أول الغاية في القوة، ومثل قوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٦].

الحالة الثَّانية: متعدِّية بـ(إلى) مثل: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] {ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١].

الحالة الثَّالثة: متعدِّية بـ(على) في تسعة مواضع، منها سبعة في وصف الله -جلَّ مجدُه- ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، والثامن: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٣]، والتاسع: ﴿فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٩].

٤) الاحتياز والاستيلاء، كقولهم: استوى فلان على المملكة، بمعنى: احتوى عليها وحازَها.

٥) العلوُّ والارتفاع، كقول القائل: استوى فلان على سريره. يعني به: عُلُوَّه عليه.

ثم قال: «وأوْلى المعاني بقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٩]، علا عليهن وارتفع، فدبَّرهنَّ بقدرته، وخلقهنَّ سبع سموات... فقُلْ: علا عليها علوَّ مُلْكٍ وسُلْطانٍ، لا علوَّ انتقالٍ وزَوالٍ»(١).

ولكن الزَّمخشريَّ ﵀ مال إلى أن المعنى: قصد إليها بإرادته ومشيئته بعد خَلْق ما في الأرض، من غير أن يريد فيما بين ذلك خَلْقَ شيء آخر(٢)، فلا تعجل على الزَّمخشريِّ ﵀ رادًّا قوله، بل انقلب مطمئنًا إلى ابن كثير ﵀ لتجده يقول بقوله: «أَيْ: قَصَدَ إِلَى السَّماء، وَالِاسْتِوَاءُ هَاهُنَا تَضَمَّن مَعْنَى الْقَصْدِ وَالْإِقْبَالِ؛ لِأَنَّهُ عُدِّيَ بِـ﴿إِلَى﴾»(٣).

والعجبُ ممن أنكر المعنى المفهوم من كلام العرب في تأويل قول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، الذي هو بمعنى العلوِّ والارتفاع، هَرَبًا من عند نفسه من أن يلزمه بزعمه -إذا تأوَّله بمعناه المُفْهَم كذلك- أن يكون إنما علا وارتفع بعد أن كان تحتها إلى أن تأوَّله بالمجهول من تأويله المُسْتَنكَر. ثم لم يَنْجُ مما هرَب منه! فيقال له: زعمت أن تأويل قوله ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾: أقبلَ، أفكان مُدْبِرًا عن السَّماء فأقبل إليها؟ فإن زعم أنَّ ذلك ليس بإقبال فِعْلٍ، ولكنه إقبال تدبيرٍ، قيل له: فكذلك فقُلْ: علا عليها علوَّ مُلْك وسُلْطان، لا علوَّ انتقال وزَوال، ثم لن يقول في شيء من ذلك قولًا إلا ألزم في الآخر مثله(٤).

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٢٨).

(٢) تفسير الزَّمخشريّ (١/ ١٢٣).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٢١٣).

(٤) تفسير الطبري (١/ ٤٣٠).

وبعد: فإن المعنى العامَّ للاستواء إلى السَّماء واضحٌ جليٌّ، ويمكنك أن ترى الجمع بين أقوال هؤلاء الأفذاذ الثَّلاثة واضحًا، ويكون المعنى: علا وقصد وأقبل –وتعالى جدُّ ربِّنا– أن نشبِّهه بخلقه، فليس كمثله شيء، ويكفينا ذلك فلم نجهد أنفسنا في توزيع الاتِّهامات، أو افتعال الشُّبهات.

وهنا ربما نعيد السُّؤال: ما معنى كلمة ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]؟

الجواب: السَّماء مشتقَّة من سما الشَّيء يَسْمُو سُمُوًّا، أي: علا وارتفع(١)، فيكون معنى: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] أي: أَتَمَّ خَلْقَهُنَّ مِنْ تِلْكَ الْمَادَّةِ الدُّخَانِيَّةِ التي ذكرها الله ﷻ في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]، فَجَعَلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ مستويات أي: تَامَّاتٍ على أكمل خِلقة وأتقنها، وأوفاها فلا خلل فيها ولا اعوجاج ولا عيب.

والآن عد معي إلى تأمُّلِ الجملة المباركة لتجد أنَّ الله ﷻ يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] فوصف كيفية بدء خلق السَّموات والأرض، فذكر أنه خلق لنا ما في الأرض جميعًا (ثم) استوى إلى السَّماء فسوَّاهن سبع سموات، فهل يدلُّ ذلك على التَّرتيب الزَّمنيِّ بين خلق السَّموات والأرض؟

الجواب: لتتضح الصُّورَة في العلاقة بين خلق ما في الأرض جميعًا لنا، وتسوية السَّماء سبعًا، لا بد من استحضار النُّصوص القُرآنِيَّة التي ذكرت بدء الخلق الكوني للسَّموات والأرض، فاجمعها.. عندها ستجد أنها:

ثلاثة مواضع تبيِّن قِصَّة بداية الخلق الكوني، وتشير إلى تحديد الموعد الزَّمنيِّ بين خلق الأرض والسَّماء:

---

(١) وقد سبق التحليل اللغوي لهذه الكلمة عند قوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]؟

الموضع الأول: **هذه الآية في سورة البقرة** التي تدلُّ على أنَّ الله ﷻ خلق لنا ما في الأرض جميعًا، ثم استوى إلى السَّماء فسوَّاهن سبعًا.

الموضع الثاني: **في سورة فُصِّلت** ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ٩-١٢].

وهذان الموضعان: (البقرة وفُصِّلت) متوافقان مترافقان بوضوح، ففي (سورة البقرة) إجمالٌ فصَّلته (سورة فُصِّلت)، فذكر الله -جلَّ مَجدُهُ- أنه خلق الأرض وما فيها في البداية في أربعة أيام، فخَلَقَ الْأَرْضَ ذاتها في يَوْمَيْنِ، وَجعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا، وَبَارَكَ فِيهَا بتكثير المواد التي سيستفيد أهلها منها من الثروة المائية، والنَّباتيَّة، والأرضيَّة الحَجَريَّة والرَّمليَّة، وَقدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا لأهلها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً، واليومان المذكوران في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] دخلا في الأربعة الأيام التي قال عنها: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: ١٠]، ثم قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩] ولكنه أخبر أنها كانت في حالة دخان، فَوَضَّحَتْ سورة فصلت أنه -جلَّ مَجدُهُ- قضاهن سبع سموات في يومين، وبيَّنت لنا سورة البقرة أنه سوَّاهن سبع سموات، فالقضاء أولًا، والفعل وهو التسوية ثانيًا، فصار مجموع أيام خلق الأرض ومباركتها، وتسوية السَّمَوات سبعًا ستَّة أيام، فآية سورة فُصِّلت تتكامل مع سورة البقرة، حيث كان الاستواء الإلهيُّ إلى السَّماء بعد خلق الأرض وتهيئة ما فيها بالرواسي، والبركة لما فيها، وتقدير أقواتها لأهلها، لكن هذه الآيات لم تذكر مبدأ خلق السَّموات، بل تسويتها.

الموضع الثالث: في سورة (النَّازعات)، حيث تسمع قوله ﷻ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣]، فأخبر هنا أنه خلق السَّماء، حيث جاءت المقارنة بين خلق النَّاس وخلق السَّماء، فقال الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [النازعات: ٢٧] فالمقارنة بين خَلْقَين، ثم بيَّن كيف خلق السَّماء، فقال -تعالى مَجدُهُ- عن كيفية خلق السَّماء: ﴿بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾ [النازعات: ٢٧-٢٩].

بنى السَّماء، فرفع سمكها فسوَّاها، وأظلم ليلها وأخرج ضحاها.

وبعد أن أكمل ذلك كلَّه، وقبل أن يجعلها سبع سموات، دحا الأرض أي: بعد بناء السَّماء، فعبَّر عن العلاقة الزَّمنيَّة بين بناء السَّماء ودَحْوِ الأرض بقوله: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾.

وبهذا وَضَحَ الجمع بين الآيات بصورة مبينة.

ولكننا وجدنا علماءنا يستشكلون الجمع بين الموضعين السَّابقين في سورتي البقرة وفصِّلت وبين سورة النَّازعات، فلماذا حدث هذا الاستشكال؟

الجواب: يبيِّن ابن عاشور رحمه الله أن علماءنا اختلفوا في ترتيب خلق السَّمَوات والأرض بناء على ذلك، فَقَالَ الْجُمْهُورُ مِنْهُمْ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ رحمهما الله، وَنُسِبَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «إِنَّ خَلْقَ الْأَرْضِ مُتَقَدِّمٌ عَلَى خَلْقِ السَّماءِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى هُنَا: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩] وَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ حم السَّجْدَة: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾» إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ٩- ١١] وقال قَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَمُقَاتِلٌ رحمهم الله: «إِنَّ خَلْقَ السَّماءِ مُتَقَدِّمٌ»، وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النازعات: ٢٧-٢٨] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] ثم رجَّح ابن عاشور رحمه الله أن السَّماء

خُلِقَتْ قَبْلَ الْأَرْضِ؛ لِأَنَّ لَفْظَ ﴿بَعْدَ ذَالِكَ﴾ أَظْهَرُ فِي إِفَادَةِ التَّأَخُّرِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩][١].

وعندي أن الجمع بين موضعي البقرة وفُصِّلت وبين سورة النَّازعات واضحٌ، وله طرقٌ تفتح العقول البشريَّة على الكنوز القُرآنِيَّة، وقد نصَّ عليها أئمتنا رحمهم الله تعالى، ومنهم ابن عبَّاس رضي الله عنهما، وقتادة رحمه الله وغيرهما.

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٨٤).

المراحل التي مرَّ بها خلق السموات والأرض

المرحلة الأولى: الدُّخانيَّة

فالمَادَّة الَّتي خُلقت منها السَّموَات كانت دُخانًا: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: 11]

المرحلة الثانية: الفتق بعد الرَّتق

كانت السَّموَات والأرض رتقًا، ففتقهما الله عز وجل، أي: كانتا كتلة واحدة منسدَّة لا انفتاح فيها ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: 30].

المرحلة الثالثة: مرحلة التَّمييز لتكوين كلٍّ من السماء والأرض

لما فتق الله عز وجل الأرض عن السماء ميَّز كلًّا منهما في خلقه وتكوينه، فخلق الأرض في يومين، وأكمل تكويناتها في يومين آخرين. ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ... وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: 9 - 10].

المرحلة الرابعة: مرحلة التَّكليف للسَّماء والأرض

فبعد المرحلة الثالثة استوى الله عز وجل إلى السماء وهي ما زالت دخانًا، فخاطبها الله عز وجل خطابًا تكليفيًا: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: 11].

المرحلة الخامسة: بناء السماء

لما استوى إلى السماء قضاهن وسوَّاهن: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: 12] أي قدَّر أنظمتها وقوانينها، ثم قال: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: 12]، فخلق نجومها.

المرحلة السادسة: مرحلة دحو (دحي) الأرض

وقد حدثت في الوقت نفسه الذي حدثت فيه المرحلة الخامسة بصورة عامَّة، لكن ذلك كان بعده عند التفصيل ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ 30 أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النازعات: 30-31].

خلاصة هادية في الجمع بين هذه الآيات التي ذكرت خلق السموات والأرض:

المراحل التي مرّ بها خلق السَّمَوات والأرض:

هل يمكن أن نقدِّم خلاصة هادية في الجمع بين هذه الآيات؟

الجواب: نعم! مرَّ الخلق الأول للسماء والأرض بستِّ مراحل تداخلت بعض تفاصيلها:

المرحلة الأولى: الدُّخانيَّة:

فالْمَادَّة الَّتِي خُلِقَتْ مِنْهَا السَّمَوَاتُ كَانَتْ دُخَانًا، ويدلُّ لذلك قوله ﷻ في سورة فصِّلت: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]، وفي الوقت الذي كانت السَّمَوات فيه دخانًا خلق الله ﷻ الأرض، لتكون ملتصقة (مرتتقة) بالسَّماء، فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [فصلت: ٩]، وهذا الدخان إمَّا أن الله ﷻ خلقه من عدم، وإمَّا أن الله ﷻ خلقه من مادة أخرى لا نعرفها، وإمَّا أن الله ﷻ خلقه من الماء الذي كان عرشه عليه ﷻ، وبهذا الاحتمال الأخير صرَّح بعض المفسِّرين، فقالوا عن البُخار: «أي: بُخار وسديم ارتفع من الماء الذي كان عرشه تعالى عليه»(١)، وَذَهَبَ الْبَيْضَاوِيُّ رحمه الله إلى أَنَّهُ أمرٌ ظَلْمَانِيٌّ(٢)، ولا يوجد عندنا دليل على أن هذا البُخار كان من الماء الذي عليه العرش.

المرحلة الثَّانية: الفتق بعد الرَّتق:

كانت السَّمَوات والأرض رتقًا، أي: مرتتقين (متلاصقتين)، كتلةً واحدةً مُنسدَّة لا انفتاح فيها، ففتقهما الله ﷻ، كما أفاد ذلك قول الحق سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ففتق الله ﷻ السَّماء في هذه الحالة.

---

(١) ينظر: تفسير السمرقندي (٣/ ٢٢٠)، تفسير القرطبي (١/ ٢٥٥)، اللباب في تفسير الكتاب (١٧/ ١٠٨).

(٢) ينظر: تفسير البيضاوي (٥/ ٦٨).

ويمكن أن يكون هذا الاتِّصال عندما كانا مادة دخانيَّة واحدة، وربَّما كان هناك شيء آخر مع المادة الدُّخانيَّة، ويكون ذلك أشبه باتصال عناصر متعدِّدة مع كونها ليست جامدة، وقد علمنا أن السَّموات كانت مادة دخانيَّة، لكن هل الأرض كانت مادة دخانيَّة؟ ثُمَّ فَتَقَ اللهُ ﷻ رَتْقَهَا أَيْ: فَصَلَ بَعْضَهَا مِنْ بَعْضٍ.

ويحتمل أن الرتق أي الاتصال كان بعد استحالتهما عن الحالة الدُّخانيَّة إلى حالة أقوى تماسكًا كالحالة الجامدة.

ولا نستطيع الجزم بأن الفتق هو ذاته الذي يدعونه علماء الفَلَك (الانفجار العظيم)؛ إذ يحتمل أن الفتق كان بواسطة الانفجار العظيم، ويحتمل أنه كان بهيئة أخرى، فلا يوجد في الآية ما يلزم بأحد الأمرين، وفي كلِّ الأحوال فإن ما ورد في سورة الأنبياء هنا يبقى معجزًا؛ لأنه يحدِّث البشر عن أمرٍ لا يعرفونه، ولطالما اختلفوا فيه، والصُّور التي بعثها المسبار الفضائي (جيمس ويب) أحدثت ثورة تفكيريَّة جديدة حول أصل الكون، ومع كلِّ فرضية فإن ألفاظ القرآن دقيقة لا يمكن لأحد أن يعترض عليها إلا أن يعاند.

المرحلة الثَّالثة: مرحلة التَّمييز لتكوين كلٍّ من السماء والأرض:

فلما فتق الله ﷻ الأرض عن السماء ميَّز كلًّا منهما في خلقه وتكوينه، فكوَّن الله الأرض في هذه المرحلة، وقال عن تكوينها: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠﴾ [فصلت: ٩ - ١٠]، فخلق الأرض في يومين، وأكمل تكويناتها، فجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا، وَبَارَكَ فِيهَا، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا في يومين آخرين، وبذا خلق لنا ما في الأرض جميعًا، وتمَّ ذلك في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سواء.

المرحلة الرابعة: مرحلة التَّكليف للسَّماء والأرض:

فبعد المرحلة الثالثة استوى الله ﷻ إلى السماء وهي ما زالت دخانًا، فخاطبها الله ﷻ خطابًا تكليفيًّا: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

لاحظ قال لها وللأرض فكلاهما موجود، فقد خُلقتا في تلك الأيام الأربعة.

المرحلة الخامسة: بناء السماء:

فلما قالت السماء والأرض: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، وهو قد استوى إلى السماء، قضاهنَّ –كما في سورة فصِّلت المكِّيَّة– وسوَّاهنَّ –كما في سورة البقرة المدنية– ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]: ففتق الله ﷻ السماء عن الأرض من قبل، وفتقها في هذه المرحلة في ذاتها، فجعلها سبع سموات.

وفي هذين اليومين أيضًا ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]: أي: قدَّر أنظمتها وقوانينها، ثم قال: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢]، فخلق نجومها التي صارت مصابيح للسَّماء، **وفي هذه المرحلة** ﴿بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾ [النَّازِعَات: ٢٧-٢٩].

وقد تتساءل: لكننا نعرف معنى السَّمْك، وأنه الرَّفْعُ، فكيف يكون المعنى: رفع رفعها؟

الجواب: السَّمْكُ: الرَّفْعُ، وَالرَّفْعُ: جَعْلُ جِسْمٍ مُعْتَلِيًا، قال ابن عاشور ﵀: «وَهُوَ مُرَادِفٌ لِلسَّمْكِ، فَتَعْدِيَةُ فِعْلِ رَفَعَ إِلَى (السَّمْكِ) لِلْمُبَالَغَةِ فِي الرَّفْعِ، أَيْ: رَفَعَ رَفْعَهَا، أَيْ: جَعَلَهُ رَفِيعًا، وَهُوَ مِنْ قَبِيلِ قَوْلِهِمْ: لَيْلٌ أَلْيَلُ، وَشِعْرٌ شَاعِرٌ، وَظِلٌّ ظَلِيلٌ»[(١)].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ٨٥).

والذي يظهر لي أن السَّمْكَ هنا يدلُّ على الطُّول في الرَّفع من قولهم: المَسمُوكُ من الرِّجالِ: الطَّوِيلُ، والمَسمُوكُ من الخَيلِ: الوَثِيقُ الجَوانِحِ، وبَيتٌ مُستَمِكٌ، ومُنْسَمِكٌ: طَوِيلُ السَّمْكِ، وسَنامٌ سامِكٌ تامِكٌ: تارٌّ مُرتَفِعٌ عَالٍ(١). فيكون المعنى: رفع طول ارتفاعها، والمراد: أنَّها مرتفعة، وهي في ذاتها ذات جسمٍ طويل مرتفع، وبذا يرفع جسمها الدُّخانيَّ عن الأرض، وهذا نوعٌ من أنواع الفتق الأربعة، وقوله: ﴿سَوَّىٰهَا﴾ [الشَّمس: ٧] يدلُّ على التَّعْدِيلِ وَعَدَمِ التَّفَاوُتِ، وَهِيَ جَعْلُ الْأَشْيَاءِ سَوَاءً، فعَدَّلَ أَجْزَاءَهَا(٢)، وذلك يدلُّ على إتقان الصُّنع.

والأصل أن نحمل الألفاظ على ظاهرها، فالظَّاهر هنا أن السَّماء كانت موجودة، وترانا بذلك نجمع بين الآيات على خير وجه يعجب المتدبِّر.

ويؤكِّد الإمام الرَّازيُّ رحمه الله هذا الجمع فيقول: «قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] يَقْتَضِي تَقْدِيمَ خَلْقِ السَّماء عَلَى الْأَرْضِ، وَلَا يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ تَسْوِيَةُ السَّماء مُقَدَّمَةً عَلَى خَلْقِ الْأَرْضِ، وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ يَزُولُ التَّنَاقُضُ»(٣).

ويعبِّر الطَّبريُّ رحمه الله عن هذه المرحلة بأسلوبه الحواريِّ المثير، فيقول: «وإن قال لنا قائل: أخبِرْنا عن استواء الله جلَّ ثناؤه إلى السَّماء، كان قبل خلق السَّماء أم بعده؟

قيل: بعده، وقبل أن يسويهنَّ سبعَ سموات، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١]، والاستواء كان بعد أن خلقها دُخانًا، وقبل أن يسوِّيَها سبعَ سموات.

---

(١) تاج العروس (٢٧/ ٢١١).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٨٥).

(٣) تفسير الرازي (٢/ ٣٨٠).

وقال بعضهم: إنما قال: ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، ولا سماء، كقول الرجل لآخر:(اعمل هذا الثوب)، وإنما معه غَزْلٌ، فقوله:﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ فإنه يعني هيَّأهنَّ، وخلقهنَّ، ودبَّرهنَّ، وقوَّمهنَّ. والتَّسوية في كلام العرب: التَّقويم، والإصلاح، والتَّوطئة، كما يقال: سوَّى فلان لفلان هذا الأمر: إذا قَوَّمه وأصلحه وَوَطَّأه له. فكذلك تسوية الله جلَّ ثناؤه سمواته: تقويمُه إيَّاهنَّ على مشيئته، وتدبيره لهنَّ على إرادته، وتفتيقهنَّ بعد ارتتاقهنَّ»[1].

المرحلة السادسة: مرحلة دحو (دحي) الأرض:

قرَّر أئمة اللُّغة أنَّ الدَّحو غير الخلق[2]، وقال الله ﷻ عن هذه المرحلة: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١﴾ [النازعات: ٣٠-٣١]، وقد حدثت في الوقت نفسه الذي حدثت فيه المرحلة الخامسة بصورة عامَّة، لكن ذلك كان بعده عند التفصيل.

فالماء أخرجه منها، وأخرج منها المرعى، وتقارن هذا بقول الله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزُّمَر: ٦]، وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ٢٦].

وهذه المراحل الستُّ نستفيدها من الجمع بين الآيات، وبذا تبهرك المعرفة القُرآنِيَّة في بيان كيفية خلق السَّموات والأرض التي لم نشهد خلقها، وبيَّن ذلك الزَّمخشريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولكن بعبارة غير مبينة، فقال: «جِرْمُ الأرضِ تقدَّم خَلْقُه خَلْقَ السَّماء، وأمَّا دحوُها فمتأخر»[3]، وقد

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٣٠).

(٢) تهذيب اللغة للأزهري (٢/ ١٤٤)، وقال: «وَالْجَوَاب فِيمَا سَأَل عَنهُ السَّائِل أَن الدَحْوَ غيرُ الْخلق، وإنَّما هُوَ البَسْط، والخَلق هُوَ الْإِنْشَاء الأَوَّل. فَالله -جلَّ وعزَّ- خلق الأَرْض أَولًا غير مَدْحُوَّة، ثمَّ خلق السَّمَاء، ثمَّ دَحا الأَرْض أَي: بَسَطها. والآيات فِيهَا مؤتلِفة وَلَا تناقض -بِحَمْد الله- فِيهَا عِنْد من يفهمها. وَإِنَّمَا أُتِيَ الملحِد الطاعن فِيمَا شاكلها من الآيَات من جِهَة غباوته وغِلَظ فهمه، وقلَّة علمه بِكَلَام الْعَرَب». وسترى فهمًا أوسع لكلام اللغويين في معنى (دحاها) إن شاء الله تعالى.

(٣) الكشاف (١/ ١٢٣).

بيَّنا أنهما خُلِقا معًا، والدَّحو متأخر، وقال محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَا مَانِعَ مِنَ الْأَخْذِ بِظَاهِرِ الْآيَةِ فَإِنَّ الْخَلْقَ غَيْرُ التَّسْوِيَةِ، أَلَّا تَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي طَوْرِ النُّطْفَةِ وَالْعَلَقَةِ يَكُونُ مَخْلُوقًا، وَلَكِنَّهُ لَا يَكُونُ بَشَرًا سَوِيًّا فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، كَمَا يَكُونُ عِنْدَ إِنْشَائِهِ خَلْقًا آخَرَ»[1].

وقد تكلم أصحاب التفسير العلمي الحديث عن الفيزياء الفلكية والدخانية في الكون، بما خلاصته: أنه في الثلث الأول من القرن العشرين لاحظ الفلكيون عملية توسيع الكون، التي دار حولها جدل طويل حتى سلَّم العلماء بحقيقتها.

وقد أيدت كلٌّ من المعادلات الرياضية، وقوانين الفيزياء النظرية استنتاجات الفلكيين في ذلك، وانطلاقًا من هذه الملاحظة الصحيحة ذكروا أننا إذا عدنا بهذا الاتساع الكوني إلى الوراء مع الزمن فلا بد أن تلتقي كلُّ صور المادة والطاقة الموجودة في الكون، وتتكدس على بعضها البعض في جرم ابتدائي واحد يتناهى في الصغر إلى ما يقرب الصفر أو العدم، وهذه هي مرحلة الرتق.

وهذا الجرم الابتدائي كان في حالة من الكثافة والحرارة، تتوقف عندهما كل القوانين الفيزيائية المعروفة، فانفجر هذا الجرم الأولي بأمر من الله تعالى في ظاهرة يسميها العلماء عملية الانفجار الكوني العظيم، ويسميها القرآن الكريم باسم الفتق.

وتشير دراسات الفيزياء النظرية في أواخر القرن العشرين إلى أن هذا الجرم عندما ينفجر لا بد أن يتحول إلى سحابة من الدخان، الذي تخلَّقت منه الأرض وكلُّ أجرام السماء.

---

(١) تفسير المنار (١/ ٢٠٧).

وقد سبق القرآن الكريم بألف وأربعمائة سنة كلَّ المعارف الإنسانية، بإشارته لمرحلة الرتق ثم الفتق، ثم الدخانية(١).

ولكنني لا أميل إلى هذا الجزم بل نورد مثل هذه الفرضيات في صورة احتمالات؛ إذ ما ورد في القرآن من الرتق، وكون السماء كانت دخانًا لا يعني بالضرورة اللازمة أن تكون صورتها كما فرض علماء الفيزياء الفلكية، بل يعني أن ما ذكره القرآن كان حقًّا، إذ ذكر لنا صورة إجماليَّة بخبر غيبيٍّ معجز، ويبقى بعد ذلك أننا لا نستطيع الجزم بصورة التشكُّل الأول إلا في ضوء المقدِّمات الإجمالية التي وردت في القرآن دون التفصيلات الدقيقة التي تدفعها لنا الفرضيات العلمية.

هنا لا بد أن نتساءل: ما معنى كلمة ﴿دحا﴾ في أصل العربيَّة؟

الجواب:

كلمة (دحا): تدُلُّ عَلَى بَسْطٍ وَتَمْهِيدٍ كما يقول ابن فارس رحمه الله، ومنه يُقَالُ: دَحَا اللهُ الْأَرْضَ يَدْحُوهَا دَحْوًا: إِذَا بَسَطَهَا، وَيُقَالُ: دَحَا الْمَطَرُ الْحَصَى عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ، وَهَذَا لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ كَذَا فَقَدْ مَهَّدَ الْأَرْضَ، وَمِنَ الْبَابِ أُدْحِيُّ النَّعَامِ، وهو الْمَوْضِعُ الَّذِي يُفَرِّخُ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ يَدْحُوهُ بِرِجْلِهِ، ثُمَّ يَبِيضُ فِيهِ، وَلَيْسَ لِلنَّعَامَةِ عُشٌّ، وهي عادةً تَدْحُوه بأن تَبْسُطَه، وتمهِّدَه وتهيِّئه على هيئة تناسِبُ هيئة البيضة(٢).

ومن خلال كلام المفسِّرين وأرباب اللُّغة(٣) نجد أن **هذه الكلمة تدلُّ على أمرٍ متحقِّق، وأمرٍ محتملٍ:**

---

(١) ينظر: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، جامعة المدينة العالمية (ص: ١٣٤-١٣٧)، السماء في القرآن الكريم (ص: ١٣٢، وما بعدها).

(٢) مقاييس اللغة (٢/ ٣٣٣).

(٣) تهذيب اللغة (٢/ ١٤٤)، لسان العرب (١٤/ ٢٥١).

أما الأمر المحقَّق: فالدَّحو يدلُّ على التَّمهيد والبسط والسَّعة بما يتناسب مع من يعيش على الأرض، كالبسط المناسب لبيضة النَّعام، فإنه بَسْطٌ على هيئة البيضة، وليس امتدادًا محضًا، وقد قالوا: اندحى البطن: اتسع، ولا يظهر اتساعه إلا إذا انبسط واستدار للسِّمَن، وترتَّب على دحو الأرض إخراج الماء والمرعى، فالأرض منبسطة لمن يعيش فيها على الرَّغم من كونها على هيئة أقرب إلى البيضة في هيئتها الكلِّيَّة، وأنشدوا لزيد بن عمرو بن نُفَيْل:

دَحَاهــا، فلمَّــا رآهــا اسْــتَوَتْ ... علــى المــاء أَرْسَــى عليهــا الجِبــالا[1]

وروى أئمة اللُّغة عن أعرابيَّة قولَها الذي يظهر أنها أخذته من القرآن الكريم:

الحمدُ لله الذي أَطاقَا ... بَنَى السَّماء فَوْقَنا طِباقَا ... ثم دَحا الأَرضَ فما أَضاقا

«وَحَاصِلُ ذَلِكَ أَنَّ الدَّحْيَ مُفَسَّرٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢﴾ [النازعات: ٣٠-٣٢] فَفَسَّرَ الدَّحْيَ بِإِخْرَاجِ مَا كَانَ مُودَعًا فِيهَا بِالْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ، لَمَّا اكْتَمَلَتْ صُورَةُ الْمَخْلُوقَاتِ الْأَرْضِيَّةِ ثُمَّ السَّماوِيَّة دَحَى بَعْدَ ذَلِكَ الْأَرْضَ، فَأَخْرَجَتْ مَا كَانَ مُودَعًا فِيهَا مِنَ الْمِيَاهِ، فَنَبَتَتِ النَّبَاتَاتُ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا، وَصِفَاتِهَا، وَأَلْوَانِهَا، وَأَشْكَالِهَا، وَكَذَلِكَ جَرَتْ هَذِهِ الْأَفْلَاكُ فَدَارَتْ بِمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَةِ»[2].

ولكن هذا التَّفسير بيان لما ترتَّب على الدَّحيِ لا أنه الدَّحيُ ذاته.

وكل ذلك في اليومين اللذين سوَّى فيهما السَّماء سبعًا.

---

(١) لم يثبت نسبة البيت من الناحية الإسنادية إلى زيد بن عمرو؛ وهيئته أقرب إلى الإسلامية منها إلى العصر الجاهلي، فإن صحَّ إسناده إلى زيد أو إلى أمية بن أبي الصلت فلا يكون إلا بعلمٍ إلهي مأخوذ من نصوص إلهية مما سبق من الكتب والصحف مما لم يحرَّف.

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢١٥).

وأما الأمر المحتمل: فهو التَّدوير البيضاويُّ؛ إذ لا يكون البسط والتَّمهيد لبيضة النَّعام إلا على هيئة بيضة، والحَجَر الذي يُلْعَب به، والحُفْرة التي تحفر لها على هيئة مستديرة في الغالب، فهل يقتضي ذلك استخدام كلمة الدَّحو في التَّهيئة المحضة أم في التَّهيئة لتناسب شكل البيضة؟ يظل الأمر محتملًا غير مجزوم به، فيكون المراد بـ﴿دَحَىٰهَا﴾: بسطها ومهدها لساكنيها، وهل يقتضي ذلك أن تكون امتدادًا تامًّا، وانبساطًا لا تعرُّج فيه أم تكون كُرَة أو قريبة من الكُرَة؟ لا يوجد في كلمة ﴿دَحَىٰهَا﴾ ما يقتضي أحد الأمرين، بل تحتمل الكلمة أن الأرض كُوِّرَت لتناسب هيئة البيضة كما يدحو الظَّلِيم [الذَّكَر من النَّعام] أو النَّعامة الأرض لتناسب هيئة البيضة.

«وَهَذَا لَا يُنَافِي مَا قِيلَ مِنْ أَنَّ مَعْنَاهُ: بَسَطَهَا، أَيْ: وَسَّعَهَا وَمَدَّ فِيهَا، وَأَنَّهُ سَطَحَهَا أَيْ: جَعَلَ لَهَا سَطْحًا وَاسِعًا يَعِيشُ عَلَيْهِ النَّاسُ وَغَيْرُهُمْ، فَمَنْ جَعَلَ مَسْأَلَةَ كُرَوِيَّتِهَا وَسَطْحِهَا أَمْرَيْنِ مُتَعَارِضَيْنِ يَقُولُ بِكُلٍّ مِنْهُمَا قَوْمٌ يَطْعَنُونَ فِي الْآخَرِينَ فَقَدْ ضَيَّقُوا مِنَ اللُّغَةِ وَالدِّينِ وَاسِعًا بِقِلَّةِ بِضَاعَتِهِمْ فِيهِمَا مَعًا»(١)، والعجيب أن الرَّاغب رَحِمَهُ اللهُ ينصُّ على أنَّ الدَّحي يقتضي الحركة، فيقول: «﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، أي: أزالها عن مقرِّها»(٢).

وبالتأمُّل فيه نجد له ما يدلُّ له من لغة العرب، فالمِدْحاةُ لعْبَةٌ يَلْعَبُ بهَا أَهْلُ مكَّةَ؛ والمَدَاحِي والمَسَاوِي، وَهِي أَحْجارٌ أَمْثال القرصة وَقد حَفَرُوا حفيرةً بقدْرِ ذلك الحَجَرِ فيفتحون قَلِيلا، ثمَّ يَدْحُون بتلْكَ الأحْجارِ إِلَى تلك الحَفِيرَة، فَإِن وَقع فِيهَا الحَجَرُ فقد قَمَر، وإلَّا فقد قُمِرَ، وَهُوَ يَدْحُو ويَسْدُو إِذا دَحاها على الأَرْضِ إِلَى الحُفْرةِ، والحُفْرةُ هِيَ أُدْحِيَّة(٣).

---

(١) تفسير المنار (١/ ٢٠٧).

(٢) المفردات للراغب (ص: ١٦٥).

(٣) ينظر: تاج العروس (٣٨/ ٤٠).

هل هناك من إضافة تبين لنا بعض ما يتعلق بخلق السَّمَوات والأرض بعد هذا التفصيل الماتع الذي طوَّف بنا في بدايات الخلق؟

الجواب: القرآن مصدر المعرفة الحقيقيَّة والبيان المعرفي الرَّائع، وإضافة إلى ما سبق عرضه نجد أن الله ﷻ يبيِّن لنا زيادة على ذلك في ثلاثة مواضع قرآنيَّة مايزيد الأمر بصيرة وجلاءً:

أمَّا الموضع الأول فقوله: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، فإن الآية تدلُّ على حركة الشَّمس والقمر بتوازن دقيق يمنع من أن يصطدما، وذلك يقتضي أيضًا ألَّا يبتعد أحدهما عن الآخر بُعْدًا يجعل كلًّا منهما في كونٍ مستقلٍّ عن صاحبه، والأرض التي يصحبها القمر لا بدَّ أن تكون متحركة معهما، وإلا فلا بدَّ أن يختفيا عن ساكنيها.

ولا تمضِ حتَّى تنظر إلى قوله: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠] فإنه يعبِّر عن معنيين:

الأول: النَّهار لا يسبق اللَّيل، وهذا معنى صحيح مقرَّر عند السَّامع فلم يصحِّح الله ﷻ فَهْمَه له.

والثاني: اللَّيل لا يسبق النَّهار، وهذا معنى صحَّح الله ﷻ فَهْمَه للسَّامع العربيِّ الذي يظنُّ أن اللَّيل سابق النَّهار، ولذا فاللَّيالي عند العرب مقدَّمة على الأيام، وإنما استفيد هذان المعنيان من ضم قوله: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ إلى قوله قبلها: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾؛ إذ في الكلام اكتفاء يقتضي القول بأن (القمر لا ينبغي له أن يدرك الشمس، ولا النَّهار سابق اللَّيل)[١].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٥).

وهذا الاتِّزان يظهر بصورةٍ أكبر إن كانت الأجرام كُرويَّة، مع أننا لا نستطيع الجزم بذلك على وجه الدِّقة.

وأما الموضع الثاني: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]، ويقول ابن زيد رحمه الله في معناه: حين يذهب باللَّيل ويكوِّر النَّهار عليه، ويذهب بالنَّهار ويكوِّر اللَّيل عليه(١)، وأصل التَّكوير في اللُّغة: طرح الشَّيء بعضه على بعض. يقال: كوَّر فلان المتاع، إذا ألقى بعضه على بعض، ومنه كور العمامة. أي: انضمام بعض أجزائها على بعض، فالكاف والواو والراء (كور): أصل صحيح يدلُّ على دور وتجمُّع(٢).

فقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥] ظاهر في الدِّلالة على كرويَّة الأرض فالتَّكْوِيرُ يدلُّ على الالتفاف المستدير كَتَكْوِيرِ الْعِمَامَةِ؛ ذلك أنه «ما دام اللَّيل يأتي وراء النَّهار، والنهار يأتي وراء اللَّيل في شبه كُرَة؛ فالذي يأتي عليه اللَّيل والنَّهار شكل الكرة. فكأنَّ كلًّا من اللَّيل والنَّهار دائر وراء الآخر حول كرة»(٣).

> **بصيرة:** **إن القرآن في سياق تقديم الحقائق الكونيَّة يعطي اللَّمحة بميزان حتى تتَّسع العقول للفهم، ويتلطَّف إليها بالخطاب المحتمل للحقائق التي يتكفَّل العلم بكشفها مع توالي الأيام، بحيث يصلح توجيهه للإنسان عبر العصور المتعاقبة دون أن تعود معانيه المحتملة على بعضها بالنَّقض والمعارضة.**

---

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٢٥٤).

(٢) مقاييس اللغة (٥/ ١٤٦)، لسان العرب (٥/ ١٥٤).

(٣) تفسير الشعراوي (٦/ ٣٧٨٥).

وأما الموضع الثالث فقوله -تعالى ذِكْرُهُ-: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾ [نوح: ١٩-٢٠]، وكونها بساطًا أمرٌ واضحٌ لكلِّ ذي عينين.. ولا ينافي ذلك أن تُكَوَّر مع بقائها مبسوطة، فهي لنا بساط أي بالنسبة لنا.

وربما تتساءل: إذا كان أمر كرويَّة الأرض بهذا الوضوح، فهل قال بذلك أحد من العلماء؟

الجواب: اللَّافت للنَّظر انتشار مبدأ استدارة الأجرام والفَلَك عند علماء المسلمين في وقتٍ مبكِّر، **فقرَّر ابن خُرْدَاذْبَه (ت ٢٧٢ هـ/ ٩١٢م)** في أوَّل كلامه عن «صفة الأرض أنها مدوَّرة كتدوير الكُرَة، موضوعة في جوف الفَلَك كالمُحَّة في جوف البيضة»[١].

وجاء في كتاب "المقدسيِّ" (ت٣٧٥ هـ): (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) قوله: «فأما الأرض فإنها كالكُرَة موضوعة في جوف الفَلَك، كالمُحَّة في جوف البيضة». وقال قبله مثل ذلك أيضًا ابن خُرْدَاذْبَه (ت٢٣٢هـ) في كتابه: (المسالك والممالك)، وقال بذلك الإصطخريُّ، والبيرونيُّ، والإدريسيُّ، والحَمْويُّ رحمهم الله، ولنأخذ ما قرَّره الإدريسيُّ رحمه الله (ت٥٦٠هـ)، فقال:

«إن الذي تحصل من كلام الفلاسفة وجلَّة العلماء وأهل النظر في علم الهيئة أن الأرض مدورة كتدوير الكُرَة والماء لاصق بها وراكد عليها ركودا طبيعيا لا يفارقها والأرض والماء مستقرَّان في جوف الفلك كالمُحَّة في جوف البيضة»[٢].

ونسب المَقْرِيزيُّ رحمه الله (ت٨٥٢) هذا القول إلى الجمهور[٣].

---

(١) المسالك والممالك لابن خُرْدَاذْبَه (ص: ٤).

(٢) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (١/ ٧).

(٣) ينظر: المواعظ والاعتبار بذكر الخِطط والآثار (١/ ١٩).

وأما ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقصيدته تدلُّ على أنه يرى أن التدوير طبيعة الأجرام السَّماويَّة، حيث يقول:

وَمِنْ هَيئَةِ الفَلَكِ المُسْتَدِيرِ ... وَقَفْتُ عَلَى حَدِّهِ المنْتَظَمْ
وَمَا فيهِ مِنْ فَلَكٍ دَائِرٍ ... وَمِنْ كوكَبٍ قَاطِعٍ كالعَلَمْ
فَأَكْبَرُهَا قَاصِدًا مَغْربًا ... وَسَائِرُهَا جِهَةَ الشَّرقِ أَمْ
إدارة رب لها منشئٌ ... يصرِّفُها أمرُهُ حيث حُم[1]
يُخالفُ ما بين أدوارِهَا ... على سَنَنٍ راتِبٍ مُسْتَتَمْ
لِيَعْلَمَ أهلُ النُّهى أنها ... مدبَّرةٌ لحكيمٍ حَكَمْ
وأنْ ليس تختارُ شيئًا ولا ... لها الحُكْمُ بَلْ لإلهِ الأُمَمْ
يُدِيرُ بأزمانها دهرَهَا ... فيثْبُتُ مبدؤُهَا للفَهِمْ
وتشهدُ أنَّ الذي صَاغَهَا ... هُوَ الواحِدُ الحَقُّ بارِي النَّسَمْ
هو الأولُ المبتَدِي خَلْقَهَا ... كما شاءَ إذْ شَاءَ فرْقٌ وَضَمْ[2]

وقد كاد ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يجزم بإجماع المسلمين في إثبات هذه القضيَّة حتى عقد فصلًا لذلك، فقال: «مطلب بَيَان كرويَّة الأَرْض... إن أحدًا من أَئِمَّة الْمُسلمين الْمُسْتَحقِّين لاسم الإِمَامَة بِالْعلمِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لم ينكروا تكوير الأَرْض، ولَا يُحفظ لأحد منهم في دَفْعه كلمة، بل الْبَرَاهِين من الْقُرْآن وَالسُّنَّة قد جَاءَت بتكويرها قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى

(١) أي: حيث قُدِّر لها أن تسير.

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) (ص: ٣٧٠، ٣٧١).

ٱلَّيۡلِ﴾ [الزمر: ٥]، وَهَذَا أوضح بَيَان فِي تكوير بَعْضِهَا على بعض، مَأْخُوذ من كور الْعِمَامَة، وَهُوَ إدارتها، وَهَذَا نَصٌّ على تكوير الْأَرْض ودوران الشَّمس كَذَلِك»(١).

وهاهو الإمام الرَّازيُّ رحمه الله (ت٦٠٦هـ) يقول:

«وَأَيْضًا الْأَرْضُ كُرَةٌ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَكُلُّ وَقْتٍ يُمْكِنُ أَنْ يُفْرَضَ فَهُوَ صُبْحٌ لِقَوْمٍ، وَظُهْرٌ لِثَانٍ، وَعَصْرٌ لِثَالِثٍ، وَمَغْرِبٌ لِرَابِعٍ، وَعِشَاءٌ لِخَامِسٍ، وَمَتَى كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَمْ تَكُنِ الْكَعْبَةُ مُنْفَكَّةً قَطُّ عَنْ تَوَجُّهِ قَوْمٍ إِلَيْهَا مِنْ طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِ الْعَالَمِ لِأَدَاءِ فَرْضِ الصَّلَاةِ، فَكَانَ الدَّوَامُ حَاصِلًا مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ»(٢).

وأما ابن تيمية رحمه الله فاسمع إليه يحدِّثك عن كرويَّة الأرض باعتبارها خبرًا مقطوعًا به، ثم يكلِّمك كأنما هو خبير جغرافيٌّ، ويحدِّث عن تقبيب الماء في الأرض وعدم سقوطه، وذلك قبل رحلة ماجلان، ونظرية نيوتن، وتخرصات أرباب الإفك والهذيان، فيقول:

«اعْلَمْ أَنَّ (الْأَرْضَ) قَدْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّها كُرَوِيَّةُ الشَّكْلِ، وَهِيَ فِي الْمَاءِ الْمُحِيطِ بِأَكْثَرِهَا؛ إذْ الْيَابِسُ السُّدُسُ وَزِيَادَةٌ بِقَلِيلِ، وَالْمَاءُ أَيْضًا مُقَبَّبٌ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لِلْأَرْضِ ... وَإِذَا كَانَتْ سَمَاءُ الدُّنيَا فَوْقَ الْأَرْضِ مُحِيطَةً بِهَا فَالثَّانية كُرَوِيَّةٌ، وَكَذَا الْبَاقِي... وَالْأَفْلَاكُ مُسْتَدِيرَةٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ؛ فَإِنَّ لَفْظَ (الْفَلَكِ) يَدُلُّ عَلَى الِاسْتِدَارَةِ، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] قال ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: فِي فَلْكَةٍ كَفَلْكَةِ الْمِغْزَلِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: تَفَلَّكَ ثَدْيُ الْجَارِيَةِ إذَا اسْتَدَارَ، وَأَهْلُ الْهَيْئَةِ وَالْحِسَابِ مُتَّفِقُونَ عَلَى ذَلِكَ»(٣).

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ٧٨).

(٢) تفسير الرازي (٨/ ٣٠١).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ١٥٠).

وأمَّا ابن خلدون رَحِمَهُ اللهُ فهو يورد هذه المعلومة مسلَّمة لا شية فيها فيقول: «اعلم أنه قد تبيَّن في كتب الحكماء النَّاظرين في أحوال العالم أنَّ شكل الأرض كُرَويٌّ»[1].

سبحانَ من رفعَ السماءَ بأمرهِ ... مِنْ غيرِ أعمدةٍ تكونُ عِمادًا

وكأنما هي خيمةٌ مضروبةٌ ... جعلَ الكواكبَ حولها أوتادًا[2]

نعود إلى المراحل الستِّ التي حدثتنا عن بداية خلق السَّمَوات والأرض، فقد تتساءل عمَّا رواه الطَّبريُّ رَحِمَهُ اللهُ عن ابن إسحاق رَحِمَهُ اللهُ خبرًا في خلق السَّمَوات والأرض يوافق هذه المراحل التي رتَّبتها هنا فيقول: «قال محمد بن إسحاق رَحِمَهُ اللهُ: كان أوّلَ ما خلق الله تبارك وتعالى: النُّورُ والظُّلمةُ، ثم ميَّز بينهما، فجعل الظُّلمة ليلًا أسود مظلمًا، وجعل النور نهارًا مضيئًا مبصرًا، ثم سمك السَّمَوات السَّبع من دُخان -يقال، والله أعلم، من دخان الماء- حتى اسْتَقْلَلْنَ ولم يُحْبَكْنَ، وقد أغطش في السَّماء الدُّنيَا ليلها، وأخرج ضُحاها، فجرى فيها اللَّيل والنَّهار، وليس فيها شمس، ولا قمر، ولا نجوم. ثم دحا الأرض وأرْساها بالجبال، وقدَّر فيها الأقوات، وبثَّ فيها ما أراد من الخلق، ففرَغ من الأرض وما قدر فيها من أقواتها في أربعة أيام. ثم استوى إلى السَّماء وهي دخان -كما قال- فحَبَكَهُن، وجعل في السَّماء الدُّنيَا شمسَها، وقمرَها، ونجومَها، وأوحى في كلِّ سماء أمرها، فأكمل خلقهنَّ في يومين، ففرغ من خلق السَّمَوات والأرض في ستَّة أيام، ثم استوى في اليوم السَّابع فوق سمواته، ثم قال للسَّموات والأرض:

(١) مقدمة ابن خلدون (ص: ٥١).

(٢) قائل البيتين مجهول. ينظر: غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات، (ص: ٤٦).

﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾ [فصلت: ١١] لِمَا أَرَدْتُ بِكُمَا، فَاطْمَئِنَّا عليه طوعًا أو كرهًا، قالتا: أتينا طائعين؟[(١)].

الجواب: تمَّت المراحل الستُّ كلُّها في ستَّة أيام، وتوافق هذا مع قوله -تعالى جده-: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾ [ق: ٣٨].. وبذا اجتمعت الآيات في صورةٍ واضحة ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢].

أما ابن إسحاق رَحِمَهُ اللَّهُ فقد أخبر أنَّ الله -جل ثناؤه- استوى إلى السَّماء -بعد خلق الأرض وما فيها- وهن سبع من دُخان، فسوَّاهن كما وَصف، وإنما استشهدنا لقولنا الذي قلنا في ذلك بقول ابن إسحاق رَحِمَهُ اللَّهُ، لأنه أوضح بيانًا من غيره -عن خلق السَّمَوات أنهن كُنَّ سبعًا من دخان قبل استواء ربِّنا إليها لتسويتها- وأحسنُ شرحًا لما أردنا الاستدلال به، من أن معنى السَّماء التي قال الله -تعالى ذِكْرُهُ- فيها: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩] بمعنى الجميع على ما وصفنا، وأنه إنما قال -جلَّ ثناؤه-: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٩] إذ كانت السَّماء بمعنى الجميع، على ما بيَّنَّا[(٢)].

وقد ذكر ابن إسحاق رَحِمَهُ اللَّهُ خلق النُّور والظُّلمة ابتداء -كما في العهد القديم- وذكر أنَّ الدُّخان الذي تكوَّنت منه السَّماء دخان الماء، ولا يوجد عندي في الوقت الحاضر تحققٌ لصحَّة هذه المقدِّمة من ابن إسحاق، وقد يشير إلى صِحَّة ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ

(١) تفسير الطبري، طبعة دار الحديث (١/ ٣١٤)، وقال إسلام منصور: «ضعيف؛ مداره على سلمة بن الفضل الأبرش الأنصاري ...ضعيف، والأسانيد إليه كلها ضعيفة، فسند المصنِّف هنا فيه محمد بن حميد الرازي ضعيف».

(٢) تفسير الطبري (١/ ٤٣٣).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [هود: ٧]، فكأن الماء مخلوقٌ قبلًا، وإن كان نظم هذه الآية من سورة هود ﷺ ما زال محتملًا(١).

وذهب بعض أهل العلم إلى أوجهٍ أُخر في الجمع بين الآيات، ومن هذه الأوجه:

ثم للتَّعظيم لا للتَّرتيب، ليبين ذلك ما بين الخلقين من التَّفاوت، وفضلَ خلقِ السَّموات على خلق الأرض،، وتقديم الأرض هنا لأنها أدلُّ؛ لشدة الملابسة والمباشرة(٢)، فليست ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي في الوقت كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البلد: ١٧]، «وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۢ بِنَمِيمٖ ١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ عُتُلِّۢ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ١٣﴾ [القلم: ١١-١٣] فَإِنَّ كَوْنَهُ عُتُلًّا وَزَنِيمًا أَسْبَقُ فِي الْوُجُودِ مِنْ كَوْنِهِ هَمَّازًا مَشَّاءً بِنَمِيمٍ؛ لِأَنَّهُمَا صِفَتَانِ ذَاتِيَّتَانِ بِخِلَافِ

---

(١) وللعلامة العَينيِّ في عمدة القاري (١٥/ ١٠٩) كلام نفيس في مسألة الجمع بين هذه الروايات التي تذكر الأوَّليَّة في الخلق، وذلك عند شرحه حديث النبي ﷺ: «كانَ الله ولَم يَكُنْ شَيْءٌ غَيرُه، وكَانَ عَرْشُهُ على الماءِ، وكتَبَ فِي الذِّكْرِ كلَّ شَيْءٍ وخَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ» قال: قَوْله: (وَكَانَ عَرْشه على المَاء)، أَي: لم يكن تَحْتَهُ إلَّا المَاء، وَفِيه دَلِيل على أَن الْعَرْش وَالْمَاء كَانَا مخلوقين قبل السَّمَوَات وَالْأَرْض. فَإِن قلت: بَين هَذِه الْجُمْلَة وَمَا قبلهَا مُنَافَاة ظَاهِرَة؛ لِأَن هَذِه الْجُمْلَة تدل على وجود الْعَرْش، وَالْجُمْلَة الَّتِي قبلهَا تدل على أنه لم يكن شَيْء. قلت: هُوَ من بَاب الْإِخْبَار عَن حُصُول الجملتين مُطلقًا، وَالْوَاو بِمَعْنى: ثمَّ... وَفِي قَوْله: وَكَانَ عَرْشه على المَاء، دلَالَة على أَن المَاء وَالعرش كَانَا مبدأ هَذَا الْعَالم لكَوْنهم خُلِقَا قبل خلق السَّمَوَات وَالْأَرْض، وَلم يكن تَحت الْعَرْش إِذْ ذَاك إِلَّا المَاء. فَإِن قلت: إِذا كَانَ الْعَرْش وَالْمَاء مخلوقين أَوَّلًا فَأَيُّهمَا سَابق فِي الْخلق؟ قلت: المَاء لما روى أَحْمد وَالتِّرْمِذِيّ مصححًا من حَدِيث أبي رزين الْعقيلِيّ مَرْفُوعًا: «إِن المَاء خلق قبل الْعَرْش»، وروى السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيره بأسانيد مُتعَدِّدَة: أَن الله تَعَالَى لم يخلق شَيْئًا مِمَّا خلق قبل المَاء. (فَإِن قلت) روى أَحْمد وَالتِّرْمِذِيّ مصححًا من حَدِيث عبَادَة بن الصَّامِت ﷺ مَرْفُوعًا: «أول مَا خلق الله الْقَلَم، ثمَّ قَالَ: اكتب، فَجرى بِمَا هُوَ كَائِن إِلَى يَوْم الْقِيَامَة»، وَاخْتَارَهُ الْحسن وَعَطَاء وَمُجاهد، وَإِلَيْهِ ذهب ابْن جرير وَابْن الْجَوْزِيّ ﷺ، وَحكى ابْن جرير عَن مُحَمَّد بن إِسْحَاق ﷺ أنه قَالَ: «أول مَا خلق الله تَعَالَى النُّور والظلمة...»، وَقيل: أول مَا خلق الله تَعَالَى نور مُحَمَّد ﷺ. قلت: التَّوْفِيق بَين هَذِه الرِّوَايَات بِأَن الأولية نسبي، وكلُّ شَيْء قيل فِيهِ إِنَّه أول فَهُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا بعْدهَا.

وذكر الطبري ﷺ في تاريخه (١/ ٣٤، وما بعدها) أن الأولى بالصَّواب قول من قال: القلم، ثم خلق سحابًا رقيقًا، وهو الغمام، ثم العرش. وقيل: خلق الماء قبل العرش.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ٢٢٣).

﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾»(١)، وبذا يتحقَّق المقصد القرآنيُّ في المحافظة على اللُّغة العربية: قيل ﴿ثُمَّ﴾ لا تدلُّ على التَّرتيب الزَّمَنيّ، بل على التَّرتيب الرُّتبيِّ الخبريِّ، وهذا أسلوبٌ عربيٌّ مبينٌ تجده مثلًا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، فالوقت الزَّمانيُّ للزَّبور ليس بعد القرآن الذي سمَّاه هنا (الذِّكْر)، وإنما يسمَّى هذا ترتيبًا ذِكريًّا، ومثله قول الشاعر:

إن الذي سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ثُمَّ سَادَ قَبْلَ ذَلكَ جَدُّهُ(٢)

وهذا المقصد -وإن صحَّ- لكنه لا يظهر لي هنا للوضوح الشَّديد في التَّرتيب الخَلْقيِّ في سورة فُصِّلت.

وربما تتساءل هنا عن الماء بالنِّسبة لخلق السَّموات والأرض، فمتى كان موعده؟

الجواب: الماء قبل خلق السَّموات والأرض:

هذا التَّجوال الماتع في الأفكار العلميَّة التي تقدِّمها لنا المعرفة القُرآنيَّة حول بداية الخلق الكونيِّ، وقد بيَّن النَّبيُّ ﷺ ترتيب خلق الكون بصورةٍ دقيقة؛ إذ يحدِّثنا عِمْرَان بن حُصَيْنٍ عن بداية خلق السَّموات والأرض في الحديث النبويِّ، فيقول: إِنِّي عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَهُ قَوْمٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ. فَقَالَ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ». قَالُوا: بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا. فَدَخَلَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ، إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ». قَالُوا: قَبِلْنَا. جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ، وَلِنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ مَا كَانَ. قَالَ: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّموات وَالأَرْض، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ». ثُمَّ أَتَانِي رَجُلٌ

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٨٣).

(٢) البيت لأبي نواس في ديوانه (ص: ٤٩٣)، ولفظه: (قل لم سَاد ثم ساد أبوهُ... قبله، ثم قبل ذلك جدُّهْ.

فَقال: «يَا عِمْرَانُ، أَدْرِكْ نَاقَتَكَ فَقَدْ ذَهَبَتْ، فَانْطَلَقْتُ أَطْلُبُهَا، فَإِذَا السَّرَابُ يَنْقَطِعُ دُونَهَا، وَايْمُ اللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّهَا قَدْ ذَهَبَتْ وَلَمْ أَقُمْ»(١).

هنا لا بدَّ أن نتساءل عن هيمنة القرآن على الكتب السَّابِقَة، فكيف تظهر هذه الهيمنة، وبها تظهر عظمة البيان القرآنيِّ الخاتم؟

والآية مع البيان النَّبويِّ أشمل وأكثر بيانًا في تعظيم جلال الله ﷻ مما ورد في أول سفر التَّكوين من التَّناخ:

١: ١ في البدء خلق الله السَّمَوات والأرض.

فلم يشر إلى موضوع الماء، بل أَوْهَمَ ما بعده أن الماءَ كان مع خلق الأرض، ولم يشر إلى تفصيل خلق السَّمَوات والأرض، بل مضى يتكلَّم عن تفاصيل ما خلق الله ﷻ في الأرض وما بينها وبين السَّماء فقط، فقال مثلًا:

١: ٢ وكانت الأرض خَرِبَةً وخالية، وعلى وجه الغَمْر ظُلْمة وروح الله يَرِفُّ على وجه المياه.

١: ٣ وقال الله: ليكن نور، فكان نورٌ.

١: ٤ ورأى الله النُّور أنه حسن، وفَصَلَ الله بين النور والظلمة.

١: ٥ ودعا الله النُّور نهارًا، والظُّلمة دعاها ليلًا، وكان مساءٌ، وكان صباحٌ يومًا واحدًا.

---

(١) البخاري (٧٤١٨)، وهنا نذكر حديثًا ورد عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه في وصف بدايات خلق ما على الأرض حيث قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِي فَقَالَ: « خَلَقَ اللهُ ﷻ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ عليه السلام بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فِي آخِرِ الْخَلْقِ، وَفِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ». مسلم (٧١٥٥) إلا أنني أتوقف في الجزم بصحته للاختلاف في رفعه وقطعه، ولذا قال ابن كثير رحمه الله (٢/ ٢١٥): «وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ غَرَائِبِ صَحِيحِ مُسْلِمٍ، وَقَدْ تَكَلَّمَ عَلَيْهِ عَلِيُّ ابْنُ الْمَدِينِيِّ، وَالْبُخَارِيُّ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْحُفَّاظِ، وَجَعَلُوهُ مِنْ كَلَامِ كَعْبٍ رحمه الله، وَأَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه إِنَّمَا سَمِعَهُ مِنْ كَلَامِ كَعْبِ الْأَحْبَارِ، وَإِنَّمَا اشْتَبَهَ عَلَى بَعْضِ الرُّوَاةِ فَجَعَلُوهُ مَرْفُوعًا، وَقَدْ حَرَّرَ ذَلِكَ الْبَيْهَقِيُّ»، وعلَّق شعيب الأرناؤوط على هذا الحديث فقال: «الأصحُّ أن هذا الحديث موقوف على كعب الأحبار، وليس من قول النبيِّ ﷺ».

وبعد أن بيَّن أنه خلق المخلوقات قال:

١ : ٢٥ فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها، والبهائم كأجناسها، وجميع دبَّابات الأرض كأجناسها، ورأى الله ذلك أنه حسن.

١ : ٢٦ وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلَّطون على سمك البحر، وعلى طير السَّماء، وعلى البهائم، وعلى كلِّ الأرض، وعلى جميع الدَّبَّابات التي تَدِبُّ على الأرض.

١ : ٢٧ فخلق الله الإنسان على صورته على صورة الله خلقه، ذَكَرًا وأنثى خلقهم.

١ : ٢٨ وباركهم الله وقال لهم: أَثْمِرُوا واكْثُرُوا واملؤوا الأرض، وأخضعوها، وتسلَّطوا على سمك البحر، وعلى طير السَّماء، وعلى كلِّ حيوان يَدِبُّ على الأرض[(١)].

وفي آخر ذلك قال:

٢ : ٢ وفرغ الله في اليوم السَّابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السَّابع من جميع عمله الذي عمل.

٢ : ٣ وبارك الله اليوم السَّابع وقدَّسه؛ لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقًا.

٢ : ٤ هذه مبادئ السَّموات والأرض حين خلقت يوم عمل الرَّبِّ الإله الأرض والسَّموات[(٢)].

وقد نقل البقاعيُّ رحمه الله في كتابه: "نظم الدُّرر" هذا الذي نقلته من سفر التَّكوين إلا أنك تجد بعض الاختلافات المعنويَّة واللَّفظيَّة بين ما رآه في وقته، وما ننقله الآن[(٣)].

---

(١) تفسير سفر التكوين، القس أنطونيوس فكري (ص: ١٣٧- ١٤٨).

(٢) تفسير سفر التكوين، القس أنطونيوس فكري (ص: ١٥٥).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ٢٦٣).

وموضوع الاستراحة موضوع موجع، فهو ينتقص من صفات الله ﷻ، فما مسَّ الله ﷻ من لُغُوب حتى يستريح، ولكن جفاء المحرِّفين يدفعهم إلى تغيير الألفاظ التي سمعوها إلى طريقتهم المجرمة في الكلام عن الله ﷻ، وصفاته، تعالى الله عما يقول الظَّالمون علوًّا كبيرًا.

هنا تشعر بالانبهار العظيم بالكتاب المهيمن الذي يوضِّح لك الصُّورَة الكاملة عن خلق السَّمَوات والأرض، كما يُظْهِر لك بقوَّة أنك ينبغي أن تعبد الله ﷻ الذي خلق لك ما في الأرض جميعًا، ودبَّر أمر السَّماء، فسوَّاهن سبع سموات، وهنا نعود إلى الأساليب والأدلَّة المقدَّمة لإقناعنا بوجوب أن نعبد الله ﷻ ونوحِّده، وهذا الدَّليل موجود في آخر هذا المحور، حيث يقول الله ﷻ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٢٩﴾، فكيف يدفعنا هذا الدَّليل إلى أن نؤمن بالله سبحانه وتعالى؟

الدَّليل السادس عشر: دليل العلم الشامل، ويُبَصِّرنا بذلك قوله -جلَّ ذكره-: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٩]

هاهنا يمكنك أن تقول للأدعياء من أدعياء الألوهِيَّة: ما الذي يؤهِّلكم لتكونوا آلهة؟ ما الذي جعلكم ترتكبون هذا الافتراء؟

هل خلقتم البعوضة؟ أم هل سخَّرتم الأرض، وتحكَّمتم بالسَّماء؟

بما أنكم عاجزون.. أخبرونا: هل تحيطون علمًا بالناس؛ حتى تزعموا أنكم لهم آلهة؟ فإن قالوا: نعم! إن وكالاتِ المخابراتِ تحصي أنفاس البشر، وعندها سِجِلَّات يتمُّ العلم من خلالها بكلِّ شيء.. عندها قولوا لهم: لكن هل تعلمون ما في الضَّمير؟ إننا ندعوكم إلى عبادة من هو بكلِّ شيء عليم، يعلم السِّرَّ وأخفى.. حتى خَلَجَات القلوب، وهمسات الضَّمير.. فمن يستطيع ادِّعاء أنه يمكنه أن يعلم كلَّ شيء؟! انظر كيف يضع الله ﷻ لنا أدلَّة حاسمة قاصمة.. ويحسم من خلالها استحقاقه لأَنْ يؤمن به المخلوقون ويعبدوه.

أشار القلبُ نَحْوَكَ والضَّميرُ ... وسِرُّ السِّرِّ أنت به خَبِيرُ
وإني إن نَطَقْتُ بكم أُنادِي ... وفي وقتِ السُّكون لكم أُشِيرُ
أيا من لا يُضافُ إليه ثَانٍ ... أَتَاكَ الوَالِهُ الصَّبُّ الفقيرُ
ولي أملٌ تحقِّقُهُ ظُنُوني ... ولي قلبٌ كما تدري يَطِيرُ
وإن تَمْنُنْ وتَمْنَحْني خَلاصِي ... فأنت عليه يا أَمَلِي قديرُ

الخاتمة

وبذا تكون هذه الآيات من [٢١-٢٩] قد استوفت الأدلَّة على استحقاق الله ﷻ لأن يؤمن به خلقه، وأن يعبدوه، وقد بدأت بالأدلة العقليَّة المادِّيَّة المشاهدة المحسوسة المنطقيَّة وهي السِّتَّة الأولى، ثم انتقلت إلى دليل عقليٍّ وهو السَّابع وهو دليل التَّحدِّي الجدليّ، ثم خاطب الله ﷻ العاطفة ترهيبًا وترغيبًا (الثَّامن والتَّاسع)، وليكمل الصُّورَة، ويحاصر التَّفكير الإنسانيَّ:

ذكر دليل صغار المخلوقات، ودليل مراحل الوجود الإنسانيِّ؛ ليتمَّ قياس الغائب على الشَّاهد، وبذا تكتمل الصُّورَة عندما يسمع الإنسان هذا الخطاب، فلا يملك مهما عاند إن أبقى مجالًا لعقله إلا أن يقول: يا ربِّ أذعنت، وأسلمت، وآمنت.

ولأنَّ العقل والأدلَّة المادِّيَّة كلَّها توصل إلى الحقيقة النَّاصعة: الإيمان بالله، تجد العلماء الذين يفتحون قلوبهم وعقولهم يعودون إلى مقتضيات عقولهم آخر الأمر.. وإنما كانوا شاردين عن ربِّهم ﷻ بسبب التَّحريفات الدِّينيَّة التي يجدونها في دياناتهم، أو بفعل الدِّعايات الملحدة التي تضطهد المؤمنين.. خذ هذا الأنموذج الأخير لتعلم عظمة قول ربِّك تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٨ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٢٩﴾ [البقرة: ٢٨-٢٩].. اسمع إلى هذا المثل الأخير:

نقل موقع (عربي٢١)[1] عن عالم الفيزياء الفلكيَّة البريطانيِّ (مارتن جون ريس) أنه وبعد إجراء سلسلة من البحوث، انتهى إلى أنَّ الكون لم يأت من عدم، وأنَّه مِنْ صُنعِ خالق.

---

(١) ينظر هذا المقال بعنوان: "عالم فيزياء فلكية بريطاني يعترف بوجود الخالق بعد رحلة بحث"، لأحمد الكاشف، بتاريخ ١/ ٥/ ٢٠١٥م، ورابط هذا المقال: https://www.arabi21.org/story/1003023/

وأوضح (ريس) أنه وبعد أن كان يعتبر نفسه غير متديِّن في السَّابق رغم ارتياده الكنيسة، إلَّا أنه لم يؤمن بالله عَجَلَّ **إلا بعد بحوثه والفتوح العلميَّة التي توصَّل إليها،** ودعا في هذه المناسبة العِلم والكنيسة إلى التَّعايش عوضًا عن المواجهة.

ونقلت "روسيا اليوم" عن (أناتولي أكيموف)[١] مدير معهد الفيزياء النَّظريَّة والتَّطبيقيَّة الرُّوسيِّ تذكيرَه بأن الكثير من العلماء البارزين على مرِّ التاريخ، خلصوا إلى أنَّ الكون قد وُجد بقدرة خالق، معيدًا إلى الأذهان التَّعاون الوثيق الذي قام في عهد إسحاق نيوتن بين العلم والكنيسة، وأن الكثير من الاكتشافات العلميَّة استندت إلى مُسَلَّمات دينيَّة.

وصلى الله تعالى وسلَّم على نبيِّنا السَّيِّدِ العبدِ المُنِيب محمَّدٍ، وعلى آله وصَحْبِه عَدَدَ خَلْقِهِ ورِضا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ ومِدَادَ كَلِمَاتِهِ.

والحَمْدُ لله ربِّ العالمين.

الفقير إلى ربِّه الغني جلَّ ذِكْرُهُ:

عبد السلام مقبل المجيدي

أستاذ القراءات والتفسير والدراسات القرآنية

كلية الشريعة/ جامعة قطر

s1435y@gmail.com

❁ ❁ ❁

(١) ينظر هذا القول في هذا الرابط: https://arabic.rt.com/world/876262-

فهرس الموضوعات

تقديم فضيلة الأستاذ الدكتور/ عبد الله علي الهتاري ٥

المحور الأول: الإعلان الإلهيُّ للبشريّة عن النِّظام الحقيقيِّ الوحيد للحياة الإنسانيّة الكريمة، وهو نظام العبادة الذي يؤدِّي إلى الفلاح وأرقى درجات السَّعادة، وبراهين ذلك [البقرة: ٢١-٢٩] ١١

الإعلان الأول: الإعلان الإلهيُّ العالميُّ للبشريّة عن نظام الحياة في الأرض [البقرة: ٢١] ١٥

الإعلان الثاني: البراهين، والمخاطبات الإقناعيّة على استحقاق الله للعبادة [البقرة: ٢١-٢٩] ٣٢

البراهين، والمخاطبات الإقناعيّة على استحقاق الله -تعالى مَجدُهُ- للعبادة [البقرة: ٢١-٢٩] ٣٢

أدلَّة الحياة السَّبعة ٣٥

الدَّليل الأول: دليل التَّربية، ويُبَصِّرنا بهذا الدَّليل قوله تعالى: ﴿رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] ٣٧

الدَّليل الثَّاني: دليل الخلق ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١] ٣٩

الدَّليل الثَّالث: دليل خَلْق من كان قبلنا إلى الإنسان الأوَّل: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١] .. ٤٧

الدَّليل الرَّابع: دليل الإقناع بالنَّتيجة المثلى المتوقَّعة من العبادة ٥١

الدَّليل الخامس: دليل المسكن ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ [البقرة: ٢٢] ٥٦

الدَّليل السَّادس: البناء العظيم المحيط بأهل الأرض ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ [البقرة: ٢٢] ٦٨

الدَّليل السَّابع: الأمن المائي المجَّاني ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ [البقرة: ٢٢] ٧٧

الدَّليل الثامن: دليل الرِّزْق والتَّغذية ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢] ٨١

الدَّليل التَّاسع: دليل التَّحدِّي، وإثبات النُّبوَّة: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ ...﴾ [البقرة: ٢٣]. ١١٦

البصائر التَّفصيليّة المحكمة التي تصوِّرها كلمات الآية ١٢٢

شروط تحدي المشركين أن يأتوا بمثل القرآن ١٢٢

الشَّرط الأوَّل للتَّحدِّي: المخالطة وعدم الاعتزال ١٢٢

الشَّرط الثاني: وجود الباعث على التَّحدِّي، وهو هنا الشكُّ المقلق.......................... ١٢٥

الشَّرط الثَّالث: استغرابهم من المنزَل وهو القرآن ذاته ١٢٦
الشَّرط الرَّابع: الغرابة من المنزَل عليه؛ حيث وصف الله عزّ وجلّ نبيَّه صلى الله عليه وآله ١٢٧
مراتب الإعلان عن التَّحدِّي بالقرآن الكريم: ١٥١
أوجه الإعجاز القرآنيِّ ١٧٤
الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: بيِّنة القالَب والمباني التي تميَّز بها النَّظْم القرآنيُّ ١٧٥
الوجه الثاني: المعاني المودعة في الجسد اللفظيِّ، الذي بلغ أَشُدَّه واستوى ١٧٧
الوجه الثالث: القرآن روح، وهنا يظهر الإعجاز النَّفْسيُّ ١٨٢
الوجه الرابع: إخباره عن الغيوب الماضية ١٨٧
الوجه الخامس: الإخبار عن الغيوب المستقبلة: ١٨٨
الْوَجْهُ السادس: سَلَامَتُهُ مِنَ التَّعَارُضِ وَالتَّنَاقُضِ وَالِاخْتِلَافِ مع طُولِهِ ١٩٠
الْوَجْهُ السابع: إعجازه العلميُّ المشتمل على العقائد، والتَّشريع ١٩٠
الْوَجْهُ الثامن: إعجاز القرآن بعجز الزمان عَنْ إِبْطَالِ شَيْءٍ مِنْه ١٩٠
الْوَجْهُ التاسع: الإعجاز الخبريُّ عن الغيوب العلميَّة التي تُكْتَشف لاحقًا ١٩١
موريس بوكاي والإعجاز القرآني ١٩٢
الوجه العاشر: سلامته من التَّحريف والتَّغيير اللَّفظيِّ والمعنويِّ ١٩٤
الوجه الحادي عشر: الانجذاب المذهل له ممَّن يسمعه ١٩٤
الوجه الثاني عشر: الإعجاز التَّربويُّ، حيث نقل أتباعَه عند تحكيمه إلى أعلى درجات الحضارة .. ١٩٥
الوجه الثالث عشر: العجز عن معارضته في الحال والاستقبال ١٩٦
الدَّليل العاشر: الإقناع بالتَّرهيب من عاقبة السُّوء في المستقبل لمن يغطِّي الحقائق ٢٠٧
البصائر التَّفصيليَّة لهذه الآية.. ٢١٠

الدَّليل الحادي عشر: الإقناع بالتَّرغيب بحسن العاقبة في المستقبل لمن يجمع الاعتقاد الصَّحيح، والعمل الصَّالح: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ...﴾ [البقرة: ٢٥]. ٢٢٢

الأصول المبشِّرات التي تضمَّنتها آية: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ٢٢٦

الدليل الثَّاني عشر: دليل صِغار المخلوقات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا﴾ [البقرة: ٢٦] ٢٦٣

المشهد الأول: قوَّة الدَّليل الثَّاني عشر في إيجاب أن يَعْبُدَ الإنسانُ اللهَ ربَّ العالمين ٢٦٤

Mosquitoes Have Flying Blood-Sucking Parasites of Their Own .. ٢٨٦

المشهد الثاني: هدى الكتاب حسب استقبال الألباب ٢٨٨

الفريق الأول: المؤمنون ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ [البقرة: ٢٦]. ٢٨٩

الفريق الثاني: الكفَّار ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾ [البقرة: ٢٦]. ٢٩٤

أصول صفات الفاسقين الضَّالِّين ٣١٥

الدَّليل الثَّالث عشر: دليل مراحل الوجود الإنسانيِّ ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]. ٣٤٤

مراحل الوجود الإنسانيِّ.. ٣٤٨

الدَّليل الرابع عشر: دليل تَسخير ما في الأرض ليتحقَّق الاستمتاع بالحياة ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ٢٩]. ٣٥٨

الدَّليل الخامس عشر: دليل الملك والحكم للمخلوقات العظيمة: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ [البقرة: ٢٩] ٣٦٧

خلاصة هادية في الجمع بين هذه الآيات التي ذكرت خلق السموات والأرض ٣٧٤

المراحل التي مرَّ بها خلق السَّموات والأرض ٣٧٤

الدَّليل السادس عشر: دليل العلم الشامل: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٩] ٣٩٥

فهرس الموضوعات ٣٩٨

للتعرف على مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية

امسح الرمز

الأُسْتَاذُ الدُّكْتُور عَبْدُ السَّلَامِ مُقْبِل المَجِيدِي

- رئيس مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية، ومؤسس مشروع تسوير السور القرآنية.
- أستاذ دكتور في قسم القرآن والسنة/كلية الشريعة/ جامعة قطر حاليًا، وجامعتي حضرموت وذمار سابقًا.
- شارك في تحكيم نحو **30** مسابقة دولية للقرآن الكريم في أنحاء متفرقة في العالم.
- أشرف وناقش العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه. في جامعات ذمار وحضرموت، وقطر وعمان.
- قدَّم عددًا من البرامج الإعلامية، والدورات العلمية والتدريبية في التفسير وعلوم القرآن في عدة دول.

بَصَائِرُ المَعْرِفَةِ القُرْآنِيَّة تَسْوِيرُ السُّوَرِ القُرْآنِيَّة مُفَصَّل تَفْسِير سُورَةِ البَقَرَة الجُزْءُ الثَّانِي

بَين يَدي المِحوَرِ الأوَّلِ مِنْ سُورَةِ البَقرة سَتجِدُ أخي القارئُ تِلكَ الأدِلَّةَ النَّاصِعَة، والآياتِ الجامِعَة، والبَصائِرَ النَّافِعَة، وسَترى وُجُوهًا بَديعةً مِنَ الإعْجازِ القُرآنيِّ، وتُدْرِكُ أنَّهُ رُوحٌ يَسْري في جَسَدِ كُلِّ مؤمنٍ مُصاحبٍ لَهُ، يُمِدُّهُ بالطَّاقةِ والنُّورِ والحَياة.

وسَترى بَصائِرَ القُرآنِ وهِيَ تفتحُ لكَ قَنَواتِ التَّواصُلِ والحِوارِ مع كُلِّ مُتَطرِّفٍ ومُعانِدٍ، وكافِرٍ وجاحِدٍ، وسَترى اختيارَ أعظمِ الكَلِماتِ الَّتي سَمِعَها -ولا بدَّ أن يَسْمَعَها- الإنسانُ في حَياتِه حتَّى يكونَ نِظامُ سَيْرِه مُعْتَدِلًا سَوِيًّا، كَمَا يُريدُهُ خالِقُهُ.

كَثيرةٌ هِي الأدِلَّةُ والبَراهِينُ العَقليَّةُ والمُخاطَباتُ والإقناعاتُ على استِحقاقِ اللهِ وَحْدَهُ لِلعِبادَة، والأدِلَّةُ في هذا المِحْوَرِ ظاهِرةٌ لكَ وأنتَ تُقلِّبُها سَتُطرِقُ برأسِكَ، وتُسَبِّحُ بِحمدِ رَبِّكَ مَلِكِ المُلُوكِ، وتَحْمَدُهُ أن اختارَكَ مُسلِمًا مُوَحِّدًا، وتَشْتَعِلُ فيكَ جَذْوَةُ التَّوحيدِ لِتَدُلَّ الخَلْقَ عَليه.

هُنا في هذا المِحْوَرِ نَسعَى جاهِدِين -بِعَونِ مَولانا الكَريمِ- أن نَصُوغَ لكَ التَّأمُّلاتِ الَّتي عِشناها مع هذا الجُزءِ مِن هذه السُّورَةِ المُبارَكة، والعَينُ مَفتُوحَةٌ عَلَى تَسْوِيرِ السُّورَةِ، حتَّى تَتَّضِحَ لكَ الصُّورَةُ كامِلَةً عَن هذا المَشْرُوعِ البَصائِريِّ المُزهِرِ، فإلى رِحابِ هذا النُّورِ، عَسَى أن تَجِدَ بُغْيَتَكَ مِنَ الخَيرِ والسُّرُورِ.

مكتبة الأسرة العربية ®
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة
UFUK neşriyat®
BASIN-YAYIN-DAĞITIM
بصائر المعرفة القرآنية
قرآن يتلى لإنسانية ترتقي
www.arabfamilybs.com
+90 212 631 8109
+90 555 028 1155
info@arabfamilybs.com